

الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة

تأليف

الدكتور أحمد هيكل

أستاذ الأدب بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

١٩٨٥



دارالمعارف

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
٣	الإهداء
٥	مقدمة

تمهيد

١١	الأندلس والأندلسيون
١٣	١ - اسم الأندلس
١٦	٢ - لمحة جغرافية
٢١	٣ - إسبانيا قبل المسلمين
٢٤	٤ - المسلمون في إسبانيا
٣٠	٥ - المجتمع الأندلسي
٣٠	(أ) العناصر البشرية في الأندلس
٣٣	(ب) أصل الأندلسيين
٣٧	(ج) الديانات في الأندلس
٣٩	(د) اللغات في الأندلس
٤٩	(هـ) الشخصية الأندلسية

الفصل الأول

٥٧	فترة الولاية
٥٨	١- فترة منازعات وحروب
٥٩	٢- مجتمع مفكك قلبي
٦٠	٣- الأئمة الأولى للثقافة الإسلامية
٦١	٤- البذور الأولى للأدب العربي
٦١	(١) الشعر
٦٤	(ب) النثر
٦٧	٥- الأدب المنسوب إلى طارق

الفصل الثاني

٧٣	فترة تأسيس الإمارة
٧٤	١- في سبيل استقرار سياسي
٧٦	٢- في سبيل مجتمع أندلسي
٧٨	٣- أولية الثقافة الأندلسية
٨٠	٤- أولية الأدب الأندلسي
٨١	أولاً - الشعر
٨١	(١) الاتجاه المحافظ
٨٤	(ب) عوامل المحافظة
٨٦	(ج) السمات الخاصة

الصفحة	الموضوع
٨٦	التجديد الموضوعي
٨٧	التجويد الفني
٨٩	التركيز العاطفي
٩١	(د) الشعراء
٩٢	عبد الرحمن الداخل
٩٨	أبو الخشبي
١٠٢	الحكم بن هشام
١٠٥	عباس بن ناصح
١٠٧	حسانة التميمية
١١٠	ثانياً - النثر

الفصل الثالث

١١٥	فترة صراع الإمارة
١١٦	١ - في مهب الأحداث
١١٩	٢ - المجتمع يتحرر ويتحضر
١٢٠	زرياب
١٢٣	٣ - وثبة الثقافة
١٢٦	٤ - وثبة الأدب
١٢٧	أولاً - الشعر
١٢٧	(١) معرفة الاتجاه الحديث

الصفحة	الموضوع
١٣٠	دواعى التجديد
١٣٣	(ب) نمو الاتجاه القديم
١٣٣	مناصرة العنصرية
١٣٦	وصف المعارك الحربية
١٣٧	التوجه إلى الرؤساء المنفصلين
١٣٨	(ج) اختراع الاتجاه الشعبى (الموشحات)
١٣٩	بناء الموشحة
١٤٣	نشأة الموشحات
١٤٤	مخترع الموشحات
١٤٧	أساس الموشحات
١٥٠	تطور الموشحات
١٥٢	(د) الشعراء
١٥٣	يحيى الغزال
١٦٦	سعيد بن جردى
١٧٠	ثانياً - النشر

الفصل الرابع

١٧٥	فترة الخلافة
١٧٦	١ - العهد الذهبى للحكم الأندلسى
١٨١	٢ - الأندلسيون فى ظلال الرقابة
١٨٤	٣ - نهضة الثقافة

١٩٤

٤ - نهضة الأدب

١٩٤

أولاً - الشعر

١٩٤

(أ) ظهور الاتجاه المحافظ الجديد

٢٠٩

(ب) تطور الاتجاهات السابقة

٢١٤

(ج) تسرب بعض الأفكار العلمية

٢١٧

(د) الازدواج اللغوي

٢١٩

(هـ) تصوير العهد الذهبي

٢٢٢

(و) الشعراء

٢٢٣

ابن عبد ربه

٢٣٣

ابن هاني

٢٤٧

ثانياً - النثر

٢٤٧

(أ) النثر الخالص

٢٥٤

(ب) النثر التأليفي

٢٥٦

العقد القريني

الفصل الخامس

٢٦٣

فترة الحجابة

٢٦٤

١ - فترة حكم استبدادي

٢٦٨

٢ - فترة تحلل اجتماعي

٢٧٠

٣ - فترة تقييد الثقافة

الصفحة	الموضوع
٢٧٣	٤ - فترة جمود الأدب
٢٧٣	أولاً - الشعر
٢٧٤	(أ) المحزون
٢٧٦	(ب) المدح
٢٧٨	(ج) الوصف
٢٨٠	(د) النقد السياسي
٢٨١	(هـ) الاستعطاف
٢٨١	(و) الشعراء
٢٨٣	الرمادى
٢٨٨	شعره
٢٨٩	أنجاهه
٢٩١	مستواه
٢٩٧	سماته
٣٠٢	القسطلى
٣٠٨	شعره
٣١١	أغراضه
٣٢١	فنه وسماته
٣٣٠	منزلته
٣٣٣	ثانياً - النثر

الفصل السادس

فترة الفتنة

٣٤١	١ - السياسة بين الانقلابات والاضطرابات
٣٤٢	٢ - المجتمع بين الضياع والمرارة
٣٤٨	٣ - الثقافة بين الجزر والمد
٣٤٩	ابن حزم
٣٥١	ابن حبان
٣٦٠	٤ - الأدب بين الهروب والمراجعة
٣٦٣	أولاً - الشعر
٣٦٤	الشعراء
٣٦٧	أبو عامر بن شهيد
٣٦٧	شعره
٣٧١	ثانياً - النثر
٣٧٧	(أ) النثر الخالص
٣٧٧	رسالة التواضع والزواج
٣٧٧	بين التواضع والزواج ورسالة الغفران
٣٨١	أصل هذا النوع من القصص هو قصة المعراج
٣٨٥	أثر قصة المعراج في الكوميديا الإلهية
٣٨٥	أسلوب الرسالة
٣٨٧	(ب) النثر التأليفي
٣٩٠	

الصفحة	الموضوع
٣٩٠	آراء نقدية لابن شهيد
٣٩٥	طوق الحمامة
٤٠١	مراجع الكتاب
٤٠١	أولاً - المراجع العربية
٤٠١	(أ) المخطوطات
٤٠١	(ب) المطبوعات
٤٠٧	ثانياً - المراجع الأوربية
٤٠٩	فهرس الكتاب

١٩٨٥ / ٥٩٧٥	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٧-١٤٤٠-X	التزقيم الدولي

٣ / ٨٥ / ٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج.ع.م.ع.)

إهداء

إلى

الدكتور طه حسين و الأستاذ إبراهيم مصطفى

أستاذي الجليلين . ليس أحد أجدر منكما بأن يهدي إليّ هذا الكتاب ، فأولكما
قد أسس المدرسة الأندلسية في بلادى ، حين ألف أول بعثة مصرية تطلب العلم في
إسبانيا ، وثانيكما قد رشحني عن دار العلوم عضواً في هذه البعثة . . . فلكم الدراسة
وصاحبها مدينان لكما ديناً لا يقضيه كتاب يهدى ، ولا ثناء يقام .

فأقبلا هذا العمل المتواضع ، لعل رضاكما عنه ، يخفف بعض دين صاحبه .

أحمد هيكال

مقدمة

عاش الأدب العربي في الأندلس نحو ثمانية قرون، وتأثر بتلك البيئة التي عاش فيها ، وأثر في بيئته وفيها جاورها من بيئات. وليست تلك القرون الطويلة بالزمن المين في تاريخ أدب ، وليست الأندلس ببيئتها الطبيعية وظروفها الاجتماعية والسياسية ، بالشئ الذي يمكن إغفاله في درس هذا الأدب ، وأخيراً ليس التأثير الذي كان للأدب الأندلسي فيها جاوره من آداب ، بأقل خطراً من كل ما تقدم .

ومن هنا ، وجبت العناية بدرس هذا الأدب ، وفاء بحق ما يقرب من ثمانية قرون من تاريخ الأدب العربي . ووجبت العناية بدرسه كذلك ، تقديراً لآثار إقليمية لها فاعليتها في حياة هذا الأدب ، ثم وجبت العناية بدرسه أيضاً توضيحاً لنفحات عربية إسلامية حملت إلى بعض الآداب الأوروبية أريجها العطر .

وعلى الرغم من هذا كله ، قد لقي الأدب الأندلسي كثيراً من إهمال الدارسين في عالمنا العربي ، مع وفرة وجوده ما كتبوا عن أدب المشرق، منذ جاهليته إلى عصره الحديث، ومن مهده في جزيرة العرب إلى أقاليمه المختلفة، في العراق والشام ومصر . وقد يكون إعراض بعض هؤلاء عن درس الأدب الأندلسي ، بحجة أنه لم يأت بجديد ، وأنه ليس إلا صورة للأدب المشرق أو محاكاة له . ولكننا إذا سلمنا جدلاً بهذا الحكم - مع أنه غير صحيح - فنحن أن نسأل : هل يشترط لإدراة أدب إقليم أو عصر ، أن يكون مغايراً تماماً لأدب أى إقليم أو عصر آخر ؟ أو ليس على أى حال أدباً يستحق الدرس بصرف النظر عن مغايرته أو مماثلته لغيره ؟ ثم أليس الدرس وحده هو الذى سيوضح لنا لماذا

جاء هذا الأدب دون جديد ، أو لماذا جاء على صورة غيره أو محاكياً له ، إن صح أن ذلك له حظ من الصحة ؟

وليس معنى ذلك أن أقلام الباحثين في عالمنا العربي قد ولت ظهورها تماماً لهذا الميدان ؛ فالحق أن أقلاماً قد خاضته في جراءة ، فأبلى بعضها وأخفق بعضها . وعلى أية حال فأغلب الدراسات التي أرخت لأدب الأندلس . قد جاءت دراسات إما موجزة وإما ناقصة وإما أقرب إلى موضوعات الإنشاء .

والسبب في الإيجاز رغبة بعض الباحثين ، في التأريخ للأدب الأندلسي كله في كتاب واحد . ومن هنا تغفل حقائق كثيرة . وتتوارى أمور كانت بحاجة إلى الظهور .

أما السبب في النقص ، فاعتقاد بعض الدارسين خطأ أن الأدب الأندلسي ليس إلا أدباً عباسياً يجب أن يدرس في عصر بني العباس ، ومن ثم يكتفى بالأمور العامة على السطح . حيث يتحدث عن الطبيعة ومجالس اللهو أو شيء يقرب من ذلك ، ثم يترجم لنفر من الشعراء ، وربما يضاف إليهم نفر من النثرين ، وهكذا يظن أن ذلك تأريخ للأدب الأندلسي .

أما أسوأ ما يكتب عن هذا الأدب فهو الصنف الأخير من هذه الأصناف ، وهو صنف موضوعات الإنشاء . وقد لجأ إليه بعض من تصدوا لتأريخ الأدب الأندلسي ، متوهمين أنه متى ذكر النسيم والورد والحدول والتبع ، ومتى حشرت ألفاظ الرقة والعدوبة والترقوق والسلاسة ؛ كان هذا حديثاً عن أدب الأندلس !!

وربما كان المستشرقون — إلى اليوم — أقرب إلى المنهج وأكثر اعتماداً على الحقائق ، فيما كتبوه عن الأدب الأندلسي . ومع ذلك فتأريخهم له — برغم منهجيته وحقائقه — لا يزال يتسم بالإجمال والاقتضاب والسرعة . ولهذا أمكن القول بأنه إلى اليوم ، لم يظهر

تاريخ منهجي مفصل للأدب الأندلسي .

ولقد شاء الله أن أخصص في هذا الفرع من فروع الأدب العربي ، وأن تكون دراساتي العليا وفقاً عليه ، وأن يكون مقر هذه الدراسات هو إسبانيا موطن هذا الأدب حيث نشأ وتطور ، وحيث تنال دراسته عناية كبيرة . كذلك شاء الله أن يرتبط عملي الجامعي بهذا الفرع من فروع المعرفة ؛ إذ أسند إلى تدريس الأدب الأندلسي في كلية دار العلوم ، منذ سنة ١٩٥٥ .

ولهذا كله رأيت أن أضطلع بدراسة منهجية مفصلة للأدب الأندلسي ، أتناوله فيها منذ دخول المسلمين إلى إسبانيا ، وأتبعه خلال عصورهم المختلفة فيها ، وأحدد ما قد يكون له من اتجاهات فنية ، وأبحث عما قد يغذيه من رواقد مشرقية ، وأكشف عما قد يخالطه من منابع مغربية . كل ذلك مع الترجمة لمشاهيره والتعريف بروائعه ، ثم رسم خصائصه وتحديد معالمه ، وبيان صلته بالآداب الأوربية التي جاورته أو اتصلت به .

وقد عازمت على أن تتم هذه الدراسة مسترشدة - ما أمكن - بالعصور المميزة في تاريخ الأندلس . حيث أخرج كتاباً عن «الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة» ثم آخر عن «الأدب الأندلسي في عصر الطوائف» ثم ثالثاً عن «الأدب الأندلسي في عهدي المرابطين والموحدين» ثم رابعاً عن «الأدب الأندلسي في العهد الغرناطي» ثم خامساً عن «خصائص الأدب الأندلسي وتأثيره في الآداب الأخرى» .

ويلاحظ أني سأقرب في تقسيمي للعصور الأدبية الأندلسية من التقسيم السياسي التاريخي لهذا الإقليم . ولست أجهل أن ذلك التقسيم غير دقيق ، ولست أجهل أيضاً أن الأدب لا يتغير بمجرد قيام دولة وسقوط أخرى ، ولكني قربت من هذا التقسيم لتحديد معالم الطريق أولاً ، ولارتباط الأدب العربي بالدول والسياسات ثانياً . على أني - كما سيرى - لن أترجم بالتقسيم الذي سار عليه المؤرخون ، وسوف أختار أنسب التقسيمات

وأقربها إلى التأثير في الأدب . لهذا سأتناول في هذا الكتاب الأول تاريخ الأندلس الأدبي من الفتح إلى سقوط الخلافة ، مع كون هذه الحقبة من تاريخ الأندلس تمثل عصرين مختلفين : العصر الأول هو ما يسمى بعصر الولاة ، وهو الذي يبدأ بالفتح الإسلامي ، وينتهي بإقامة عبد الرحمن الداخل للدولة بني أمية في الأندلس . أما العصر الثاني فهو ما يسمى بعصر بني أمية ، وهو الذي يبدأ بقيام عبد الرحمن الداخل بالأمر ، وينتهي بسقوط الخلافة الأموية في الأندلس ، وقيام الحكم الجمهوري في قرطبة على يد ابن جهور .

وإنما جمعت هذين العصرين في دراسة ، لأن الأول منهما ليس إلا مقدمة للثاني . وإنما وقفت عند سقوط الخلافة ، لأن سقوطها يقيم دولة جديدة لها خصائصها السياسية والاجتماعية والثقافية ، التي من شأنها أن تنتج أدباً ربما غاير الأدب السابق بعض المغايرة . ولعدم التزمى للتقسيم السياسي المعروف ، ولكوفي أنظر إلى الدول وسياساتها كمؤثر فقط من المؤثرات الكثيرة التي تصيب الأدب ؛ رأيت أن العصر الأموي طويل ، وقد اختلفت أحوال الأندلس فيه اختلافاً ليس باليسير . وكان هذا الاختلاف يحدث بين فترة وأخرى من فترات هذا العصر الأموي ، فيمس النواحي السياسية والثقافية والاجتماعية جميعاً . من أجل هذا رأيت أن أقسم هذا العصر الأموي إلى فتراته المميزة المختلفة ، حسب الأدوار التي مر بها إبان هذا التاريخ الطويل . وعلى هذا قسمته إلى تلك الفترات : فترة تأسيس الإمارة ، وفترة صراع الإمارة ، وفترة الخلافة ، وفترة الحجابة ، وأخيراً فترة الفتنة . وقد جعلت لكل فترة من تلك الفترات فصلاً . فإذا تذكرنا أنه سيسبقها فصل عن فترة الولاة ؛ تبين أن فصول هذا الكتاب الأول ستكون ستة ، كل فصل منها سيتناول تاريخ أدب فترة مميزة .

ولا كان الأدب — كنشاط إنساني في — متأثراً لا محالة بما يحيط به من ظروف

سياسية واجتماعية وثقافية ؛ رأيت أن أصور كل فترة أولا من التوسيع السياسي والاجتماعي والثقافية ما أمكن ، ثم أتبع ذلك بالحديث عن الأدب كنتيجة أو كظاهرة متأثرة بكل ما سبق .

وقبل أن أشرع في تلك الفصول الستة التي تتحدث عن تاريخ أدب الأندلس إلى سموط الخلافة ، سأمهّد بتحليل « اسم الأندلس » ثم بإيراد « لمحة جغرافية » تصور طبيعة هذه البلاد ، ثم أتبع ذلك بعرض تاريخي سريع « لإسبانيا قبل المسلمين » ثم « للمسلمين في إسبانيا » ، ثم أختتم هذا التمهيّد بتصوير « المجتمع الأندلسي » من حيث عناصره البشرية ودياناته ولغاته وشخصيته ؛ ليكون ذلك بمثابة المدخل لهذا التاريخ المبسط للأدب الأندلسي ، الذي أرجو أن أضطلع به ، ثم ليقبل القارئ على هذا البحث الأدبي وبين يديه ما يلقى ولو بعض الضوء ، على ما قد يكون بين السطور من غموض .

وقبل أن أختتم هذه المقدمة أنبه إلى أن بعض المشتغلين بالدراسات الأندلسية ، يرى عدم جدوى التاريخ العام للأدب الأندلسي في الوقت الحاضر ؛ وذلك لقلّة النصوص ، وخاصة ما يتصل منها بالفترات الأولى لتاريخ المسلمين في الأندلس . وهم يرون الاكتفاء بالأبحاث الجزئية التي تتناول موضوعاً خاصاً ، أو ظاهرة معينة ، أو أديباً بارزاً أو كاتباً كبيراً ، ونحو ذلك . والحق أن النصوص التي يعتمد عليها دارس تاريخ أدب الأندلس قليلة نسبياً ، وعلى الأخص تلك التي تتصل بالفترات الأولى من تاريخ الأندلس ؛ وذلك لكثرة ما ضاع من تراث المسلمين في تلك البلاد ، بل لكثرة ما أنت عليه أيدي الإتلاف والإبادة من المسيحيين والمسلمين على السواء . لكن كل ذلك - في رأيي - لا يصح أن يكون حائلاً دون عمل تاريخ منهجي للأدب الأندلسي ؛ فقلة النصوص وعدم وفرة المواد ، لا يصح أن توقف العلماء عن البحث في أديبهم بحثاً تاريخياً عاماً ، يعتمد فيه على الموجود من النصوص ، ولا يعطى الحكم الأخير في مسألة من المسائل

التي نقل أسانيدھا أو لا تتوافر أدلتھا . إننا لو تركنا التاريخ للأدب الأندلسي حتى
تكتشف كل النصوص المخطوطة والمدفونة ، وحتى يعثر على الضائع منها ويجمع المتفرق ؛
فلن نؤرخ لهذا الأدب أبداً ؛ لأن شيئاً من تلك النصوص سيظل دفيناً أو ضائعاً أو مفوقاً
حتماً .

ولو انتظر من قد أرخوا لأدب المشرق حتى تظهر كل نصوصه لما كتبوا شيئاً عن
تاريخ الأدب العربي في الجاهلية أو الإسلام . إن الواجب أن ندرس ما بين أيدينا
ونؤرخ على أساسه ، على أن نعتبر ذلك خطوة يجب أن تليها خطوات ، ويجب أن نستفيد
في كل خطوة من كل مخطوط ينشر ، ومن كل نص يعرف-، ومن كل بحث خاص
يقدم ، وسبيلنا إلى ذلك أن نبحث عن النصوص دائماً ، نحققها وننشرها ثم نعلم عليها
فيما نكتب من تاريخ أدب . وهكذا يأتي كل بحث في هذا التاريخ الأدبي أوفى وأكمل
وأشمل من سابقه ، بل تأتي كل طبعة من طبعات التاريخ الواحد أكثر حقائق ، وأصح
أدلة ، وأصدق أحكاماً .

وعلى هذا مضيت في هذا العمل برغم ما يتطلبه من جهد مضن ، وتنقيب متصل
وبحث صابر .

وقد سألت الله : أن يجعل هذا العمل خالصاً له ، وأن يعين عليه ، وأن ينفع به .

المؤلف

القاهرة ١ ربيع الأول سنة ١٣٧٨
١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٨

تمهيد
الأندلس والأندلسيون

١ - اسم الأندلس :

لم تُعرف شبه الجزيرة التي تشمل حالياً دولتي إسبانيا والبرتغال باسم الأندلس ، قبل أن تعرف المسلمين ، وإنما عرفت في أقدم عصورها باسم إيبيريا Iberia نسبة إلى الإيبيريين Los Iberos الذين كانوا من أقدم من سكن هذه البلاد من البشر .

ثم عرفت شبه الجزيرة بعد ذلك باسم إسبانيا ، وهذا الاسم Hispania قد أطلقه الرومان على شبه الجزيرة حين حكموها ، وقد استنبطوه من تعبير فينيقي ، كان الفينيقيون قد أطلقوه من قبل على الشاطئ الذي نزلوا به من تلك البلاد ، حين اتصلوا ببعض جهاتها قبل الرومان ؛ وهذا التعبير الفينيقي i-schephan-im يعني « شاطئ الأرانب » . ويقال في تحليل ذلك : إن الفينيقيين قد صادفوا كثيراً من الأرانب على الشاطئ الإيبيري الذي نزلوا به^(١) .

كذلك كان الجزء الجنوبي من إسبانيا يسمى باسم « بتيكا » Betica وكان ذلك في العهد الروماني ، ثم سمي باسم « فندلسيا » Vandalisia حين سكنه الوندال بعد الرومان على ما سنوضح فيما بعد .

فلما جاء المسلمون بعد ذلك أطلقوا على شبه الجزيرة جميعاً اسم الأندلس ، وظل مؤرخوهم وجغرافيوهم وسائر علمائهم وأدبائهم يستعملون هذه التسمية ويفضلونها حين يريدون شبه الجزيرة الإيبيرية .

وأرجح الآراء أن هذا الاسم قد أتخذه المسلمون من « وندلس »^(٢) Vandalos ، وهو اسم لبعض القبائل الأوربية الشمالية ، التي أثارَت في أوائل القرن الخامس الميلادي

Aguado Bleye : Historia de Espana, p. 53.

(١)

Levi Provençal : Espaná musulmana, p. 44.

(٢)

على ممتلكات الرومان ، وكان هؤلاء « وندلس » — أو كما تعود كثير من الباحثين تسميتهم بالوندال — قد وصلوا إلى جنوب إسبانيا وسموه باسم « فندلسيا »^(١) نسبة إليهم . فلما جاء المسلمون فيها بعد وعرفوا ما كان من أمر الـ « وندلس » بتلك البلاد سموها « بلاد الأندلس » ، وكانهم أضافوا تلك البلاد إلى هؤلاء الذين حكموها من قبل واشتهر أمرهم بها . وكل الذي فعله المسلمون من تغيير في اسم « وندلس » هو همز الصوت الأول ، ومن هنا أصبحت الكلمة أندلس ، بدلا من وندلس .

ويمكن أن يقال : إن الكلمة مرت بمراحل صوتية ثلاث . الأولى « فندلس » كما تدل صورة الكلمة في حروفها اللاتينية ، وكما يدل كذلك النطق الإسباني للكلمة Vandalos . والمرحلة الثانية « وندلس » كما يدل عليها نطق الكثيرين للكلمة بالواو بدلا من « الفاء » المجهورة التي يرمز إليها عادة بالحرف « V » . وهذا ليس بغريب في التطور الصوتي ، فكثير من الكلمات قد حدث له هذا التطور ، وبناء عليه أصبح ينطق الحرف المجهور « V » واوا لا فاء مجهورة كما يدل رسمه .

والتطور الأخير ، هو الذي أحدثه المسلمون حين قالوا : « أندلس » لا « فندلس » ولا « وندلس » وهو تطور مألوف أيضاً . فالهمزة تأتي أحيانا بدلا من الواو في العربية ، مثل : وُجُوهُ وأُجُوهُ ، جمع وجه .

وقد بقي اسم « الأندلس » الذي أطلقه المسلمون على شبه الجزيرة ، ولم يخرج بخروجهم ، ولكنه قد أصاب شيئا من التطور في لفظه ، وشيئا من التطور كذلك في معناه . أما اللفظ فقد أصبح في اللغة الإسبانية « أندلُثيا » Andaluçia ، بدلا من أندلس . وأما المعنى فقد صار جنوب شبه الجزيرة فقط ، بعد أن كان شبه الجزيرة جميعاً .

والأقاليم التي يشملها اسم « أندلثيا » الآن في إسبانيا هي المريّة ، وغرناطة ،

(١) أو « فندلسيا » .

ومالقة ، وجيَّان ، وقُرطبة ، وإشبيلية ، وقادس ، وأوثبة .^(١)

ولعل من المكمل لهذا الحديث أن نذكر أن بعض المؤرخين القدامى قد أوردوا تعليقات أخرى لتسمية شبه الجزيرة الإيبيرية باسم الأندلس . فمن ذلك ما نقله المقرئ عن ابن سعيد من أن تلك البلاد « سميت بالأندلس ابن طوبال بن يافث ابن نوح لأنه نزلها »^(٢).

وليس يخفى ما في رأى ابن سعيد من تعليل أسطوري أبعد ما يكون عن الحقيقة . ومن المؤرخين العرب القدامى الذين اهتموا إلى التعليل العلمى الصحيح ، أحمد بن محمد الرازى الذى نقل عنه المقرئ قوله « وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام . . . قوم يعرفون بالأندلس معجمة الشين ، بهم سمي المكان ، فعرب فيما بعد بالسين غير المعجمة »^(٣). فهذا تعليل يطابق أحدث التعليقات العلمية المبينة على أسس تاريخية ، وإن كان الرجل قد حسب أن هؤلاء الناس كانوا أول من سكن البلاد .

أما قوله : إن أصلها بالشين فسببه — فى رأى — أن السين أو الحرف S ينطق كثيراً فى اللسان الإيبانى بين السين والشين ، لكن العرب ينطقونها سيناً خالصة . فكان الإيبان كانوا ينطقون الكلمة ذات سين مشربة بالشين ، فلما جاء المسلمون نطقوا سينها واضحة لا أثر للشين فيها .

(١) هذه الأقاليم تسمى بالإسبانية على هذا النحو :

Almeria, Granada, Malaga, Jaen, Cordoba, Sevilla, Cadiz, Huelva.

ويلاحظ أن الحرف J الذى فى أول الكلمة Jaen ينطق خاء ، وهو كذلك دائماً فى اللغة الإسبانية . ويلاحظ أن الحرف Z الذى فى آخر الكلمة Cadiz ينطق ثاء وهو كذلك دائماً فى الإسبانية . كذلك يلاحظ أن الحرفين L و LL فى آخر الكلمة Sevilla ينطق أولهما لا ما ، والثانى ياء .

(٢) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٦٣ .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٦٦ .

وشبيه بالتعليل الأسطوري الذي ذكره ابن سعيد لإطلاق كلمة الأندلس على شبه الجزيرة ، ما ذكره بعض المؤرخين القدامى في سبب إطلاق كلمة إسبانيا على تلك البلاد ؛ فقد ذكر أنها سميت بهذا الاسم لأن عجم رومة قد ملكوها ، وكان ملكهم إشبان بن طيطش ، وباسمه سميت الأندلس إشبانية^(١) . فالصحيح أن الكلمة قد أطلقها الرومان على تلك البلاد ، ولكن لا أخذاً من اسم ملكهم إشبان الذي لا يعرف التاريخ عنه شيئاً ، بل أخذاً من عبارة فينيقية معروفة كان الفينيقيون قد أطلقوها على الشاطئ لإيبري حين نزلوا به .

٢ - شحة جغرافية :

بلاد الأندلس شبه جزيرة تقع في الجنوب الغربي من أوروبا . والمياه تطوف بها من كل جوانبها ، عدا جانباً واحداً هو الشمالى الشرقى ؛ حيث تحدها جبال البرانس^(٢) الفاصلة بينها وبين فرنسا . أما تلك الأمواه التى توشك أن تطوق الأندلس ، فهى مياه البحر الأبيض من الشرق ، ومياه المحيط الأطلسى من الغرب والشمال الغربى . ثم مزيج من مياه البحر والمحيط فى الجنوب حيث مضيق جبل طارق^(٣) ملتقى البحر بالمحيط ، والفاصل الضيق بين شمال إفريقيا وجنوب إسبانيا ، فهذا المضيق يبلغ عرضه فى أضيق مواضعه خمسة عشر كيلو متراً تقريباً ، ولولاها لاصقت إفريقيا من الشمال أوروبا من الجنوب .

(١) المقرئ : نفتح الطيب ، ج ١ ص ٦٧ .

(٢) يسميها العرب أيضاً : البرتات . وهو من غير شك جمع عربى للكلمة الإسبانية Puerto بمعنى منفذ أو مدخل ، وذلك لأن تلك الجبال ذات ممرات تصل بين فرنسا وشبه الجزيرة .

(٣) هذا الاسم أطلق على المضيق بعد أن عبره طارق بن زياد من المغرب إلى الأندلس ، واسمه العربى قبل ذلك بحر الزقاق وكثيراً ما يستعمل حتى بعد الفتح ، ولكن الأوربيين لا يزالون يستعملون اسم جبل طارق لهذا المضيق ، فيقول الإسبان مثلاً Gibraltar .



ويؤلف سطح شبه الجزيرة عناصر أهمها : الهضبة الكبرى التي تسمى « مسينا » Meseta وهي تشغل جزءاً هائلاً من مساحة شبه الجزيرة . وتأتي بعد تلك الهضبة سلاسل جبال توشك أن تطوقها ؛ فن الجنوب تمتد جبال « سييرا مورينا Sierra morena » أي سلسلة الجبال السمراء^(١) . وتفصل تلك الجبال بين الهضبة وسهل جنوبي كبير ينسبط حتى أقصى الجنوب^(٢) . وفي شرق الهضبة تمتد كذلك سلسلة جبال أخرى . وهي الجبال الإيبيرية Sistema ibereco ، وهي التي تفصل بين الهضبة وسهل آخر هو السهل الشرقي ، الذي ينسبط حتى ساحل البحر الأبيض . . وفي شمال الهضبة تعلو جبال أخرى ،

- (١) والعرب يسمونها : الشارات ، وهو جمع عربي محرف لكلمة Sierra الإسبانية بمعنى سلسلة جبال .
 (٢) ترتفع من السهل الجنوبي جبال أخرى تسمى Sierra nevada أي سلسلة الجبال الثلجية ويسمها العرب « شلير الثلج » ولعل كلمة « شلير » تحريف عربي للكلمة الإسبانية Salir بمعنى الخروج ، فكأنهم يرون (بشلير الثلج) مخرج الثلج .

الجبال « القنطبرية Cantabrica ، وهذه الجبال تليها شمالاً بعض الأقاليم السهلية الضيقة .
وفي الغرب تنحدر الهضبة حتى تنتهي إلى سهل عمق كبير هو السهل الغربي .

وتجري في الأندلس أنهار عديدة ، أهمها نهر الوادي الكبير ، الذي يسميه الإسبان حتى اليوم بهذا الاسم الذي أطلقه العرب ، ولكن مع تحريف يسير فيقولون : « جواد الكبير Guadalquivir »^(١) . وهذا النهر يروي أكثر أراضي السهل الجنوبي ، ويمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين قرطبة وإشبيلية ثم يصب غرباً في المحيط الأطلسي . ثم يلي الوادي الكبير شمالاً نهر وادي يانته ، ويسميه الإسبان كذلك باسمه العربي ، فيقولون « جواداينا Guadaiana » . ويعد هذا النهر يأتي شمالاً نهر التاجه ، ويسميه الإسبان « التاجه El Tajo »^(٢) ، وهو يمر بوسط الهضبة ، وتقع عليه مدينة طَلَيْطَلَة العظيمة^(٣) ..
ويعد كل هذه الأنهار يأتي شمالاً نهر دويره ، الذي يسمى عند العرب أحياناً بالوادي الحوفي ، والذي يطلق عليه الإسبان اسم « دور Duero » وهو كسابقيه ينحدر إلى الغرب ويصب في المحيط الأطلسي .

على أن هناك أنهاراً أخرى تسير عكس تلك الأنهار ، حيث تصب شرقاً في البحر الأبيض ، وهي تلك الأنهار التي تروى الشرق والشمال الشرق تقريباً . وأهم تلك الأنهار : نهر إبره Ebro ، الذي يروي إقليماً عظيماً من أقاليم الأندلس ، تبرز بين مدنه ، مدينة سَرَقُسطَة^(٤) .

(١) من خصائص النطق الإسباني صوغية نطق الواو المجرعة في أول الكلمة ، ومن هنا أضافوا حرف G قبلها لتيسير النطق .

(٢) من التطورات الصوتية في اللغة الإسبانية اختفاء صوت الجيم المغطاة التي يدل عليها في كثير من اللغات الأوروبية الحرف J ، فهم ينطقون كل ما أصله جيماً مغطاة أو J أوروبية خاء . هذا وبعض المصادر العربية تكتب الاسم بفتح الجيم ولكن صورة الاسم في اللغة الإسبانية ترجح أن الجيم مضمومة .

(٣) يسميها الإسبان Toledo

(٤) ويقول لها الإسبان Zaragoza . مع ملاحظة أن حرف z ينطق كالتاء العربية لا كالزاي ، وهذا من الظواهر الصوتية التي تختلف فيها الإسبانية عن غيرها من اللغات الأوروبية .

ومن الأنهار الشرقية كذلك الوادى الأبيض ، الذى تطور اسمه على ألسنة الإسبان إلى «جوادا لا بيار» Guadalavivar . وهذا النهر يروى جزءاً كبيراً من شرق الأندلس ويمر بشمال مدينة بننسة ، المدينة الأندلسية العظيمة^(١) .

ومن الأنهار الشرقية التى تلى الوادى الأبيض جنوباً ، نهر شقُر ، ويسميه الإسبان بما يشبه هذا فيقولون : «خوكر» Jucar^(٢) . وعلى هذا النهر تقع جزيرة شقر التى تتصل اتصالاً كبيراً بالأدب الأندلسى بحمال طبيعتها ، وكونها مصدر إلهام لعدد من الشعراء . وهناك بعد ذلك جنوبى هذه الأنهر يجرى نهر شقُورة ، الذى يقال له فى الإسبانية «سجورا» Sigura^(٣) . وهو يخترق مدينة مُرسية^(٤) ويروى قسماً كبيراً من إقليم شرق الأندلس .

وهناك بطبيعة الحال أنهر أصغر من تلك التى ذكرت فى هذا الحديث ، كما أن هناك عيوناً وآباراً كثيرة . وعلى تلك الأنهار والنهيرات والعيون والآبار والأمطار تعتمد الحياة الزراعية فى الأندلس . غير أن الاعتماد أساساً على الأمطار فى منطقة الهضبة الوسطى .

وهكذا نرى أن شبه جزيرة الأندلس ، ليست كما يتصور كثيرون جنة ليس فيها

(١) يقال لها بالإسبانية : Valencia مع ملاحظة أن الحرف c ينطق ثاء لأن بعده الحرف i وهذا من خصائص الإسبانية .

(٢) نص ياقوت فى معجم البلدان على أن الاسم بفتح فسكون (ج ٣ ص ٣٠٧) ولكن النطق الإشباني الذى يضم أول الاسم ربما يرجح أنه كان بالضم فى العربية . ويلاحظ أن الشين العربية قد تطورت أولاً إلى جيم معطشة فى النطق الإشباني القديم ثم صارت خاء مثل كل جيم معطشة أو j فى النطق الإشباني الحديث .

(٣) إذا لاحظنا أن نطق كثير من الإسبان اللين يأتى مشرباً بالشين ، وأن لفرق صوتياً بين القاف والجيم غير المعطشة فى اللغة العامية عادة ، كما يقال فى قال : جال - إذا لاحظنا ذلك تبين أن النطق الإشباني هو النطق العربى لهذه الكلمة تقريباً .

(٤) يسميها الإسبان Murcia . مع ملاحظة نطق الحرف c ثاء .

إلا السهول المنبسطة والحقول الخصبة والحدائق الغناء ؛ فالحق أن هذا تصور شعري حمل عليه ما جاء في نتاج شعراء الطبيعة الأندلسيين ، ممن عاشوا في السهول الأندلسية الممرعة ، ثم صوروا لنا طبيعة تلك الأقاليم فقط ، فظننا أن الأندلس كلها كما وصف هؤلاء الشعراء ، وأخذنا صورة للبلاد كلها مما صور به الشعراء بعض أقاليمها . فالواقع أن بلاد الأندلس سهول وهضاب وجبال وأودية ، فيها الحصب السعيد . وفيها الجذب الشقي ، فيها بقاع تستحم بمياه الأنهار ، وفيها أخرى تتعطش إلى غيث السماء .

ولكن الشيء الذي لاشك فيه ، هو أن أخصب بقاع شبه الجزيرة وأحسنها مناخاً . تلك الأقاليم التي فضل المسلمون الحياة فيها حتى لم يكن مقامهم غيرها إلا قليلاً أو ضرورة . وتلك الأقاليم هي : السهول الجنوبية والشرقية والغربية ، التي تعنى بالخصوبة الوفيرة وتروى من الأنهار العديدة ، وتسعد بالمناخ المعتدل . أما الأقاليم التي تقع ضمن الهضبة الكبرى ، فهي أقل الأقاليم حظاً من كرم الطبيعة وحسن المناخ . ويكفي أن نعلم أن تلك الأقاليم تتألف أكثر ما تتألف من أرض قليلة الخصوبة ، وكثير منها غير صالح للزراعة ، والصالح فيها يروى غالباً بمياه الأمطار . التي تجود حيناً وتبخل أحياناً . ثم إن المناخ في تلك الأقاليم أقرب إلى القارية منه إلى الاعتدال ، فهو في الشتاء شديد البرد كثير العواصف متساقط الثلج ، وهو في الصيف شديد الحرارة متوهج المهاجرة .

ومن هنا نتبين أن شبه الجزيرة الأندلسية مختلفة الطبيعة من إقليم إلى آخر ؛ وذلك لسعة رقعة البلاد وامتدادها ، ولاتصالها من الشمال بأوروبا ومن الجنوب بإفريقيا ، هذا بالإضافة إلى التفاوت الشاسع في تضاريسها ، من جبال إلى سهول ، ومن هضاب تعرفها الرمال إلى شواطئ تغسلها البحار . وقد جعل كل ذلك من شبه الجزيرة الأندلسية ، موطناً لثنى المناخات ومختلف الأجواء ؛ فبينما تغلب طبيعة أوروبا في الشمال ، تغلب طبيعة إفريقيا في الجنوب ، وبينما يماثل الإنسان غيره من سكان أوروبا في جهة ، يشابه

مجاوريه من سكان شمال إفريقيا في جهة أخرى . وليس ذلك بغريب بعد أن عرفنا أنه لا فاصل بين الشماليين ومجاورهم الفرنسيين إلا جبال البرانس ، وأنه لا حاجز بين الجنوبيين ومجاورهم المغاربة إلا مضيق جبل طارق .

وكما تختلف الأجواء والطبائع في بلاد الأندلس ، تختلف كذلك الحاصلات حتى يمكن أن يقال : إن أكثر الحاصلات التي تعرف في مناطق العالم المختلفة تجنى في الأندلس ، لأن هناك من الأجواء ما يصلح لكل المزروعات تقريباً . على أن أكثر حاصلات البلاد ، هي تلك التي تجود في حوض البحر الأبيض المتوسط ؛ فهناك يكثر القمح والشعير والأرز والبقول ، وتجود الفاكهة وخاصة الموالح والكروم ؛ وهناك أيضاً يكثر الزيتون ، الذي عليه وعلى الموالح والأرز والكروم يعتمد الدخل القوي أعظم اعتماد .

وببلاد الأندلس بعد هذا غنية بالمناجم والمزاعي والمرافئ البحرية ، وهي بهذا كله تمثل - كما يقول كثيرون - قطاعاً كاملاً من العالم بطبائعه المختلفة وأجوائه المتعددة وحاصلاته المتباينة .

٣ - إسبانيا قبل المسلمين :

يُعتبر الإيبيريون Los Iberos من أقدم من عُرف من سكان إسبانيا ، وقد اختلط بهم قديماً من يسمون بالسليتيين Los Celtas ، فنشأ من هذا الاختلاط الشعب المسمى بالسليتي الإيبيري Celtiberos ؛ وذلك الشعب هو أصل الشعب الإسباني (١) الذي

(١) يضيف بعض الباحثين إلى هؤلاء عنصراً ثالثاً يسمى Los Tartisios وكانت لهؤلاء حضارة قديمة في جنوب شبه الجزيرة . وكان مركز تلك الحضارة مدينة Tartisios قرب Jerez .

ويقال إن الإيبيريين إفريقيون عبروا البحر إلى شبه الجزيرة . وأن السليتيين أوريبيون عبروا جبال البرانس إلى شبه الجزيرة . وأما الترتيسوس فيقال إنهم أفريقيون ويقال إنهم آسيويون .

راجع : Antonio Ballestros : Sintesis de Historia de Espana, pp. 10 ff.

وانظر أيضاً : Aguado Bleye, pp. 153 ff.

أسهمت في تكوينه عناصر أخرى على مر التاريخ .

فقد اهتدى الفينيقيون إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، فنزلوا بها وتبادلوا التجارة مع أهلها ، وأغرتهم خيراتها بالإقامة في بعض أقاليمها ، وخاصة في الجنوب حيث أسسوا مدناً لأيزال بعضها قائماً إلى اليوم ، مثل مدينة قادس Cadix ، وكان ذلك في القرن الحادى عشر قبل الميلاد (١) .

ثم وفد الإغريق على شبه الجزيرة ، حول القرن السابع قبل الميلاد ، وأقاموا كذلك في بعض جهاتها ، وخاصة الجهات الشرقية ، وأنشأوا أيضاً من المدن ما بقى بعضه حتى اليوم ، كمدينة برشلونه Barcelona (٢) .

وفي القرن الخامس قبل الميلاد ، نزل القرطاجنيون شبه جزيرة إيبيريا ، وأسسوا بها مدناً جديدة ، مثل مدينة قرطاجنة Cartagena التي سموها باسم دولتهم في شمال إفريقيا . ثم بسط الرومان نفوذهم على شبه الجزيرة حول منتصف القرن الثاني قبل الميلاد (٣) حين تغلبوا على دولة قرطاجنة وورثوا ملكها . ومنذ ذلك الحين أصبحت شبه الجزيرة الإيبيرية ولاية رومانية . وقد صيغ الحكم الرومانى تلك البلاد بصبغته التي ظلت أهم خصائصها حتى الفتح الإسلامى برغم أن الرومان لم يكونوا حكام إسبانيا حين دخلها المتسلمون . وأهم آثار الحكم الرومانى التي ظلت حتى الفتح الإسلامى : اللغة الرومانية والدين المسيحى .

Aguado Bleve, p. 154.

(١)

(٢) المراد بالإغريق إغريق آسيا الصغرى المسمون Focensa نسبة إلى Focca راجع المصدر السابق ص ١١٥ وما بعدها . وراجع أيضاً :

Antonio Ballestros : Síntesis de Historia de Espana, pp. 15 — 16.

(٣) سنة ١٣٤ ق . م .

وفي أوائل القرن الخامس الميلادي^(١)، استقره الوندلس في جنوب شبه الجزيرة حين أغارت تلك القبائل الجرمانية على ممتلكات الدولة الرومانية ، وقد ظل هؤلاء Los Vandalos حيناً في جنوب شبه الجزيرة ، ثم أجلاهم عنها القوط^(٢) . وهؤلاء كسابقيهم ، بعض تلك القبائل الجرمانية الهمجية التي كانت تغير على ممتلكات الرومان في ذلك الحين . وقد سيطر القوط Los visigodos على شبه الجزيرة تقريباً ، وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته طليطلة Toledo ، وظل ملكهم حتى كان الفتح الإسلامي سنة ٧١١ م .

وكان هؤلاء القوط قد اعتنقوا المسيحية التي سبقهم إلى إسبانيا منذ العهد الروماني . كذلك كانت اللغة السائدة في العهد القوطي هي اللغة الرومانية التي سبقت القوط إلى السيطرة على شبه الجزيرة ودخلتها بدخول الرومان .

وقد سار القوط أول الأمر سيرة حسنة في إسبانيا ، ثم ما لبثوا أن أساءوا الحكم ، فأساوا إلى أنفسهم وإلى الإسبان جميعاً ؛ ذلك أنهم أدخلوا إلى المملكات وتركوا الشعب نهياً للكلام ، فاستأثر الأشراف ورجال الدين بالحرية والسعادة ، وآثروا العاملين بالعبودية والشقاء . وقد أدى كل ذلك إلى كراهية الشعب للحكام ورجال الدين ، وتربصهم بهؤلاء وهؤلاء .

وقد ضاعف الحالة سوءاً ، كثرة المنازعات التي كانت تحدث بين زعماء القوط على العرش ، فقد كانت تلك المنازعات بمثابة الوقود يُلقي على نار الثورة ، فنشب حيناً بعد حين ، وكانت هذه الخلافات بين الشعب وحكامه من جهة ، وبين الحكام أنفسهم من جهة أخرى ، تمز العرش القوطي هزاً عنيفاً ، بل كانت ترقصه على حافة بركان .

(١) سنة ٤٠٦ م .

(٢) يقال إن الوندلس رحلوا إلى أفريقيا سنة ٤٢٩ م .

راجع : Aguado Bicye, p. 339 .

فهناك الفشل السياسى والضعف الحربى والتفكك الاجتماعى والظلم الطبقي ، وقد تجمعت تلك العوامل فى أواخر العهد القوطى كأنها قطع الليل المظلم ، الذى تتطلع فيه العيون متلهفة إلى فجر جديد^(١) .

٤ - المسلمون فى إسبانيا :

كانت جيوش المسلمين قد بسطت سلطانها على شمال إفريقيا ، واستقرت بتلك العدو التى لا يفصلها عن الأندلس إلا مضيق جبل طارق . وكان ذلك بعد ضحايا عديدين من الجنود والقواد المسلمين ، وبعد جهاد طويل قد استمر منذ عهد عمر رضى الله عنه ، إلى عهد الوليد بن عبد الملك . وكان قائده على المغرب موسى بن نصير ، صاحب فضل كبير فى تثبيت قدم الإسلام فى شمال إفريقيا ، ونشر رأيه حتى المحيط الأطلسى .

ولاشك أن ذلك القائد الظافر كان يتطلع فى شوق إلى تلك البلاد الواقعة على الضفة الأخرى من المضيق . ولكنه فيما يبدو كان يخشى أن يغامر بجيش المسلمين فى تلك البلاد؛ لأن مصيره فيها كان مخفوقاً بأخطار ، أقلها ذلك المجهول الذى لا يلتصق فى أفقه نجم .

ولكن خشية موسى سرعان ما عادت أكثر من الأمن ، وأصبح تردده فى فتح تلك البلاد، تصميماً على اقتحامها بجيوش المسلمين. كان ذلك حينما تقدم إليه يوليان Julian حاكم سبته ، وعرض عليه تسليم سبته أولاً ثم المساعدة فى فتح إسبانيا ثانياً . وكانت سبته - على الأرجح - ولاية إفريقية تابعة للقوط يحكمها من قبلهم حاكم^(٢) ، وكانت إلى ذلك

Dozy : Historia de los musulmanes de Espana, pp. 318 ff.

(١) انظر :

(٢) يرى بعض الباحثين أن سبته كانت مستقلة ، ويرى البعض أن حاكمها كان إفريقياً من قبيلة

A. Gonzalez Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 9.

غمارة . انظر :

حصناً منيعاً من الحصون الإفريقية التي لم يخضعها المسلمون بعد ، كما كانت نفراً له قيمته على مضيق جبل طارق ، يمكن أن يستخدم في العبور إلى جنوب إسبانيا . أما لماذا عرض يوليان هذا العرض السخي على موسى ؛ فسؤال للمؤرخين في الإجابة عنه أقوال عديدة^(١) ترجع في جملتها إلى وجود ضغائن بين يوليان هذا وبين ملك القوط حينئذ ، المسمى رُذريق Rodrigo . ومهما يكن من أمر فقد رحب موسى بهذا العرض وأرسل أحد محاربيه واسمه طريف على رأس قوة صغيرة^(٢) عبرت المضيق على سفن قدمها حاكم سبتة ، ونزلت في جنوب شبه الجزيرة ، بمكان لا يزال يحمل اسم القائد المسلم إلى اليوم ، حيث يسمى جزيرة طريف Terifa . ثم عادت تلك السرية إلى شمال إفريقيا بما طمأن موسى وزاد رغبته في فتح تلك البلاد . وكان عبور هذه السرية إلى جنوب إسبانيا سنة ٥٩١ هـ - ٧١٠ م .

وفي السنة التالية (٩٢ هـ - ٧١١ م) أرسل موسى جيشاً كبيراً^(٣) بقيادة طارق ابن زياد لفتح هذه البلاد . وقد عبر جيش طارق هذا المضيق الذي سمي باسمه فيما بعد ، ونزل من جنوب شبه الجزيرة في هذا المكان الذي سمي كذلك بجبل طارق . وكان عبور هذا الجيش على سفن لحاكم سبتة ، كما كان يرافقه أدلاء من قبل هذا الحاكم .

وقد هزم طارق كل الحاميات التي تعرضت له بعد نزوله بالشاطئ الإسباني . ووصل نبأ طارق وجيشه إلى ملك القوط الذي كان في شمال شبه الجزيرة يخضع بعض

(١) من تلك الأقوال : أن ابنة يوليان كانت تربي كسائر بنات الأمراء في قصر الملك فاستحسنها واعتدى عليها . ومن الأقوال أيضاً : أن يوليان كان مالياً للأسرة المالكة السابقة التي انتزع لودريك الملك منها وهي أسرة غيطشة Vitiza

(٢) كانت هذه القوة تتألف من ٥٠٠ مقاتل منهم ١٠٠ فارس . وقد عبرت على أربع سفن . انظر : أخبار مجموعة ص ٦٤٥ .

(٣) كان عدد هذا الجيش ٧٠٠٠ وأكثره من القبائل الأفريقية . ثم زيد الجيش إلى ١٢,٠٠٠ قبل أن يخوض طارق المعركة الفاصلة مع جيش القوط انظر : أخبار مجموعة ص ٦٤٦ .

التائرين ، فأصرح بالعودة إلى طليطلة العاصمة ، واستمد بجيش كبير للقاء الفاتح المسلم . ولم ينتظر حتى تدخل عليه جيوش المسلمين عاصمته طليطلة ، بل اتجه بجيشه جنوباً للقاء طارق وجيشه .

وفي سهول شَرِيش قرب مدينة قادس ، وعزد وادي لكَّة^(١) Guadalete التقى الجيشان في معركة كبيرة انتهت بانتصار المسلمين وتشتت جيش القوط ، برغم تفوقه في العدد والعتد على جيش المسلمين^(٢) . وبعد هذه المعركة الرئيسية الحاسمة أرسل طارق بعض محاربيه لفتح قرطبة وغرناطة ومالقة وغيرها من المدن والأقاليم ، ثم اتجه بأكثر الجيش إلى العاصمة القوطية طليطلة ، فدخلها وأسس دولة المسلمين في الأندلس على أنقاض دولة القوط .

وفي العام التالي (٩٣ هـ - ٧١٢ م) عبر موسى بن نصير إلى الأندلس بجيش جديد ، ونزل في مكان آخر هو الذي يسمى الآن بالجزيرة الخضراء Algeciras . ثم سار في طريق آخر غير الذي سلكه طارق ، وأخضع في طريقه عدداً من المدن والأقاليم التي لم تكن

(١) يسميه المؤرخ الأندلسي ابن القوطية . بوادي بكة ، وكل أية حال فهو نهر يصب في خليج قادس . ويقول دوزي : إنه النهر الذي يسمى الآن Río salado . عل أن ليفي بروفنسال يرى أن المعركة دارت على ضفة البحيرة المسماة Janda التي تتصل بنهر Barbate انظر :

Levi Provençal : La Espana musulmana, p. 13.

وانظر أيضاً : Sanchez Albornoz : La Espana musulmana, p. 36, vol. I.

وانظر كذلك : Dozi : Historia, p. 24, vol. I.

وانظر : من المصادر العربية : ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٧ . وأخبار مجموعة ص ٨ .

وابن عذاري ، البيان المغرب ج ٢ ص ١١ .

(٢) قيل إن عدد جيش لذريق كان ١٠٠,٠٠٠ أما لذريق فقليل إنه قتل في المعركة ، وقيل فر ببعض

قواته فقتل في معركة أخرى . انظر أخبار مجموعة ص ٩ .

وانظر كذلك : Palencia : Historia de la Espana musulmana, p. 10.

قد خضعت بعد ، مثل شدونة^(١) وإشبيلية وماردة^(٢) ، وبعد ذلك وصل إلى طليطلة^(٣)

ويقال : إن موسى عنف مولاه طارق بن زياد ولامه كثيراً على توغله في البلاد توغلا
كان من الممكن أن يجلب الشر على جيوش المسلمين ، ويقال أيضاً : إنه لم يعضه
فحسب ، وإنما قيده وضربه وكاد يقتله . وللمؤرخين في تصرف موسى إزاء طارق تفسيرات ،
بعضها يتهم موسى بالغيرة من طارق أو الحقد عليه . على أية حال فبعد هدوء تلك العاصفة
بين القائدين العظمين سارا بالجيوش الإسلامية مخضعين كثيراً من أقاليم حوض نهر إبيره
مثل إقليم سرقسطة . ثم تقاسما إخضاع بعض الأقاليم الشمالية ، مثل سوريا^(٤)
وليون وبعض حصون أستورياس وجلسية^(٥) .

وفي غمرة الانتصار^(٦) استدعى موسى بن نصير إلى دمشق للقاء الخليفة على أن
يخون في صحبته طارق . فأوقف موسى الزحف ، وعاد إلى الجنوب ، وأصلح من شئون
الأندلس ما استطاع ، وولى ابنه عبد العزيز على البلاد ، وترك شبه الجزيرة واتجه مع طارق
إلى دمشق سنة ٩٥ هـ - ٧١٤ م .

وهكذا دخل المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكانت لهم فيها دولة بل دول .

(١) Sidonia

(٢) Merida

(٣) كان الجيش الذي عبر به موسى يتألف في أغلبيته من العرب . وكان عدده ٨,٠٠٠ س . ع .

انظر : Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff.

وانظر أيضاً : Palencia : Historia, p. 19.

وانظر كذلك أخبار مجموعة من ١٥ .

(٤) اسم إقليم في إسبانيا ، وهم يسمون سوريا التي هي من الأمة العربية (سوريا) Siria

(٥) Galicia

(٦) لم يتأكد ليبي بروفنسال من أن موسى عبر جبال البرانس إلى فرنسا . ولكن الأستاذ محمد عبد الله عنان

يذكر أن موسى عبرها ووصل إلى بربوتة أو إلى ليون في فرنسا .

انظر : Levi, p. 18 . ومحمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس من ٥٠ .

ومرت عليهم أحداث تاريخ طويل . وتتابعت على البلاد أشكال من الحكم وصنوف من الحاكين . وليس هنا محل سرد شيء من ذلك أو تفصيل القول فيه . وحسبنا في هذا المقام أن نشير إلى أن هذا التاريخ الطويل الذي قارب ثمانية قرون ، يقسم عادة إلى عصور هي :

أولاً : عصر الولاة ، وهو ذلك العصر الذي يبدأ بالفتح الإسلامي سنة ٨٩٣ - ٧١٢ م وينتهي بقيام دولة بني أمية في الأندلس على يد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م .

ويسمى هذا العصر عصر الولاة ؛ لكون الأندلس كانت تحكم فيه بوساطة وال يعينه خليفة دمشق وأحياناً يعينه حاكم شمال إفريقيا .

ثانياً : العصر الأموي ، ويبدأ بتأسيس عبد الرحمن الداخل لدولة بني أمية في الأندلس ، تلك الدولة التي تبلغ ذروة مجدها في عهد عبد الرحمن الناصر الذي يجعل منها خلافة عظيمة . وينتهي هذا العصر بانتهاء ملك بني أمية هناك ، بعد سلسلة من الخلفاء العاجزين ، واختيار زعماء قرطبة لنوع من الحكم الجمهوري سنة ٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م .

ثالثاً : عصر ملوك الطوائف ، ويبدأ بسقوط الدولة الأموية وقيام عدة ممالك مستقلة ، تقسمت الأندلس معها إلى طوائف ، وعلى كل طائفة مُلك . وينتهي هذا العصر باستيلاء المرابطين على الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٣ هـ - ١٠٩١ م .

رابعاً : عصر المرابطين ، ويبدأ باستيلاء ابن تاشفين وجيوشه الإفريقية على الأندلس ، وينتهي بحلول الموحدين محل هؤلاء المرابطين في حكم إسبانيا الإسلامية سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م .

خامساً : عصر الموحدين : ويبدأ بحكم هؤلاء الإفريقيين للأندلس ، وينتهي

يسقوط دولتهم ، وانتزاع المسيحيين الإسبان للكثرة الغالبة من الأقاليم التي كانت في أيدي المسلمين ، وحصر الدولة الإسلامية الأندلسية في جزء جنوبي صغير هو مملكة غرناطة وذلك نحو سنة ٦٦٨ هـ - ١٢٦٩ م .

سادساً : العصر الغرناطي . ويبدأ بتأسيس مملكة غرناطة على يد ابن الأحمر ، وينتهي بتسليم هذه المدينة الإسلامية إلى الإسبان ، سنة ٨٩٨ هـ - ١٤٩٢ م .

على أن بعض الباحثين يولد من تلك العصور عصرين آخرين ، فيجعل فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين عصرًا ؛ ويجعل كذلك فترة ما بين عصر الموحدين والعصر الغرناطي عصرًا آخر ، ويسمى الأول عصر الطوائف الثاني ، ويسمى الآخر عصر الطوائف الثالث (١) . كما أن البعض يضم الفترات الأولى من الدولة الأموية ؛ وهي الفترات التي سبقت خلافة عبد الرحمن الناصر ، إلى فترة ما بعد الفتح الإسلامي ، وهي فترة الولاة ، ويسمى كل ذلك ، عصر الإمارة ويعنى بذلك كل ما قبل الخلافة ، أو عصر الإماراتين ، ويعنى بذلك إمارة غير الأمويين ثم إمارة الأمويين .

ومهما يكن من أمر فليس يعنينا من تلك العصور واختلاف أسماؤها شيء ، وإنما الذي يعنينا هو تلك المؤثرات السياسية والاجتماعية والثقافية التي تتصل بالأدب . لهذا لن نرتبط بهذا التقسيم تمام الارتباط ، لأن اختلاف المؤثرات الأدبية قد يكون أكثر خلال عصر سياسي واحد ، على حين لا يوجد كبير اختلاف بين عصرين سياسيين آخرين . ومن هنا سنهتدي فقط بهذه التقسيمات السياسية في درسا للعصور الأدبية ، على أن نقسم العصر الواحد إلى فترات إن كان ذلك في صالح الدرس الأدبي ، وعلى أن نضم عصرين إن كان ذلك في صالح الدرس الأدبي أيضاً . وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في غير هذا المكان .

(١) وذلك لوجود عصر أول يسمى عصر ملوك الطوائف هو الذي جاء على أعقاب سقوط الحكم الأموي

في الأندلس . ومن ساروا على هذا التقسيم : Al Bornoz : La Espana musulmana, vol. 2, p. 327. الأدب الأندلسي

٥ - المجتمع الأندلسي :

(أ) العناصر البشرية في الأندلس :

كان المجتمع الأندلسي مكوناً من عناصر شتى ، فقد كان فيه أهل البلاد الأصليون ، وفيه الوافدون من عرب وبربر ، ثم فيه الموالى المنسوبون إلى أقطار شرقية مختلفة ، والمماليك المحلوبون من بلاد غربية عديدة .

أما أهل البلاد الأصليون ، فهم المسمون بعجم الأندلس ، وكانوا في أكثريتهم الغالبة من الإسبان .

وأما الوافدون ، فكان منهم العرب الآتون من المشرق ، وقد سمي أوائلهم - وهم من أتوا مع موسى بن نصير - باسم البلديين ، كما سمي من جاءوا بعدهم باسم الشاميين^(١) .

كذلك كان من الوافدين ، البربر الآتون من شمال إفريقيا ، والذين كان أوائلهم يؤلفون معظم جيش طارق بن زياد^(٢) .

وأما الموالى ، فقد أتوا في ركاب العرب منذ عبروا إلى الأندلس ، إذ كانوا مرتبطين بهم تابعين لهم ، حتى لقد نسيت بمرور الزمن أصول كثير منهم ، وعدوا فعلاً من القبائل التي تربطهم بها روابط الولاء .

وأما المماليك ، فكانوا يجلبون من عدة بقاع أوربية ، وخاصة من المناطق السلافية ، وكان تجار الرقيق من الجرمان وأشباههم يسبون هؤلاء السلافيين صغاراً ثم يبيعونهم

(١) انظر في هذه التسميات المصادر التاريخية الأندلسية المتقدمة ، مثل تاريخ افتتاح الأندلس لابن

القوطية ، ومثل أخبار مجموعة

(٢) انظر أخبار مجموعة ص ٦ .

في أسواق إسبانيا . وقد عرف هذا النوع من الرقيق في الأندلس باسم الصقالبة ، ثم علب الاسم على كل الرقيق حتى ولو لم يكن سلافيًا (١) .

وقد بدأ هؤلاء الصقالبة يظهرن في المجتمع الأندلسي كعنصر منذ أيام عبد الرحمن الداخل .

وليس معنى ما تقدم أن المجتمع الأندلسي كان مجتمعاً مهلهلاً بسبب اختلاف عناصره البشرية ، فالحق أنه برغم تعدد العناصر بين سكان الأندلس ، كانت الروابط القوية تشد بعضهم إلى بعض في أغلب الأحيان ، وتطبعهم بالطابع الأندلسي المميز . فقد كانت هناك دائماً البيئة المشتركة والثقافة المشتركة ، وقد كانت هناك غالباً الحكومة الموحدة والسياسة الموحدة ، ثم كانت هناك بعد ذلك الحضارة الأندلسية الرائعة ، التي تصبغ جميع العناصر بصبغها الواضحة ، تلك الصبغة التي لا يكاد يفرق فيها بربري الأصل عن عربي الدم ، بل لا يكاد يميز معها إسباني الحدود من عربي الآباء .

على أن أهم ما جعل الوحدة البشرية في المجتمع الأندلسي ذات قوة تفوق ما كان من تعدد الأصول ، كون العنصر البشري الذي يمثل أكثر سكان الأندلس ، والذي يعتبر أبرز عناصر المجتمع ، هو العنصر العربي الممتزج على مر السنين بالعنصر الإسباني ، والمؤلف من هذا الامتزاج من هم أجدر سكان إسبانيا الإسلامية باسم الأندلسيين .

فلقد وفد العرب على إسبانيا في موجات هائلة . وانتشروا في أقاليمها المختلفة انتشاراً متغلغلاً ، وكانوا يمثلون أكثر القبائل العربية ، العدنانية منها والقحطانية (٢) .

وكان هؤلاء العرب قد وفد أكثرهم على إسبانيا في شكل جنود لا في شكل أسر .

(١) انظر : الصقالبة في إسبانيا لذكور مختار العبادي .

(٢) انظر تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٢٠ وفتح الطيب المقرئ ج ١ ص ١٣٦ . روا بعدها وجمهرة أنساب العرب لابن حزم في كثير من فصوله .

أى أنهم لم يأتوا في أغلب الأحيان بنسأهم وزوجاتهم ، حتى يمكنهم الانعزال بشرياً عن سكان البلاد الأصليين ، وإنما كانوا بحالهم التي جاءوا عليها مضطرين إلى الاتصال الأسرى بسكان شبه الجزيرة ، حتى يكونوا بالزواج من نساء البلاد أسرهم بالحديدة التي ستر بطهم بالوطن الحديد وتبقى نوعهم به .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون في موجات ، من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة ، أمراً كافياً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء أبرز عناصر المجتمع الأندلسي وأهم مكوناته البشرية .

فتلا كان جيش موسى بن نصير مؤلفاً - فيما تقول بعض الروايات - من ثمانية عشر ألفاً من العرب ^(١) وكان جنود الشام الوافدون مع بلسج بن بشر في عهد الولاة ، عشرة آلاف ، منهم ثمانية آلاف من بيوت العرب ، وألفان من الموالى ^(٢) . وكان جنود أبي الخطار الكلبي الوافدون في عهد الولاة أيضاً من العرب ، ولا بد أن يكون عددهم كبيراً حتى يصلحوا للمهمة التي قدموا من أجلها ، وهي فض النزاع بين البلديين والشاميين ، وإقرار الأمن والنام في الأندلس ^(٣) . كذلك كانت موجة الأمويين وأنصارهم من أتوا خلال فترة تأسيس الإمارة الأموية بالأندلس عربية ، كما كانت ذات عدد لا يتصور إلا كبيراً ^(٤) ، نظراً لما هو معروف من اضطهاد العباسيين للأمويين وأنصارهم بالمشرق ، ولما هو معروف كذلك من ترحيب عبد الرحمن الداخل وأبنائه ببنى أمية الوافدين عليهم ، وبكل اللاندين بهم من عرب المشرق عموماً .

(١) انظر Levi : Espana musulmana, pp. 15 ff. وأخبار مجموعة ١٥ .

(٢) يسمى جنود بلج الطالعة الأولى .

(٣) يسمى جنود أبي الخطار بالطلعة الثانية ، وتسميهم طالعة كما سمي جنود بلج تؤكد ما نتصوره

من كثرتهم ، انظر تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٥ ، ١٩ .

(٤) انظر نفع الطيب ج ٢ ص ٧٣ .

وهكذا نرى أن المجتمع الأندلسي كان متعدد العناصر والأصول ، ولكنه كان مع ذلك متحد الطابع في جملته ، وخاصة حين برز أهم عناصره البشرية ، وهو العنصر الذي تبرز فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية والذي يؤلف الأندلسيين الجديريين بهذه التسمية .

(ب) أصل الأندلسيين :

على أن الباحثين يختلفون في أصل الأندلسيين ، ويتعارضون أشد التعارض في اختيار الجنس البشري الذي يندرجون تحته . فبعضهم — والشرقيون منهم بصفة خاصة — يرون أن هؤلاء الأندلسيين عرب ، قد رحلوا من مواطن العرب في المشرق ، وعاشوا في الأندلس محافظين على عروبتهم ، متمسكين بأنسابهم وسلاسل قبائلهم ^(١) . والبعض الآخر — والمستشرقون الإسبان بصفة خاصة — يرون أن الأندلسيين ليسوا إلا إسباناً مسلمين ، فهم ليسوا عرباً وليسوا شرقيين ، وإنما هم إسبان وغربيون ، دينهم الإسلام ولغتهم العربية ^(٢) .

والسبب في تمسك الباحثين الشرقيين بعروبة الأندلسيين كالسبب في تمسك الباحثين الغربيين بإسبانية هؤلاء الأندلسيين ، فكلا الفريقين يعترضهم ويحاول أن يكسب حضارتهم إلى حضارته ، ويضيف علمهم إلى علمه ، ويعد أدبهم من تراث أدبه . وربما كانت وجهة نظر الباحثين الشرقيين أقدم وجهى النظر ^(٣) ، فالمسلمون منذ أقدم عصور الأندلس يعتبرون الأندلسيين عرباً منهم ، تراثهم تراثهم وأدبهم أدبهم وحضارتهم حضارتهم ، وكل الذى كانوا يخلصون به الأندلسيين أن يعلمهم أحياناً أهل المغرب ،

(١) انظر مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ج ٢ ص ٢٦٧ وما بعدها .

Julian Ribera : Disertaciones y opusculos, vol. I, pp. 12 ff.

(٢)

(٣) انظر المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ٣٦ وابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٣٥ .

على اعتبار أن المغرب الإسلامى يشمل شمال إفريقيا والأندلس ويقابل المشرق الذى يشمل الحجاز والشام والعراق ومصر .

وفكرة الشرقيين قديماً وحديثاً فى اعتبار الأندلسيين عرباً ، تقوم على هذا التقليد العربى الذى ينسب الولد إلى أبيه ، فإدام آباء الأندلسيين كانوا عرباً فى الأصل ، فالأبناء والأحفاد وكل الأجيال عرب كذلك ، ينتمون كأبائهم إلى عدنان وقحطان .

أما فكرة الغربيين وخاصة الإسبان ، فى اعتبار الأندلسيين إسباناً مسلمين ، فقد نشأت أخيراً وبدأ الاتجاه إليها فى القرن الماضى تقريباً حينما انحسرت موجة الكراهية التى كانت تغمر قلوب الأوربيين - وخاصة الإسبان - ضد مسلمى الأندلس ؛ فقد كانوا قديماً يعتبرونهم غزاة وفاتحين ومحتلين ، ومن هنا جاءت محاربتهم ومطاردتهم وإخراجهم .

ثم ظهر بعض الباحثين المنصفين ، الذين أشادوا بفضل المسلمين على أوروبا كلها لا على إسبانيا وحدها ، وبينوا ما كان لهؤلاء المسلمين من فضل على العلم والأدب والحضارة الأوربية جميعاً ؛ وانتقدوا لذلك تلك المعاملة القاسية التى لقيها هؤلاء المسلمون على أيدي المسيحيين ، وأخذت الأبحاث تتابع فى بيان ما لمسلى إسبانيا من التأثير فى الفلسفات والآداب والفنون الأوربية على وجه العموم (١) .

(٢) من أقدم الأبحاث التى نبتت إلى فضل الأندلسيين على الحضارة الأوربية بحث القس خوان أندريس Juan Andres ، كُتب فى القرن الثامن عشر عن أثر الثقافة الأندلسية فى الثقافة الأوربية . وكان هذا القس يسوعياً ، طرد من إسبانيا وفصل من الجماعة .

ومن أعظم الأبحاث فى هذا الشأن ، أبحاث المستشرق الإسباني Asin Palacios عن الفلسفة الإسلامية وعلاقتها بالفلسفة الأوربية . ثم بحه الجليل عن تأثر دانتى بالإسلام فى الكوميديا الإلهية . وكذلك من أمتع الأبحاث فى تأثير الأندلسيين ، أبحاث المستشرق الإسباني Julian Ribera عن تأثير الشعر الأندلسى فى الشعر الأوروبى ، والموسيقى الأندلسية فى موسيقى الإسبان إلخ .

وأخيراً تبني مستشرقو الإسبان وعلى رأسهم العلامة « خوليان ريبيرا » Julian Ribera فكرة الأصل الإسباني لمسلمي الأندلس . ويعتبر « خوليان ريبيرا » أول من حاول إثبات هذه النظرية والتدليل عليها من الوجهة العلمية ؛ فهو يرى أن العرب الذين دخلوا شبه الجزيرة أيام الفتح إنما دخلوا - كما هو معروف - على هيئة جنود ، ولم ينتقلوا إليها كأسر ، وكان لابد لهؤلاء المحاربين من أن يكونوا البيوت وينجبوا النسل ، وكانت الإسبانيات الجانب الآخر في تكوين هذه الأسر وإنجاب ذلك النسل . وقد أقبل على هذا الزواج المختلط أول أمير عربي ولي أمر الأندلس بعد الفتح ، وهو عبد العزيز بن موسى بن نصير كما أقبل عليه غيره من العرب ، حيث شرع لهم أمراؤهم سنة الزواج بالإسبانيات حتى لقد ثبت أن جميع أمراء وخلفاء الأسرة الأموية في الأندلس كانوا أبناء لغير عربيات . وإذا كان الولد - في الحقيقة - ابناً لأبيه كما هو ابن لأمه ، وإذا كانت خصائص الوراثة يأخذها الوليد عن أسرة أمه كما يأخذها عن أسرة أبيه ، إذا كان ذلك أمكن القول بأن العرب الداخلين قد ذابوا في الجنس الإسباني حتى لم يعد للواحد منهم سوى قطرات قليلة من الدم العربي تمتزج بدمه الإسباني الذي يكاد يكون خالصاً .

ويجري الأستاذ « ريبيرا » تجربة على الأسرة الأموية التي حكمت في الأندلس فيقول ما خلاصته : إن عبد الرحمن الداخل كان يحمل فقط نصف دم عربي ، لأنه كان من أم غير عربية ، وكذلك ابنه هشام لا يحمل إلا ربع دم عربي لأن أمه كانت أيضاً غير عربية . وهكذا تتناقص نسبة الدم العربي كلما مضينا من أمير إلى آخر ، بينما تتضاعف نسبة الدم الأجنبي ؛ فالحكم ابن هشام ليس له من الدم العربي إلا الثمن ، وعبد الرحمن الأوسط ، ليس له إلا جزءاً من ستة عشر جزءاً ، والأمير محمد ليس له إلا جزء من اثنين وثلاثين جزءاً ، والمنذر بن محمد ليس له إلا جزء من أربعة وستين جزءاً ، وكذلك أخوه عبد الله . ثم يأتي بعدها محمد بن عبد الله (وهو لم يحكم) وفي دمانه جزء من مائة وثمانية وعشرين جزءاً . ثم يأتي بعد ذلك عبد الرحمن الثالث الملقب

بالناصر ، وليس له من الدم العربي إلا جزء من مائتين وستة وخمسين جزءاً . أما ابنه الحكم الثاني ، فليس له تبعاً لذلك إلا جزء من خمسمائة واثني عشر جزءاً . وأخيراً يأتي هشام الثاني فلا يكون له من الدم العربي إلا جزء من ألف وأربعة وعشرين جزءاً ^(١) .

ولسنا ننكر الدافع الكريم الذي حمل الأستاذ « ريبيرا » على محاولة إثبات أن الأندلسيين إسبان مسلمون ؛ فهو يعتز بالأندلسيين ويحاول كسب الحضارة الأندلسية وضمها إلى التراث الإسباني ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نذهب مع الأستاذ ريبيرا فيما ذهب إليه من تجريد الأندلسيين من عربيتهم ، ولا نستطيع كذلك أن نسلم بتلك التجربة التي أجراها على الأسرة الأموية الأندلسية كدليل على ذوبان الدم العربي في الدم الإسباني ؛ لأننا لا نتصور أولاً أن كل الذين جاءوا إلى الأندلس من الرجال قد تركوا نساءهم في المشرق ، ولأننا لا نتصور ثانياً أن الوفود على الأندلس كان دائماً من نصيب الرجال دون النساء ، ولأننا لا نتصور ثالثاً أن كل عربي في الأندلس كان ينجب دائماً من إسبانية جديدة ، وإن كان قد تصادف ذلك في الأسرة الأموية . فالمعقول أن توجد مولدات من أب عربي وأم إسبانية ، وأن الزيجات الغالبة كانت تم بعد الجيل الأول من هؤلاء المولدات ، وبهذا احتفظ الأندلسيون من غير قصد بنصف الدم العربي على الأقل . وإلا فكيف يتصور بناء على المثال الذي ضربه الأستاذ « ريبيرا » أن كل زيجة من عربي وإسبانية تنتج رجالاً فقط يضطرون إلى الزواج من جديد بإسبانيات خالصات ؟ أو أن الزيجات المختلطة كانت تنتج بنات وبنين . لكن البنات لا يتزوجن بل يكون الزواج دائماً من إسبانيات جديدات ؟ !

لهذا كله نفضل الأخذ بأصل نظرية الأستاذ « ريبيرا » دون المضي معها إلى آخر الشوط ، ودون التسليم بما يريد لها من نتائج . بمعنى أننا نسلم أن العرب الداخلين قد كانوا يتزوجون من إسبانيات . وأن هذه الزيجات ، أنتجت فعلاً جيلاً من الأندلسيين

تمتزج فيه الدماء العربية بالدماء الإسبانية امتزاجاً تتساوى فيه العناصر العربية والإسبانية تقريباً ، ثم إن الأمر ظل على هذا غالباً ، نظراً لكون هذا الجيل الأول من المولدين ستحدث بين بنيه وبناته زيجات يحافظ فيها على نسبة الدم العربي ، ويظل الأمر على ذلك ما تابعت الأجيال .

وإذن فالأندلسيون من حيث الأصل شعب فيه دماء عربية وفيه كذلك دماء إسبانية ، وفيه تبعاً لذلك كله ، وروثات من العرب والإسبان جميعاً .

بقي أن نقرر أن هؤلاء الأندلسيين وإن كانوا مولدين جنساً ومختلطين دماء ، فهم عرب في قوميتهم ، لأنهم عرب في عقيدتهم وثقافتهم ولغتهم وكل جوانب حضارتهم . فإذا كانت لهم بعض خصائص الإسبان في الشكل أو في الطبع ، فإن لهم جل خصائص العرب فيما وراء الشكل والطبع . ومن هنا كان تراثهم تراثاً عربياً يأخذ مكانه بين تراث العرب على مر العصور . أما ما قد يكون لهم من خصائص نفسية أو عقلية تبعاً لما ورثوه من أمهاتهم الإسبانيات ، فشيء نحترمه في الدرس الأدبي ونعني به وبإبرازه ما أمكن . وليس معنى ذلك أننا نقول بإسبانيتهم كما يقول الأستاذ « ريبيرا » ومن جازاه من المستشرقين ، وإن كنا نشكر لهم إعجابهم بأبناء عمنا الأندلسيين ، ومحاولة إلصاقهم بهم وضم تراثهم إلى ما للإسبان من تراث .

(ج) الديانات في الأندلس :

انتشر الإسلام بسرعة فائقة بين سكان شبه الجزيرة . ولعل من أهم أسباب ذلك ، أن الأرقاء الذين كانوا يرزحون تحت نير الأشراف في العهد القوطي ، قد وجدوا الإسلام طريقهم إلى الحرية ، فأقبلوا عليه ليفك أغلالهم ويعيد كرامتهم . على أن الأرقاء لم يكونوا وحدهم الذين اعتنقوا الإسلام في سرعة من بين أبناء شبه الجزيرة ، فقد شاركهم

في هذا الإقبال على الإسلام كثير من الأحرار ، أعجب بعضهم بالإسلام والمسلمين ، وأحب بعضهم الآخر أن يحافظ على الأرض التي تحت يده ، أو أن يخلص نفسه من عبء الجزية ، أو أن يرفع مكانته الاجتماعية بالانضمام إلى الممتازين أصحاب الدين الجديد وأولى الأمر أيضاً (١) .

ولذا لم يلبث الإسلام أن نحى النصرانية عن عرشها في شبه الجزيرة ، وصارت الغالبية العظمى من أهل البلاد مسلمين ، وصاروا يسمون بالمسلمة ، كما صار أبناؤهم يسمون بالمولدين . وإنما قلنا : الغالبية العظمى ، لأن المسلمين لم يكونوا يعيشون وحدهم في هذا المجتمع الكبير ، بل كانت تشاركهم أقلية من المسيحيين ، وكانت تلك أقلية كبيرة إن صح هذا التعبير . وقد ترك المسلمون هؤلاء المسيحيين حريتهم في البقاء على دينهم ، وفي مزاوله شعائرتهم ، فتجاورت المساجد والكنائس في ساحة ، واختلطت نداءات المآذن بدقات الأجراس في محبة ، وتعايش المسلمون والمسيحيون في الأندلس على أخوة .

وقد بهرت الحضارة الإسلامية هؤلاء المسيحيين الذي كانوا يعايشون المسلمين في الأندلس ، فأخذوا من هذه الحضارة ومن أصحابها الشيء الكثير ، فقلدوا المسلمين في لغتهم وتعلموا ثقافتهم ، بل لبسوا ملابسهم وعاشوا إلى حد كبير على نمط حضارتهم ، ولذلك سمو بالمستعربين Mozarabes

ولم يكن هؤلاء المستعربون هم وحدهم الذين يعايشون المسلمين من أصحاب الديانات الأخرى . فقد كانت إلى جانبهم جاليات يهودية ، وجدت من المسلمين كثيراً من التسامح وحسن المعاملة ، بعد أن وجدت في فتحهم لأسبانيا منقداً من الجور ، الذي كان اليهود يرزحون تحت نيره أيام القوط (٢) .

Levi : Espana musulmana, pp. 46 ff.

(١)

(٢) انظر المصدر السابق ص ٤٨ وما بعدها .
Palencia : Historia, pp. 124 ff. وانظر

وقد بلغ تسامح المسلمين مع المسيحيين واليهود الذين يعيشون في ظلال الحكومة الأندلسية، درجة تحمل على الإعجاب؛ فقد كان الأكفاء منهم موضع إجلال الحكام ومحل ثقة الأراء والخلفاء، كما كانت لهم في أغلب الأحيان مناصبهم الكبيرة، التي ترشحهم لها كفاءتهم دون عائق من دينهم المخالف لدين الدولة. ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من المسيحيين، «أرطباس» الذي كان محل ثقة بعض ولاة الأندلس، حتى كانوا يستشيرونه في أمور البلاد، والذي كان أيضاً موضع تكريم الأمير عبدالرحمن الداخل، حتى رد عليه عشرين ضيعة وولاه القمامسة، فكان أول قومس بالأندلس^(١). ومن أمثلة هؤلاء المسيحيين كذلك «حيزون» الذي كان قاضياً للنصارى بقرطبة في أيام الحكم المستنصر، والذي كانت تسند إليه مهمة الترجمة بين الخليفة وكبار الإسبان في بعض الأحيان^(٢).

ومن أمثلة من تمتعوا بالجاه والمنصب من اليهود، «حسداى بن شبروط» الطيب، الذي كان من كبار رجال الخليفة الناصر، كما كان من ذوى النفوذ الواضح لدى المستنصر^(٣). ومنهم كذلك «صمويل بن النخريثة» الأديب، الذي كان وزيراً لباديس ملك غرناطة في عهد الطوائف.

وإذا استثنينا بعض الحوادث القليلة، يمكن أن يقال: إن تلك الأقليات غير المسلمة لم تضطهد من المسلمين إلا حين سيطر الإفريقيون من مرابطين وموحدين على الأندلس.

(د) اللغات في الأندلس :

وكما انتشر الإسلام بسرعة فائقة في شبه الجزيرة، انتشرت اللغة العربية كذلك على نطاق أوسع بين سكان هذه البلاد.

(١) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرى ج ١ ص ١٨٢ .

(٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٠ .

وقد كان هؤلاء العرب الوافدين على الأندلس في شكل موجات كبيرة ، أثر كبير في نشر اللغة العربية في شبه الجزيرة . ولاشك أنه يضاف إلى ذلك إقبال أهل شبه الجزيرة أنفسهم على اللغة العربية ، لا فرق في ذلك بين مسلم وغير مسلم ، نظراً لكونها لغة الحضارة الغالبة والعلم المتفوق ، ولسان الممتازين ذوى السلطان . ولا أدل على مدى انتشار اللغة العربية في عصر مبكر بين المسيحيين أنفسهم ، من تلك الشكوى التي أطلقها أحد قساوستهم ، واسمه « ألفرو » القرطبي ^(١) Alvaro cordobes حيث يقول :

« إن إخواني في الدين يجدون لذة كبرى في قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها . وإنما لكي يكتسبوا من ذلك أسلوباً عربياً جميلاً صحيحاً . وأين نجد الآن واحداً من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التي كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ يا للحسرة !! إن المؤهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ويقبلون عليها في نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة في جميع كتبها ، ويفخرون في كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة جديدة بالإعجاب . فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية أجاوبك في ازدراء بأنها غير جديدة بأن يصفروا إليها انتباههم . باللألم !! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم فلاتكاد تجد في الألف منهم واحداً يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتاباً سليماً من الخطأ . فأما عن الكتابة في لغة العرب ، فإنك واجد منهم عدداً عظيماً يجيدونها في أسلوب منمق . بل هم ينظمون من الشعر العربي ما يفوق شعر العرب أنفسهم فتناً وجمالاً » ^(٢)

(١) كان في أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان من الذين أسهموا في إثارة النصارى وإشعال الفتنة المسماة ، بحركة الاستشهاد في منتصف القرن التاسع الميلادي .

Palencia : Historia de la Literatura arabigo-espana, p. 295.

(٢) انظر :

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي (وهو ترجمة المصدر السابق إلى العربية) ، قام بها الدكتور حسين

مؤنس (ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

وهكذا زحزحت العربية اللاتينية عن عرشها في شبه الجزيرة كما زحزح الإسلام المسيحية أيضاً . وبهذا صارت العربية اللغة الرسمية للبلاد ، كما صار الإسلام دينها الرسمي كذلك .

وقد صارت فصحي الأندلس بمرور الزمن وبمحكم البيثة الجديدة ، وبسبب احتكاك عناصرها المختلفة ، ذات خصائص محلية تميزها بعض التميز عن فصحي الأقاليم العربية الأخرى .

وقد كان من هذه الخصائص ما يتصل بالناحية الصوتية ، كما كان منها ما يتصل باستعمال الألفاظ ، فما يتصل بالناحية الصوتية ، نطق الأندلسيين للقاف قريبة من الكاف ^(١) ، وغلبة الإمالة عليهم ^(٢) . وما يتعلق باستعمال الألفاظ ، اشتقاقهم لكثير من الكلمات ، واقتراضهم لأخرى ، ثم تخصيصهم لأسماء هي في الأصل لمسميات عامة ، وتعميمهم لأخرى هي في حقيقتها للدلوات خاصة . وربما كان هذا الجانب المتصل باستعمال الألفاظ هو أبرز الجوانب التي تميز عربية الأندلس بعض التمييز . فقد كانت لهم ألفاظ خاصة كثيرة ، منها ما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، ومنها ما يتعلق بالزراعة وري الأرض ، ومنها ما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، ومنها ما يتصل بالرى وأدوات الرينة ؛ وكلها ألفاظ خاصة بالأندلسيين تقريباً ، لا يكاد يستعملها غيرهم على النحو الذي عرفت عليه عندهم .

فما يختص بالإدارة وشئون الحكم ، إطلاقهم كلمة «الوزير» على كل من يجالس الخليفة أو الملك ويعتبر من خاصته ، وإن لم يشغل هذا المنصب الرسمي المعروف . وإطلاقهم كلمة «الحاجب» أو «ذى الوزارتين» على من يكون في هذا المنصب الوزاري

(١) انظر : فصح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٥٩٢ ، ٥٩٣ .

(٢) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ١ ص ٣٥ .

الرسمى خاصة (١) . وما يتصل بالإدارة وشئون الحكم كذلك إطلاقهم كلمة «خطة» على ما يعرف بالإدارة ؛ فهم يقولون : «خطة الشرطة» و«خطة القضاء» و«خطة السوق» و«خطة الاحتساب» بمعنى الإدارات المشغولة عن تلك الشئون (٢) . وما يتصل بذلك أيضاً إطلاقهم كلمة «المسدد» على حاكم البلدة الصغيرة (٣) ، وكلمة «الدراب» على حارس الدرب (٤) .

وما يتعلق بالزراعة والرعى ، إطلاقهم كلمة «المجشر» على الضيعة . وقد أخذوا الكلمة من «الجشر» وهو القوم الذين يخرجون إلى المرعى بدوابهم ويبيتون مكانهم (٥) . وما يتعلق بهذا أيضاً ، إطلاقهم كلمة «الوادى» على النهر خاصة ، والكلمة فى الأصل لكل منخفض من الأرض بين جبال أو تلال (٦) . ومن هذا القبيل كذلك تخصيصهم كلمة «باكور» بما بكر من التين ، وإنما الكلمة لكل ما بكر من الثمار (٧) .

وما يرتبط بالبناء ووسائل العمران ، إطلاقهم كلمة «البلاط» على البيت المحسن (٨) وكلمة «الأسطوان» على الدهليز (٩) ، وكلمة «الثرية» على مجموعة المصابيح (١٠) .

وما يتصل بالزى وأدوات الزينة ، إطلاقهم كلمة «الغفارة» على البرنس أو نوع

-
- (١) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .
 - (٢) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .
 - (٣) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .
 - (٤) انظر النفع ج ١ ص ١٠١ .
 - (٥) انظر : ألفاظ مغربية ، للدكتور عبد العزيز الأهواني ص ٢٧ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٢٥ .
 - (٦) انظر ألفاظ مغربية ص ٦٦ .
 - (٧) انظر ألفاظ مغربية ص ١٩ .
 - (٨) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٦ .
 - (٩) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٦ .
 - (١٠) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٥ .

من الطيلسانات (١) ، وتخصيصهم كلمة «الأرجوان» بالصفوف الأحمر (٢) ، وكلمة «الحمار» بشقاق الحرير التي تغطي بها المرأة رأسها (٣) . ومعروف أن الأرجوان في حقيقته للأحمر من الصوف وغيره ، وأن الحمار لكل ما خرجت به المرأة رأسها من الثياب ، وهناك كثير جداً غير هذه الألفاظ مما استعمله الأندلسيون لمسميات حضارية ، وإطلاقهم «الجصافة» على ما يجفف به من قطع قماش قطني أو صوفي (٤) ، وإطلاقهم «البساطير» على ما يوضع حول عنق الصبي من قطعة قماش تصون ثيابه من اللعاب (٥) وإطلاقهم «الدادة» على المرابية (٦) .

وليس المراد حصر تلك الألفاظ الأندلسية ولا بيان أصولها ، وإنما المراد فقط إيضاح كيف تميزت عربية الأندلسيين عن عربية الأقاليم الأخرى بعض التمييز (٧) .

وكما كان الإسلام لا يعيش وحده في قلب شبه الجزيرة الأندلسية ، كانت اللغة العربية كذلك لا تحيا وحدها على لسان تلك البلاد . فلقد ثبت أن الفصحى وإن كانت اللغة العلمية والأدبية والرسمية ، قد عاشت إلى جانبها اللغة العامية ، كوسيلة للحديث العادي. وهذا أمر طبيعي تؤيده الظواهر اللغوية في كل لغة وفي كل قطر تقريباً (٨) ، حتى لا نحتاج معه إلى أدلة خاصة تؤيد حياة هذه العامية الأندلسية

(١) انظر : ألفاظ مغربية ص ٤٦ .

(٢) انظر : ألفاظ مغربية ص ١٥ .

(٣) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ .

(٤) انظر : ألفاظ مغربية ص ٢٨ .

(٥) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣٠ . والكلمة لها ما يقابلها بالإسبانية مثل : Babadero ما يدل على

أصلها اللاتيني المحلى .

(٦) انظر : ألفاظ مغربية ص ٣١ .

(٧) في الملحق الذي وضعه «دوزي» للمعجم العربية كثير من هذه الألفاظ ، وكذلك البحث الذي

نشره الدكتور عبد العزيز الأهواني باسم . «ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة» .

(٨) انظر : الدكتور إبراهيم أنيس : اللهجات العربية ص ٢٤ وما بعدها .

إلى جانب الفصحى . ومع هذا هناك أدلة عديدة تؤكد أن الأندلسيين كانت لهم عامية عربية يستخدمونها في حياتهم اليومية . ويتكلمون بها في حديثهم البعيد عن العلم والأدب والرسميات . ومن تلك الأدلة ما يتصل بالقرون الأولى لحياة المسلمين في الأندلس ، ومنها ما يتصل بالقرون الأخيرة لحياتهم هناك .

فقد ذكر ابن بسام في حديثه عن أول أندلسي اخترع الموشحات ، أن ذلك المخترع كان « يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة »^(١) وليس يعنينا الآن تفصيل القول في هذا المخترع ولا في طريقة عمله للموشحات ، لأن ذلك سيفصل في مكانه من هذا البحث^(٢) ، وإنما الذي يعنينا أن نشير إلى أن ذلك المخترع مُقَدِّم بن معاني القَبْرِي كان - كما يقول ابن بسام - يعتمد على الالفاظ العامية كركز لموشحاته ، ومقدم هذا قد عاش في أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) فكأن الأندلسيين كانت لهم في تلك السنين المتقدمة من حياتهم في الأندلس عامية يعتمد عليها مثل هذا الفنان فيما يصوغ من موشحات .

كذلك يذكر ابن سعيد المغربي ، وهو من أدباء القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) « أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشَّلَوْبِي أبي علي المشار إليه بعلم النحو . . وهو يقرئ تلاميذه لضحكك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه . والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجرى على قواعد النحو استقلوه واستردوه »^(٣) .

وحديث ابن سعيد يفيد - كما هو واضح - أن الأندلسيين ، بل الثقفين

(١) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٢) انظر الفقرة الخاصة باختراع الموشحات في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٣) المقرئ : نفع الطيب ج ١ ص ١٠٣ .

والعلماء منهم . كانوا يتكلمون عامية كثيرة الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية ، وأن تلك الظاهرة كانت موجودة بين الأندلسيين ، وليست فقط في عهدهم الأول بشبه الجزيرة ، حيث يمكن أن يقال إن العربية لم تكن قد استقرت بعد ، وإنما كانت موجودة أيضاً في عهدهم المتأخرة ، حيث مضت قرون على دخول العربية إلى الأندلس ، وحيث انتشر تعليمها وتعددت معاهدها وكثر أساتذتها وشاعت مؤلفاتها .

وقد كانت هذه العامية الأندلسية ذات سمات محلية ما زالت تزداد بمرور الزمن ، حتى جعلت من تلك اللهجة شيئاً غريباً عسير الفهم على غير الأندلسيين وقد كان من تلك السمات^(١) ما يلي :

إدماج الفعل المساعد (كان) في الفعل المضارع الذي يتلوه ، بحيث تحذف نون (كان) وتبقى الكاف فقط ، فيقال في كان يقول « كيقول » .

إدماج (في) الجارة ، في الاسم الداخلة عليه ، والاكتفاء أحياناً بالفاء متصلة بهذا الاسم ، ونطقها بين الكسر والفتح .

استعمال ظروف خاصة هي ليست في الأصل ظروفاً ، مثل استعمال كلمة (عاد) بمعنى (بعد) التي تأتي عادة مع الفعل المنفي ، فيقال « لم أفعل هذا عاد » بدلا من « لم أفعل هذا بعد » . ومثل استعمال الحرف (يا) ظرفاً للحال ، فيقال « يا أكلت » بدلا من « قد أكلت الآن » .

استعمال المثني بالياء والنون دائماً وإبقاء الفتحة قبل الياء . واستعمال فعل الأمر للمذكر والمؤنث بلفظ واحد . واستعمال المضارع المسند للمتكلم وحده أو المتكلم ومعه

(١) استخرج هذه السمات وكثيراً غيرها الأستاذ الدكتور عبد العزيز الأهماني في بحثه عن « الزجل في الأندلس » . انظر مقدمة هذا المرجع ، صفحات : ز ، ح ، ط ، وانظر شرحه لما يرد في النصوص من ألفاظ أندلسية عامية .

غيره بالنون في الحالتين ، فيقال في « أقوم » « نقوم » . ومن هذا التوسع في الاستعمال أيضاً . عدم تخصيص (قد) بالفعل ، وإدخالها على الاسم .

تسكين أواخر الكلمات ، وتحريك هذه الأواخر بالفتح حين يراد التخلص من الساكنين .

قطع بعض الكلمات ، وكتابتها على حالها بعد القطع ، فيقال مثلا : (ه) أي « هو » ويقال (ل) أي « له » .

استعمال كثير من الألفاظ غير العربية . وأبرز ما كان من ذلك ، تلك الألفاظ المقترضة من اللاتينية المحلية ، مثل (ألمسا) أي نفس . و(ألبا) أي فجر ، و(إشنت) أي هذا ، و (مطر) أي أم^(١)

كذلك ثبت أن الأندلسيين لم يكونوا يعرفون العربية فصحي وعامية فقط ، وإنما كانوا يعرفون إلى جانبها لغة أجنبية أخرى ، هي إحدى اللهجات العامية المتفرعة من اللاتينية . وكانت هذه اللاتينية العامية لغة الإسبان عند الفتح العربي . لأننا نعرف أن اللاتينية كانت قد دخلت إسبانيا مع الرومان ، وطبعي أن تتطور هذه اللاتينية على ألسنة الإسبان بعد انتقالها من موطنها الأصلي إلى شبه الجزيرة الإيبيرية . ومن هنا كانت تلك اللهجة اللاتينية العامية التي يسميها العلماء « رومانثي » Romance ، ثم كانت معرفة مسلمي الأندلس لها عن طريق هذا الامتزاج التام الذي حدث بين العرب الوافدين وكثير من الإسبان الأصليين بسبب كثرة الزيجات العربية الإسبانية ، وإنتاج أجيال جديدة يتكلم آباؤها العربية وأمهاتها الرومانثي ؛ فطبعي أن يعرف الأبناء لغة الأمهات كما يعرفون لغة الآباء^(٢) .

(١) هذه الألفاظ يقابلها في الإسبانية : Alma Alba. Este. Madre .

(٢) صاحب نظرية معرفة الأندلسيين لهذه اللاتينية العامية هو المستشرق الإسباني (غوليان ريبيرا)

. Julian Ribera

أنظر كتابه : Disertaciones y opusculos, vol. 1, pp. 28 ff

كذلك كانت معرفة الأندلسيين بتلك اللغة غير العربية ، عن طريق دخول أسر إسبانية كثيرة في الإسلام ، وهي تعرف لغتها الأصلية بطبيعة الحال ، إلى جانب اللغة العربية المتعلمة .

ثم لا يمكن أن يغفل هذا التعايش المتصل بين من ينتمون إلى أصول عربية وهم المسلمون ، ومن ينتمون إلى عناصر إسبانية وهم المسيحيون ، فهؤلاء لغتهم الأصلية « الرومانشي » ، ومن شأن المعاشة أن تتيح لكل من المتعاشين التعرف على لغة صاحبه .

وليس يُعتمد فقط على تلك الأدلة النظرية ، لإثبات معرفة الأندلسيين باللغة « الرومانشي Romance » بل هناك كثير من الأدلة التي تؤيد معرفة مسلمي الأندلس بتلك اللغة .

من تلك الأدلة ما ذكره المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم ، من أنه التقى في موسم الحج ببعض الأندلسيين ، وأنه وجدهم يتكلمون لغة عربية عسيرة الفهم ، ولغة أخرى أعجمية . فتلك العربية عسيرة الفهم ، هي العامية الأندلسية ذات الخصائص المعينة التي ربما سببت عسر فهمها على المقدسي . وتلك الأعجمية التي يشير إليها هذا الجغرافي ، ليست إلا تلك اللغة التي يسميها الباحثون « رومانشي »^(١) .

ومن أدلة معرفة الأندلسيين لتلك اللغة الأجنبية أيضاً ، ما حكاه الخُشَنبِيّ في كتابه تاريخ قضاة قرطبة ، من أن قاضياً شكته العامة إلى الأمير عبد الرحمن الثاني ، فأمر الوزراء بسماع الشهادة فيه ، وكان بالمدينة شيخ أعجمي اللسان يسمى « ينير » Yenair وكان مقدماً عند القضاة ، مقبول الشهادة مشهوراً عند العامة بالخير وحسن المذهب ، فأرسل إليه الوزراء وسألوه عن القاضي فقال بالعجمية : « ما أعرفه ، إلا أني سمعت الناس يقولون : إنه إنسان سوء (وصغر باللفظ العجمي) . فلما رفع قوله إلى الأمير -

(١) انظر المرجع السابق .

رحمه الله - عجب من لفظه ، وقال : ما أخرج مثل هذه الكلمة من هذا الرجل الصالح إلا الصدق ^(١) .

وواضح أن ما حكاه الخشني يدل على أن من أهل الأندلس من كان كهذا الشيخ يتحدث بتلك اللغة العجمية أو « الرومانتي » كما تسمى . وواضح كذلك أن من كبار رجال الدولة من كان يفهم تلك اللغة أيضاً . كما فهم هؤلاء الوزراء حين سمعوا شهادة الشيخ ، بل كما فهم الأمير عبد الرحمن الأوسط ، حين رفعت إليه عبارة الرجل ، فأعجب من دقتها ، واعتبر أن مصدر هذه الدقة هو الصدق .

ومن تلك الأدلة التي تساق لتأكيد معرفة الأندلسيين « بالرومانتي » ما رواه ابن حزم في كتابه جمهرة أنساب العرب ، وفي حديثه عن بعض فروعهم المسمين بنى بكري ، إذ يقول مميّزاً لهم : « لا يحسنون الكلام باللطينية ، لكن بالعربية فقط ، نساؤهم ورجالهم » ^(٢) .

فتخصيص ابن حزم لبني بلج بهذه الميزة اللغوية - ميزة عدم إحسان الكلام باللطينية - يفيد أن غير هؤلاء من الأندلسيين كان يحسن الكلام بها ، أو أن كثيرين غير هؤلاء كانوا يتحدثون بتلك اللغة التي سماها باللطينية ، فأصبح عدم إحسان بني بلج لها ميزة تستحق التنويه .

ثم لماذا نتصيد الأدلة على وجود عامية عربية وعامية لاتينية إلى جانب الفصحى في الأندلس ؟ إن في تراث الأندلسيين لوناً من الشعر ، في كثير من نماذجه قد استخدمت ألفاظ عامية وأخرى رومانية ، ذلك اللون هو ما يسمى بالشعر الشعبي الذي يتفرع إلى فرعين هما الموشحات والأزجال ، وسوف نفرّد لهذا الشعر الشعبي حديثاً في هذا الكتاب ،

(١) الخشني : تاريخ قضاة قرطبة ص ٩٦ .

(٢) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (محقق ليث برونسال) ص ١٤٥ .

وسوف تتضح في جلاء معرفة الأندلسيين للعامة والرومانشي ، من خلال تلك النماذج التي سرد لهذا الشعر الشعبي (١).

على أنه يجب أن نقرر أن العربية الفصحى كانت دائماً في المحل الأول ؛ فكانت لغة العلم والأدب العالی ، كما كانت لغة الرسميات وكل ما هو جاد من أمور الدولة . أما العامية العربية فكانت تلي تلك الفصحى في المنزلة ؛ وذلك لاستنادها إلى الفصحى وتفرعها عنها وقربها منها . وأما تلك العامية اللاتينية Romance ، فكانت في المحل الأخير بطبيعة الحال . وكانت تحيا أساساً بين المستعربين ، باعتبارها لغتهم الأصلية ، أما غيرهم فكانوا يعرفونها من معاشتهم لهؤلاء أو من كون بعض أصولهم أو أقربائهم من الإسبان المتحدثين بتلك اللغة . ومن هنا كان حديث غير المستعربين بتلك اللغة ، إنما يكون مثلاً بين الرجل وامرأته التي هي إسبانية الأصل . أو بين المرأة الإسبانية وبنيتها من رجل عربي ، أو بين مسلم ومستعرب لا يجيد العربية .

(٥) الشخصية الأندلسية :

عُرف الأندلسيون بشخصية متميزة ، أسهم في تكوينها إقليمهم وأصلهم وموضع بلادهم واقتصاد بيئتهم (٢).

أما الإقليم ، فقد عرفناه مختلف الطبيعة مقسم الجهات متباين الأصقاع ، وقد سبب هذا اختلافاً في طبيعة السكان وتقسمها في نزعاتهم وتبايناً في ميولهم منذ أقدم العصور ؛

(١) انظر البحث الخاص بالموشحات في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

(٢) نقرر أن كثيراً من مظاهر الشخصية المذكورة في هذا الحديث ينطب في عصر دون عصر ولكننا نحاول رسم صورة تقريبية ، لأن لكل عصر في الحقيقة طابعه المنعكس على الأفراد والمكون لشخصياتهم أو المنعبر لها بعض التغيير ، هذا بالإضافة إلى تغير الشخصية من واحد إلى آخر على ما هو معروف . فهذه خطوط تقريبية وعامة إلى حد كبير .

فهم بين جلالقة^(١) في الشمال الغربي، وقطلانيين^(٢) في الشمال الشرقي، وبشكنس^(٣) في الشمال، وقشتاليين^(٤) في الوسط، وجنوبيين^(٥) فيها وراء الجبال السمراء.

ولما دخل المسلمون هذه البلاد كان لذلك الانقسام الجغرافي أثر في انقسام الأندلسيين في كثير من الأحيان، وقد ساعد على هذا اختلاف العناصر التي ينتمي إليها هؤلاء الأندلسيون من عرب إلى بربر إلى إسبان.

وقد اتضح هذا الانقسام الذي سببته الطبيعة وغذاه الدم، حتى ليلاحظ في أغلب العصور الأندلسية المعروفة. فلم يخل عصر تقريباً من ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك، أو من حركة انفصال تحاوطها هذه المنطقة أو تلك، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء أو أولئك. وكان من نتائج ذلك أن كثر إرسال الجيوش وقيادة الجند، إن لم يكن لإخضاع ثورة لإقليم مسلم، فلرد هجمة جيش مسيحي، وإن لم يكن لسد بعض الثغور، فلتأمين بعض الحدود، وشواهد ذلك كثيرة في كتب تاريخ الأندلس.

وقد سبب ذلك نوعاً من القلق في المجتمع الأندلسي فكان في كثير من عهوده مجتمعاً قليل الاستقرار كثير الهزات.

ومن هنا يمكن أن نتصور الشخصية الأندلسية التي عاشت في ظلال هذه الظروف، شخصية قد عانت نوعاً من القلق، جعلها تسعى إلى ما يشعر بالأمن أو إلى ما يسكن على الأقل بعض هذا القلق. وربما كان ذلك من أسباب ما نعرف من ميل الأندلسيين إلى ألوان من المتعة وصنوف من اللهو، كالشراب والغناء والرقص والموسيقى، وما أشبه ذلك مما كان يكلف به الأندلسيون.

Gallegos (١)

Catalanes (٢)

Vascos (٣)

Castillanos (٤)

Andaluces (٥)

على أن طبيعة بلاد الأندلس المقسمة المتباينة ، إن سببت هذه الظاهرة السيئة في حياة المجتمع وفي نفوس أفراده - وأغنى ظاهرة القلق - فقد عوضت تلك الطبيعة نفسها هذا النقص بظاهرة حسنة ، كان لها أثر حميد في نفوس الناس وطباعهم ، ثم في فنونهم وآدابهم . ذلك أن الأندلسيين - كما ذكرنا - عاشوا أكثر ما عاشوا في تلك السهول الخصبة ذات الجمال الطبيعي الفاتن ، وقد انعكس هذا على الناس خصوصية في خيالهم ، وجمالاً في طباعهم ، ورقة في أحاسيسهم ، وأخرج منهم أناساً يغلب عليهم طابع المحيين للجمال مشاهدة وتمثلاً ، ثم محاكاة وتصويراً .

هذا ما كان من تأثير طبيعة الإقليم على الشخصية الأندلسية ، أما ما كان من تأثير لأصل الأندلسيين ودمائهم وعوروثاتهم ، فقد عرفنا الأندلسيين مولدين من عرب وإسبان ومن شرفيين وغربيين ، وعرفنا الإسبان من قبل العرب مولدين بدورهم ، فقد اختلطت فيهم دماء الإيبيريين بدماء السلتيين ، ثم بدماء الفينيقين والإغريق والقرطاجنيين والرومان والوندلس والقوط . فلما جاء العرب أخيراً كان الأندلسيون آخر الأمر ، خلاصة كل هذا التوليد ونتيجة كل ذلك الاتصال . وكان من نتائج ذلك أن أتى العنصر الأندلسي المولد ذا خصائص خلقية وخلقية وعقلية ونفسية مميزة جاءت كلها نتيجة لهذا التولد من تلك العناصر التي اختلطت منذ أقدم العصور .

وكان أهم هذه الخصائص الخلقية : البياض المشرب بحمرة ، وقد يمتزجان فيصيران سمرة في الجنوب . ثم القوام المعتدل الطول ، والشعر الذي يغلب عليه السواد . كل ذلك مع الوسامة في الملامح والجمال في التكوين^(١) .

(١) راجع ما وصف به لسان الدين بن الخطيب أهل غرناطة في كتاب ، الإحاطة (ج ١ ص ٢٤ - ٢٥) ، وتلك الأوصاف تطبق إلى حد ما على الأندلسيين لأن كثيراً من سكان غرناطة قد جاؤاها من باقي الأقاليم الأندلسية بعد أن أصبحت هذه المملكة كل ما بقى للمسلمين في الأندلس . على أن صور الأندلسيين قد تدل عليها صورة الإسبان اليوم . وهي قريبة من الأوصاف التي ذكرناها .

أما خصائص الأندلسيين من الناحية الخلقية ، فقد كانت المحافظة على الأصول الأخلاقية العامة ، لكن مع ميل إلى التحرر والانطلاق ، وحب للترخص وبغض للترمت . ومن هنا كانوا يكلفون بالشراب الذي ساعدت عليه وفرة الكروم في بلادهم ^(١) . كما كانوا يهيمون بالموسيقى والغناء والرقص ، وهي فنون ربما كانت أنسب شئء إلى ظروفهم النفسية ، المطالبة بنوع من التنفيس .

وربما كان من خصائص الأندلسيين فيما يتعلق بالأخلاق - أو إن شئت فقل فيما يتصل بالعادات - كلفهم الشديد بالنظافة ^(٢) وحبيهم العظيم للتأنيق ، وسيلهم الواضح إلى الزينة ^(٣) ، ثم انفرادهم بتقاليد في الزي تخالف ما كان عليه أهل الأقاليم الإسلامية الأخرى ^(٤) .

فهم مثلا كانوا - في بعض عهودهم - يميلون إلى كشف الرأس وعدم لبس العمام ونحوها مما كان يستعمل في الأقاليم الإسلامية حينئذ . كما كان المعمون بحكم مناصبهم كالفقهاء والقضاة يتخذون عمام مغايرة تماماً لما كان عليه المشاركة . كذلك كانت ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة بهم ، لا يكاد يعرفها إخوانهم في المشرق ، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشاركة في تقاليد الزي ، اتخاذهم البياض لوناً للحداد ^(٥) .

(١) بلغ إقبالهم على الشراب إلى حد أن الحكم المنتصر هم بقطع الكروم وإراقة الأشرطة في أقاليم الأندلس . انظر جنوة المقتبس للحميدى ص ١٤ .

(٢) انظر : فتح الطيب للمقرئ ، ج ١ ص ١٠٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٣ - ١٠٤ ثم ج ٢ ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) انظر : فتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٠٣ .

(٥) وما ورد مشيراً إلى تلك العادة قول الشاعر أبي الحسن الحمصى :

إذا كان البياض لباس حزين بأندلس فذاك من الصواب
أم ترفى لبس بياض شيبى لأنى قد حزنت على شبابى

أما خصائص الأندلسيين العقلية فأهمها : الذكاء الذي يميل إلى البساطة أكثر مما يميل إلى التعقيد ، والتفكير الآخذ باليسر النافر من التفلسف . ومن هنا كانوا يعدون كثيراً عن التفرع والتعمق والتفلسف في أحوالهم العقديّة والثقافية والفنية أيضاً .

على أن من أهم خصائص الأندلسيين من الناحية النفسية ، ذلك الإحساس الذي يكاد يكون مركب نقص عاناه الأندلسيون بسبب وضعهم من المشاركة . فالمشاركة كانوا في مهد الثقافة الإسلامية ، وبلادهم منع اللغة العربية ، وأقاليمها مصدر الانجازات الأدبيّة ، فكل شيء عقدي أو عقلّي أو فني يظهر أولاً في المشرق ويأخذ منه المشاركة بما يشاءون ، ثم يفد بعد ذلك على الأندلس . وذلك كان بسبب قرب المشاركة من المصدر وبعد الأندلسيين عن هذا المصدر . ولهذا كان الأندلسيون يحسون بنوع من التخلف عن المشاركة ، ويحاولون دائماً أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم برغم بعدهم ، وسبقهم برغم غربتهم . ومن هنا نراهم يتعصبون للدين تعصباً شكلياً ، حيث يتعلقون بمذهب مالك مثلاً تعلقاً يوشك أن يكون جموداً ، هذا على حين يترخصون في كثير من الأمور ترخصاً ربما كان مخالفة صريحة للدين من أساسه .

كذلك نراهم يتعصبون للغة تعصباً ظاهرياً أيضاً ، حيث يقتنون بعلم النحو مثلاً ويقتلونه درساً وتأليفاً ، ثم هم في الوقت نفسه يتخذون حياتهم لغة أبعد ما تكون عن النحو بل ربما كانت أبعد ما تكون عن العربية نفسها .

كما نراهم يتعصبون للأدب التقليدي تعصباً صوريّاً . فيتلقفون مذاهبه ويهضمون اتجاهاته ويحفظون مؤلفاته ، ويتسابقون إلى عمل مثلها أو أحسن منها . كل هذا مع اختراعهم أشكالاً جديدة من الأدب ، تبعد كل البعد عن تلك الأشكال التقليدية التي يأخذون بها أنفسهم حين ينظرون إلى الأدب الوارد إليهم من المشرق .

وهكذا نرى ذلك الإحساس بالنقص أمام المشاركة كان يدفع إلى كل ما يلاحظ

في حياتهم من تقليدية في الدين والثقافة والأدب ، على حين يجذبهم شيء آخر إلى التحرر والانطلاق والتجديد. هذا الشيء هو بُعد بلادهم عن المشرق ، واختلاط عناصرهم بعناصر أجنبية عن العرب ، واتصالهم بمؤثرات تفتح أعينهم على كثير مما ليس في تقاليد الحياة الإسلامية العربية . ومن هنا يمكن أن نفسر هذين الجانبين من حياة الأندلسيين : الجانب التقليدي الصارم الذي جاء بدافع حب التفوق على المشاركة فيما سبق إليه المشاركة ، ثم الجانب التحرري المنطلق الذي جاء من البيئة النائية والأصل المولد والمجتمع المختلط .

بقي أن نقول : إن اقتصاد بيئة الأندلس قد أسهم كذلك في تكوين شخصية الأندلسيين ؛ فقد كانت الأندلس في أغلب عهدها بيئة غنية بالزراعة النامية التي أدخل المسلمون كثيراً من طرقها وأدواتها ونباتاتها ، والتي لا تزال آثارها باقية إلى اليوم ، في المزارع الإسبانية المحافظة على كثير من الأسماء العربية في المكان والنبات والآلة على السواء^(١).

ولم تكن الزراعة هي مصدر الرخاء الوحيد ، بل كانت هناك الصناعة أيضاً ، وكانت تعتبر من أهم دعائم الاقتصاد الأندلسي حينئذ ، فقد وفد على الأندلس بعد الفتح كثير من الصناع المهرة الذين جاءوا من مختلف الأقاليم الإسلامية ، وساعدتهم موارد الأندلس الأصلية على تأسيس صناعات وتنمية أخرى ، حتى اشتهرت مدن كثيرة بصناعات لا يزال أثرها حتى اليوم ، مثل قرطبة وشهرتها بالمنسوجات ، وألمرية وشهرتها بمنتجات الفخار ؛ ومثل قونقة التي عرفت بمصنوعات العاج ، وشاطبة التي نبغت في صناعة الورق ، وطليلطة ذات التفوق في إنتاج السيوف وعدد الحرب .

(١) من أمثلة أدوات الزراعة الباقية إلى اليوم Acequia, Aljibe, Alcaduz ومعناها : الساقية ، الجب ، القادوس .

ومن أمثلة المزرعات التي لا تزال تحمل الاسم العربي Arroz, Azucar, Aceituna ومعناها : الرز ، السكر ، الزيتون .

هذا وقد كان للتجارة شأن كبير في المجتمع الأندلسي . ولاشك أن ثغور الأندلس العديدة ومنتجاتها الكثيرة بما شجع على رواج التجارة الأندلسية ؛ فقد كانت إشبيلية تصدر القطن والزيت ، كما كانت تستورد المنسوجات المصرية الشهيرة . وتستقبل كذلك قوافل الرقيق من آسيا وأوروبا ، وكانت هذه التجارة غير الإنسانية رائجاً في تلك العهود . كذلك كانت جيان ومالقة تصدران التين والسكر والمرمر ، على حين تصدر بلاد أندلسية أخرى النحاس وأنواعاً مختلفة من المعادن .

وكانت أهم أسواق بضائع الأندلس في إفريقيا وآسيا وخاصة مصر والقسطنطينية وكان البيزنطيون يتلقون منتجات الأندلس ، ويصدرونها بدورهم إلى آسيا الوسطى والهند . وبالإضافة إلى كل هذا كانت هناك علاقات تجارية للأندلس مع باقي بلاد العالم الإسلامي وعواصمه كحكة وبغداد ودمشق^(١) .

وليس من شك في أن الرخاء الاقتصادي يسهم في تكوين الشخصية ، لهذا كان الأندلسيون بهذا الرخاء الذي غلب على حياتهم ، قادرين على مواجهة الحياة في ابتسام وتفاؤل وفتح إلى حد كبير . كذلك كان هذا الرخاء من عوامل إقبالهم على الثقافة وتعلقهم بالأدب واقتنائهم للكتب . ومن هنا كان المجتمع الأندلسي مجتمعاً مثقفاً متأدياً ، بل كان أكثر مجتمعات أوروبا ثقافة وأدباً في تلك العصور ، بل إن شئت فقل : كان هو المجتمع الأوربي الذي يمكن أن يتصف بالثقافة والأدب حينذاك .

الفصل الأول
فبئرة الولاة

١ - فترة منازعات وحروب :

أهم ما تتسم به فترة الولاة من الناحية السياسية أنها فترة منازعات وحروب^(١)، فهي فترة الفتح وما يتبعه من تأكيد سلطان الفاتحين بتتبع الفارين والمناوئين؛ ثم هي فترة المنافسة على الولاية والمنازعة في السلطة، بين العرب والبربر أولاً، ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانياً. وهكذا شهدت تلك الفترة من تاريخ الأندلس كثيراً من الحملات الحربية. التي كانت تسير إلى لقاء الفرنجة عبر البرانس حيناً، وإلى لقاء الإسبان في الأقاليم الشمالية من شبه الجزيرة حيناً آخر. كذلك شهدت تلك الفترة كثيراً من الثورات، يقوم بها البربر ضد العرب تارة، ويشنها بعض العرب ضد واليهم تارة أخرى، وكتب التاريخ تورد لنا أسماء أربعة وعشرين والياً^(٢) قاموا بالأمر تبعاً في الأندلس خلال تلك الفترة، التي لا تبلغ نصف القرن. وهذا وحده كاف في

(١) انظر : أخبار مجموعة ص ١٩ - ٥٨ . وابن القطوية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٠ -

١١ . وابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠ - ٥٦ .

وانظر أيضاً : Levi : Espana musulmana, pp. 22 ff.

(٢) هؤلاء الولاة هم : طارق بن زياد (٧١٠ - ٧١١) م وموسى بن نصير (٧١١ - ٧١٣)

وعبد العزيز بن موسى (٧١٣ - ٧١٥) وأيوب بن حبيب (٧١٥ - ٧١٥) والحرب بن عبد الرحمن (٧١٥ -

٧١٨) والسلم بن مالك (٧١٨ - ٧٢٠) وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي (٧٢١ - ٧٢١) وعنبسة بن مجيم

(٧٢١ - ٧٢٥) وعذرة بن عبد الله الفهري (٧٢٥ - ٧٢٥) ومجيم بن سلمة الكلبي (٧٢٥ - ٧٢٨)

وحذيفة بن الأحوص (٧٢٨ - ٧٢٨) وعثمان بن أبي نعمة (٧٢٨ - ٧٢٩) والهيثم بن عبيد (٧٢٩ -

٧٢٩) ومحمد بن عبد الله الأشجعي (٧٢٩ - ٧٣٠) وعبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية (٧٣٠ - ٧٣٢)

وعبد الله بن قطن (٧٣٢ - ٧٣٤) وعقبة بن حجاج (٧٣٤ - ٧٤٠) وعبد الملك بن قطن للمرة الثانية

(٧٤٠ - ٧٤٠) وبلج بن بشر (٧٤٠ - ٧٤١) وثعلبة بن سلمة العامل (٧٤١ - ٧٤٢) وأبو الخطار

حسام بن ضرار (٧٤٢ - ٧٤٤) وثوابة بن سلمة (٧٤٤ - ٧٤٦) وعبد الرحمن بن كثير (٧٤٦ -

٧٤٦) ويوسف الفهري (٧٤٦ - ٧٥٥) .

نصور ما كانت عليه سياسة الأندلس في هذه الفترة من اضطراب وعدم استقرار . فالحكم الإسلامي كان لا يزال في طور البدء بتلك البلاد، ولم يكن قد أصاب حظاً من الاستقرار المطمئن بعد، ولم تكن الحكومة الإسلامية هناك قد وطدت سلطانها على الأقاليم الشمالية، التي تلوذ بها جماعات فارة متربصة . كذلك لم تكن الحكومة الإسلامية قد أمنت حدودها ضد الفرنجة فيما وراء البرانس . وبعد ذلك كله لم يكن المسلمون أنفسهم على وفاق دائماً في تلك الفترة من حياتهم بالأندلس ؛ فالعرب قد تفردوا بالسهول الحصينة ، وجعلوا منهم الولى وغيره من حكام الأقاليم ، أما البربر فقد أفردوا بالمناطق الجبلية والأقاليم النائية، وحرموا من الولاية وبما يشبه الولاية من رياسات . والعرب أنفسهم قد جاءوا إلى الأندلس بعصبياتهم ولم ينسوا العداوات القديمة بين عدنان وقحطان .

ومن هنا كانت الحروب الدينية بين المسلمين والإسبان والفرنجة أولاً ، وكان النزاع العنصرى الدموى بين العرب والبربر ثانياً . ثم كان الصراع القبلى بين العرب أنفسهم آخر الأمر . لهذا كله كانت السمات السياسية لتلك الفترة هى النزاع والصراع ، والاضطراب والقلق .

٢ - مجتمع مفكك قلق :

وقد كان أكثر الداخلين إلى الأندلس في تلك الفترة من أهل الحرب والحكم ، وكانوا في أول لقاءهم بسكان هذه البلاد ، وفي أولى مراحل التعرف إليهم والانصال بهم . وبالرغم من أن هؤلاء السكان الأصليين كانوا يقبلون على الإسلام ويحاولون تعلم العربية ، وبالرغم من أن الوافدين كانوا يتزوجون منهم ويعيشون في البلاد معهم ؛ قد كان قرب العهد بالفتح لا يزال يطبع المسلمين بطابع الغرباء ، ويطبع الإسبان بطابع المواطنين ، فكان المجتمع لم يتم توحيده بل لم يتم ترابطه . فإذا أضفنا إلى ذلك ما تعكسه المنازعات

والحروب التي كانت أهم مومات السياسة في تلك الفترة ؛ تصورنا المجتمع في تلك السنوات من تاريخ الأندلس ، مجتمعاً مقسماً مفككاً ؛ فيه عرب وفيه بربر ، وفيه إسبان مسلمون وغير مسلمين ، ثم تصورناه قبل ذلك مجتمعاً لا استقرار فيه ولا هدوء ؛ فهو بين جيوش تسير ، وثورات تشب ، ووال يعزل ، وآخر يقتل . وكل هذا من شأنه أن يصيب المجتمع بأنواع من الاضطراب الحسي والنفسي ؛ تعوقه عن كل ما هو في صالح تقدمه ونهوضه .

٣ - الأشعة الأولى للثقافة الإسلامية :

لسنا - بعد ما تقدم - ننتظر ثقافة لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، فالفترة فترة منازعات وحروب ؛ والمجتمع مفكك قلق ، مضطرب الحس والنفس جميعاً . وأغلب الداخلين إلى الأندلس جنود وحكام ، شأنهم المعارك والسياسات لا العلوم والثقافات . ومع ذلك قد عرفت الأندلس في فترة الولاة نوعاً من الثقافة ، كان بمثابة خيوط الفجر الأولى ، التي تؤذن بصبح مشرق . فقد دخل الأندلس في فترة الولاة نفر من الصحابة والتابعين ^(١) ، الذين كانوا على حظ من المعرفة الدينية ، وكانوا يصحبون الجند أو يفدون بعد الفتح ، للإفتاء فيما يعن للمسلمين من أمور الدين ، كتقسيم المغنم وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد ، وتفقيه الناس ^(٢) . وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوائل المدارس الأندلسية ، حين أنشئت أوائل المساجد في إشبيلية وقرطبة وغيرها

(١) من الصحابة: المنبذ . ومن التابعين: موسى بن نصير ، وعلى بن رباح ، وحش الصنعاني ، وابن يزيد الممازري ، ونشيط بن كنانة العذري ، وحيوة بن رجاء التيمي ، وعياض بن عقبة الفهري ، وعبد الجبار بن أبي سلمة . انظر : المقرئ : نفتح ج ٢ ص ٥١ وما بعدها ، والمراكشي : المعجب ص ٩ - ١٠ .

(٢) من المعروف أن عمر بن عبد العزيز بعث عشرة من التابعين إلى إفريقية لتثقيف الناس . والعلاقة كانت وثيقة بين إفريقية والأندلس . انظر : رياض النفوس لأبي بكر المالكي ج ١ ص ٦٤ وما بعدها .

من البلاد ، وأن عنايتهم كانت قبل كل شيء بتدريس كتاب الله وسنة رسوله ، وبلغه القرآن والحديث^(١) .

وليس من شك في أن الحياة الثقافية كانت متواضعة أشد التواضع ، وأنها لم تكن تتجاوز حلقات في بعض المساجد التي كانت قليلة حينذاك ، كما كان الأساتذة قليلين أيضاً بطبيعة الحال .

٤ - البذور الأولى للأدب العربي :

وكما عرفت تلك الفترة نوعاً متواضعاً من الثقافة ، عرفت كذلك قدرأ ضئيلاً من الأدب ، وكما وفدت الثقافة المتواضعة مع نفر من العلماء كانوا ممن خدموا الولاية الإسلامية حينئذ ؛ وقد الأدب الضئيل أيضاً مع نفر من الأدباء كانوا ممن عملوا في الولاية الأندلسية في تلك السنين . وكما كان هذا القدر المتواضع من الثقافة بمثابة الخيوط الأولى لفجر الثقافة الأندلسية ، كان هذا الحظ الضئيل من الأدب بمثابة بذور الأدب الأندلسي الذي سيزدهر بعد حين . وفيما يلي كلمة عن كل من جنسى الأدب :

(١) الشعر :

كان من بين العرب الوافدين على الأندلس في فترة الولاة نفر ممن يقرضون الشعر وقد حفظت لنا المراجع بعض أسماء هؤلاء ، فمنهم :

أبو الأجرى جَعَوْنَةَ بن الصَّمَّة . وهو من العرب الطارئين على الأندلس ، وقد اشتهر بهجاء الصَّمَمِيل بن حاتم رئيس القيسية هناك . واشتهر أيضاً بمدح الصمائل بعد

(١) استفاد ذلك مما ذكر صاعد في : طبقات الامم ، حيث قرر أن عناية الأندلسيين كانت فقط بعلوم الدين واللغة حتى تولد الملك لبني أمية (ص ٦٢) .
وانظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٤٠ - ٤١ .

أن تمكن منه فعفا عنه . وقد قيل إن هذا الشاعر كان في مرتبة جرير والفرزدق ، وأنه لو أنصف لاستشهد بشعره . كذلك روى أن أبو نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسي ، وطلب أن يسمع شيئاً من شعر جعونة ، وذلك حين التقى أبو نواس بابن ناصح في العراق (١) .

ومع كل ذلك ليس بين أيدي الباحثين اليوم إلا قليل جداً من شعر هذا الشاعر ، الذي اهتم به أبو نواس ، والذي قيل إنه في مرتبة جرير والفرزدق ، والذي قيل إنه كان يجب أن يستشهد بشعره . ومن هذا القليل الذي حفظ من شعر جعونة قوله :

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أفرع
والعيشُ أعيدُ ساقطُ أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع (٢)

ومن شعراء تلك الفترة كذلك :

أبو الخطار حسام بن ضيرار . . وقد كان من أشراف القحطانيين في الأندلس ، ومن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلاوا فيها . وقد وفد على الأندلس والياً سنة ١٢٥ هـ - ٧٤٢ م أيام هشام بن الملك . وكان شاعراً فارساً ؛ ولذا لقب بعنزة الأندلس (٣) . وهو كسابقه . لم يعثر إلى اليوم إلا على قليل من شعره . فمن ذلك قوله في ثأر أخذه لعزير من قومه :

فليت ابن جواسٍ يجبر أنبي سعتُ به سعي امرئٍ غير عاقلٍ

- (١) راجع في أخبار الشاعر : ابن سعيد : المغرب ج ١ ص ١٣١ - ١٣٢ . والمقري : نفع ج ٢ ص ١٥٦ . والضبي : بغية الملتمس . ترجمة رقم ٦٢٢ والحميدى : جذوة المقتبس ١٨٧-١٨٨ .
- (٢) ورد هذان البيتان بهذا التحقيق في المغرب ج ١ ص ١٣٢ .
- (٣) انظر في أخبار أبي الخطار : بغية الملتمس للضبي ت ٦٨٦ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ١٨٨ - ١٨٩ ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ١٨ - ١٩ ، وأخبار مجموعة ص ٥٦ - ٦٠ .

قَتَلْتُ بِهِ تَسْعِينَ تَحْسِبُ أَنَّهُمْ جَذُوعٌ نَحِيلٌ صُرِّعَتْ فِي الْمَسَائِلِ
 وَلَوْ كَانَتْ الْمَوْتَى تَبَاعَ اشْتَرِيتهُ بَكْنِي وَمَا اسْتَشْنَيْتِ مِنْهَا أَنَامِلِي^(١)

ومن شعره أيضاً قوله في معاتبة للحكام المروانيين على نصرتهم للقيسين على اليمنيين :

أفأتم بنى مروان قيساً دماغنا وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
 كأنكم لم تشهدوا « مرج راهط »^(٢) ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
 وقيناكم حمر الوغى بصدورنا وليست لكم خيل تُعَدُّ ولا رَجُل
 فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا وطاب لكم منها المشارب والأكل
 تغافلتم عنا كأن لم يكن لنا بلاء وأنتم - ما علمت - لها فعل
 فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة وزلت على المرقاة بالقدم النعل^(٣)

هذان شاعران تردد شعرهما في الأندلس خلال فترة الولاة ، ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عُرِفَا بقول الشعر في تلك الفترة ، وإنما كان هناك آخرون^(٤) نسيت أسماؤهم وضاعت أشعارهم ، مع الكثير مما نسي وضاع من تراث الأندلس ، وخاصة في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها .

(١) الحميدى : جذوة ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) معركة دارت بالشام سنة ٦٥ هـ في عهد مروان بن الحكم ومعهم اليمنيون بقيادة حسان بن مالك الكلبي ضد القيسيين المشايخين لابن الزبير بقيادة الضحاك بن قيس الفهري ، وانتهت بهزيمة الضحاك وانتصار اليمنيين ، وكانت معركة حاسمة دعمت قيام الدولة مروانية في الشرق .

(٣) هذا نص الأبيات في تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، مع إغفال بيت أعير ورد ناقصاً هكذا : . . . حبل الوصل وانقطع القوى ألا ربما يلوى فينقطع الحبل
 وقد جاءت الأبيات في الجذوة بصور مغايرة قليلا للصورة التي جاءت عليها في كتاب ابن القوطية . وقد آثرت الأولى لأنها أسبق .

انظر جذوة المقتبس ص ١٨٩ وتاريخ افتتاح الأندلس ص ١٨ - ١٩ .

(٤) من شعراء ملك الفترة : بكر الكناني الذي سأل عنه أبو نواس عباس بن فاصح كما سأل عن جموعة بن

الصمة السابق الذكر : انظر المرقى ج ٢ ص ١٥٦ .

وإذا جاز لنا أن نتصور خصائص الشعر في هذه الفترة ، فنحن ملزمون بالحذر الشديد لقلّة ما بين أيدينا من نصوص ، ونحن مضطرون إلى الاسترشاد بما لدينا من أخبار بعض الشعراء الذين عاشوا في تلك الفترة ، لنعوض بتلك الأخبار قلّة الشعر ، ثم نحن مضطرون آخر الأمر إلى الاعتراف بأن هذا التصور تقريبي ظني لا حقيقي قطعي . وعلى هذا الأساس يمكن أن يقال : إن شعر هذه الفترة ليس له من الأندلسية إلا أنه فيل في الأندلس ؛ فقاتلوه في الحقيقة مشاركة وفدوا على الأندلس فيمن وفد مع الفتح وبعده . ثم هو بعد ذلك شعر مماثل لذلك الشعر المحافظ الذي كان شائعاً في المشرق في ذلك الحين ، والذي كان من أعلامه جرير والفرزدق . فهو شعر يتناول في موضوعاته المدح والهجاء والفخر والحماة ، كما رأينا في بعض النماذج القليلة التي حفظت لنا ، وكما تدل أخبار بعض الشعراء ، ثم هو شعر يجرى على تقاليد المدرسة المحافظة Clasica ولا ينعكس عليه من الأندلس أي أثر ؛ فهو يُعنى بجزالة اللفظ وفخامة العبارة ، ولا يُرى في معانيه كثير من تعمق الفكر . ولا يلمح في صورته نصيب من تخليق الأخيطة ، وإنما هو أميل إلى البداوة . وأقرب إلى الخشونة .

وربما كان هذا الشعر أنسب شيء إلى طبيعة الناس وظروفهم في ذلك الحين ؛ فقد كانوا لا يزالون على كثير من بدائيتهم ، متمسكين بقبليتهم ، ولم يصيبوا بها من الثقافة والتحضّر والتأثر بالحياة الجديدة ، ما من شأنه أن يوجه شعراءهم إلى تجارب شعرية محدثة وأساليب فنية مميزة .

(ب) النثر :

ربما لم يكن بين أيدي الباحثين اليوم نماذج ذات شأن من نثر تلك الفترة من تاريخ الأندلس . ولكن الذي لا شك فيه . أن هذه الفترة عرفت بعض النثرين وكان لها حظ ولو ضئيل من النثر ؛ بل ربما كان هذا الحظ على ضآلته أوفر من حظ الشعر . ذلك أنه

كانت هناك دواعٍ للنثر أكثر من دواعي الشعر ؛ فالخطابة كانت ضرورة تقتضيها ظروف الحرب والنزاع القبلي^(١) . وتتطلبها مناسبات سياسية ودينية مختلفة . ولا يمكن أن نتصور المسلمين في الأندلس قد عاشوا فترة الولاة دون أن يصغوا إلى خطباء ؛ فهم على الأقل كانوا يستمعون إلى هؤلاء الوعاظ والدعاة الذين كانوا عادة يصحبون الجنود ويفدون على الأقاليم الجديدة ليثبتوا المقاتلين ، ويدعوا للنظام الجديد^(٢) .

والكتابة كانت كذلك ضرورة تقتضيها ظروف الفتح والحكم وتسيير الشؤون ، وتتطلبها أيضاً مناسبات رسمية وشخصية عديدة ، كعهد يُعطى وصلح يُبرم ورسالة توجه .

وقد حفظت لنا بعض المراجع قليلاً جداً من كتابات فترة الولاة ، كما حفظت أيضاً بعض أسماء الكتاب القليلين . فما حفظ من الكتابة عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير « لتؤدمير » أحد حكام القوط . وقد جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد العزيز إلى تلمير ، أنه نزل على الصلح وأنه له عهد الله وذمته ، ألا ينزع عن ملكه ، ولا أحد من النصارى عن أملاكه . وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون ، أولادهم ونساءهم ؛ ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ما تُعبّد وتُصح . وأنه لا يأوى لنا عدواً ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبراً علمه . . . »^(٣)

ومما حفظ كذلك من كتابة تلك الفترة ، جزء من رسالة يوسف الفهرى آخر الولاة ، إلى عبد الرحمن بن معاوية حين علم بنزوله بالأندلس . والمرجح أن محرر تلك الرسالة هو خالد بن يزيد ، كاتب يوسف الفهرى ورسوله إلى عبد الرحمن ، حين أراد أن يتألفه ويتفادى خطره^(٤) . وذلك هو الجزء الذي بقي من الرسالة :

(١) انظر ما كان من قول الصميل بن حاتم لأصحابه ، في البيان المغرب ج ٢ ص ٥٠ . وما كان بين الصميل ورجل عارضه ، في أخبار مجموعة ص ٦١ .

(٢) انظر : ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ١٧٤ - ١٨٥ .

(٣) Castri : Biblioteca Arabico Hespána Ecurialensis II, p. 105.

(٤) انظر : البيان المغرب لابن عذارى - ٢ ص ٦٧ .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش^(١) من تأبش إليك ونزع نحوك من السراق وأهل الحر والغدر ونقض الأيمان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم . ولقد كانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش ، حتى غمصوا^(٢) ذلك ، واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجنحوا إلى النقص ، والله من ورأهم محيظ . فإن كنت تريد المال فأنا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك وأنزلك معي إن أردت ، أو بحيث تريد . ثم لك عهد الله وذمته بي ، ألا أغدرك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ، ولا غيره . . . »^(٣)

ومن الكتاب القليلين الذين عملوا في تلك الفترة : خالد بن يزيد . الذي كان كاتباً ليوسف الفهري أحد ولاة الأندلس .

ومنهم كذلك أمية بن زيد ، الذي دخل الأندلس مع جنود بلنج بن بشر ، واتصل بخالد بن زيد فجعله كاتباً معه . وقد اشتغلا بالكتابة حتى أيام عبد الرحمن الداخل . . . وعلا له بعض الوقت^(٤) .

وإذا جاز لنا أن نتصور نثر تلك الفترة . فإننا بعد الخذر الشديد والاستعانة بتصور حال تلك الفترة من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية ، نتصوره نثراً يتناول مسائل الدين وشئون السياسة وأمور القبائل في خطبه ، ويعالج العهود والرسائل والتوقيعات في كتابته . وذلك لأن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة تلك الفترة وتتطلبه ظروفها . أما الخصائص الفنية لهذا النثر ، فهي خصائص النثر المشرق الذي كان معروفاً في عصر بني أمية . فهو نثر يعيل إلى الإيجاز ويعنى بقوة العبارة أكثر من عنايته بتجميلها ، ثم هو لا يعرف

(١) تأبش : تجمع وتبش .

(٢) غمصوا : أنكروا واستقلوا .

(٣) انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٦٧ - ٦٨ .

(٤) انظر : إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط بالإنسكوريال رقم ١٧٣٦ ورقة ١٠ ، ١١)

تلك المقدمات الطويلة والرسوم المرعية والألقاب العديدة ، وما أشبه ذلك مما جاء مع العصر العباسي ، وما كان من أسبابه اختلاط العرب بالفرس . وربما أيد هذا التصور ما يعرف من أن النثرين - كالشاعرين في تلك الفترة - كانوا جميعاً مشاركة الأصل والثقافة ، ومن شأنهم أن يسيروا على ما عرفوا في المشرق من أساليب . وربما ساعد على هذا التصور أيضاً ، ذلك العهد الذي كتبه عبد العزيز بن موسى . ثم هذه الرسالة التي وجهها يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن بن معاوية ؛ فهما على قصرهما ظاهرنا الدلالة على بعض ما ذكرنا من خصائص النثر في فترة الولاة .

٥ - الأدب المنسوب إلى طارق :

وربما كان من المكمل للحديث عن الأدب في فترة الولاة ، أن نعرض لنصين نسبيا إلى طارق بن زياد ، أحدهما أبيات من الشعر يقول فيها :

ركبنا . سفيناً . بالمجاز مقيراً عسى أن يكون الله منا قد اشترى
نفوساً وأموالا وأهلاً بجنة إذا ما اشتبهنا الشيء فيها تيسرا
ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرنا^(١)

وثاني النصين خطبة قيل إنه ألقاها في جنوده يحمسهم على القتال بعد أن نزل بهم بلاد الأندلس ، وبعد أن أحرق السفن التي حملته وجنوده من شمال إفريقيا إلى جنوب إسبانيا .

ونص تلك الخطبة هو : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر وراءكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيق من الأيتام في مأدبة اللثام ، ولا أقوات لكم إلا ما تستخلصون من أيدي عدوكم ، وإن امتدت

(١) القرى : نفع ج ١ ص ١٢٤ .

بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ربحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم . فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ؛ فقد ألفت به إليكم مدينته الحصينة ، وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت . وإني لم أحذرکم أمراً أنا عنه بنجوة ؛ ولا حماتكم على خطة - أرخص مناع فيها النفوس - أبرأ منها بنفسى . واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلا . استمتعتم بالألد الأرفه طويلا . فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى فما حظكم فيه بأوفر من حظى . وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان ، الرافلات فى الدر والمرجان ، والحلل المنسوجة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً ، ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستباحكم بمجالدة الأبطال الفرسان ، ليكون حظهم منكم ثواب الله على إعلاء كلمته وإظهار دينه بهذه الجزيرة ؛ وليكون فتحها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم . والله تعالى ولى إنجازكم على ما يكون لكم ذخراً فى الدارين . واعلموا أنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وأنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله تعالى . فاحملوا معى ، فإن هلكت بعده ، فقد كفيتمكم أمره ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه ، وإن هلكت قبل وصولى إليه فاخلفوني فى عزيتمى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، واكتفوا إليهم من فتح هذه الجزيرة بقتله ، فإنهم بعده يخذلون» (١) .

ولو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد . لكانا أول أدب عربى تردد فى الأندلس ، ولكانا فى طليعة النصوص التى تعثر بها فترة الولاة . ولكن نسبة هذين النصين إلى طارق يحف بها كثير من الشك ، وذلك لعدة أسباب . منها أن طارق بن

(١) المقرئ : نفع ج ١ ص ١١٢ .

رياد كان بربرياً مولى لموسى بن نصير^(١)؛ ومن شأنه أن يكون حديث عهد بالعربية ، وألا يستطيع الخطابة والشعر بلغة هو حديث عهد بها . فقد ولى موسى بن نصير قيادة المغرب على الأرجح سنة ٨٩ هـ أيام الوليد بن عبد الملك ، ومن المعقول أن تكون هذه السنة هي مبدأ ارتباط طارق بموسى ، وربما بالإسلام والعربية أيضاً ، فإذا كان فتح الأندلس سنة ٩٢ هـ ، فإن عمر طارق في الإسلام واتصاله بالعربية يكون فترة وجيزة يستبعد معها أن يجيد طارق لغة العرب إجادة تسمح له بنظم الشعر وإلقاء الخطب^(٢)

ومن أسباب الشك في هذا الأدب المنسوب إلى طارق ، أن المصادر الأولى التي سجلت حوادث تفاصيل الفتح ، قد نخلت تماماً من أى حديث عن هذا الأدب مع أنها تناولت تفاصيل يدخل بعضها في باب الأساطير . وقد استوت في ذلك الصمت عن هذا الأدب ، المصادر الأندلسية^(٣) والمشرقية^(٤) جميعاً . ولم يرد هذا الأدب المنسوب إلى طارق إلا في بعض المصادر المتأخرة كثيراً عن فترة الفتح ، مثل نفع الطيب للمقرئ^(٥) الذى أورد الخطبة دون أن يخبرنا عن المصدر الذى نقلها عنه ، وأورد الشعر معتمداً — كما قال — على كتابي المسهب والمغرب ، وهما بدورهما متأخران كثيراً عن فترة الفتح^(٦) . ومن أسباب الشك في نسبة الخطبة بخاصة إلى طارق ، ذلك الأسلوب الذى جاءت به ؛ فهو أسلوب لم يكن معروفاً في النثر العربى خلال الفترة التى تعزى إليها تلك الخطبة .

(١) وقيل أصله فارسي . والرأجح كونه من البربر . انظر البيان المغرب ج ١ ص ٧ .

(٢) وحتى لو فرضنا أن طارقاً كان على صلة بالإسلام والعربية قبل ولاية موسى ، لأن له أبوين في الإسلام كما يذكر ابن عذارى في البيان المغرب — فإن ذلك لا يتيح له معرفة العربية إلى درجة قول الشعر وإلقاء الخطب بها ، لأن أحوال المغرب في تلك الآونة لم تكن تسمح بتأدب .

(٣) مثل : أخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية .

(٤) مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وفتوح البلدان للبلاذرى .

(٥) وهو مغربى من علماء القرن الحادى عشر هـ .

(٦) المسهب للحجائرى . والمغرب لابن سعيد . وهما أندلسيان عاش أولهما في القرن السادس الهجرى

وعاش الثانى في القرن السابع .

فالسجع الكثير والمحسنات المتكلفة قد عاشت في عصر متأخر كثيراً عن القرن الأول الذي قالوا إن ابن زياد قال خطبته فيه ، والمعروف أن الخطابة في تلك الفترة كانت كتماذج الحجاج وزياد وقطرى وغيرهم ممن عرفهم العصر الأموى . والخطبة التي بين أيدينا - منسوبة إلى طارق - بعيدة كل البعد عن خصائص الخطابة المعروفة حينذاك ، وإنما هي أقرب إلى خصائص أواخر العصر العباسى . وربما إلى ما بعد ذلك حيث شاع السجع وكثرت المحسنات .

وشيء آخر قد جاء في نص الخطبة يبعد أن يقوله طارق . وهو قوله بلجنده - وكانوا كما نعرف من البربر - « وقد اختاركم أمير المؤمنين من الأبطال عرباناً » ؛ فطارق كان يعرف أن جنوده من البربر . وجنوده كانوا يعرفون أنهم ليسوا عرباناً ، ومن هذا يبعد أن يكون قد خطبهم بهذا الكلام الذي لا يقوله إلا غير عالم بحقيقة جيش طارق .

لهذا كله يرجح أن يكون هذا الأدب المنسوب إلى طارق من وضع بعض الرواة المتأخرين كثيراً عن فترة الفتح ، والمتأثرين كثيراً بأسلوب أواخر العصر العباسى وربما بالعصر المملوكى . وقد كان الرواة والقصاص يضعون كثيراً ، مازجين التاريخ بالقصص والأساطير ، وقد أحاطوا الفتح الأندلسى خاصة بكثير من أقاصيصهم وأساطيرهم . فأغلب الظن أن هذا الأدب المنسوب إلى طارق بعض ما وضع هؤلاء الوضاعون^(١) . حقيقة قد يكون طارق خطب جنوده محملاً مشجعاً ، وقد يكون تغنى انتصاراته مفاخرأ مباحياً . ولكن المعقول أن يكون ذلك بلغته البربرية التي كان يجيدها والتي كان يفهمها جنوده .

(١) أما مسألة إحراق السفن فلم ترد إلا في : نزعة المشتاق للإدريسى (ص ١٧٨) وهو من مؤلفي القرن الخامس الهجرى . وكل المراجع السابقة قد سكنت عن تلك الحادثة تماماً . ولكن من الطريف أن فاتحاً حديثاً عمل نفس العمل الذي ينسب إلى طارق ، وأكثر من ذلك أنه إسباني . فعند ما أشرف هرزانفو كروتيس على شاطئ المكسيك فاتحاً سنة ١٥١٩ أمر بإحراق سفنه التي قدم عليها جيشه من إسبانيا . والمعقول أن يكون هذا القائد قد تأثر بما نسب إلى طارق قبل ذلك بنحو ثمانية قرون .

على أن الشك في نسبة هذا الأدب إلى طارق لن يغض من عظمة القائد ولا من جمال الأدب ودلالته ؛ فلن يعيب القائد البربرى العظيم ألا ينحطب أو يشعر بالعربية ، تلك الفترة المبكرة من تاريخ البربر في الإسلام . ولن يعيب هذا الأدب ألا يقوله لطارق ، وأن يقوله متأخر صور به - على قدر خياله - ما كان من القائد البربرى وجيشه حينذاك .

وربما أفاد نفي نسبة الخطبة إلى طارق ، في رد زعم من آثموا جيوش الإسلام الفاتحة بالطمع والرغبة في السلب والنهب ، لا في نشر العقيدة والتمكين للدين الذى به يدينون . فالمسؤول عن الأطماع التى في هذه الخطبة ، هو خيال مؤلفها ؛ فضمونها لا يعدو أن يكون خيالا لمؤلف أديب لا فكرة لقائد مسلم .

الفصل الثاني
فترة تأسيس الإمارة

١ - في سبيل استقرار سياسي :

تمثل هذه الفترة في عهد عبد الرحمن الداخل وابنه هشام وحفيده الحكم^(١) وأهم ما تمتاز به من الناحية السياسية ، أنها كانت فترة علاج لكثير من الأمراض التي عاناها الحكم الأندلسي في فترة الولاة ، فقد وفد عبد الرحمن الداخل على الأندلس ، وبها القبائل العربية المتنازعة على السلطان . وبها أيضاً جماعات البربر الناقمة على العرب الاستتار بالأمر ، وبالإضافة إلى العرب ومنازعاتهم والبربر ونقمتهم ، كان يوجد المسيحيون اللاتيون بالمناطق الشمالية من شبه الجزيرة ، ثم الفرنج المتربصون فيما وراء البرانس . وكان هؤلاء وأولئك يتحذرون لمطاردة المسلمين لأنهم - في زعمهم - يمثلون خطراً لا على إسبانيا وحدها بل على أوروبا كلها .

من أجل هذا قضى عبد الرحمن الداخل كل سني حكمه تقريباً في كفاح داخلي وجهاد خارجي ؛ فقلل من شأن الاستقرارية العربية باستخدام غير العرب واصطناع الموالى^(٢) ، وقضى على الزعامة القبلية بالتخلص من كل من تحدته نفسه بالثورة أو التمرد ، وحاول ما استطاع أن يؤمن حدود الدولة الإسلامية في الأندلس ضد مسيحي الإسبان والفرنج ، بقيادة الجيوش وتسيير الحملات إلى هؤلاء وأولئك .
وفعل هشام بن عبد الرحمن مثل ما فعل أبوه ، وسار الحكمم الربضي سيرة الأب

(١) حكم الداخل من سنة ١٣٨ إلى ١٧٢ هـ (٧٥٥ إلى ٧٨٨ م) .

وحكم هشام من سنة ١٧٢ إلى ١٨٠ هـ (٧٨٨ إلى ٧٩٦ م) .

وحكم الحكم من سنة ١٨٠ إلى ٢٠٦ هـ (٧٩٦ إلى ٨٢٢ م) .

فتكون هذه الفترة من سنة ١٣٨ إلى ٢٠٦ هـ (٧٥٥ إلى ٨٢٢ م) .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٥٦ .

والحد^(١) ، وكان أشبه بالداخل في الحزم والصرامة والقسوة من أجل تثبيت النظام وتدعيم الحكم . وقصة إخاده لثورة الربض من أوضح الأدلة على طريقته في السياسة ومعالجة الأمور ، ومن أوضح الأدلة على طابع سياسة العصر .

وثورة الربض ثورة قام بها سكان الضاحية القرطبية المسماة بهذا الاسم ، وكان أكثرهم من المولدين - أى الإسبان المسلمين - وقد كانت ثورتهم ذات أسباب بعيدة ترجع إلى سخط العامة - وخاصة المولدين - على الأمير الحكم لما اشتهر به من تحرر وعدم مبالاة ، وكان لدعايات الفقهاء أثر كبير في إقناع العامة بالسخط على الأمير .

أما السبب المباشر للثورة فهو مشادة وقعت بين أحد مماليك الحكم وصيقل سيوف من العامة ، وقد كان من نتائج تلك المشادة أن قتل الصيقل بيد المملوك بنار العامة، وكان أشدهم هياجاً أهل الربض الجنوبي . الواقع على الضفة الأخرى لنهر الوادي الكبير . وزحفت جموع الثوار على القصر الأميري وأحاطوا به من كل ناحية ، وكادوا يقضون على الأمير والإمارة جميعاً ؛ لولا أن تنبه الحكم إلى حيلة فيها ذكاء وفيها قسوة أيضاً ؛ فقد أرسل بعض أعوانه إلى الربض فأشعل فيه النار ، وهنا اضطر الثوار إلى الإسراع إلى ربضهم لإنقاذ أولادهم ونسأهم وذويهم . وانهز الحكم الفرصة فأمر جنوده بالانقضاض على الثوار وهم في انسحابهم واضطرابهم ، فأمعنوا فيهم قتلاً وأسرّاً ، ثم أمر الحكم بالربض فهدم ، وبالباقين من أهله فطردوا^(٢) .

(١) انظر لتصوير كنفاح عبد الرحمن وابنه وحفيده : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٧٢ ما بعدها . وأخبار مجموعة لمؤلف مجهول ص ٦٧ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Al Borno : La Espana musulmana, vol. I, pp. 88 ff.

Levi : Espana musulmana, pp. 67 ff.

(٢) انظر في واقعة الربض : البيان المغرب لابن عذارى ج ١ ص ١١٣ وما بعدها ، ونفح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٥٩ ، والمعجب لعبد الرحمن المراكشي ص ١٢ وما بعدها .

وانظر كذلك : Palencia, Historia de la Espana musulmana, pp. 26 ff.

ومن هنا نرى أن تلك الفترة من الناحية السياسية كانت فترة علاج لكثير من أدواء الحُكْم التي عانتها الأندلس من قبل. وقد كان لهذا العلاج مقتضياته من البر حيناً ومن إسالة الدم حيناً آخر .

وهكذا شهدت تلك الفترة بعض الحروب وأعمال العنف ، ولكنها كانت في سبيل الاستقرار السياسي الذي خلف تقدماً وأمناً ، ولم تكن المسألة مسألة منازعات وحروب تخلف ضياعاً وتعويقاً فقط كالفترة السالفة .

٢ - في سبيل مجتمع أندلسي :

كان من أهم ظواهر المجتمع الأندلسي في تلك الفترة ، ضعف العصبية القبلية والمنازعات العنصرية ، ثم اتجاه سكان الأندلس إلى وحدة اجتماعية يصلون إلى ذروتها في عهد الخليفة الناصر. وكان ذلك بفضل جهود عبد الرحمن الداخل ومن حكم من بعده من أبنائه . وقد ذكرنا أنه كسر شوكة الارستقراطية العربية وحد من عصبية القبائل ، بمطاردة الزعماء المناوئين أولاً ، وباستخدام كثير من الموالى وغير العرب ثانياً . وقد عُرِف أن أبنائه ساروا على سنته بل بالغوا فيها حتى كان عدد الموالى والصقالبة في عهد الحكم خمسة آلاف^(١) .

وكان من أهم ظواهر المجتمع كذلك في تلك الفترة ، ظهور طبقة اجتماعية جديدة أصبح لها كيانها ومكانتها بين طبقات المجتمع الأندلسي ؛ تلك الطبقة هي طبقة المولدين ، التي تتألف من أبناء الإسبان الذين اعتنقوا الإسلام ، وكثروا بمضى الزمن واستمرار الدخول في الدين الجديد . ولا شك أن وجود مثل هذه الطبقة قد زاد من الأثرية المسلمة حينئذ. وصيغ الحياة الإسبانية بصيغة أكثر إسلامية وعروبة .

(١) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٣٥ .

كذلك كان من أهم المظاهر الاجتماعية في فترة تأسيس الإمارة الأموية ، هذا التقدم الحضارى النسبي الذى خطط نحوه الأندلس ، ممثلاً في أعمال الإنشاء والتعمير والتجميل التى قام بها الداخل وأبناؤه من بعده ، فقد أسس عبد الرحمن مسجد قرطبة الجامع (١) ، كما أنشئ في عهده وفي عهد بنيه كثير من المساجد في أقاليم مختلفة من الأندلس . كذلك أنشأ عبد الرحمن الرصافة التى كانت مقر الإمارة بالشمال الغربى من قرطبة ، وأقام سوراً للعاصمة الأندلسية . وغرس بها بعض الحدائق الجميلة ، وجلب أنواعاً من المزروعات المشرقية (٢) .

وأخيراً كان من أهم مظاهر المجتمع الأندلسى في تلك الفترة ظهور شخصية المرأة في مجال الفن ، فقد استقدم عبد الرحمن الداخل بعض الفانات المشرقيات وأسس لهن بالقصر داراً عرفت بدار المدينيات ؛ لأن أغلبهن كن من المدينة التى اشتهرت بفنون الموسيقى والغناء في تلك السنوات . وكان من هؤلاء الفانات المدينيات اللاتى وضعن بنور الموسيقى العربية في الأندلس : فضل وعلم والعجفاء . كما كان من الفانات اللاتى عرفن في تلك الفترة : قلم ، وأصلها إسبانية من سبى البشكنس . ولكنها أدبت في المدينة ، وعملت بعد ذلك في دار المغنيات مع صواحبها (٣) .

وهكذا كان المجتمع الأندلسى في تلك الفترة ، مجتمعاً مستقراً نسبياً ، فهو يحيا أكثر أمناً في ظل حكومة مدعمة . وهو يعيش أكثر وحدة في حمى نظام حارب القبلية والعصبية ، وفتح الطريق للأندلسية الحقة . ثم كان المجتمع في تلك الفترة يفتح عينيه على بواكير حضارة ، أراد الأمويون أن يعيدوا بها في الأندلس حضارة فقدوها بالشرق .

(١) انظر في تاريخ هذا المسجد : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤١ وما بعدها .

(٢) انظر : نفع الطيب المقرئ ج ١ ص ٢٧ . وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٣

(٣) انظر أخبار هؤلاء الفانات في : نفع الطيب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

٣ - أولية الثقافة الأندلسية :

خطت الأندلس في تلك الفترة أولى الخطوات نحو الثقافة الأندلسية الحقة . وقد دفعت الأندلس عوامل مختلفة ، وساعدتها على الخطوة الأولى في سبيل ثقافتها . وكان من تلك العوامل :

وفود كثير من الأمويين وأنصارهم واللائذين بهم على الأندلس^(١) . وقد كان قدوم هؤلاء ، إما فراراً من العباسيين ، وإما رغبة في الحياة بالإقليم الإسلامي الجديد المعروف بكثرة الخيرات . ولا شك أن كثيراً من هؤلاء الوافدين على الأندلس كانوا على حظ كبير من الثقافة وقدر عظيم من المعرفة ، ولا شك أن حياتهم في الأندلس ستدفع ثقافتهم وتشجع معارفهم وتساعد البلاد على أن تخطو في طريق الثقافة .

كذلك كان من أهم العوامل التي دفعت الأندلس إلى الخطو نحو حياتها الثقافية ، رجوع أول فوج من الأندلسيين الدارسين في المشرق ؛ فقد كان هؤلاء بمثابة أعضاء البعثات الذين يتعلمون خارج بلادهم ثم يعودون ليشيعوا ما تعلموا بين أهلهم وفي أرجاء وطنهم . ومن أمثلة هؤلاء العائدين بعلم المشرق في فترة تأسيس الإمارة : الغازي بن قيس ، الذي سمع من مالك موطأه ، ثم عاد في عهد الداخل فكان مكرماً له وسخيّاً عليه^(٢) . كذلك كان من هؤلاء العائدين : أبو موسى الهواري ، وعبد الملك بن حبيب ، ويحيى ابن يحيى الليثي ، وزيايد بن عبد الرحمن ؛ وكلهم من العلماء الكبار الذين يمثلون الجيل الأول من أهل الثقافة الأندلسية^(٣) .

(١) من هؤلاء : أبو الأشعث الكلبي الذي كان محدثاً يروي عن أمه عن عائشة . ومنهم جزى بن عبد العزيز أخو عمر بن عبد العزيز . ومنهم عبد الملك بن عمر بن مروان بن الحكم الأموي . انظر : نفع الطيب ، ج ٢ ص ٧٧ وما بعدها .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٣٥ .

(٣) انظر في الراحلين من الأندلسيين إلى المشرق : نفع الطيب المقري ج ١ ص ٢٣٦ وما بعدها .

ولن ننسى أن من أهم عوامل دفع الثقافة الأندلسية في تلك الفترة ، ما كان من إنشاء مسجد قرطبة وغيره ؛ فقد كانت المساجد في تلك الآونة بمثابة المدارس والجامعات . وقد كان مسجد قرطبة بالذات هو النواة الحقيقية للجامعة الأندلسية التي أسست في تلك الفترة ، والتي ستتسع في العصور التالية حتى تكون في القرن العاشر أعظم جامعات إسبانيا بل أعظم جامعات أوروبا .

وقد ظل الحال في تلك الفترة كما كان في الفترة السابقة تقريباً من حيث الاقتصار في الثقافة الأندلسية على العلوم الدينية والعربية ، وإن كان الأمر قد تطور إلى خطو نحو حياة ثقافية حقيقية ، بفضل تلك العوامل السالفة الذكر . فالدراسة في تلك الآونة كانت تدور غالباً حول كتاب الله حفظاً وتفسيراً وقرآناً ، وحول سنة الرسول رواية وشرحاً واستنباط أحكام ، ثم حول لغة القرآن والسنة . وما يتصل بها من شعر وأخبار وأدب على وجه العموم .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى ظاهرة لها شأنها في حياة الأندلسيين الثقافية . تلك الظاهرة هي تحوُّمهم من مذهب الأوزاعي إلى مذهب مالك ، ثم بقاؤهم دائماً على هذا المذهب مع تعصب له يلفت النظر . فقد كان الأندلسيون أول الأمر أوزاعيين^(١) ، لأن أغلب العرب الداخلين إلى الأندلس كانوا من أهل الشام ، وكان أهل الشام على مذهب الأوزاعي ؛ فكان طبيعياً أن ينتقل الشاميون إلى الأندلس بمذهبهم . فلما جاءت الفترة التي نسوق عنها الحديث — وهي فترة تأسيس الإمارة الأموية — دخل المذهب المالكي إلى الأندلس وكان ذلك في عهد عبد الرحمن الداخل^(٢) ، ثم انتشر في عهد ابنه هشام ، حتى أصبح المذهب الرسمي للدولة أولاً ، والمذهب الغالب الشائع العام بين الناس ثانياً .

(١) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ١ ص ١٨١ .

(٢) انظر : حديث ابن القوطية عن الغازي بن قيس في : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ .

والفضل الأكبر في شيوع المذهب المالكي في الأندلس ، يرجع إلى طائفة من العلماء الأندلسيين المالكيين الذين درسوا المذهب في المشرق ، ثم عادوا إلى بلادهم وتمتعوا بنفوذ كبير . مكن لهم من نشر المذهب وإعطائه الطابع الرسمي . وفي مقدمة هؤلاء الفقهاء الذين مكنوا للمذهب المالكي : يحيى بن يحيى الليثي الذي درس على مالك نفسه ، وكان بعد ذلك من خاصة هشام بن عبد الرحمن الداخل .

على أن من أهم العوامل التي حملت الأندلسيين على الإعجاب بالمذهب المالكي والتمسك به والتعصب له ، موافقته لطبيعتهم العقلية ؛ فهو مذهب يعتمد على النص ، ولا يفسح المجال كثيراً للعقل ، وهو مذهب يكره التفريع والتفلسف والمنطق ، وما أشبه ذلك مما شاع في المذهب الحنفي مثلاً . ومن هنا وافق المذهب المالكي طبيعة الأندلسيين النافرين من التفريع ، المبغضين للتفلسف ، الكارهين للمنطق .

وربما كان لتعصبهم الشديد للمذهب المالكي ، وكرهيتهم للتفريع وتعدد المذاهب ؛ علاقة بما سبق أن قرناه من كونهم كانوا يعانون شبه مركب نقص أمام المشاركة ، وكان هذا يأخذ مظهر التعصب للمذهب الواحد والتمسك بكل ما هو نصي ، كأنهم يريدون بذلك أن يؤكدوا تمسكهم بالدين وبعدهم عن الزيغ وتجنبهم للشبهات ، وكأن هذا معناه في زعمهم اللاشعوري أنهم متفوقون على المشاركة في الدين برغم بعدهم عن مهده ، وأنهم أكثر محافظة على الإسلام برغم تأييم عن مشرقه .

٤ - أولية الأدب الأندلسي :

أول ما يلاحظ على الحياة الأدبية لتلك الفترة من تاريخ الأندلس ، ظهور أول جيل من الأدباء الأندلسيين الحقيقيين ، ثم يلاحظ أيضاً ظهور بعض أديبات الأندلس ، كذلك يلاحظ عدم اقتصار الاشتغال بالأدب على الشعب ، بل مشاركة الحكام فيه .

أيضاً . وقبل كل هذا يلاحظ ظهور السمات الأولى للأدب الأندلسي ؛ تلك السمات التي سوف تتزايد على مر العصور ، حتى تم ملامح الأدب الأندلسي بصورة واضحة .

وهكذا تشاهد هذه الفترة أول خطوات الأندلس نحو أدب أندلسي متميز ؛ ففيها ينشأ أول جيل من أدباء وأدبيات الأندلس ، ولا يصبح الأدب وفقاً على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل ، وفيها تصاغ النماذج الأدبية الأولى ، التي تعد من تراث الأندلس بحق ، وفيها زيادة على ذلك تبدو تلك السمات الأولى ، التي تشكل أول خطوط الملامح الأدبية لهذا الإقليم الخاص . وسوف يتضح ذلك حين نتناول كلا من الجنسين الأدبيين تناولاً مستقلاً .

أولاً - الشعر :

كان الشعر الأندلسي في تلك الفترة يسير في اتجاه المدرسة المحافظة الشرقية *Classica* ولكن مع تميزه بسمات خاصة تشكل أوائل ملامحه منذ نشأته كشعر أندلسي .

(١) الاتجاه المحافظ :

أما مظاهر هذا الاتجاه المحافظ ، فتتمثل في أن الشعر الأندلسي كان يهتم أكثر ما يهتم بالموضوعات التقليدية ، من فخر ومدح وحماسة ، وما إلى ذلك ، ثم في أنه كان يسير على منهج الأقدمين في بناء القصيدة ، وفي تجميع صورها غالباً من عالم البادية ، وتأليف أسلوبها في الأعم من لغة تستوحى الذاكرة والتراث ، أكثر مما تستوحى العصر والواقع .

ولنتأمل مثلاً تلك النماذج :

يقول أبوالمخشي من قصيدة يمدح بها عبد الرحمن الداخل ويصف الرحلة إليه :

امتطيناها سماناً بُدنا فتركناها نضاء بالعنا
 وذريتي قد تجاوزت بها مهمها قفراً إلى أهل الندى
 قاصداً خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى^(١)

ويقول أبوالمخشي أيضاً من قصيدة في مدح الداخل ، وتمجيد بعض انتصاراته
 والثناء على بطولة الأمير سليمان ابنه :

وإذا تساءلَ عن مواقع معشر وذويهم طلب الذي لم يُقدِّر
 رشد الخليفة إذ غرّوا فرماهم بالمؤيدِيّ الجهم والمتأزر^(٢)
 وغدا سليمان السباح عليهم كاللث لا يلوى على متعذر
 غاداهمُ متقنماً في مأزق بالموت مرتجس العوارض ممطر^(٣)
 أما سليمان السباح فإنه جتّى الدجى وأقام ميل الأصعر
 وهو الذي ورث الندى أهل الندى وبها مغبة يوم وادى الأحمر
 بعداً لقتلي بالمجانص^(٤) أصبحت جيفاً تلوح عظامها لم تقبر
 فالليل فيها للذئاب فرائس ونهارها وقع لنبش الأنسر
 أفناهم سيف مييد طرفه في قسطلونة بل بوادى الأحمر
 فلتركبئك ما هربت مخافة منه ، فقع يا ابن اللقيطة أوطر^(٥)

(١) وردت هذه الأبيات في الإحاطة لابن الخطيب (مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٢٥٢).

(٢) المؤيدى : فقيه القيس ، وحاكم المحوس ، والجهم : الغليظ . والمتأزر : المتقوى .

(٣) مرتجس : من ارتجست الساء أى أرعدت ، والعوارض : السحب العظيمة .

(٤) المجانص : جمع مجنص ، وهو اسم مكان من جنص أى مات فرماً .

(٥) وردت هذه الأبيات في مخطوطة الإحاطة التي سبقت الإشارة إليها .

ويقول الحكم بن هشام مفتخراً ببطولته وقوته وانتصاره في موقعه الربض :

وأيتُ صدوع الأرض بالسيف راقعا	وقدماً لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى هل بها اليوم ثغرة	أبادرها مستنضى السيف دارعا
وشافه على الأرض الفضاء جماجماً	كأقعحاف شريان الهبيد ^(١) لوامعا
تنبئك أنى لم أكن في قراعهم	بوان ، وأنى كنت بالسيف قارعا
وأنى إذ حادوا جزاعاً من الردى	فلم أكُ ذا حيد من الموت جازعا
حميت ذمارى فأنهبت ذمارهم	ومن لا يحامى ظل خزبان ضارعا
ولما تساقينا سجالات حروبنا	سقيهمُ سماً من الموت ناقعا
وهل زدت إن وفيهم صاع قرصهم	فوافوا منايا قدرت ومصارعا
فهاك بلادى إننى قد تركتها	مهاداً ولم أترك عليها منازعا ^(٢)

ويقول الحكم أيضاً في تمجيد السيوف وأسلحة القتال :

غناءُ صليل البيض أشهى إلى الأذن	من اللحن في الأوتار واللهو والرّدن ^(٣)
إذا اختلفت زرق الأسنة والقنا	أرتك نجوماً يطلّعين من الطعن
بها يهتدى السارى وينكشف الدجى	وتستشر الدنيا لباساً من الأمن ^(٤)

فتأمل أمثال هذه النماذج يؤكد أن هذا الشعر يسير على خطى المدرسة المشرقية المحافظة ؛ من حيث بناء القصيدة الذى يميل في المدح مثلا إلى البدء بوصف الرحلة

(١) الأقعحاف : جمع قحفة ، وهى الفلقة التى تشبه قحف الرأس ، وشريان الهبيد : شجر الخنظل.

(٢) وردت هذه الأبيات في أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٣) الردن : صوت وقع السلاح بعضه على بعض .

(٤) وردت هذه الأبيات في : أخبار مجموعة ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

إلى الممدوح ، وتحمل المشاق في سبيل الوصول إليه ، وإرهاق الإبل وإتلاف المطايا خلال السفر إلى مكانه ؛ ومن حيث انتزاع الصور والمعاني من البيئة البدوية القديمة ؛ ثم من حيث التعبير بالأسلوب البدوي القديم كذلك ، ذلك الأسلوب الذي يعتمد على الألفاظ الجذلة وإن كانت غريبة ، ويتألف من العبارات الفخمة وإن جاءت خشنة ، وأخيراً من حيث الميل إلى الأبحر الطويلة ذات التفاعيل الكثيرة والقوافي الرنانة . والنماذج المتقدمة واضحة الدلالة على كل تلك الملامح المحافظة .

(ب) عوامل المحافظة :

وقيل أن نأخذ في الحديث عن السمات الخاصة للشعر الأندلسي المحافظ نوضح مسألة يغيب فيها الحق عن كثير من الباحثين ؛ حيث يظنون أن سير الأندلسيين على نهج المحافظ في الشعر كان دائماً بدافع التقليد ، ولم يكن له ما يقتضيه من حياة الأندلسيين . فالحق أن سيرهم على نهج المدرسة المحافظة التي وفدت من المشرق ، كان له ما يبرره من واقع الأندلسيين وظروفهم ، ثم من مثلهم وقيمهم ، وتستوى في ذلك تلك الفترة التي نتحدث عن شعرها مع غيرها من الفترات التالية . أما واقعهم وظروفهم فقد كانت تتطلب إلى حد كبير هذه الموضوعات التقليدية التي عرف بها الشعر المحافظ ؛ فالفخر والحماسة من لوازم الصراع والغلبة ، وقد عرفت الأندلس كثيراً من ذلك في تلك الفترة وفي غيرها من الفترات . والمدح كذلك من لوازم البيئة العربية القديمة ، وقد كانت البيئة الأندلسية تنطبع - إلى حد كبير - بالطابع العربي . وخاصة حين كان حكامها يدعمون حكمهم ويقوون سلطانهم ؛ فهم يتخذون من الشعر أداة ترويح ووسيلة دعاية ، وهم قبل ذلك عرب الأمزجة ، يهشون للمدح وينسبون للشاء . والغزل كذلك كان من لوازم البيئة العربية القديمة ، ومظهراً من مظاهرها الرئيسية وخاصة في أوساط الفوسان . وقد عرفت الأندلس الفروسة منذ سنيها الأولى . ومن هنا رأينا شاعراً

كالحكم بن هشام يميل إلى الغزل ، وإلى المهالك منه بنوع خاص . وليس ذلك بغريب عليه كفارس ؛ فشأن الفرسان أن يظهرُوا أقوياء أشداء في ميادين الحرب ، وضعفاء مستكينين في ميادين الحب .

وهكذا يمكن أن يقال في باقي الأغراض التقليدية التي عاجلها الشعر الأندلسي المحافظ ؛ فكلها يمكن اعتباره من مقتضيات واقع الأندلسيين وظروفهم

أما الأسلوب المحافظ الذي تناول به الشعراء الأندلسيون تلك الموضوعات التقليدية . فله تبريره من مثل الأندلسيين وقيمهم ؛ ذلك أن العرب كانوا ينتقلون إلى أي إقليم جديد ، وفي مخيلاتهم عالم مثالي ، هو ذلك العالم الذي عاش فيه آباؤهم الأقدمون ، حيث الصحراء والنوق ، والبان والكثبان ، والجسآذر والآرام ، إلى آخر هذه الخطوط والألوان التي تؤلف لوحة البادية ، عالم العرب المثالي الأسطوري . وكان أبناء العرب يعتقدون أن خير أدب هو ما كتب آباؤهم في عالمهم ذلك المثالي الأسطوري ، وأن قصارى الأديب بعد ذلك أن يأتي بما يشبه نتاج هؤلاء الرواد الأول . ومن هنا كانوا في الأندلس يستلهمون هذا العالم المثالي الذي يتخيلونه عالم آباؤهم وأجدادهم ، كما كانوا يحاكون هذه النماذج التي جادت بها قرائح الآباء والأجداد .

وشبهه بهذا ما فعله الأوربيون في العصر « الكلاسي » حين راحوا يستلهمون العالم المثالي اليوناني والروماني ، ويسرون على النماذج التي رسمها أسلافهم اليونانيون والرومانيون ، وذلك برغم اختلاف العصور والبيئات والناس جميعاً . وربما كان أكثر شبيهاً بما فعل المسلمون في الأندلس ، ذلك الذي كان من أدباء أمريكا اللاتينية ، حين استوحوا الأدب الإسباني التقليدي . باعتباره أدب عالمهم الأسطوري المثالي ، حتى لو جرد هذا الأدب الأمريكي اللاتيني من كل ما فيه من رواسب إسبانية لم يبق منه شيء ذو قيمة^(١) .

Emilio Garcia Gomez, Poemas arábigo-andaluzes, pp. 19 ff.

(١) انظر :

وانظر : الشعر الأندلسي (وهو ترجمة المصدر السابق قام بها الدكتور حسين مؤنس) ص ٧ - ٨ - .

هذا هو تعليل ما كان للإنذلسيين في فترة تأسيس الإمارة وفي غيرها من اتجاه محافظ في الشعر . وسوف تكون لهم اتجاهات أخرى ، إن لم تظهر في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس ، فسوف تظهر في فترات تاليات ، نتيجة لظروف لم تتحقق بعد

(ج) السمات الخاصة :

أما السمات الخاصة التي تميز ملامح الشعر الأندلسي وتجعله ذا شخصية مستقلة ، بحيث لا نعد الأندلسيين مقلدين للمشاركة تقليداً تخفي وراءه شخصيتهم ، ولا تبدو معه خصائص مميزة لشعرهم ؛ فقد ظهر بعضها منذ فترة تأسيس الإمارة . وسيظهر البعض الآخر في فترات أخرى . والذي يعنيها الآن هو تلك السمات الأولى التي ظهرت في الفترة التي نسوق عنها الحديث ، وتلك السمات هي :

التجديد الموضوعي

ونعني بذلك ، طرق بعض الموضوعات الجديدة أو تناول بعض التجارب التي لم تتناول من قبل . وأوضح مثل على هذه الخاصة ، تلك القطعة الشعرية التي عالج الشاعر أبو المتخشي فيها تجربة فقدان البصر ، وفيها يقول :

نخضعت أم بناتي للعدا	إذ قضى الله بأمر فضي
ورأت أعمى ضريراً إنما	مشيه في الأرض لمس بالعصا
فبكت وجداً وقالت قولة	وهي حرى بلغت منى المدى
ففؤادى قرح من قوطا	ما من الأدواء داء كالعمى
وإذا نال العمى ذا بصر	كان حياً مثل ميت قد ثوى
وكان الناعم المسرور لم	يك مسروراً إذا لاقى الردى

أبصرت مستبدلاً من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى
 بالعصا إن لم يقده .قائد وسؤال الناس يمشى إن مشى
 وإذا ركب دنوا كان لهم هو جلا في المهمة الخرق الصوى^(١)
 لم يزل في كل مخشى السرى يصطلي الحرب ويحتاج الدجى^(٢)

فهذا الموضوع جديد ، لم يطرقه شاعر قبل أبي المخشى فيما نعلم^(٣) . . وتأمل الطريقة التي عالج بها أبو المخشى هذه التجربة ، يعطينا السمة الثانية من سمات الشعر الأندلسي ، وهي :

التجويد الفني

ونعني بذلك محاولة الأداء بطريقة أجود مما ألف السابقون . وللأندلسيين وسائل مختلفة إلى هذا التجويد ، بعضها يتعلق بالمضمون ، وبعضها يتصل بالشكل . وهذه السمة الفنية التي بدت في شعرهم منذ نشأته ، كانت دائماً من أوضح خصائص الشعر الأندلسي في كل العصور ، وإن أخذت مظاهر مختلفة من عصر إلى عصر ، ومن شاعر إلى آخر .

(١) الموجل : البطء الثقيل . والمهمه : المفاضة . والحرق : القفرز . والصوى : جنع صوة وهي ما غلظ وأرتفع عن الأرض .

(٢) وردت هذه الأبيات في كتاب الإحاطة لابن الخطيب (وهو مخطوط بالإسكوريال رقم ١٦٧٢ ورقة ٣٥١ - ٣٥٢) .

(٣) ذكر بعض الشعراء المشاركة الأقدمين عامه ، ولكن ذلك لا يعتبر تناولا لتجربة ولا طرقا للموضوع قبل أبي المخشى ، لأن ذكر المعنى على نحو ما جاء عندهم ، إنما هو ذكر إخباري عرضي مقتضب ، لا شيء فيه من تصوير لحظة أو وصف لمنحن . ومن هذا قول الشاعر الجاهل ، الأسود بن يعفر النهشل في قصيدته الدالية :

ومن الحوادث لا أباك أنى ضربت عل الأرض بالأسداد
 لا أهدى فيها لمقع تلمة بين العراق وبين أرض مراد

فإذا تأملنا أبيات أبي المخشى ، وجدناه يستعمل التعبير الموحى بطريقة فنية بارعة ؛ فهو يتحدث عن محنته حين فقد بصره . ولكنه لا يعبر عن ذلك تعبيراً مباشراً أو مبالغاً ، وإنما يعبر تعبيراً إيجازياً بسيطاً مؤثراً غاية التأثير . وذلك حيث ذكر زوجته وخضوعها للأعداء بسبب فقدان عائلها لنور عينيه . ولم يكتب الشاعر بذكر الزوجة ، ولم يذكر اسمها كما يفعل الشعراء التقليديون غالباً ؛ وإنما ذكر أنها أم بناته ، وذلك ليشير إلى أنه ذوبنات ، وأن الزوجة والبنات جميعاً قد خضعن للعدا وأصبحن في حال من الذل تستدر الدمع . ثم ذكر في آخر البيت أن ذلك كان منذ قضى الله بأمر فضى هذا الأمر . فالشاعر أيضاً لجأ إلى الإيجاء بذكر القضاء ومضى هذا القضاء ، وصور في عبارته نفس السرعة التي يقع بها المقضى ، فكان موفقاً في تصوير المحنة كما كان موفقاً في نقل الإحساس بها .

نخضعتُ أم بناتي للعدا إذ قضى الله بأمر فضى

وراح الشاعر بعد ذلك يذكر ما كان لزوجته من بكاء ووجد ؛ وما كان من قول أطلفته وهي حرى فبلغ من الشاعر المدى ؛ حتى قرح فؤاده ، وذلك حين قالت « ما من الأدواء داء كالعمى »

ثم أخذ الشاعر يجسم محنة فقدان البصر ؛ فيجعل من يصاب بها « حيا مثل ميت قد نوى » ويقرر أنه بمحنته ينسى كل ما كان له قبل من نعيم وسرور سابقين .

وكأن الناعم المسرور لم يك مسروراً إذا لا في الردى

وبعد ذلك يصور الشاعر الضرير في حالاته المختلفة ويبرزه في أوضاعه المتعدد ؛ حين يكون « مستبدلاً من طرفه قائداً يسعى به حيث سعى » وحين يسير « بالعصى إن لم يقده قائد » وحين يكون حاله « سؤال الناس إن مشى » بلا قائد .

ولا يكتب الشاعر بتلك الأوصاف التي تصور الضرير حين يكون وحده، وإنما يأتي

إلا أن بصوره حين يكون في جماعة ؛ فيجعله معوق الركب الدائى ومبطلء المشرفين على غايتهم ؛ حتى لكأنهم به في صحراء متفجرة تعلق فيها الحجارة وتعاظ .

وإذا ركب دنوا كان لهم هوجلا في المهمة الحرق الصوى

وأخيراً يتختم الشاعر وصف حال الضرير بتصوير عالمه النفسى الملىء بالمخاوف، المتكاثف بالظلمات ، فيجمع بذلك التصوير النفسى إلى التصوير الحسى ؛ حيث يقول :

لم يزل في كل مخشى اليمرى بصطلى الحرب ويحتاج الدجى

وإذا تأملنا هذا النص نفسه من جهة ما يثيره فينا أو ينقله إلينا ؛ أدركنا السمة

الثالثة من سمات الشعر الأندلسى الخاصة وهى :

التركيز العاطفى :

ونعنى بذلك أن العاطفة تتضح فى العمل الشعرى ، حتى لتوشك أن تكون أبرز عناصره . ولترك النص السابق برغم وضوح تلك السمة فيه . ولنأخذ لذلك مثلاً ، أبيات عبد الرحمن الداخلى فى الحديث عن نخلة وآها بالرصافة ، وفيها يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل

فقلت شيبى فى التغريب والنوى . وطول التناى عن نبي وعن أهلى

نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

سقتك غوادى المزن فى المنتأى الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل^(١)

فعبء الرحمن فى هذه الأبيات يتناول موضوعاً تقليدياً ، وهو الوصف ، ولكنه يلح على الجانب العاطفى فيبرزه بحيث يكاد يخفى كل ما سواه من جوانب . فهو لم يصف

(١) انظر هذه الأبيات فى : البيان المغرب ج ٢ ص ٩٠ ، وفى : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٦ .

النخلة في طولها ولا في لونها ولا ثمرها ، ولم يتخيلها مارداً ذا شعر طويل ، ولا شيخاً ذا قوام هزيل ؛ وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ويصورها بصورة نفسية . فيرسمها وقد « تنامت بأرض الغرب عن وطن النخل » ويعقد بينها وبينه شبيهاً في التغريب والتوى وطول التناثي عن البنين والأهل ، ويصفها بغربة المنشأ ومشابهة الشاعر في المنأى البعيد والمهجر القصي . وأخيراً يدعو لها بالسقيا ، فيطلب أن تجودها غوادى المزن « في المنتأى الذى يسح ويستمرى السماكين بالوبل » .

وهكذا جعل من النخلة إنساناً حياً ، يغترب وينأى عن الوطن ويبعد عن الأهل ، وأوجد بينه وبينها مشاركة وجدانية وعلاقة نفسية جعلته يحاطبها في حنو ويناجيها في عطف . وكل ذلك يجعل العنصر العاطفي أبرز عناصر المضمون الشعري لهذه الأبيات .

ومثل هذا النموذج قول عبد الرحمن أيضاً :

أيها الراكب الميمم أرضي أقر من بعضى السلام لبعضي
إن جسمي كما تراه بأرض وفؤادي ومالكه بأرض
قدر الين بيننا فافترقنا وطوى الين عن جفوني غمضي
قد قضى الله بالعباد علينا فعمى باقترابنا سوف يقضى^(١)

فأوضح ما في هذا الشعر هو عنصر العاطفة . ولم يأت ذلك من كون الموضوع موضوعاً عاطفياً بطبعه ؛ بل جاء من تغليب الشاعر للجانب العاطفي على كل الجوانب ، بحيث أصبح كل هم أن يوضح هذا الجانب وينقله إلى غيره ما استطاع نقلاً قوياً . ومن هنا جعل سلامه مبعوثاً من بعضه إلى بعضه الآخر ، وفسر ذلك بأنه مقسم بين الأندلس والمشرق ؛ فجسمه هنا ، وفؤاده ومالكه هناك . ثم ذكر أن البعاد قدر بين هذا القسم

(١) انظر هذه الأبيات في البيان المغرب ج ٢ ص ٨٩ . وفي نفع الطيب ج ٢ ص ٦٨ .

وذاك ، فكان الفراق وكان السهاد وطى الغمض عن الجفون . وقرر أخيراً أن ذلك كان قضاء الله بالعباد ، ودعاه أن يقضى بعد ذلك باللقاء .

ولا شك أن هذه الطريقة في تناول التجربة بالإضافة إلى صدقها وطبيعتها صاحبها ، جعلت أبرز شيء في الشعر هو عنصر العاطفة

وهكذا نرى أن الشعر الأندلسي في فترة تأسيس الإمارة برغم كون ملامحه العامة هي ملامح الشعر المشرق المحافظ ؛ قد كانت له سمات خاصة ، صنعت الملامح الأولى للشعر الأندلسي المتميز ، ذلك أن تلك السمات التي بدت في تلك الفترة من طرق بعض الموضوعات الجديدة ، ويميل إلى التجويد ، وغلبة للجانب العاطفي ؛ لن تكون فقط خصائص الشعر الأندلسي التي تميزه عن نظيره المشرق ، فهناك سمات ستظهر في عصور تالية نتيجة لظروف مختلفة . وسوف نوضح كل ذلك في حينه إن شاء الله . وحسبنا الآن ، تلك السمات الثلاث التي شكلت ملامح شعر الأندلس بعض التشكيل ، حتى في تلك الفترة المبكرة من تاريخه .

(د) الشعراء :

شعراء هذه الفترة عديدون . وأكثرهم أندلسيون مولداً ومنشأ وثقافة ، وأقلهم أندلسيون حياة وتأثراً ونتاجاً ، ثم إن بعضهم قد كثرت أخباره لكونه أميراً أو حاكماً ، وقد كان التاريخ يعنى أكثر بالأمراء والحاكمين ، على أن بعضهم الآخر قد قلت أخباره لكونه لم يتمتع بإمارة ولا بحكم ، وإنما كان من أبناء الشعب ، وقد كان التاريخ - مع الأسف الشديد - لا يعنى كثيراً بأخبار أبناء الشعب .

وسوف نعرض لبعض شعراء تلك الفترة ، أو لمن وصلتنا بعض أشعارهم وأخبارهم . وليس علينا إن أوجزنا الحديث عن بعض هؤلاء الشعراء وأطبناهم في البعض الآخر ؛ فالمستول عن ذلك هم المؤرخون الأقدمون وعنايتهم بالحاكمين دون المحكومين .

عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن^(١) بن معاوية بن هاشم بن عبد الملك . ولد في إحدى قرى دمشق سنة ١١٣ هـ . مات أبوه ، وتركه صغيراً فكفله جده هشام . ثم لما كان في نحو العشرين من عمره وحلت النكبة ببني أمية ، وقام على أنقاضهم بنو العباس ؛ كان عبد الرحمن قد فر بأهله وولده إلى ناحية الفرات ، ونزل بقرية قرب النهر واختفى بها عن أعين العباسيين . وفي ذلك وفيما كان لعبد الرحمن من فرار إلى المغرب يقول : « وإني لجالس يوماً في قرية على شط الفرات ، في ظلمة بيت تواريت فيه لرمد كان بي ، وابني سليمان يلعب أمامي ؛ إذ دخل الصبي فرعاً باكياً فأهوى إلى حجري ، فجعلت أدفعه لما كان بي ، ويأبى إلا التعلق بي ، وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع . فخرجت لأنظر ، فإذا بالروع قد نزل بالقرية ، ونظرت فإذا بالرايات السود عليها منحطة . وأخ لي حدث السن كان معي يشتد هارباً ويقول لي النجاة يا أخي فهذه رايات المسودة . فضربت بيدي إلى دنائير تناولتها ، ونجوت بنفسي والصبي أخي معي . وأعلمت أخواتي متجهي وأمرتهن أن يلحقنني مولاي بدرأ . وخرجت فكمنت في موضع ناء عن القرية . فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً . ومضيت ولحقني بدر فأتيت رجلاً من معارفي بشط الفرات ، وأمرته أن يبتاع لي دواب وما يصلح لسفري ، فدل عليّ عبدٌ سوء له ، فما راعنا إلا جلبة الخيل تحمضنا ، فسبحت حائثاً لنفسى ، وسبح الغلام أخي ، فنادانا القوم من الشط : ارجعا لا بأس عليكما . فلما قطعت نصف الفرات ، قصر أخي ، فالتفت لأقوى من قلبه ، وإذ هو قد أصغى إليهم وهم يمدعونه عن نفسه ، فناديته : تقتل يا أخي ، إلى إلى . وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره في : البيان المغرب ج ٢ ص ٧١ وما بعدها ، ونفح الطيب ج ١

ص ١٥٤ وما بعدها و ج ٢ ص ٦٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة ص ٥٠ وما بعدها .

الفرق ، فاستعجل الانقلاب نحوهم . وقطعت أنا القراب . ثم قدموا الصبي أخى الذى صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ، ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه ؛ فاحتملت فيه شكلاً ملائى مخافة . ومضيت وجهى أحسب أنى طائر ، فلجأت إلى غيضة فتواريت فيها حتى انقطع الطلب عنى ثم خرجت هارباً أروم المغرب ، حتى وصلت إلى إفريقية . وهناك لحق بى مولاي بدر

وأخيراً تسلل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وجمع حوله أنصار بى أمية ، ونازل يوسف الفهرى والى الأندلس حيثئذ ، فهزمه ، ودخل قرطبة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) وقد تغلب الداخل على كل ما صادفه من صعوبات فى تأسيس دولة بى أمية فى الأندلس ، واستخدم لذلك الذكاء والحيلة والقسوة أيضاً . حتى لقد قتل بعض قرابته وخاصته فى سبيل تحقيق غايته . ولقد لقبه أبو جعفر المنصور بصقر قریش . وكان لقباً يليق بعبد الرحمن الذى ظل نحو ثلاثة وثلاثين عاماً - هى مدة حكمه - فى جهاد متصل وعمل دائب من أجل تحقيق هدفه الكبير . ثم مات سنة ١٧٢ هـ (٧٨٨) بعد أن حقق أكثر ما كان يريد .

وكان عبد الرحمن شاعراً مجيداً وناثراً بليغاً . وكان شعره يصوره بجوانبه المختلفة ، كلإنسان وكمحارب وكسياسى . وقد أوردنا فيما سبق تلك الأبيات التى يتحدث فيها عن نخلة الرصافة ، كما أوردنا الأبيات الأخرى التى يرسل فيها سلامه من بعضه فى الأندلس إلى بعضه فى المشرق . وهذه الأبيات وتلك من روائع شعره الإنسانى .

وهناك نماذج أخرى تمثله كمحارب وكسياسى . وكلها يأخذ طابع الفخر ، لكنه الفخر الصادق ، الذى ينطبق ما فيه من المفاخر على حقيقة المفترخ . ومن ذلك قوله ، وقد حظه بعض رفاقه على صيد غرائيق وقعت إلى جانب معسكره فى إحدى عزواته :

الأدب الأندلسى

دعنى وصيد وُقِعَ الفراتى^(١)
 فإن همى فى اصطيد المارق
 فى نطق إن كان أو فى حالى
 إذا التظلت هواجر الطراتى
 كان لفساعى ظل بند خافى
 غنيتُ عن روض وقصر شامى
 بالقفر والإيطان^(٢) فى السراقى
 فقل لمن نام على النمارق
 إن الملا شدت بهم طارق
 فاركب إليها ثبج^(٣) المضائق
 أولا ، فأنت أزدل الخلاتى^(٤)

ومن شعره الذى يصوره كذلك كسياسى وكحارب ؛ قوله وقد بلغه أن بعض أعوانه
 يمن عليه ، ويزعم أنه لولاه لما صار عبد الرحمن إلى ما صار إليه من ملك ومجد :

لا يُلَفَّ مِمَّنْ عَلَيْنَا قَاتِلٌ لولاي ما ملك الأنام الداخِل
 سعدى وحزى والمهند والقنا ومقادر بلغت وحالٌ حائل
 إن الملوك مع الزمان كواكب نجم يطالعنا ونجم آفل
 والحزم كل الحزم ألا يغفلوا أيروم تدبير البرية غافل ؟
 ويقول قوم سعده لا عقله خير السعادة ما حماها العاقل

(١) جمع غرنوق ، بضم الغين والنون ، وهو طائر مائى ، أو الكركى .

(٢) الإيطان : مصدر أوطن : أى أقام .

(٣) الثبج : وسط الشيء ومعظمه .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : أخبار مجبوبة ص ١١٧ - ١١٨ .

أبني أمية قد جبرنا صدعكم بالغرب رغما والسعود قبائل
 ما دام من نسل إمام قائم فالملك فيكم ثابت متاصل^(١)
 وما بصورقصته في كفاحه المرير وجهاده الطويل ، وإحسانه إلى بني أمية ،
 قوله وقد وفد عليه بعض أقربائه فنال عطاء لكنه استقله ، واستطال على الداخل بدالة
 القرابة :

شنان من قام ذا امتاض مذ قال ما قال واضمحلا
 ومن غدا مصلتاً لعزم مجرداً للعداة نصلا
 فجاب قفراً وشق بجرأ ولم يكن في الأتنام كتلا^(٢)
 فساد ملكا وشاد عزراً ومنبراً للخطاب فصلا
 وجند الجند حين أودى ومصر مصر حين أحلى
 ثم دعا أهله جميعاً حيث انتأوا أن هلم أهلا
 فجاء هذا طريد جوع شديد روع يخاف قتلا
 فنال أمناً ونال شبعاً^(٣) ونال مالا ونال أهلا
 ألم يكن حق ذا على ذا أعظم من منعم ومولى^(٤)

وعيد الرحمن الداخل وإن كان مشرق المولد والنشأة ، يعتبر أندلسي الحياة والشعر ،
 وذلك لأنه وفد على الأندلس في شبابه الباكر ، وتأثر أكثر ما تأثر بما كان في الأندلس
 من حياة طويلة عريضة مزدهمة بالأحداث والتجارب ، حتى كان كل ما أثر عنه من
 شعر قد قيل في الأندلس ، ومن هنا جاء شعره جميعاً مرتبطاً بالأندلس متأثراً بها .

(١) وردت هذه الأبيات في نفع الطيب ص ٧٠ ج ٢

(٢) الكل : العيل والثقل ومن لا خير فيه .

(٣) الشيع بسكون الباء كالشيع بفتحها .

(٤) وردت هذه الأبيات بصور مختلفة في نفع الطيب وأخبار مجموعة . وقد أثبتنا الأبيات الستة الأولى

من نفع الطيب ج ٢ ص ٧١ وأثبتنا الثلاثة الباقية من رواية أخرى في المصدر نفسه ص ٨٦ .

وإذا استعرضنا تلك النماذج التي بقيت من شعر عبد الرحمن الداخل ، وجدناها
 قسمة بين الحنين والفخر ، أما الحنين فصدره تعلق قلب الشاعر بوطنه الأول في المشرق ،
 حيث ولد ونشأ وكانت لآبائه دولة كبيرة . وأما الفخر فصدره بطولة الشاعر وكفاحه ومغامراته
 وانتصاراته ؛ فقد استطاع وهو شاب أن يؤسس دولة لبني أمية تعرضهم دولتهم التي فقدوا .
 ومن هنا كان شعر الداخل يتسم بالصدق ؛ لأنه يعبر عن تجارب قد عاشها الشاعر وانفعل
 بها . حتى الفخر الذي من شأنه أن يكون مثقلاً بالمبالغات والأكاذيب ، قد كان
 من عبد الرحمن الداخل فخراً محتملاً لا تثقله مبالغات أو أكاذيب ؛ لأنه يصور حقيقة
 الرجل وسيرته .

وهكذا جاء شعر الداخل من حيث الموضوعات والتجارب مصوراً في صدق لجوانب
 شخصية الرجل ، وهي جوانب ثلاثة ، جانب إنساني يحب ويعن ويرق ويتألم ويبكى ،
 وجانب سياسي يدبر ويحتال ويحزم ويعرم ، وجانب عسكري يقسو ويعنف ويضرب
 ويفتك

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل أنه يتسم إلى جانب صدق التجارب بفنية
 التعبير ، وتتمثل تلك الفنية في طريقة الشاعر التي يتناول بها الموضوعات ؛ فهو في حديثه
 عن بعض الأشياء لا يصفها من الخارج ، وإنما يتعمقها ويعيش معها ، ويحلق عليها
 حياة ترتبط بحياته ، ويبث فيها عواطف تشارك عواطفه . وقد رأينا مثلاً من ذلك في حديثه
 عن النخلة . وهو في طريقة تناوله للموضوعات يعتمد على الوجدان في الموضوع الذي
 أساسه الوجدان ، وعلى الإقناع في الموضوع الذي أساسه الفكر . وقد رأينا كيف اعتمد
 على الوجدان في حديثه عن النخلة وفي تحيته إلى أحبائه في المشرق . ولنتأمل أبياته في الرد
 على من كان يمن عليه من أعوانه ، لنترى كيف اعتمد على الإقناع فيما أساسه الفكر ،
 وكيف وضع مثلاً أن سبب مجده ليس هو هذا الذي يمن عليه ، وإنما هو السعد والسيف

والرمح والقدر وسنة الله في تحوّل الأحوال وتداول الحكام ؛ ثم يمضى الشاعر في الإقناع بفكرة كفاءته ومقدرته على صيانة الملك ، فيبين أن قول آخرين بأن السعد وحده هو الذى وصله إلى ما وصل إليه ، وليس العقل والتدبير ؛ إنما هو قول باطل يرد عليه ما كان من حمايته للملك ، تلك الحماية التى لا تكون إلا بالعقل والحكمة والكفاءة ، وهكذا يمضى في الاعتماد على الإقناع في مثل هذا الموضوع الفكرى ، كما مضى في الاعتماد على الوجدان فيما سبق من موضوعات عاطفية .

ويلاحظ كذلك على شعر الداخل ، أنه يتسم غالباً بسمة التركيز العاطفى التى أسلفنا عنها الحديث ؛ فهو فيما يتناول من موضوعات يركز على العاطفة محاولاً التأثير بها وفيها ما أمكن . وتستوى في ذلك الموضوعات التى أساسها العاطفة والموضوعات التى أساسها الفكر . وقد اتضح تركيزه العاطفى في حديثه عن النخلة وتحيته لإحبابه في المشرق . فإذا ما تأملنا أبياته الأخرى التى أساسها الفكر والاعتماد على الإقناع ، وهى أبياته في الرد على من يمين عليه ؛ وجدنا العاطفة كذلك تشبع فيها جواً دافئاً يخفف من برودة الفخر ويصقل من خشونته . فالشاعر في تلك الأبيات يذكر الحظ والقدر وتحوّل الأحوال ، ويصور الحكام نجومياً تتعاقب ، فيشرق نجم ليغيب آخر . وكل ذلك مما يشبع في القصيدة هذا الجو العاطفى الدافئ الرقيق ، ويبعدها عن أن تكون مجرد حجج وبراهين ووسائل إقناع .

وأخيراً يلاحظ على شعر الداخل أن لغته تميل غالباً إلى السلاسة والرقّة ، وتجنّب التعقيد والغموض والغريب .

أبو المخشبي :

هو عاصم بن زيد العبادي ، ويتصل نسبه بالعباد نصاري الحيرة^(١) . وكان والده من جند الشام الذين وفدوا على الأندلس في فترة الولاة ، وكان قد نزل مع جند دمشق بمنطقة إلبيرة . فنشأ أبو المخشبي ببلدة شوش ، وانجبه إلى قرص الشعر ، وما زال ينبغ فيه حتى صار من ألمع شعراء عصره .

ولكن أبا المخشبي كان ذا بدء زائد يتسرع به من لا يوافقه من الناس ، وكان ذا هجاء يمس الحرم ويتناول الأعراض أحياناً . وكان الشعراء بدورهم يجدون في أصله النصراني البعيد مغزراً يعبرونه به^(٢) .

وكان أول الأمر كثير المدح لسليمان بن عبد الرحمن الداخل ، حتى ليوشك أن ينقطع له . وقد ذكر في إحدى مدائحه بيتاً من الشعر اعتبره هشام بن عبد الرحمن الداخل تعريضاً به . وهو هذا البيت :

وليسوا مثل من إن سبيل عرفنا يقلب مقلة فيها اعورار^(٣)

وسبب اعتبار هذا البيت تعريضاً بهشام . أنه كان أحول ، فاغتاظ من أبي المخشبي ، وخاصة لما عرف عنه من هجائه الذي يمس الحرم ، ولما اشتهر به من مدح سليمان دون هشام ، فاستدعاه إلى مدينة ماردة - وكان هشام حينئذ والياً في حياة أبيه - فخرج إليه أبو المخشبي من قرطبة طامعاً في عطائه . فلما دخل عليه قال له : « يا أبا المخشبي ،

(١) وردت أخباره في : المغرب لابن سعيد ج ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ ، وبلوة المتنبس الحميري ص ٣٧٧ ، وقاريف افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٣٥ ، ٣٦ ، والإحاطة لابن الخطيب (مخلوطة بالإسكوريال رقم ١٦٧٣ ورقة ٣٥١ ، ٣٥٢) .

(٢) انظر حكاية له من شاعر يسمى ابن هيرة في : المغرب ج ٢ ص ١٢٤ .

(٣) في المغرب : « ليس كطل من إن سم مرقا » ج ٢ ص ١٢٤ .

إن المرأة الصالحة التي هوت ابنها ، فقدتها فأفحشت فيها ، قد أخلصت دعاءها لله في أن ينتقم لها منك ، فاستجاب رجاءها ، وسلطني لأقتصص لها» ثم أمر به فقطع بعض لسانه وسملت عيناه . وقد عولج من جراحه ، ولكنه عاش بعد ذلك ممثلاً به . فأما لسانه فأنجبر بعد وقت إلا قليلاً ، فاقتدر على الكلام إلا تلعماً كان يعترضه ، وأما العمى فقد استمر به . فعظم مصابه وكثرت شكواه في أشعاره . ولما بلغ عبد الرحمن الداخل صنع ابنه هشام بأبي المخشبي ، ساءه الأمر وكتب إلى ابنه يعنفه . ثم قدم الشاعر على عبد الرحمن وأنشده قصيدته التي صدرها بتصوير محنة العمى ، فرق له الأمير وأجازه بألني دينار وضاعف ديته . ولما صار الأمر إلى هشام بعد أبيه استشعر الندم مما أصاب الشاعر على يديه ، فترضاه وضاعف ديته كذلك .

وقد اتخذ الشاعر صبيّاً كمنشد لشعره بعد أن أعجزته مأساته عن الإنشاد الفصيح .
 ومُحمرُّ أبو المخشبي بعد محنته حتى لحق دولة عبد الرحمن الأوسط ، وتوفى قريباً من هذا العهد . وذكر ابن جيان أنه مات في عهد الحكم الربضي (١) .

وقد ذكر الرازي أن أبا المخشبي « كان شاعر الأندلس في حينه ، وأنه كان صاحب المعاني الحسنة والنوادر الكثيرة والقول الغزير » .

ولكن برغم ما عرف عنه من غزارة القول ، لم يصلنا من شعره إلا القليل ، الذي منه تلك الأبيات التي يتحدث فيها عن محنة العمى ، والتي يجعلها مقدمة لقصيدة له في مدح عبد الرحمن الداخل . وقد مضت تلك المقدمة وبعض أبيات أخرى من القصيدة في غير هذا المكان .

ومن القليل الذي بقي من شعره أيضاً ، تلك الأبيات التي يمجّد فيها انتصار الداخل

في بعض المعارك ، ومدحه ويشيد بابنه سليمان بن عبد الرحمن ، وقد مضت تلك الأبيات كذلك في موضع آخر .

ومن أروع شعره الذي وصلنا هذان البيتان اللذان يصوران الهم تصويراً دقيقاً :

وهمٌ ضافني في جوف ليل كلا موجيها عندي كبيرٌ
فبتنا والقلوب معلقة وأجنحة الرياح بنا تطير^(١)

ثم هذا البيت الذي يصور العيش الممهد والحياة في رفعة وحماية أدق تصوير :

هُمًا مهذا لي العيش حتى كأني خَفِيَّةً زَفَاً بين قادمي نسر^(٢)

وأخيراً هذان البيتان اللذان قالهما في آخر حياته ، وفيهما يصور عجزه بعد مسانته وشيخوخته وحياته عالة على زوجته ، تلك العاجزة بدورها ، الباكية لما كان من أمر زوجها وأمرها :

أمٌ بنياتي الضعيف حَوَّلَها تعول امرأ مثلي وكان يعولها^(٣)
إذا ذكرتُ ما حال بيني وبينها بكت تستقبل الدهر ما لا يقبلها

ومما ورد هنا من شعر لأبي المخشى ، ومما ورد له في مواضع أخرى ، ثم مما ذكروا عنه من أخبار ، نستطيع أن نقول : إن أبا المخشى كان يمثل الشعر الأندلسي في فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ؛ فهو يمثل في سيره في هذا الاتجاه المحافظ ذي الملامح البدوية . وهو يمثل في ظهور تلك السمات الأندلسية الخاصة من تجديد في بعض الموضوعات ومن تغليب لعنصر العاطفة ، ومن تجويد لطريقة الأداء ؛ فقد وجدنا أبا المخشى يعالج

(١) ورد هذا البيتان في جذوة المقتبس للحميدي ص ٣٨٧ . وضافه : نزل عليه ضيفاً .

(٢) ورد هذا البيت في المصدر السابق .

(٣) ورد هذان البيتان في : تاريخ افتتاح الأندلس لابن التبريزي ص ٣٦ . والحويل : الحويل والقدرة .

غالباً الموضوعات التقليدية وخاصة المدح والهجاء ، لكننا رأيناه يعالج تجربة جديدة ،
وهي تجربة فقدان البصر . وقد وجدناه كذلك يؤثر المنهج التقليدي في بناء القصيدة
حيث يبدأ مدحه مثلاً بوصف الرحلة وإجهاد المطايا ، وحيث يلتصق صورته ومعانيه
ولغته غالباً في عالم البادية ، وما عاشت عليه من أفكار وقيم ووسائل تعبير ؛ ولكننا رأيناه
مع ذلك مجوداً ما أمكن ؛ فهو يحاول أن يأتي بشيء أحسن مما أتى به الأقدمون ، برغم
تحركه غالباً في فلكهم وسيره في اتجاههم . فامرؤ القيس يقول مثلاً في ليل الهموم :

وليل كعوج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم لينتلي
فقلت له لا تمطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
ويقول أبوالمخشى :

وهم ضافى في جوف ليل كلا مَوجيهما عندى كبيرُ
فيتنا والقلوب معلقة وأجنحة الرياح بنا تطير

فهو قد ينظر إلى صورة ليل امرئ القيس من بعيد ، لكنه يؤلف صورة أكثر حياة
وتأزر عناصر من صورة ليل امرئ القيس . وذلك أن الليل عند امرئ القيس موج
بحر يرخى سدوله بأنواع الهموم ، وهو في الوقت نفسه جمل يتمطى بصلبه ويردف
أعجازاً ويتواءم بكلكل ، وليس هناك ترابط بين البحر والجمل . أما الليل عند أبي
المخشى ، فهو بحر ذو موج عظيم ، يحوى همماً في جوفه ، هو بدوره بحر ذو موج عظيم ،
وبين هذين الموجين تظل القلوب معلقة من الفرع ، وكأن أجنحة الرياح تطير بالهموم .
ومن أوضح أمثلة هذا التجويد في شعر أبي المخشى كذلك قوله :

هُمَّاهَا مَهْدَا لِي الْعَيْشِ حَتَّى كَأَنِّي خَفِيَّةٌ زِفُّ بَيْنَ قَادِمَتِي نَسْرِ

فلا ينبغي ما في هذه الصورة من الدقة والحدة والشمول والإيجاء ، بحيث تفق

كثيراً ما قيل من قبل في تمهيد العيش والحماية . فاختيار الشاعر لخفية الزف بخاصة - وهي الريشة الصغيرة من ريش الخوافي التي في مؤخر الجناح - يوحى بالبساطة والخفة والاحتياج الشديد إلى حماية . واختيار القوادم للحماية - وهي الريشات القوية التي تكون في مقدم الجناح - يوحى بالقوة والمنعة . ثم اختيار النسر بالذات لتكون قوادم جناحه هي التي تحمي تلك الريشة الصغيرة ، يوحى بالرفعة والغلبة . وكل هذا مما يشهد بدقة الشاعر وتجويده الفنى ؛ فقد قدم صورة حية فيها مانال من الحماية وتمهيد العيش ، وفيها ما أحرز من الارتفاع في بساطة ويسر ، وفيها بعد ذلك تمجيد من قدّم هذا المعروف ، والإيحاء بقوته وعلو منزلته وشدة بأسه .

وهكذا نرى أن أبا المخشى يمثل الشعر الأندلسى في فترة تأسيس الإمارة أصدق تمثيل ، من حيث انضاح السمات الأندلسية الخاصة في شعره ، برغم سيره في الاتجاه المشرقى المحافظ ، الذى كان مسيطراً على الحياة الشعرية في الأندلس حينئذ .

الحكم بن هشام :

هو أبو العاصم ، الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ؛ ويلقب بالربّصيّ^(١) . وقد ولد سنة ٥١٥٤ هـ . ونشأ في بيت الإمارة الأموية بالأندلس . وولى الأمر بعد موت أبيه هشام سنة ٥١٨٠ هـ وهو في نحو الخامسة والعشرين من عمره .

وقد عُرِف بكثير من التحرر الذى أسخط عليه الفقهاء وأبعده كثيراً عن قلوب الشعب ؛ فقد كان ميالاً إلى اللهو ، مولعاً كثيراً بالصيد ، يؤثر الندماء والشعراء على الفقهاء والعلماء ؛ فأنسوا تصدع مركزهم الذى كان مدعماً في عهد أبيه هشام ، فحتموا

(١) راجع ترجمته وبعض أخباره في : البيان المغرب ج ٤ ص ٩١ وما بعدها ، ونفح العليب ج ١

ص ١٥٩ وما بعدها ، والمجب صفحة ١٢ وما بعدها ، وأخبار مجموعة صفحة ١٢٤ وما بعدها .

عليه وألبوا العامة ضده . وكان أكثر الناس تأثراً بهذه الإثارة هؤلاء المولودون الذين يسكنون الرّبض ، والذين عرفوا بشورتهم الجاحجة التي كادت تقضى على الحكم وربما على الإمارة الأموية كذلك .

وقضى الحكم كجده شطراً كبيراً من حكمه في قيادة الجيوش ومنازلة المتمردين . وكان أخطر ما عانى ثورة الربض السالفة الذكر .

وقد كان الحكم فارساً شجاعاً ومغامراً باسلاً . حكوا أنه لما رأى جموع الثائرين تحيط بقصره يوم الربض ، دعا بغالية فتخلل بها ، وبمسك فذره على شعره ؛ فقال له أحد فتياته : أهذا يوم طيب يا سيدى ؟ ! فأنهره وقال : هذا يوم وطنت فيه نفسى على الموت أو الظفر بعدوى ، فأردت أن يُعرف رأس الحكم من بين رموس من يُقتل معه (١)

وكان الحكم أديباً مجيداً ، شاعراً وناثراً . وقد سجل أدبه بعض ما كان له من أحداث . وشعره يتردد بين الغزل والحماسة ، ويصوره بهذين الجانبيين اللذين يؤلفان شخصيته كفارس ؛ فهو في غزله رقيق لين خاضع متذلل ، وهو في حماسه عنيف أني متجبر ، شأنه في ذلك شأن كل الفرسان ، الذين يعتبر الخضوع للأحباب والقسوة على الأعداء ، من أهم معالم شخصيتهم .

ومن غزل الحكم الذى يمثل خضوعه في الحب ، قوله عن نفسه :

ظلّ من فرط حبه مملوكا	ولقد كان قبل ذاك مليكا
إن بكى أو شكى الهوى زيد ظلمنا	وبعاداً يدنى حياما وشيكا
تركته جآدر القصر صبأ	مستهاماً على الصعيد تريكا

(١) انظر : أخبار مجموعة صفحة ١٣١ .

يجعل الخلد راضياً فوق تُربُ للذى يرتضى الحرير أريكا
 هكذا يحسن التذلل بالحر إذا كان فى الهوى مملوكاً^(١)
 ومن هذا اللون قوله أيضاً :

قضبٌ من البان ماست فوق كئبان ولئىن عنى وقد أزمعن هجرانى
 ملكتنى ملكا ذلت عزائمى فى الحب ذل أسير موثق عان
 منّ لى بمغتصبات الروح من بدنى يغصبتى فى الهوى عزى وسلطانى^(٢)

أما شعره الحماسى الذى يمثل الجانب العنيف من شخصيته ، فقد مضت بعض نماذجه ، فلا حاجة إلى إعادتها هنا .

والذى تدل عليه القطع الباقية من شعر الحكم ، هو أن شعره كان - إلى جانب تردده بين الغزل والحماسة - يميل إلى شىء من المبالغة ، التى مبعثها شخصية الشاعر وطبعه الفروسى ؛ فهو يبالغ فى الضعف حين يتغزل ، ويبالغ فى القوة حين يتحمس ، وقد تُباعد تلك المبالغة بين الشعر والصدق أحياناً .

ويلاحظ بعد ذلك على شعر الحكم - كما تدل تلك النماذج التى بقيت - أنه كان على حظ غير قليل من الجودة ؛ فقيه يتلاءم الأسلوب مع الموضوع وتنسجم التجربة مع التعبير ، بشكل يدعو إلى الإعجاب . فإذا ما رجعنا إلى نماذجه الغزلية ، وجدنا الرقة فى الألفاظ والسلاسة فى الأسلوب والرشاقة فى الموسيقى ، وإذا ما رجعنا إلى نماذجه الحماسية ، وجدنا العنف فى الألفاظ والوعورة فى الأسلوب والصخب فى الموسيقى .

(١) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : البيان المغرب ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

عباس بن ناصح :

هو أبو المعرّي عباس بن ناصح الثقفي ، من أهل الجزيرة الخضراء (١) وكان قد رحل مع أبيه إلى مصر وتردد على الحجاز والعراق ، ولقى أئمة العلم في تلك البلاد ، فكان على حظ كبير من العلم بالفقه والرواية للشعر . ولما عاد إلى الأندلس ولاه الحكيم قضاء الجزيرة الخضراء مع شدونة .

وكان عباس بن ناصح يتردد على قرطبة فيأخذ عنه أدباؤها ، وتدور بينه وبينهم أحيانا محاورات أدبية طريفة ، يمكن أن تعتبر المحاولات الأولى للنقد الأدبي في الأندلس . وقد اشتهر ابن ناصح بالشعر شهرة غلبت على شهرته كعالم ومؤدب ، وخلف ديوان شعر كان موضع عناية الأندلسيين ودراستهم . ولكن هذا الديوان قد ضاع ولم يبق من شعره إلا القليل . والذي يدل عليه هذا القليل ، بالإضافة إلى ما حكى عن الشاعر من أخبار ، هو أن شعر هذا الشاعر كان يتحرك غالباً في دوائر المدح والحماسة والفخر ، كما كان أحياناً يتناول الزهد . فمن أمثلة مدحه قوله في الحكيم الربضي ، وكان قد أغاث الناس في عام مجاعة :

تَكِيدُ الزَّمانُ فأمَنْتُ أيامه أن لن يكون بعصره عسر
ظَلَعُ (٢) الزَّمانُ بأزمة فجلى له تلك الكريمة جوده الغمر (٣)

ومن أمثلة شعره الحماسي ، قوله مستحثاً للحكم على إغاثة منطقة وادي الحجارة وكان الشاعر قد نزل بها فسمع امرأة تشكو إهمال الحكم وقسوة الأعداء .

(١) اقرأ بعض أخباره في بنية المتلمس للضبي صفحة ٢٧٦ ، وفي نفع الطيب ج ١ صفحة ٤٤٥ ، وفي بنية الوعاة للسيوطي صفحة ٢٧٦ ، وفي المغرب لابن سعيد صفحة ٢٥٣ .

(٢) ظلع : ضاق .

(٣) ورد هذان البيتان في : نفع الطيب ج ١ ص ١٦١ .

تلمتُ في وادى الحجارة مسهداً أراعى نجوماً ما يردن تفسيراً
إليك أبا العاصي نضيتُ مطيبي تسير بهم ساريًا ومهجراً
تداركُ نساء العالمين بنصرة فإنك أهل أن تغيث وتنصر^(١)
ومن أمثلة شعره الزهدي قوله :

ما خيرُ مدة عيش المرء لو جعلت كدة الدهر والأيام تفتنيها
فارغب بنفسك أن ترضى بغير رضى وابتع نجاتك بالدنيا وما فيها^(٢)

كذلك يدل القليل الباقي من شعر ابن ناصح ، بالإضافة إلى ما روى عنه من أخبار ، على أن شعره كان غالباً ذا سمات بدوية واضحة ، وأنه كان قليل الصقل كثير الخشونة ، ويتمثل ذلك في سذاجة بعض الأفكار ، واهتزاز بعض الصور ، وقلق بعض الألفاظ . ولعل مما يرجح هذا التصور من بداوة شعر ابن ناصح الواضحة ، ما يُحكى من أنه وفد مرة على قرطبة وأسمع الشعراء قصيدة له مطلعها :

لعمرك ما البلوى بعار ولا العدمُ إذا المرء لم يعدم تقي الله والكرمُ
فلما ورد في تلك القصيدة بيت يقول فيه :

تجاف عن الدنيا فما لمعجزٌ ولا عاجز إلا الذى خُطَّ بالقلم
قال له يحيى الغزال - وكان إذ ذاك ناشئاً في الشعر - : أيها الشيخ وما يصنع مفعَل مع فاعل ؟ (يعنى معجز مع عاجز) فقال له ابن ناصح : كيف تقول أنت ؟ فقال أقول :

تجاف عن الدنيا فليس لعاجز ولا حازم إلا الذى خُطَّ بالقلم
فقال له عباس : والله يا بني لقد طلبها عمك فما وجدها .

(١) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق ١٦٠ .

(٢) ورد هذان البيتان في بغية المتلئس ص ٢٧٦ .

ثم ما يروى من أنه أنشد مرة قصيدة جاء فيها قوله :

بقرت بطون الشعر فاستفرغ الحشا بكفى حتى آب خاويه من بقري

فقال له شاعر يسمى بكر بن عيسى : « أما والله - يا أبا علي - لئن كنت بقرت

الحشا ، لقد وسخت يديك ببقره ، وملأتها بدمه ، وخبثت نفسك بنته ، وخشمت أنفك بعرفه » فاستحيا عباس وأفحم عن الجواب (١) .

حسانة التميمية :

هي حسانة بنت أبي الحسين الشاعر ، كانت من أهل البيرة (٢) ، وقد تأدبت على

أيها الذي كان أيضاً من الشعراء ، ولما مات بلحات إلى الحكم أمير الأندلس حينئذ ، وكانت وسيلتها إليه تلك الأبيات :

لأني إليك أبا العاصي موجعة (٣)	أبا الحسين ، سقته الواكف الديم
قد كنت أرتع في نعماه عاكفة	فاليوم آوى إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له	وملكته مقاليد النهي الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفاً	آوى إليه ولا يعرفونى العدم
لا زلت بالعزة القعساء (٤) مرتدياً	حتى تذل إليك العرب والمعجم (٥)

فلما وقف الحكم على شعرها استحسنته ، وأمر لها بإجراء راتب ، وكتب إلى عامله

على البيرة فجهزها بجهاز حسن . غير أنه لما مات الحكم نالها بعض الضر من عامل

(١) وردت هذه الحكاية والتي قبلها في النسخ ج ١ ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٢) انظر بعض أخبارها في : نفع الطيب ج ١ ص ٤٨٨ .

(٣) موجعة : ناعية .

(٤) القعساء : الثابتة .

(٥) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

بلدها جابر بن لبيد : الذي لم يجر لها أملاكها . ولم ينفذ ما خطه الحكيم لها بيده
في هذا الشأن . فجاءت إلى الأمير الحديد عبد الرحمن الأوسط وأنشدته قصيدة منها :

إلى ذى الندى والمجد سارت ركائبى	على شحط ^(١) تصلى بنار الهواجر
ليجير صدعى إنه خير جابر	ويمنعنى من ذى الظلامه جابر
فلانى وأينامى بقبضة كفه	كذى ريش اضحى فى محالب كاسر
جدير لمثلنى أن يقال ^(٢) مروءة	لموت أبى العاصى الذى كان ناصرى
سقاها الحيا لو كان حياً لما اعتدى	على زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذى خطته يمناه جابر	لقد سام بالأملاك إحدى الكباثر ^(٣)

فلما فرغت من قصيدتها رقى لها : فعزل الولى وأقرها على أملاكها ، وأمر لها بجائزة ،
فانصرفت وبعثت إليه بقصيدة منها :

ابنُ الهشامين خير الناس ماثرة	وخير متجع يوماً لرواد
إن هز يوم الوغى أثناء صعده ^(٤)	روى أنابيهما من صرف فرصاد ^(٥)
قل للإمام : أيا خير الورى نسباً	مقابلا بين آباء وأجداد
جودت طبعى ولم ترخص الظلامه لى	فهاك فضل ثناء رائج غاد
فإن أقت فى نعمالك عاكفة	وإن رحلت فقد زودنى زادى ^(٦)

وحسانه — فيما نعلم — أولى الشعاعر الأندلسيات : وأسبقهن إلى قرض الشعر .

(١) الشحط : اليمد .

(٢) يقال : من أقال عشرته .

(٣) وردت هذه الأبيات فى : نفع الطيب ج ٢ صفحة ٤٢٨ .

(٤) الصدة : القناة المستوية .

(٥) الفرصاد صبغ أحمر . والمراد الدم .

(٦) راجع هذه الأبيات فى : نفع الطيب ج ١ صفحة ٤٢٨ - ٤٢٩ .

وشعرها - كما يبدو - مزيج من الرثاء والشكوى والمدح وطلب العون ، وهو على جانب كبير من النضج الفني ، وفيه بعض تلك السمات الأندلسية المميزة التي سبق أن أسرنا إليها في غير هذا المكان ؛ فهو شعر يتسم بالتجويد الفني وبالتركيز العاطفي . ولنتأمل أبياتها الأولى التي تقدمت بها إلى الحكم بعد موت أبيها ، فسوف نحسها تفيض بالعاطفة الحارة الصادقة . ولننظر أبياتها الأخرى التي أنشدتها عبد الرحمن الأوسط ، فسوف نراها على حظ كبير من التجويد الفني ، الذي لا يأتي مصادفة ولا تندُّ به طبيعة شاعر عادي . انظر إلى استخدامها للألفاظ . ولعبها بمادة « جابر » دون تصنع أو افتعال في قولها :

ليجبر صدعى إنه خير جابر ويمعنى من ذى الظلامة جابر

وانظر إلى الصورة الرائعة التي كأنها لوحة فنية تمثل العدوان والظلم والقهر . في قولها :

فإني وأيتسأى بقبضة كفة كذى ريش اضحى^(١) في محالب كاسر

وشعر حسنة بعد ذلك يتسم بالأصالة والصدق ؛ ففيه كثير من طبيعة المرأة ، في ضعفها وحاجتها إلى الحماية وبحبها عن الكنف ؛ وفزعها من القهر ، وفرط إحساسها بالعدوان ، وصراحتها في طلب الغوث وجبر السدع وإفانة الشرة .

هذه طائفة من شعراء تلك الفترة ، قد أفردناهم بالتحديث لما بقي من أخبارهم وأشعارهم . وهناك آخرون غير هؤلاء . لا يمكننا ذكرهم من أخبار أو ما بقي لهم من شعر للتحديث عنهم والتعريف بهم . ومن هؤلاء بكر بن عيسى . وأبو حسين التميمي ، وغريب الطائي ، وابن هبيرة .

(١) يقرأ القمل أضحى هنا هجرة وصل ليصح الوزن .

ثانياً - النثر :

إذا صح أن ينقسم النثر إلى نثر تأليفي ونثر خالص ، على أن يراد بالتأليفي ذلك النثر الذى تصاغ به المعارف الإنسانية المؤلفة فى أسلوب أدبي ، وعلى أن يراد بالخالص ، ذلك النثر الذى لا يراد به التعبير عن تلك المعارف الإنسانية المؤلفة ، وإنما يراد ما سوى المعارف ، كتنقل عاطفة أو تصوير تجربة أو إيصال فكرة وما إلى ذلك ؛ أقول إذا صح ذلك التقسيم ، أمكن القول بأن النثر الأندلسى كان فى فترة تأسيس الإمارة نثراً خالصاً ، حيث كانت الأندلس حتى ذلك الحين لا تعرف النثر التأليفي ؛ لأنه يحتاج إلى مستوى ثقافى لم تكن الأندلس قد وصلته بعد .

وكان هذا النوع من النثر الخالص ، لا يعرف كذلك تلك الفروع الراقية التى نشأت فيما بعد كالفرع القصصى مثلاً ، وإنما كان مقصوراً على تلك الفروع التقليدية ، كالخطب والرسائل والوصايا والمحاورات ، وما أشبه ذلك بما عرف منذ العصر الجاهلى إلى الأموى . وكان اقتصار النثر الأندلسى على تلك الفروع أمراً طبيعياً فى تلك الفترة الباكرة من تاريخ الأندلس ؛ فهى الفروع التى كانت تلائم حياة الأندلسيين وتتناسب مع ظروفهم السياسية والاجتماعية والثقافية ، وهى الفروع التى كانت مألوفة فى المشرق فى تلك الآونة ، وقد كان المشرق فى ذلك الحين هو المصدر الأول للاتجاهات الثقافية والأدبية .

هذا ما يتعلق بنثر الأندلس فى تلك الفترة من حيث نوعه وفروعه . أما من حيث أسلوبه فيلاحظ بناء على ما بين أيدينا من نصوص ، أنه كان لا يزال نثراً ذا تقاليد عربية خالصة ؛ فهو يتسم بالجزالة المسببة أحياناً لغرابة بعض الألفاظ . كذلك كان يتسم بالجوادة المعتمدة على الطبع أولاً والمستخدم لبعض المحسنات ثانياً . على أن تلك المحسنات وفى مقدمتها السجع ، كانت تأتي بين الحين والحين دون تكلف أو افتعال . كذلك

كان النثر يتسم بالبساطة والتعبير المباشر ، والابتداء بالموضوع دون مقدمة أو تمهيد .
وأخيراً كان يتسم بمراعاة المقامات ، فهو موجز في مواطن الإيجاز ، كخطب الحرب
ورسائل الإنذار ، وهو مطنب نوعاً في الوصايا والمنشورات وما أشبه ذلك مما يتطلب
بسط القول .

وهكذا نجد النثر الأندلسي في تلك الفترة مشابهاً إلى حد كبير للنثر الذي كان معروفاً
في المشرق أيام الدولة الأموية ، حتى يمكن أن يقال : إنه كان كالشعر يسير على الأسلوب
الأدبي المحافظ clasico . وإذا أمكن أن يميز الشعر الأندلسي — برغم محافظته —
ببعض الخصائص ، فربما كان من المتعذر تمييز خصائص النثر ، تفرق بينه وبين النثر
المشرقى ولو ببعض التفريق . ولعل السبب في ذلك هو قلة المآثور من نثر تلك الفترة .
ولعلنا لو عثرنا على نصوص أكثر ، نستطيع أن نلمح بعض خصائص النثر الأندلسي
التي تميزه من النثر المشرق في تلك الحقبة من تاريخه .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان لتلك الفترة نثر تقليدي كما سبق أن قررنا ، وكان
لها ناثرون عديدون مثل : فطيس بن عيسى ، وخطاب بن يزيد ، اللذين كانا كاتبين
لمشام بن عبد الرحمن ثم لابنه الحكم ، ومثل حجاج العقيلي ، الذي كان كاتباً للحكم^(١) ،
ومثل الداخل ، والرَبَضِي من أمراء تلك الفترة ؛ فقد كان الأول خطيباً وكاتباً ، وكان الثاني
كاتباً وموصياً .

وقد حفظت لنا بعض المراجع نماذج نثرية لتلك الفترة . ولعل من الخير أن نعرض
طرفاً من تلك النماذج ، حتى يتضح ما سبق أن قررناه عن حال النثر من حيث فروعه
ومن حيث أسلوبه .

فن أمثلة الخطب ، ما قاله عبد الرحمن الداخل لأصحابه يحثهم على القتال يوم

(١) انظر : ابن عذاري : البيان المغرب ج ٢ ص ٩١ ، ١٠٣ .

أن خاض المعركة الفاصلة ضد يوسف الفهري ، آخر ولاية الأندلس . قال عبد الرحمن :
« هذا اليوم هو أسُّ ما بيني عليه ، إما ذل الدهر وإما عز الدهر . فاصبروا ساعة فيما
لا تشبهون . تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشبهون » (١) .

ومن الرسائل ما كتب به عبد الرحمن الداخل إلى خارج عليه يسمى سليمان الأعرابي ،
من قوله : « أما بعد . فدعني من معاريض المعاذير ، والتعسف عن جادة الطريق ،
لتمدد يداً إلى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، أو لأزوين (٢) بنائها على
رأفت (٣) نعصية ، نكالا بما قدمت يدك ، وما الله بظلام للعبيد » (٤) .

ومن أمثلة الوصايا ما وجهه الخكم الربضي إلى ابنه عبد الرحمن ، حين شعر بليذو
أجله فقال : « إني قد وطدت لك الدنيا ، وذلك لك الأعداء ، وأقمت أود (٥) الخلافة ،
وأمنت عليك الخلاف والمنازعة . فاجر على ما نهجت لك من الطريقة . واعلم أن أولى
الأمور بك وأوجبها عليك ، تحفظ أهلك ثم عشيرتك ثم الذين يلوئهم من مواليك وشيعتك .
فيهم أنزل ثقتك ، وإياهم واس من ثقتك ، وعصابتهم استشعر دون المتوثبين إلى
مراثيمهم من عوام رعيتك ، الذين لا يزالون ناقمين على الملوك أفعالهم ، مستثقلين لأعبائهم .
فاحسم عليهم بسط العدل لكافهم ، واختيار أولى الفضل والسداد لأحكامهم وعمالهم ،
دون أن ترفع عنهم ثقل الهيبة . وإن رأيت فيمن يرتقى من صنائعك (٦) رجلا لم تنهض
به سابقة ، ويشف بخصلة (٧) ونطسح نفسه وجمته ، فأعنه واختبره . وقدمه واصطنعه .

(١) انظر هذه الخطبة في : نفع الطيب ج ٢ ص ٧٠ .

(٢) زوى الشيء : جده وقضه .

(٣) الرصف : الحجارة المحمأة .

(٤) هذه الرسالة وأردت في : نفع الطيب ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ وفي البيان المغرب ج ٢ ص ٨٦ .

(٥) الأرد : الاعوجاج .

(٦) صنائك : من بينهم .

(٧) الخصلة : الفضيلة .

ولا يربك خمول أوله ، فإن أول كل شرف ما ربّيته . ولا تدعن مجازاة المحسن بإحسانه :
ومعاقبة المسيء بإساءته ، فإن التزامك لهذين ، ووضعك لهما موضعهما ، يرغب فيك
ويرهب منك» (١) .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين جندي وعبد الرحمن الداخل ، حيث قال
الجندي : « يا ابن الخلف الراشدين ، والسادة الأكرمين . إليك فررت ، وبك عدت .
من زمن ظلوم ، ودهر غشوم . قتل المال ، وكثر العيال ، وشعث الحال ، فصير إلى
نذاك المآل . وأنت وليّ الحمد والمجد ، والمرجو للرفد » .

فأجابه عبد الرحمن :

« سمعنا مقاتلك ، وقضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء
مقامك . فلا تعودون ولا سواك لمثله ، من إراقة ماء وجهك بتصريح المسألة ، والإلحاف
في الطلبية . وإذا ألم بك خطب أو حزبك أمر ، فارفعه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كما
نستر عليك نخلتك» (٢) ، ونكف شحات العدو عنك . بعد رفعها إلى مالكك وما لكنا -
عز وجهه - بإخلاص الدعاء وصدق النية» (٣) .

(١) هذه الوصية وأردت في : المتعبس لابن حيان (جزء عن إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كان عند
الاستاذ نيقى بروئيسال) .

(٢) الخلة : الحاجة والفقير .

(٣) راجع هذه المحاورات في : نفع الطيب للمترى ج ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث

فترة صيراع الإمارة

١ - في مهيب الأحداث :

حكم في هذه الفترة من تاريخ الأندلس ، أربعة من أمراء بني أمية الأندلسيين ، عبد الرحمن الأوسط ، ثم ابنه محمد ، ثم حفيداه المنذر وعبد الله ابنا محمد^(١) . وأهم ما تمتاز به تلك الفترة من الناحية السياسية ، هو الصراع في سبيل المحافظة على تلك الإمارة الأموية الناشئة ، التي تعرضت لعدد من الأحداث ، يأتي بعضها من الخارج حيناً ، وينبع بعضها من الداخل حيناً آخر . ولم تؤثر تلك الأحداث على الإمارة في سنها الأولى ، تلك السنين التي حكم فيها عبد الرحمن الأوسط ، والتي كانت أوقات ازدهار حقيقي لحكومة قرطبة ، ولكنها أوهنت الإمارة في سنها الأخيرة ، وخاصة أيام آخر الأمراء عبد الله بن محمد ، حتى لقد أوشكت في عهده على السقوط .

فقد قامت في عهد عبد الرحمن الأوسط^(٢) بعض الفتن الداخلية ، كالفتنة التي شبت من جديد بين المضربية ، واليمينية في تدمير Tudmir ، واندلعت كذلك بعض الثورات المحلية ، كالثورة التي أشعلها المولدون في طليطلة Toledo ، وظهرت بعض الحركات الدينية المفرقة ، مثل حركة الاستشهاد ، التي قام بها متعصبون من مسيحيي الإسبان^(٣) . ولكن عبد الرحمن استطاع أن يتغلب على تلك الفتن ، وأن يجد من خطر

(١) حكم عبد الرحمن الأوسط من سنة ٢٠٦ إلى ٢٣٨ م (٨٢٢ - ٨٥٢) م .

وحكم ابنه محمد من ٢٣٨ إلى ٢٧٣ م (٨٥٢ - ٨٨٦) م .

وحكم المنذر من ٢٧٣ إلى ٢٧٥ م (٨٨٦ - ٨٨٨) م .

وحكم عبد الله من ٢٧٥ إلى ٣٠٠ م (٨٨٨ - ٩١٢) م .

فتكون هذه الفترة من سنة ٢٠٦ إلى سنة ٣٠٠ م (٨٢٢ - ٩١٢) م .

(٢) انظر صورة عهده في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٢١ وما بعدها ،

وانظر كذلك : Levi : Espana musulmana, pp. 129 50 ff.

(٣) راجع في تلك الحركة : Levi : Espana musulmana, pp. 150 ff.

تلك الثورات والحركات ، بل استطاع أن يؤدب بجيوشه بعض الأقاليم المسيحية المعتدية ، وأن يحرز عليها عدداً من الانتصارات . وهكذا امتازت حكومة قرطبة في عهده بالهبة ، وسعدت البلاد على أيامه بالأمن ، واستطاع بتأمين الحدود وسد الثغور والحد من الفتن ، أن يقيم حكومة قوية ، لها وزرائها وحجابها وحكامها وعمالها وقضاؤها ، وغير هؤلاء ممن تقوم عليهم حكومة منظمة .

على أن عهد عبد الرحمن الأوسط ، قد شهد حدثاً خارجياً خطيراً كان من أبرز الأحداث في تلك السنين ، وهو هجوم « النورمان » على الأندلس ^(١) ، ذلك الهجوم الذي أشاعوا به القلق في كثير من المدن الأندلسية الغربية ، حيث سلبوا وقتلوا وارتكبوا كثيراً من أعمال القرصنة .

وقد أسرع عبد الرحمن الأوسط ، فأرسل جيوشه لنجدة تلك الجهات ، واستطاعت قواته أن توقف تقدم « النورمان » وتردهم على أعقابهم ، وتكبدتهم كثيراً من الخسائر في الرجال والسفن .

وفي عهد الأمير محمد ^(٢) ظهر بعض الخارجين على قرطبة كبنى قسي في سرقسطة ، وكابن مروان الجليسي في ماردة . وقد سارت جيوش الأمير إلى الثائرين لإخضاعهم ، وذهبت كذلك إلى بعض المعتدين من المسيحيين المتأخمين لرد عدوانهم .

= وراجع أيضاً كتاب العرب في إسبانيا ص ٧١ وما بعدها ، وهو ترجمة قام بها الأستاذ الجارم لكتاب المؤرخ الإنجليزي Stanley Lane-Poole .

وهذا المؤرخ من أشد الناس إنصافاً للمسلمين في تلك الحركة، ومن أشد الناس نقداً لتصرف المسيحيين فيها .
(١) انظر في هجوم النورمان على الأندلس : البيان المغرب ج ٢ ص ١٣٠ وما بعدها ، وتاريخ افتتاح الأندلس ص ٧٣ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٢٩ .

وانظر : Levi : Espana musulmana, pp. 144 ff.

(٢) انظر تصوير عهده في : البيان المغرب ج ٢ ص ١٤١ وما بعدها .

وانظر أيضاً : Levi : PP. 183 ff.

وفي عهد محمد أيضاً أغار « النورمان » على الأندلس للمرة الثانية ، وقد هجموا هذه المرة من الجنوب والشرق بالإضافة إلى هجومهم من الغرب ، ولكن الجنود الأندلسيين استطاعوا أن يردوا هؤلاء « النورمان » إلى غير رجعة .

على أن أيام هذا الأمير قد شاهدت ميلاد خطر جديد كسّف الإمارة الأندلسية كثيراً من الجهد والرجال والأموال، وظل شوكة في جانب الحكومة القرطبية حتى أوائل الفترة التالية . هذا الخطر الجديد، هو عمر بن حفصون الذي اعتصم بجبل بوبّسْتَر Bobastor^(١) هو وكثير من المتمردين الإسبان الثائرين على حكومة قرطبة ، وأخذ يعتدى على بعض الأقاليم القريبة من حصنه في الجنوب ، ويشيع كثيراً من الفزع . ثم مات الأمير محمد وخطر ابن حفصون من الأخطار التي تصارعها الإمارة ولا تكاد تنتصر عليها . وكان المنذر^(٢) بن محمد من كبار قواد أبيه ، فخلف أباه في إمارة قرطبة ، ووضع نصب عينيه القضاء على ابن حفصون ، إلا أن المنية أسرعته إليه قبل أن يحقق غايته . ويقال إنه مات في أثناء محاربتة لهذا الثائر الخطر .

وخلف المنذر أخوه عبد الله^(٣) . وكانت الإمارة قد أنهكها الصراع ، وتصلحت عليها كثير من الأحداث ، التي كان في مقدمتها في عهد الأمير عبد الله ، اتضاح حركتين مهددتين لوحدة الأندلس وللحكومة القرطبية . أما الحركة الأولى ، فهي الحركة العنصرية ، التي كان مظهرها تكتل العرب في بعض المناطق تحت قيادة زعيم منهم للوقوف في وجه المولدين، الذين يتكثرون بدورهم تحت إمرة ثائر منهم للوقوف في وجه العرب . وقد كانت

(١) من الجبال التي تتخلل السهل الجنوبي قرب غرناطة .

(٢) انظر لتصوير عهده : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٠ وما بعدها والمصدر السابق لليفي بروفنسال .

(٣) انظر لتصوير عهده : المقتبس لابن حيان (الجزء الخاص بالأمير عبد الله . وقد نشره القس الإسباني ملشور أنطونيا . باريس سنة ١٩٣٧) .

وانظر كذلك : البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٢ وما بعدها .

وانظر من المراجع الأوربية : Levi Provençal, España musulmana, PP. 201 ff.

إشبيلية وقرطبة من مراكز هذه الحركة (١) .

أما الحركة الثانية ، فهي الحركة الانفصالية التي كان مظهرها محاولة بعض الأفراد المغامرين أو ذوى النفوذ ، الاستقلال ببعض أقاليم الأندلس ، مستغلاً الضعف الذى كانت تعانيه حكومة قرطبة حينئذ . ومن أمثلة تلك الحركة ، ما قام به بنو المهاجر فى سرقسطة ، وبنو ذى النون فى « شنت ياقب » (٢) .

وهكذا خاضت الإمارة الأموية فى تلك الفترة صراعاً كبير المآثر عديد الأعداء ، وقد بدأت قوية مهيبة فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، ثم أخذت فى الضعف شيئاً فشيئاً حتى أشرفت فى أيام عبد الله على السقوط .

٢ - المجتمع يتحضر ويتحرر :

شاهدت السنوات الأولى من هذه الفترة ، حركات إصلاح وعوامل تقدم ، دفعت الأندلس أشواطاً فى طريق الرقى الاجتماعى والحضارى . وقد ساعد على ذلك ، هنا الهدوء النسبى الذى صاحب إمارة عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد عليه أيضاً تماسح الأمير الأموى للإصلاح ، وميله إلى النهوض بالأندلس ، حتى يتنافس بها فى المغرب خلافة العباسيين فى المشرق . كما ساعد عليه كذلك ازدهار اقتصاديات البلاد فى عهده ؛ فقد زاد دخل الأندلس إلى درجة من الرخاء كانت موضع حديث المؤرخين (٣) .

وقد كان من أهم عوامل التقدم الاجتماعى فى عهد عبد الرحمن الأوسط وبعده ،

(١) كان إبراهيم بن حجاج متزعم عرب أشبيلية . وقد استقل بها ، كما كان متزعم عرب قرطبة سعيد بن جردى وقد استقل بها أيضاً .

(٢) انظر : المغتصب لابن حيان ص ٩ وما بعدها .

(٣) انظر فى إصلاحاته وما قام به من تمير وما كان فى عهده من رخاء : فتح الطيب للمقرئ ج ١

ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٦ ، وقاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٧ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٦ ، ٤٧ .

قدم موسيقى مشرقى على الأندلس ، أحدث في مجتمعها انقلاباً هائلاً ، بما أدخله من عادات جديدة ، وبما أشاعه من تقاليد راقية ، وبما بعثه في المجتمع الأندلسى من روح التألق والتجمل . كل ذلك بالإضافة إلى إشاعة الموسيقى والغناء ، وتأسيس أول مدرسة أندلسية لهذين الفنين . هذا الرجل هو :

زرياب (١) :

وقد كانت نشأته بالعراق ، كما كان فى الأصل من موالى المهدي العباسى وقد امتاز هذا الموسيقى منذ حداثته كتلميذ للموسيقى المشرقى إسحق الموصلى ، صاحب المكاثة المرموقة فى بلاط بغداد . وقد ظهر نبوغ زرياب وشاع خبر مهارته حتى خشيه أستاذه الموصلى وحمله على الهجرة ، فقصده تلك الأرض النائية ، أرض المغرب . وبعد إقامة يسيرة فى بلاط أمير القيروان ، دعاه الحكم الربضى إلى الأندلس ، لما بلغه من مهارته الفائقة فى فنه ، ولعله أراد أن ينافس به فى الأندلس ، إسحق الموصلى فى المشرق .

وأخذ زرياب طريقه إلى الأندلس ، ونزل فى ميناء الجزيرة الخضراء ، ولكنه علم فيها ب وفاة الأمير الحكم ، الذى كان قد استدعاه إلى الأندلس . وقبل أن يتسرب اليأس إلى قلبه ، جاءه رسول الأمير الجديد عبد الرحمن الأوسط ، يخبره أن الأمير منفذ لوعده أبيه ، طالب قدوم الموسيقى المشرقى العظيم . فواصل زرياب رحلته إلى قرطبة ،

(١) اسمه على بن نافع ، وكنيته أبو الحسن ، وزرياب لقيه ، وقد أطلق عليه لسمية بشرته ، فزرياب فى الأصل اسم لطائر أسود الريش . انظر ترجمته وما كان له من تأثير بالأندلس فى : المقرئ : فصح ج ٢ ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن دحية : المطرب ص ١٤٧ . وابن القوطية . تاريخ افتتاح الأندلس ص ٦٨ ، ٦٩ .

وانظر كذلك ما قاله لئى بروفنسال فى محاضراته عن « الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية »

واستقبله الأمير عبد الرحمن بالترحاب والإجلال ، ومنحه إقطاعاً ذا غلة وافرة ، وقربه من نفسه وجعله من خاصته^(١) .

وكان زرياب قد تجاوز الثلاثين حين وصل إلى الأندلس سنة ٨٢٢ م ، وبقي فيها حتى مات سنة ٨٥٧ م . وقد فرض نفسه على المجتمع الأندلسي ، وذلك بفضل فنه وذكائه وجميل عاداته ، وتشيع الأمير ورجال الدولة له ، واستجابة أهل الأندلس لما كان يشيع فيهم من مستحدثات . فقد كان زرياب مثالا للأناقة ، فصار قلوة في الزي . وكان مثالا في التجديد لطرق المعيشة ، فوجدت تجديده رواجاً بين الأندلسيين . وهو الذي علمهم كيف يفرقون شعورهم في وسط الرأس ويعقصونها من الخلف ، حتى يظهر العنق ويبدو الجبين ، بعد أن كانوا يرسلون الشعر فوق الجبهة والأصداغ . وهو الذي استن لهم لبس الثياب البيضاء والملونة الخفيفة في الصيف ، والفراء والأردية الثقيلة في الشتاء . وهو الذي نقل إليهم كثيراً من طرق الطهي وتصنيف الموائد ومظاهر التحضر . أما من ناحية الفن فقد أنشأ أول مدرسة لتعليم الموسيقى والغناء ، وكان من دعائم هذه المدرسة أبناء زرياب وبناته وجواريه ، وكانوا جميعاً يحسنون الغناء ويمجدون الموسيقى . وقد خف إلى مدرسة زرياب كثير من الأندلسيين ، فكان يأخذهم بمنهج دقيق في تعليم الموسيقى والغناء^(٢) . واستطاع بسرعة أن يجعل للموسيقى الأندلسية طابعاً وشخصية وعشاقاً ، وأن يخلصها من التقاليد المدنية التي دخلت إلى الأندلس مع المدينيات ومن جاء بعدهن من فناني المشرق^(٣) قبل زرياب . ولا تزال الموسيقى تدين لزرياب ، بالعود ذى الأوتار الخمسة الذي أحله محل العود ذى الأوتار الثلاثة ، الذي كان معروفاً من قبل .

ولقد كان من نتائج وفود زرياب وانتشار مستحدثاته الاجتماعية والفنية ، أن شاع

(١) اقرأ قصة كل من بلغ إغداق هذا الأمير على زرياب ، في : تاريخ انتح الأندلس لابن العزلة

ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) انظر : تشيع التجديد ص ٢ ص ١١٣

(٣) الفهر : المصدر السابق ص ١١٢ .

في المجتمع الأندلسي حب الترف والتأنق والأخذ بمتع الحياة ، كما شاع كذلك الشغف بالموسيقى والتعلق بالغناء ، والتورط أحياناً في اللهو والمجون . وقد ساعد على ذلك تححر بعض الأمراء عن حكموا في تلك الفترة ، مثل عبد الرحمن الأوسط ، كما ساعد كذلك نحسن الأحوال الاقتصادية في أغلب الأحيان ، وانتشار الكروم ، والترخص في عصر الأئبنة وشربها ، ثم كثرة القيان من مشرقيات وإسبانيات ، ووفرة الغلمان وخاصة من الصقالبة .

وليس من شك في أن المجتمع الأندلسي ، قد لاقى كثيراً من الضر في أواخر تلك الفترة . حين تألبت كثرة من الشرور على الإمارة الأموية ، في صراعها المرير من أجل البقاء . وليس من شك أيضاً في أن هذا المجتمع أودى كثيراً من تلك الأحداث الداخلية والخارجية ، التي جرت بخاصة بعد أيام عبد الرحمن الأوسط . ولكن تلك الأحداث كانت في الوقت نفسه ، سبباً من أسباب الاحتكاك بين عناصر المجتمع ، وعاملاً من عوامل صهره ؛ ذلك أن الصراع بين الإمارة وجماعة ابن حفصون ، والصراع بين العرب والمولدين ، وما كان من حركات عنصرية وانفصالية ، قد أتاح لعناصر المجتمع الأندلسي احتكاكاً أكثر واتصالاً أشد .

وإذا كانت السنوات الأخيرة من تلك الفترة . قد حرمت الأندلسيين كثيراً من الأمن والاستقرار ، فإنها لم تغير من حقيقة ما وصلوا إليه في السنوات الأولى ، من التحضر ، والشغف بالموسيقى ، والتعلق بالغناء ؛ فقد أصبح كل ذلك من عاداتهم وطرق معيشتهم ، ولم يعد من المستطاع أن تغيرهم حتى تلك الاضطرابات والقلقل ، التي صاحبت عهد الأمير عبد الله . بل ربما كانت تلك الاضطرابات وهذه القلاقل ، مما يدفع بعض النفوس إلى طلب الطمأنينة والبحث عن المسكن ، في مجلس غناء أو حلقة سماع أو جماعة ندمان^(١) .

(١) راجع المقتهس لابن حيان (الجزء الخامس بفترة الأمير عبد الله والذي نشره القس ملشور أنطونيا) فإن فيه كثيراً مما يزيد هذا .

- وثبة الثقافة :

وثبت الثقافة الأندلسية في تلك الفترة وثبة عظيمة ، واجتمع لها من الدوافع ما حفزها على هذه الوثبة . وقد كان من أهم تلك الدوافع ، تعلق بعض الأمراء بالمعرفة ومشاركتهم في ميادين الثقافة ؛ فقد كان عبد الرحمن الأوسط ، محباً لمطالعة كتب الطب والفلسفة ، كما كان مقرباً للعلماء مؤثراً للباحثين ، باعثاً في طلب الكتب من يجلبها له من الأمصار . وقد أرسل عباس بن ناصح إلى الميثرق ليجتهد له عن الكتب النافعة وينقلها إلى قرطبة^(١) . كذلك كان الأمير عبد الله - برغم سوء الأحوال السياسية في عهده - محباً للعلم مشاركاً في الاشتغال به ، يؤثر العلماء ويقرب المثقفين . وقد قال ابن حبان عنه إنه « كان متصرفاً في فنون ، متحققاً منها ، عالماً بلسان العرب بصيراً بلغاتها وأيامها ، حافظاً للغريب والأخبار » . وقال كذلك عن مجلسه : « وكان مجلس الأمير عبد الله ، قبل الخلافة وبعدها ، أجمع مجالس الملوك بالفضائل ، وأزهرها من الرذائل ، وأجمعها لطبقات أهل الآداب والتعاليم ، فكانت كل نادرة تدور على الأفواه ، وتتناقل في الألسنة ، لا يستقر قرارها إلا في مجلس مذكراته ، ولا يفك عويصها إلا بين يديه »^(٢) .

ولم يكن الأمراء الأمويون وحدهم الذين يشتغلون بالعلم ويقربون رجاله ، بل كان مثلهم في ذلك ، هؤلاء الرؤساء المستقلون ، الذين ظهروا بخاصة في عهد الأمير عبد الله ؛ مثل إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية^(٣) .

وكان من دوافع الوثبة الثقافية في تلك الفترة كذلك ، ما حمله بعض المشاركين إلى

(١) انظر : نفع الطبيب للمقرى ج ١ ص ١٦٢ . وتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ص ٥٨ .
وأخبار مجموعة مؤلف مجهول ص ١٣٥ ، والمغرب لابن سعيد ص ٤٥ .
(٢) انظر : المقتبس (الجزء الذي نشره القس ملشور أنغونيا) ص ٣٤ .
(٣) انظر ما يروي ابن حبان في المقتبس عن المناظرة التي جرت في مجلسه ص ١٣ ، ١٤ .

الأندلس من مؤلفات علمية وأدبية ، زيادة على ما حمله الأندلسيون أنفسهم . ومن أشهر نقلة المؤلفات المشرقية إلى الأندلس في تلك الفترة ، إبراهيم بن أحمد الشيباني ، المعروف بأبي اليسر الرياضى وهو من أهل بغداد ، وكان قد تلقى الجاحظ والمبرد وثلعباً وابن قتيبة من الأدباء ، وأبا تمام والبحترى ودعبلاً وابن الجهم من الشعراء ، وسعيد ابن حميد وسليمان بن وهب وأحمد بن طاهر من الكتاب ؛ ولقى غير هؤلاء وأولئك من أهل العلم والأدب ، ثم رحل إلى المغرب وسكن القيروان ، وكتب للأمير إبراهيم ابن الأغلب ، ثم لابنه عبد الله . ووفد أيضاً على الأندلس في عهد الأمير محمد^(١) .

كذلك كان من الأندلسيين الذين نقلوا الكثير من علم المشرق وأدبه في تلك الفترة ، محمد بن عبد السلام بن ثعلبة . وكان قد دخل البصرة ولقى بها أبا حاتم السجستاني والعباسى والرياشى وأبا إسحق الزياتى ، فأخذ عنهم رواية الأصمعى وغيره ، ودخل كذلك بغداد وأخذ عن علمائها ، ثم انقلب إلى قرطبة . وعن طريق هذا العالم دخل الأندلس كثير من كتب اللغة ودواوين الجاهليين^(٢) .

وكان من نتائج هذه الوثبة الثقافية ظهور كثير من علماء الأندلس في شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية ، وظهور طلائع العلماء الأندلسيين في العلوم العقلية والفلسفية والطبيعية . فقد ظهر بالإضافة إلى الكثير من علماء الدين واللغة ، أول فيلسوف أندلسى ، وهو محمد بن مسرة^(٣) وكان أول أمره قد تلقى تعاليم الدين والحكمة على صديق لأبيه . ونشأ محبا للدراسات العقلية ، فنبغ فيها وهو ابن سبعة عشر عاماً . ومن العجيب أنه كان

(١) انظر : نفع الطيب للمقرئ ج ٢ ص ١١٥ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ٢ ص ١٦ - ١٧ ، وجذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ - ٥٩ .

(٣) انظر بعض ترجماته في : جذوة المقتبس للحميدى ص ٥٨ ، ٥٩ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ج ١ ص ٢١ ، ٤٢ . وانظر البحث القيم الذى كتبه عنه الأستاذ أسين بلاثيوس بعنوان :

Ibn Masarra y su escuela

في كتابه . Opras escogidas, vol.I.

في هذه السن المبكرة أستاذاً له تلاميذ يعلمهم ويعيش معهم في منزل يملكه في جبل قرطبة ، وكان يلقت تلاميذه نوعاً من الفلسفة ، يستره بأستار من الزهد . وقد أشاع الناس عنه أنه يشيع تعاليم إلحادية تتنافى مع تعاليم الإسلام . وكان ذلك في عهد الأمير عبد الله ، حيث الظروف القاسية ، والسنوات المليئة بالقلق ، فخاف ابن مسرة على نفسه ، ورحل إلى المشرق ، وبعد فترة عاد إلى معتزله بقرطبة ، يواصل تعليم تلاميذه فلسفته في جو أكثر هدوءاً . وألف ابن مسرة كتباً ضاع معظمها ، وقد وصلنا اسمان لكتابين له ، هما : التبصرة والحروف . وقد استطاع المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس Asin Palacios أن يجمع بعض أطراف مذهب ابن مسرة مما نقل من كتبه في طيات كتب الأندلسيين . وبين العالم الإسباني أن مذهب ابن مسرة كان يقوم على أفكار فيلون الإسكندري وأفلوطين وغيرهما ، كما أنه كان يعتمد على إبراز نظرية تقول بوجود مادة روحانية . تشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية . ويبدو أن ابن مسرة كان يروج للمذهب تحت ستار إسلامي من آراء المعتزلة والباطنية .

وقد ظهر كذلك في تلك الفترة ، أول مؤرخ أندلسي ، وهو عبد الملك بن حبيب^(١) وكان قد درس أول الأمر في لإبيرة وقرطبة ، ثم رحل إلى المشرق ، وتردد على حلقات الدرس في مدنه ، وخاصة المدينة المنورة . وعاد بعد ذلك إلى بلاده ، فأدرك شهرة عظيمة ، حتى لقب بعلم الأندلس . وقد قيل في سعة علمه وتعدد معارفه : إنه كان يقسم طلبته في مسجد قرطبة إلى مجموعات ، يدرس لكل مجموعة علماً ، ولا يسمعهم به في ذلك إلا كتبه وموطأ مالك . ومع ذلك لم يبق من كتبه الكثيرة إلا كتابه المسمى : التاريخ ، وهو لا يزال مخطوطاً في مكتبة أكسفورد . ويبدو أن بعض تلاميذه قد أضاف إلى الكتاب بعض الزيادات ، لأن الرجل قد مات قبل إمارة عبد الله ، ومع ذلك يصل ما كتب

(١) انظر في ترجمته : جنوة المقتبس للحميدى ص ٢٦٢ - ٢٦٥ . وتاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي ج ١ ص ٣١٢ - ٣١٥ .

في الكتاب إلى عهد هذا الأمير الأموي . ويشتمل كتاب عبد الملك ، على بعض الأساطير ، التي نسجت حول فتح المسلمين للأندلس . ويذهب المؤرخ الهولندي دوزي Dozy إلى أن ابن حبيب قد أخذ هذه الأساطير عن أساتذته المصريين^(١) .

كذلك كان من مظاهر وثبة الأندلس الثقافية في تلك الفترة ، ظهور أوائل أطباء الأندلس ، مثل أحمد بن إياس ، وحمد بن أبان^(٢) ، وكانا أيام الأمير محمد . ثم ظهور أوائل الفلكيين والرياضيين ، مثل أبي عبيدة مسلم بن أحمد البلنسي ، وكان يعنى بعلم الحساب والنجوم^(٣) .

وليس من شك في أن ظهور رجل كعباس بن فرناس ، مما يعد من مظاهر الوثبة الثقافية في تلك الفترة ؛ فقد كان هذا الرجل من مفاخر الأندلس ، وربما لا نكون مبالغين إذا قلنا : إنه كان من مفاخر الفكر الإنساني عامة ، فهو أول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة بالأندلس ، وهو أول مخترع للآلة المعروفة بالثقال لمعرفة اوقات ، وهو من أوائل من حاولوا الطيران في التاريخ ، حيث صنع جناحين وركبهما على جانبيه ثم طار بهما حيناً ، لكنه وقع . وكان ابن فرناس إلى ذلك أديباً شاعراً^(٤) .

٤ - وثبة الأدب :

وقد ثب الأدب الأندلسي في تلك الفترة وثبة واضحة ، قربته كثيراً من نهضة شاملة سيعطى بها في الفترة التالية. وقد ساعدت على تلك الوثبة أمور ، أكثرها يرجع إلى التقدم

(١) انظر : Angel Gonzalez Palencia . Historta de la Literatura Arabigo-esbanola . pp. ١٤١ و١٤٢ .

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي ترجمة المصدر السابق ص ١٩٣ وما بعدها .

(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٧٨ . وانظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة

ج ٤ ص ٤٢ .

(٣) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٦٤ ، منتح الطيب للمقري ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٤) انظر بعض أخباره في : نتح الطيب للمقري ج ٢ ص ٣٣١ ، ٢٣٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص

الثقافى والاجتماعى الذى حظيت به الأندلس . حينذاك ، وأقلها يرجع إلى الوضع السياسى الذى كانت عليه البلاد فى تلك الفترة ، ذلك الوضع الذى كان من مظاهره الحركة العنصرية ، والحركة الانفصالية ، والاحتكاك الشديد بين عناصر الأندلس ، من عرب ومولدين ومستعربين . وفيما يلى تفصيل القول فى جنسى الأدب :

أولاً : الشعر :

أول ما يلاحظ على الشعر الأندلسى فى تلك الفترة ، أنه لم يعد مقصوراً على ذلك الاتجاه المحافظ الذى عرفه من قبل ، وإنما قد اتسع لبعض الاتجاهات الجديدة ، التى وفد بعضها من المشرق وانبثق بعضها الآخر من الأندلس . كذلك يلاحظ أن الاتجاه المحافظ المعروف من قبل قد اتسعت ميادينه ، فعالج بعض ما قد جدّ فى حياة الأندلسيين تبعاً لظروفهم السياسية والاجتماعية التى أحاطت بهم فى تلك الفترة . وقد كانت نتيجة ذلك كله نمواً للشعر وازدهاراً له . وهذا بيان ذلك .

(أ) معرفة الاتجاه المحدث :

ونعنى به هذا الاتجاه الذى سار فيه بالمشرق أبو نواس ومسلم بن الوليد وأبو العتاهية وأمثالهم من المجددين ، والذى تزعمه أبو نواس ، حين ثار على الاتجاه التقليدى وندت بطريقته ، وراح يطرُق أغراضاً جديدة ، بمنهج جديد وأسلوب محدث .

وكانت هذه الحركة التى تزعمها أبو نواس معاصرة لتلك الفترة التى نسوق عنها الحديث . ولما كانت الأندلس دائمة الصلة بالمشرق ، دائمة الأخذ عنه ، قد أخذت هذا الاتجاه الجديد فى الشعر ، حيث نُقل إليها فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسف ، وما لبث أن شاع بين أدباء الأندلس .

وكان ناقل هذا الاتجاه الشعري ، عباس بن فاصح^(١) ، الشاعر الذي عرف في أيام الحكم الرضوي، والذي امتد به الأجل إلى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكان قد سافر إلى المشرق فالتقى في العراق بأبي نواس وسمع شعره ، وعاد إلى الأندلس فأشاعه بين الأندلسيين . وما لبث بعض هؤلاء أن تمثلوه ، وأنتجوا ما يشبهه بل ما يفوقه في بعض الأحيان . وبهذا ظهرت تلك الأشعار المحدثنة Moderna التي أخذت اتجاهاً جديداً بجانب الاتجاه القديم .

ويتمثل هذا الاتجاه المحدث في الاهتمام بأغراض شعرية لم تكن شائعة من قبل ؛ ثم في الأسلوب الذي تعالج به هذه الأغراض وغيرها مما يتناوله الشعراء .

فن حيث الأغراض ، ظهرت الخمريات ، كقول يحيى الغزال :

ولما رأيتُ الشَّرْبَ أَكَدَّتْ ^(٢) سَمَاؤُهُمْ	تَأَبَّطُ زَيْ ^(٣) وَاحْتَسَبْتُ عَنَايَ
فَلَمَّا آتَيْتُ الْحَانَ نَادَيْتُ رَبَّهُ	فَهَبْ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوِ نَدَائِي
قَلِيلَ هَجْوِ الْعَيْنِ إِلَّا تَعْلَةً	عَلَى وَجَلٍ مَنِيٍّ وَمِنْ نَظْرَائِي
فَقَلْتُ أَذْقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَنِي	طَرَحْتُ إِلَيْهِ رِبَاطِي ^(٤) وَرَدَائِي
وَقَلْتُ أَعْرَفِي بِبِدَلَةٍ ^(٥) أَسْتَرُّ بِهَا	بَدَلْتُ لَهَا فِيهَا طَلَاقَ نَسَائِي
فَوَاللَّهِ مَا بَرَّتْ يَمِينِي وَلَا وَفَّتْ	لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضَامِنٌ بِوَفَائِي
وَأَبْتُ إِلَى صَاحِبِي وَلَمْ أَكْ أَبْيَا	فَكُلُّ ^(٦) يَفْسِدُنِي وَحَقَّ فِدَائِي ^(٦)

(١) راجع ما كتبناه عنه في ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) أكادت : توقفت عن المطر .

(٣) الزق : وعاء الخمر .

(٤) الربطة : كل ثوب رقيق .

(٥) البذلة : ما لا يصاب من الثياب .

(٦) وردت هذه الأبيات في : المطرب لابن دحية ص ١٤٨ .

وظهر كذلك الغزل الشاذ ، وهو الغزل بالمذكر . ومنه قول شاعر اسمه مؤمن . يخاطب
مغنياً اسمه منصور . ويتغزل في فتي يلقب بابن القط :

قُولاً لمنصور : أبا نصرٍ تحسرة المضراب والنصر
ألا حكمتَ اليوم لابن الذي لُقِبَ بالقط على البدر
لا والذي طافت قريش له بالبيت في أيامه العشر
كأنما هاروت في طرفه إذا رنا يفت بالسحر^(١)

وظهرت كذلك المجونيات ، كقول المطرف بن عبد الرحمن الأوسط :

أفئيتُ عمري في الشر ب والرجوه الملاح
لم أضيع أصيلاً ولا أطّاع صباح
أحي الليل سهداً في نشوة ومراح
ولست أسمع ماذا يقول داعي الفلاح^(٢)

وظهرت كذلك بواكير الطيبيات ، كقول عبد الرحمن الأوسط ، وقد كتب به
إلى صديقه الشاعر عبد الله بن الشعر :

ما تراه في اصطباح وعقود القطر تنثر
ونسيم الروض يختا ل على مك وعنبر
كلما حاول مبقا فهو في الريحان يعثر
لا تكن مهمالة واسـ بق لها في البطء تعثر^(٣)

(١) وردت هذه الأبيات في : المتعبس لابن حيان ص ١٢٨ (الجزء الذي نشره مشور. أنطاليا).

(٢) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٢٩ .

(٣) وردت هذه الأبيات في : المغرب لابن سديد ج ١ ص ٥٠ ، ٥١ .

وظهرت كذلك الزهديات كقول الأمير عبد الله :

يا من يراوغه الأجلُ حَتَّامٌ يلهيك الأمل
 حتام لا تخشى الردى وكأنه بك قد نزل
 أغفلتَ عن طلب النجاة ولا نجاة لمن غفل
 هيهات تشغلك المنى ولَمَّا يدوم لك الشغل
 فكان يومك لم يكن وكان نعيمك لم يزل^(١)

هذا ما يتعلق بالاتجاه المحدث من حيث الأغراض الجديدة التي بدأت تجذب الشعر الأندلسي ؛ أما من حيث الأسلوب الجديد ، الذي بدأ يتضح في الشعر السائر في هذا الاتجاه ؛ فيلاحظ - كما تؤكد النماذج السابقة - أنه أسلوب يميل إلى شيء من التفضيل وينتجه أحياناً إلى القص ، وتشبع فيه روح الدعابة والسخرية والتحرر إذا كان الموضوع لاهياً ، كما تشبع فيه روح المرارة والكآبة والتزمت إذا كان الموضوع جاداً . ثم هو غالباً أسلوب ترسم صورته من عناصر حضرية ، وتخلق أخیلته في آفاق غير آفاق البادية ، وتؤلف لغته من ألفاظ بسيطة واضحة حسنة الإيقاع ، وتميل موسيقاه إلى البحور القصيرة والقوافي الرقيقة .

دواعي التجديد :

وكما كان للاتجاه المحافظ ما يبرر الأخذ به في الأندلس خلال الفترة السابقة ، كان لهذا الاتجاه المحدث ما يشجع على السير فيه خلال تلك الفترة التي نسوق عنها الحديث . فمعروف أن هذا الاتجاه في أصل نشأته بالمشرق ، أثر من آثار تلك الحياة الجديدة التي عاشها الناس خلال النصف الأول من العصر العباسي الأول ، أي في تلك

(١) وردت هذه الأبيات في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٢ ، وفي : أخبار مجموعة ص ١٥٢ .

السنوات التي أخذ الناس فيها يفتحون عيونهم في دهشة على مستحدثات الحضارة ، وراحوا يعبرون في نهم من طيبات الحياة ، ثم انطلقوا في كثير من التحرر وراء المتع المختلفة ، من شراب وغناء وموسيقى ، وما يتبع ذلك من مجالس لهو ومغامرات مجون . وقد ارتاع بعضهم من هذا التحرر المورط في كثير من الآثام ، وكان من هؤلاء المرتاعين بعض المتورطين من قبل ، فأخذوا أنفسهم بالزهد ، وراحوا يبغضون في الدنيا ، وينفرون من المتع ، ويدعون إلى التزود للأخرة ، ويشيعون احتقار الحياة وتذكر الموت .

وهكذا كانت كل الموضوعات الشعرية المفضلة لدى الاتجاه المحدث ، تمثل الحياة الجديدة للمجتمع الجديد ، وتصور هذا المجتمع في نزقه حيناً ، وفي رشده حيناً آخر . وكان المجون والزهد — برغم تناقضهما الظاهري — يرجعان إلى مصدر واحد هو تلك الحياة المتحررة اللاهية الصاخبة الجديدة ، التي عرفها المجتمع الإسلامي في النصف الأول من العصر العباسي الأول .

كذلك كان الأسلوب الشعري الجديد الذي آثره شعراء هذا الاتجاه المحدث ، أثراً من آثار تلك الحياة الجديدة ، التي كانت بمثابة رد الفعل للحياة البدوية القديمة .

هذا ما حدث في المشرق حيث نشأ هذا الاتجاه المحدث . أما في الأندلس ، فقد كانت الحياة في فترة صراع الإمارة تقارب تلك الحياة في العراق أيام نشأة هذا الاتجاه : فقد كان الأندلسيون في تلك السنوات ، يفتحون عيونهم على حياة جديدة مترفة ، كما كانوا ينعمون بكثير من التحرر في ظلال بعض الأمراء المتحررين مثل عبد الرحمن الأوسط . وبدأت تكثر بينهم مجالس الموسيقى والغناء بفضل ما جاء به زرياب من ألحان وآلات وقيان ، وما لقيه من تشجيع وما بذله من جهود . كما بدأت تكثر فيهم مجالس الشراب بسبب ما أتبع لهم من إنتاج الكروم وعصر الأنبذة وترخص في شربها . كذلك بدأت تعرف بينهم علاقات الحب الشاذ ، بسبب ما كثر بينهم من

غللمان صقالبة وغير صقالبة ، ثم لما أحاط بالعلاقات والتقاليد من كثير من التحرر
وعلم التزمت .

وربما ساعد على هذا النحو من السلوك ما عانت حياة الأندلس في تلك الفترة من
صراع زلزل القيم ودفع الناس إلى التعلق بمتع الحياة ، وقد أشرنا من قبل إلى بعض ألوان
هذا الصراع الذى خاضته الأندلس في تلك السنين .

وكما أحدث هذا الاندفاع والتحرر رد فعل عند بعض المشاركة ؛ أحدث الشيء
نفسه عند بعض الأندلسيين ، فأنكر بعضهم ذلك الإقبال على الدنيا ، وندد بالتعلق
بممتها ، وراح يذكر بالموت ويدعو إلى التزود للدار الآخرة . وقد كان من هؤلاء من بدأ
حياته في التحرر واللهو والتعلق بمتع الحياة . مثل يحيى الغزال الذى سنترجم له في هذا
الفصل .

وهكذا بدأ الطريق في أرض الأندلس يفتح أمام هذا الاتجاه الشرعى المحدث ،
فطلقاه بعض الشعراء بالإعجاب ؛ لأنه يعبر عن واقع حياتهم . ويصور في دقة نزعاتهم .
حين يتحررون فيلهون ، وحين يتزمتون فيتزهدون ؛ ثم لأن أسلوبه في جدته وتخصره
ورفته أقرب إلى حياتهم الجديدة المتحضرة الرقيقة ، من هذا الأسلوب المحافظ القديم ،
الذى يلبق بسكان البادية .

فإذا كان الشعراء في الأندلس من قبل قد آثروا الاتجاه المحافظ لدواع من حياتهم
وواقعهم ، ودوافع من قيمهم ومثلهم ، فقد آثر بعض الشعراء الآن الاتجاه المحدث
لدواع أخرى تتصل بالحياة الجديدة والواقع الجديد ، ولدوافع أخرى ترتبط بالقيم التى
تغيرت والمثل التى تبدلت . فلم تعد حياة هؤلاء الشعراء في مجتمعاتهم هى تلك الحياة
البسيطة القرية من حياة البداوة ، ولم تعد مثلهم مستمدة من عالم الآباء والأجداد في
البادية . وإنما أصبحت حياتهم هى تلك الحياة الأندلسية المتحضرة المرفقة ، التى عرفت

اللهو العايب والتزمت الزاهد ، كما صارت مثلهم مستمدة من هذا الواقع الجديد ، الذي يعيشونه هم بكل ما يموج فيه من حسيات ومعنويات .

(ب) نمو الاتجاه القديم

وبرغم دخول الاتجاه المحدث إلى الأندلس وانتشاره بين بعض الأندلسيين في فترة صراع الإمارة ، قد ظل الاتجاه المحافظ قوياً نامياً ، وظل كثير من الشعراء متمسكين به سائرين على تقاليده . بل إن بعض الشعراء الذين أجادوا النظم على طريقة المحدثين ، كانوا أحياناً يفضلون النظم على طريقة المحافظين .

ولعل السبب في ذلك أن الاتجاه المحافظ كان قد استقر في الأذواق وتمكن من ملكات الشعراء . ولعل السبب أن هذا الاتجاه كان أليق بالموضوعات الجادة ، لما اقترن بالاتجاه المحدث من الاتصال بالموضوعات اللاهية .

على أن نمو الاتجاه المحافظ في تلك الفترة كان في الكم . ولم يتجاوزه إلى الكيف ؛ فقد اتسعت موضوعاته وزاد نتاجه وتعدد شعراؤه ، ولكن أسلوبه بقي على ما كان عليه من قبل ، ولم يطرأ عليه تغير ذو شأن ، برغم تغير الحياة والأحياء ، وبرغم ظهور اتجاه جديد في الفن الشعري ، جدد الأسلوب في ألفاظه وتراكيبه وموسيقاه .

وقد كان من مظاهر نمو الاتجاه المحافظ في تلك الفترة توسيع ميادينه ، واتصاله بكثير من المظاهر الجادة للحياة الأندلسية في تلك السنين . ومن ذلك ما يلي .:

مناصرة العنصرية

فقد كان لتلك الحركة العنصرية الناشئة بين العرب والمولدين سلاح من الشعر ، إذ وقف بعض الشعراء العرب الآباء إلى جانب المسكر المنتصر للعروبة ، وراحوا يمجدون العرب ويفاخرون بهم وينافحون عنهم ويدعون إلى التكتل للقضاء على أعدائهم ،

كما وقف بعض الشعراء الإسبان الأصول في صف المولدين المناهجين عن الإسبانية ، وأخذوا يرحون العرب ويدعون إلى الخلاص منهم وكانت المعركة الشعرية تأخذ في الغالب شكل النقائص ، حيث ينقض كل فريق ما يقوله الفريق الآخر بشعر من وزنه وقافيته .

وقد تكون هذه الحركة متأثرة بحركة الشعوبية في المشرق ، ولكن طبيعة الحياة الأندلسية ، والظروف التي أحاطت بالأندلسيين من عرب ومولدين في تلك الفترة ، جعلت هذه الظاهرة ذات أصالة بعيدة عن مجرد التقليد لما كان في المشرق من مظاهر شعوبية .

ومن نماذج الشعر المناصر للعنصرية في الأندلس حينذاك ، قول شاعر مولد يلقب بالعبلي ، في الهجوم على عرب البيرة :

منازلهم منهم قفار بلاقعُ تجارى السّفَى^(١) فيها الرياح الزغانعُ
وفي القلعة الحمراء تدير زيغهم ومنها عليهم تستدير الوقائع
كما حصدت آباءهم في ضلالهم أسنتنا والمرهفات القواطع

وقدرد عليه الشاعر الأسدي شاعر العرب فقال :

منازلنا معمورة لا بلاقع وقلعتنا حصن من الضيم مانع
وفيها لنا عز وتدير نصرة ومنها عليكم تستتب الوقائع
ألا فأذنوا منا قريباً بوقعة تشيب لها ولدانكم والمراضع^(٢)

ومن نماذج هذا الشعر المناصر للعنصرية كذلك قول العبلي في قصيدة له عن العرب :

قد انقصت قناتهم^١ وذُلُّوا وزُعزع ركنُ عزهم الأذلُّ^(٣)

(١) السقى : التراب .

(٢) وردت الأبيات السابقة في المقتبس لابن حيّان ص ٦٢ ، (الجزء الذي نشره ملتشور أنطاليا) .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٦٤ .

ثم قول بعض^(١) الشعراء العرب في الرد عليه ، وفي تمجيد زعيم العرب بالبيرة ،
المسمى سوار^(٢) :

أباد ذوى العداوة فاضمحلوا	ليسوار على الأعداء سيف
فصادهم شديد البأس صيل ^(٤)	لقد ذلت رقابهم (عبيداً) ^(٣)
بها نهل العبيد معاً وعلوا	سقاهم كأس حثف بعد كأس
لها خضعت رقابهم وذلوا	وقد رفعت لسوار قناة
وألفهم بوحدانا بتقل ^(٥)	قتلت بواحد سوار ألفا
بما ارتكبه ظلماً واستحلوا	فأكثر قتلنا لهم حلال
تشب النار منها إذ تسل	فأوردنا رقابهم سيوقا
وليس لنا دم يوماً يتطل	وقد سفكت دماؤهم وطلت
منع الجانين فما يزل	رواق المجد مضروب علينا
وعرش المجد فيه لنا محل	سمونا فوق هام المجد قديما
وارثكم - نبي العبدان - ذل	ورثنا المجد عن آباء صدق
فليست ما حيتم تستقل ^(٥)	وأخضعنا رقابكم فذلت

ومن نماذج الأشعار المتصلة بالحركة العنصرية كذلك ، قول الشاعر الأسدي ،
يدعو العرب جميعاً إلى الوحدة واليقظة ، ولا يفرق بين عدنانى وقحطانى ، ويقرر أن

(١) قيل هو سعيد بن جردى ، وقيل هو يحيى بن أحمى يحيى بن سقالة أول الخائزين بالدعوة العربية .

انظر المقتبس ص ٦٦ .

(٢) هو زعيم عرب البيرة قبل سعيد بن جردى .

(٣) مكان هذه الكلمة غير واضح بالأصل ، وقد أثبتنا ما يظن مع السياق .

(٤) الصل : الهية أو الداهية .

(٥) وردت هذه الأبيات في المقتبس ص ٦٦ .

من أعظم أمجاد العرب ودواحي سيادتهم كون النبي عليه الصلاة والسلام منهم ، وكون الخلفاء والمهاجرين والأنصار من آبائهم :

يا أيها العرب في [أقصى] محلتهم
 ما عيشُ عدنان دون الحى من يمن
 إن السهام إذا ما فرقت كسرت
 أنم قليل ، كثير في غنائكم
 ليس منكم نبي الله أكرم من
 وصاحبه : أبو بكر خليفته
 ومشرهاجروا في الله ربهم
 قل للقبائل من هود ومن أدَد (١)
 ما إن تركت لكم نصحاً لتتصح
 أنم نيام ومن يشاكم مهير
 [ومن هم] (٢) بمن قد خانهم مضر
 وإن تجتمعن [يوماً] (٣) ليس تنكسر
 وغيركم قتل فيكم وإن كثروا
 برا الإله ومن جاءت به السور
 وخدنه المرتضى من بعده عمر
 والتابعون ومن آووا ومن نصروا
 تقبلوا النصح إذ قلناه أو فلدروا
 والنصح عند ذوى الألباب مدخر (٤)

وصف المعارك الحربية :

فقد سجل الشعر في تلك الفترة بعض ما كان من معارك بين الأمراء الأمويين والخارجيين عليهم ، ويجد ما أحرزه هؤلاء وقوادهم من انتصارات ، وصور الجيوش في زحفها المظفر ، وسخر من الأعداء في انهزامهم المهين . ومن أمثلة هذا الشعر قول عباس بن فرناس في حملات الأمير محمد :

(١) مكان هذه الكلمة غير واضح في الأصل ، ولقد أثبتنا ما يوافق السياق .

(٢) لعل الأصل يوافق ما أثبتناه هنا ، فالكلمة غير واضحة في الأصل .

(٣) قد أثبتنا ما يتفق مع السياق ، لأن الكلمة غير واضحة في الأصل .

(٤) أدد حل وزن عمر : أبو قبيلة من العرب .

(٥) وردت هذه الأبيات في : المتبصر ص ٤ .

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف
إذا أومضت فيه الصوارم خلقتها
كان ذرى الأعلام في مبيلائها
وإن طحنت أركانها كان قطبها
سمى خنم الأنبياء محمد
إلى أن قال :

فأكان إلا أن رماهم ببعضها
كان مساعير الموالى عليهم
بنفسى تنانين^(٥) الوغى حين جمعت
فولوا على أعقاب مهزولة كشف^(٣)
شواهين جادت للفرائق بالنسف^(٤)
إلى الجبل المشحون صفاً على صف^(٦)

التوجه إلى الرؤساء المنفصلين :

فقد خرج الشعر المدحى عن نطاق أمراء قرطبة ، واتجه إلى بعض هؤلاء الرؤساء المستقلين ببعض الجهات ؛ حيث كان بعض الشعراء يقصدونهم كما يقصد الأمراء الأمويون في قرطبة . وهكذا بدأت توضع أسس البلاطات الأدبية الإقليمية ، التي سيملوشأنها فيما بعد ، وخاصة في عصر ملوك الطوائف .

ومن أمثلة هذا الشعر المتجه إلى الرؤساء المنفصلين عن حكومة قرطبة ، قول ابن عبد ربه في إبراهيم بن حجاج المستقل بإشبيلية :

(١) غوم : ملتهم ، والمبل : الضخم .

(٢) القرائير : السفن الكبيرة .

(٣) الأكشف : من يهزم في الحرب .

(٤) الشواهين : جمع شاهين ، وهو طائر جراح . الفرائق : جمع غرنيق ، وهو طائر صغير .

(٥) التنانين : جمع تنين ، وهو حية عظيمة .

(٦) انظر هذه الأبيات في : البيان المغرب ج ٢ ص ١ وما بعدها .

ألا إن إبراهيم لُجَّةٌ ساحل
فأشيبليَّةُ الزهراء تُزهى بمجده
من الجود أُرست فوق بلجة ساحل
وَقَرْمُونَةُ الغراء ذات الفضائل
غدت هذه للناس في زى عاقل
فتهدى برُسل نحوه ورسائل^(١)
وإن حلَّ في هذى توحَّش هذه

هذا وقد كان شعر الاتجاه المحافظ - كما تدل النماذج المتقدمة - مزيجاً من الجودة والرداءة ، ومن الفنيَّة والنظمية ؛ وذلك بسبب كثرة المتعلقين بقرض الشعر ، وتعدد الميادين التي يحول فيها القصيد ، واختلاف المزاويل لهذا الفن ، بين شاعر أصيل وناظم دعوى . فنحن نجد بعض النماذج تصل إلى الغاية في الجودة ، وهي تلك النماذج التي أنتجها فنانون أخلصوا للفن ، على حين نجد نماذج أخرى دون المستوى الفني المرضي ، وهي تلك النماذج التي أنتجها أناس أعجلتهم المناسبات أو حركهم النفاق وحب الكسب .

(ج) اختراع الاتجاه الشعبي (الموشحات)

أما الاتجاه الشعبي ، فقد نشأ في الأندلس أواخر تلك الفترة وبدأ يأخذ طريقه في الحياة الشعرية الأندلسية ، بجانب الاتجاهين الوافدين من المشرق . وقد عُرِف شعر هذا الاتجاه الشعبي باسم الموشحات .

ويصف الباحثون الموشحات بالشعبية ؛ لأنها في الواقع فن شعري نشأ في أوساط الشعب لإرضاء حاجة الشعب ، ولأنه كان يستخلم في بعض فقراته اللغة العامية ، ويعتمد في تعابيره أحياناً على أجزاء من أغنيات شعبية . ولأهمية هذا الاتجاه الشعري الذي نشأ في أواخر تلك الفترة ، وكان له أثر كبير في الغرب والشرق ، سنيسط القول فيه بعض الشيء ، فنقول :

(١) وردت هذه الأبيات في : المقتبس ص ٤ .

بناء الموشحة

الموشحة منظومة غنائية ، لا تسير في موسيقاها على المنهج التقليدي . الملتزم لوحدة الوزن ورتابة القافية ، وإنما تعتمد على منهج تجديلي متحرر نوعاً ؛ بحيث يتغير الوزن وتتعدد القافية ، ولكن مع التزام التقابل في الأجزاء المتماثلة .

فالموشحة تتألف غالباً من خمس فقرات ، تسمى كل فقرة بيتاً . والبيت في الموشحة ليس كالبيت في القصيدة ؛ لأن بيت الموشحة فقرة أو جزء من الموشحة يتألف من مجموعة أشطار ، لا من شطرين فقط كبيت القصيدة . وكل فقرة من فقرات الموشحة الخمس ينقسم إلى جزأين : الجزء الأول مجموعة أشطار تنهى بقافية متحدة فيما بينها ومغايرة في الوقت نفسه للمجموعة التي تقابلها في فقرة أخرى من فقرات الموشحة . أما الجزء الثاني من جزئي بيت الموشحة ، فهو شطران - أو أكثر - تتحد فيهما القافية في كل الموشحة . والجزء الأول الذي تختلف فيه القافية من بيت إلى بيت يسمى غصناً ، والجزء الآخر الذي تتحد قافيته في كل الموشحة ، يسمى قفلاً^(١) .

هذا ما يتعلق بالقافية ، ويلاحظ أن فيها حرية وتنوعاً من جانب ، والتزاماً وتماثلاً من جانب آخر . أما الحرية والتنوع ففي الأغصان ، حيث تغاير قافية كل غصن قافية باقي الأغصان . وأما الالتزام والتماثل ففي الأقفال حيث يجب أن تتحد قوافيها في الموشحة كلها .

أما أوزان الموشحة ففيها كذلك حرية وتنوع يقابلهما التزام وتماثل . أما الحرية ففي جواز استخدام البحر الذي ستصاغ على وزنه الموشحة في عدة حالات من حالاته ، أي من حيث التمام والجزء والشرط ، أو بعبارة أوضح ، يجوز في الموشحة أن تكون بعض أشطارها من بحر على تفاعيله التامة ، وأن تكون بعض الأشطار الأخرى من نفس البحر ،

(١) هذه تسمية ابن سناء الملك في كتابه دار الطراز ، أما ابن خلدون في المقدمة فيسمى هذا الجزء شطراً .

ولكن على تفاعيله المشطورة أو المجزومة ، فتأتى بعض الأشرطة طويلة عديدة التفاعيل ، وتأتى أخرى في نفس المشوحة قصيرة قليلة التفاعيل . بل إنه يجوز أن تأتى بعض الأشرطة من بحر والبعض الآخر من بحر ثان^(١) .

وأما الالتزام والتماثل ، ففي وجوب أن يأتى كل جزء من أجزاء المشوحة المتماثلة ؛ على وزن متحد . والأجزاء المتماثلة هي : الأغصان مع الأغصان والأقفال مع الأقفال . فإذا جاء الغصن في الفقرة الأولى على وزن معين ، يجب أن تأتى كل الأغصان على نفس الوزن . وإذا جاء القفل الأول على طريقة خاصة من حيث طول الأشرطة وقصرها من بحر ما ، يجب أن تأتى كل الأقفال على نفس الطريقة . ويلاحظ أن تلك الأقفال يجب أن توافق المطلع الذى يسبق عادة كل الفقرات ، وهذه الموافقة بين الأقفال والمطلع يجب أن تكون في الوزن والقافية جميعاً .

وقد درج الباحثون على تسمية الأجزاء المختلفة للمشوحة بأسماء اصطلاحية . وقد مضى بعض تلك الأسماء ، وهي : البيت للفقرة ، والغصن لمجموعة الأشرطة التى تتغير قوافيها من فقرة إلى أخرى ، والقفل للأشرطة التى تتحد قوافيها في المشوحة كلها . وبقي أن نذكر أن القفل الأخير من المشوحة يسمى خرجه . وأن الموشح الذى ليس له مطلع يسمى الأقرع ، والذى يبدأ بمطلع يسمى التام^(٢) .

ولعلنا بعد ما تقدم ندرك سر تسمية هذا النوع من النظم بالموشح أو المشوحة ؛ فالوشاح : حلية ذات خطين يسلك في أحدهما اللؤلؤ ، وفي الآخر الجواهر ، أو هو جلد عريض مرصع بالجواهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحتها . والثوب الموشح هو الثوب المزين . فالفكرة إذن هي فكرة التجميل المنوع المعتمد على التقابل . وهكذا الموشح أو المشوحة

(١) راجع الموشحات الواردة في دار الطراز ، وقارن أوزانها . وراجع ديوان ابن سهل الإشبيلي ،

ففى موشحات دار الطراز وفي موشحات ابن سهل ما يؤيد هذه الظاهرة .

(٢) انظر تلك الاصطلاحات في : دار الطراز لابن سناء الملك .

أيضاً ؛ فهي تزدان بالقوافي المنوعة والأوزان المتعددة ، ولكن مع التقابل في أجزائها
المماثلة .

وهذا نموذج لموشحة ، نسوقه لكي تتضح تلك الأجزاء التي تؤلف هذا البناء الشعري ،
لا لنقدم شاهداً من موشحات تلك الفترة، التي لا يوجد بين أيدي الدارسين اليوم شيء
من موشحاتها . والموشحة لابن سهل الإشبيلي ، وهو من شعراء القرن السابع الهجري^(١) ،
وقد أوردنا موشحته بدلا من تصوير بناء هذا النظم الأندلسي بالخطوط والرموز . يقول
ابن سهل^(٢) :

هل درى ظبي الحمي أن قد حمى قلب صب حله عن مكنس^(٣)
فهو في حر وخفق مثلما لعبت ريح الصبا بالقبس

* * *

يا بدوراً أطلعت يوم النوى غرراً تسلك في نهج الغرر
ما لعيني وحدها ذنب الهوى منكم الحسن ومن عيني النظر
أجنتي بالذات مكروه الجوى والتذاذي من حبيبي بالفكر
وإذا أشكوه وجدى بسما كالربي والعارض المنبجس
إذ يقيم القطر فيها مآتما وهي من بهجتها في عرس

* * *

من إذا أملى عليه حرقى طارحتني مقلتاه الدنفا^(٤)
تركت الحاظه من رمي أثر النمل على صم الصفا^(٥)

(١) انظر عنه مجاً للمؤلف ، كتب بالإسبانية ، وعنوانه : El Poeta sevillano Ibrahim Ibn Sahl .

(٢) انظر هذه الموشحة في ديوان ابن سهل الذي قام المؤلف بتحقيقه وشرحه وضبطه .

(٣) المكنس : ما يستتر فيه الظبي كالكناس .

(٤) الدنف : السقم والمرض .

(٥) الصفا : الحجارة المساء .

وأنا أشكركه فيما بقي لست ألهاه على ما أتلفا
وهو عندي عادل إن ظلما ونصيحني نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعد ما حلّ من نفسي محلّ النفس

•••

غالبٌ لي غالبٌ بالتؤده بأبي أفديه من جاف رقيق
ما علمنا قبلَ نثرِ نضده أفضواناً^(١) عَصِرْت منه رحيق
أخذت عيناه منه العريده وفؤادي سكره ما إن يفيسق
فاحمُ اللمةِ معسولُ اللمى ساحر الغُنْجِ شهيُّ اللعَسِ^(٢)
وجهه يتلو الضحى مبتسما وهو من إعراضه في عبس

•••

أيها السائل عن جرئٍ عليه لي جزء الذنب وهو المذنبُ
أخذت شمس الضحى من وجنتيه مشرقاً للشمس فيه مغرب
ذهبتُ دميَّ أشواقٍ إليه وله خد بلحظي مُذْهَب
يُنبتُ الوردَ بغرسي كلما لحظتُه مقلتي في الخُلسِ
ليت شعري أي شيء حرّما ذلك الورد على المغرسِ

•••

أنفدت دميَّ نارِ بي ضيرامٍ تلتظي في كل حين ما تشا
هي في خديه ببردٍ وسلام وهي ضُرٌ وحريرق في الحشا
أتقي منه على حكم الغرام أسداً ورداً وأهواه^(٣) رشا

(١) الأضواء : زهر .

(٢) الفنج . اللد . واللص : كوين الشفة تؤشك أن تكون سوداء لشدة احمرارها .

(٣) الأسد الورد : الجريء . والرشا : الظبي إذا قوي ونشي مع أمه .

قلتُ لَمَّا أن تبدي معلماً^(١) وهو من الحَاظِه في حرس
أيها الآخذ قلبي مغنماً اجعل الوصل مكان الخمس^(٢)

نشأة الموشحات :

والموشحات قد نشأت في الأندلس ، أواخر القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وكانت نشأتها في تلك الفترة التي حكم فيها الأمير عبد الله ، وفي هذه السنين التي ازدهرت فيها الموسيقى وشاع الغناء من جانب ، وقوى احتكاك العنصر العربي بالعنصر الإسباني من جانب آخر . فكانت نشأة الموشحات استجابة لحاجة فنية أولاً ، ونتيجة لظاهرة اجتماعية ثانياً . أما كونها استجابة لحاجة فنية ، فبإذنه أن الأندلسيين كانوا قد أولعوا بالموسيقى وكلفوا بالغناء ، منذ أن قدم عليها زرياب ، وأشاع فيهم فنه . والموسيقى والغناء إذا ازدهرا كان لازدهارهما تأثير في الشعر أي تأثير . وقد اتخذ هذا التأثير صورة خاصة في الحجاز والعراق حين ازدهر فيهما الغناء والموسيقى في العصر الأموي ثم العباسي . وكذلك اتخذ هذا التأثير صورة مغايرة في الأندلس حين ازدهر فيها الغناء والموسيقى في الفترة التي نسوق عنها الحديث . فيظهر أن الأندلسيين أحسوا بتخلف القصيدة الموحدة ، إزاء الألحان المنوعة ، وشعروا بجمود الشعر في ماضيه التقليدي الصارم ، أمام النغم في حاضرة التجديدي المرن . وأصبحت الحاجة ماسة إلى لون من الشعر جديد ، يواكب الموسيقى والغناء في تنوعهما واختلاف ألحانهما . ومن هنا ظهر هذا الفن الشعري الغنائي الذي تتنوع فيه الأوزان وتتعدد القوافي ، والذي تعتبر الموسيقى أساساً من أسسه ؛ فهو ينظم ابتداءً للتلحين والغناء .

(١) الفارس المعلم : من يتخذ علامة مميزة حتى لا يخطئ .

(٢) المراد بالخمس هنا : خمس الفتيمة الذي يعطى الفقراء . من قوله تعالى . « واطلوا أما غنم من

شبه فإن الله خسه » الآية .

وأما كون نشأة الموشحات قد جاءت نتيجة لظاهرة اجتماعية . فبيان أن العرب امتزجوا بالإسبان ، وألفوا شعباً جديداً فيه عروبة وفيه إسبانية ، وكان من مظاهر هذا الامتزاج ، أن عرف الشعب الأندلسي العامية اللاتينية Romance ، كما عرف العامية العربية ؛ أي أنه كان هناك ازدواج لغوي نتيجة للازدواج العنصري^(١)

وكان لا بد أن ينشأ أدب يمثل تلك الثنائية اللغوية ، فكانت الموشحات . فن المقرر أن الموشحات كانت منذ نشأتها إلى ما بعد ذلك بقرون تنظم بالعربية الفصحى ، إلا الفقرة الأخيرة منها وهي الخرجة ، فقد كانت تعتمد على عامية الأندلس . ومعروف أن تلك العامية كانت هي عامية العربية المستخدمة لألفاظ من عامية اللاتينية . وفي ذلك يقول ابن بسام ، في حديثه عن مخترع الموشحات إنه « كان يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويصنع عليه الموشحة »^(٢) .

فكان الموشحات إذن لها جانبان : جانب موسيقي يتمثل في تنويع الوزن والقافية ، وهذا قد جاء استجابة لحاجة الأندلس الفنية حين شاعت الموسيقى والغناء . وجانب لغوي ، يتمثل في أن تكون الموشحة فصيحة في فقراتها عامية في خرجتها ، وهذا الجانب قد جاء نتيجة للثنائية اللغوية المسببة عن الثنائية العنصرية .

مخترع الموشحات :

وقد كان مخترع الموشحات في الأندلس شاعراً من شعراء فترة الأمير عبد الله ، اسمه مقدّم بن معافى القسبري . وقد جاء في بعض نسخ كتاب الذخيرة لابن بسام أن مخترع الموشحات اسمه محمد بن محمود . والمرجح أن مخترع هذا النوع الشعري هو

(١) راجع الحديث الخامس بالثقات في الأندلس في تمهيد هذا الكتاب .

(٢) انظر : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١ .

مقدم بن معافى ، وعلى ذلك أكثر الباحثين (١) . على أن ابن بسام لم يجزم حين ذكر هذا الأخير ، وإنما قال : « وأول من صنع هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها - فيما بلغنى - محمد بن محمود القبرى الضرير » (٢) . ولعل كون الشاعرين من قبيرة (٣) جعل ابن بسام يضع اسماً محل اسم ؛ فكأنه قد بلغه أن الشاعر القبرى فلاناً قد اخترع الموشحات ، فذكر اسم محمد بن محمود ونسى اسم مقدم .

ولعل من تمام الحديث عن مخترع الموشحات أن نشير إلى أن بعض الباحثين قد فهم أن مخترع الموشحات هو الشاعر العباسى عبد الله بن المعتز ؛ والسبب فى هذا الفهم أن موشحة قد وردت فى الديوان المطبوع لهذا الشاعر العباسى . وقد كان ابن المعتز معاصراً لمقدم بن معافى ، وليس بين أيدينا شيء من موشحات هذا الأندلسى ، على حين يحتوى ديوان ابن المعتز على موشحة ، فكل هذا قد أوهم أن ابن المعتز هو صاحب أول موشحة ، وأن المشرق هو مصدر هذا النوع الشعرى . والحق أن ابن المعتز لم يقل تلك الموشحة الواردة فى ديوانه ، وإنما هى لشاعر أندلسى وشاح ، هو ابن زهر الحفيد (٤) . وقد وردت هذه الموشحة منسوبة إلى هذا الأندلسى فى كثير من المصادر الموثوق بها مثل جيش التوشيح لابن الخطيب ، والمغرب لابن سعيد ، ومعجم

(١) من ذكروا اسم مقدم بن معافى كمخترع للموشحات : ابن خلدون فى المقدمة ص ٥٨٤ وقد ورد اسمه خطأ فى بعض طبعات المقدمة ، فجاء مثلاً : مقدم بن معافر الفريرى . ولكن مراجع أخرى تصحح اسمه ، كالمقتبس لابن حيان ص ٤٦ ونفع الطيب للمقرئ ج ٤ ص ١٩٥ وجزوة المقتبس للمحميدى ، ترجمة رقم ١٣٨٦ .

(٢) الذخيرة ق ١ م ٢ ص ١ .

(٣) قبرة : بلدة قرب قرطبة . وكان منها مقدم بن معافى ومحمد بن محمود ، انظر : جزوة المقتبس ،

ترجمة رقم ٢٨٥ ، ١٣٨٦ .

(٤) انظر ترجمته فى ابن أبى ، أصيصة (عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء) ج ٢ ص ٦٧ وما بعدها .

البلدان لياقوت وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة^(١) . وهناك شيء آخر ينسبها لابن المعتز ، وهو أن نظام تلك الموشحة وأسلوبها وروحها موافقة كلها لموشحات أخرى أثرت من هذا الشاعر الأندلسي^(٢) ، على حين لا يعرف لابن المعتز شيء من الموشحات التي ترجع نسبة هذا النص إليه . وما يؤيد ما تقدم ، أن أحداً من الذين كتبوا عن ابن المعتز أو ترجموا له لم يذكر أنه كان وشاحاً . وأخيراً لو كان ابن المعتز صاحب هذه الموشحة ، لشاع عنه في المشرق هذا الفن ، ولرأينا له ولغيره من شعراء المشرق نماذج من هذا اللون ، الذي كان يناسب مستجداتهم وما يميلون إليه من تجديد . فنحن لم نر للمشاركة موشحات ، ولم يُذكر أحد منهم في الوشاحين ، إلا بعد أن اشتهر هذا الفن في الأندلس وكثر أعلامه ، وذلك بعد نحو ثلاثة قرون من نشأة الموشحات . وهكذا يتنى أن يكون المشرق منشأ هذا اللون الشعري ، بعد أن اتقى كون ابن المعتز صاحب الموشحة الواردة خطأ في ديوانه المطبوع ، بفعل بعض الساهين أو المدلسين من النساخ .

وتلك هي الموشحة التي أوقعت بعض الباحثين في الخطأ :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوتك وإن لم تسمع

ونديم همت في غرته

وشربت الراح من راحته

كلما استيقظ من سكرته

جذب الزرق إليه وانكى وسقاني أربعمًا في أربع

غصن بان مال من حيث استوى

(١) انظر المغرب لابن سيد ج ٢ ص ٢٦٧ - ٢٦٨ ، وجمع الأدباء لياقوت ج ١٨ ص ٢١٩ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٧٢ .

(٢) أورد ابن أبي أصيبعة عدة موشحات ماثلة كلها لابن زهر . انظر صفحات ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ .

بات من يهواه من فرط الجوى
 خافق الأحشاء موهون القوى
 كلنا فكّر في الين بكى ما له يبكى بما لم يقع
 ليس لي صبر ولا لي جلد
 يا لقوى عدلوا واجتهدوا
 أنكروا شكواى مما أجد
 مثل حالى حقه أن يُشكّنى كدُ اليأس وذل الطمع
 ما لعيني عشيت بالنظر
 أنكرت بعدك ضوء القمر
 وإذا ما شئت فاسمع خبرى
 شقت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى
 كبد حترى ودمع يتكيف
 يعرف الذنب ولا يعترف
 أيها المعرض عما أصف
 قد نما حبك عندى وزكا لا يظن الحب أنى مدعى^(١)

أساس الموشحات :

ولكن هل استوحى مُقدّم بن معاني مخترع الموشحات نموذجاً مشابهاً ، أو بنى
 على أساس قديم حين اخترع موشحته الأولى ؟ لقد ثبت أن المشاركة قد عرفوا - قبل
 الموشحات - لونهاً من الشعر تتعدد فيه القوافي ، أو تنظم فيه القصيدة على فقرات تختلف

(١) انظر هذه الموشحة في المصادر السابقة ، وانظر أيضاً : دار الطراز لابن سناء الملك ، تحقيق
 جهود الركابي ص ٧٣ . وقد اختلفت بعض ألفاظها من مصدر إلى آخر . كما اختلف وضع بعض الأغصان .

قوافيها ، كالرباعيات والمسمطات . فهل تأثر مخترع الموشحات بشيء من ذلك ، فطوره وبني عليه^(١) ؟ يبدو أن هذا الاحتمال بعيد ؛ لأننا لانعرف للأندلسيين رباعيات ولا مسمطات في تلك الفترة من تاريخها . حتى نقطع ببناء الموشحات على هذا النوع من النظم .

وقد ثبت كذلك أن العناصر الإسبانية كانت تخالط العرب في المجتمع الأندلسي ، وأن لغة الإسبان « الرومانثي » كانت تصاحب اللغة العربية ، ومن المعقول أن يكون للإسبان فنهم ، وأن تكون للغتهم بعض الأغاني . فهل يمكن أن يقال : إن مؤلف الموشحات قد اعتمد على بعض الأغنيات « الرومانثية » حين نظم موشحته الأولى ؟ يبدو كذلك أن هذا لم يكن ؛ لأنه ليس بين أيدينا شيء من تلك الأغنيات ذات الأصل الرومانثي حتى نقارنها بالموشحات ونظمتن إلى أنها كانت الأساس .

وقد ذكر الأستاذ « ريبيرا Ribera » صاحب الفرض السابق ، احتمالاً آخر يقول : إن أكثر البيوت الأندلسية كانت تضم نساء من جليقية ، لأنهن عُرِفْنَ أكثر من غيرهن بالجمال وكثير من المزايا الأخرى ، وإن هؤلاء الجليقيات كن يغنين بلغتهن في الحفلات ، ويهددن أطفالهن في المنازل ، ويسرين عن أنفسهن في ساعات العمل . فمن الممكن أن تكون الموشحات الأولى قد تأثرت ببعض الأغنيات الجليقية القديمة^(٢) . ولكننا نستبعد كذلك هذا الافتراض الذي ذكره المستشرق الإسباني ؛ لأنه ليس بين أيدي الباحثين كذلك شيء من أغنيات جليقية ، يمكن أن يُثبت قرابة بين تلك الأغاني والموشحات .

(١) يقول الأستاذ « هارتمان » Hartman إن فن الموشحات كان إحياء لفن التسيط (عن الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهماني ص ٥) .

(٢) انظر البحث القيم الذي كتبه عن ابن قزمان الأستاذ : Julian Ribera في كتابه :

كذلك ثبت أنه كان لليهود المعاشين للمسلمين في الأندلس بعض الأناشيد الدينية مثل « البرمون Pizmon » وهذه الأناشيد يشبه بعضها الموشحات . فهل كانت تلك الأناشيد مصادر وحي لمخترع الموشحات حين نظم محاولته الأولى ؟

نحن كذلك نستبعد هذا الرأي الذي قال به الأستاذ « ملياس فيليكروسا » Milias Villicrosa المستشرق الإسباني ، المتخصص في الدراسات العبرية (١) . نستبعده لأننا نستبعد أن يتأثر المسلمون الأندلسيون بشيء يهودي متصل بالدين ؛ فهم قد عرف عنهم التعصب الشديد ، والنفرة الواضحة مما يشوب العقيدة ، حتى كانوا ينفرون من الفلاسفة ، بل من المذاهب الفقهية المخالفة لمذهبهم ، فكيف نعقل أنهم تأثروا ببعض الأناشيد اليهودية الدينية ؟ !

والذي يمكن الاطمئنان إليه : هو أن الموشحات قد بنيت على أغنيات أندلسية محلية (٢) واستوحت بعض أغاني الأندلسيين الشعبية ، التي لم يسجلها المؤرخون ؛ فالمعقول أن يكون للأندلسيين أغان شعبية كأي شعب له أغانيه ، والمعقول أن تكون هذه الأغاني متنوعة القافية . وقد نظمت باللغة العامية الأندلسية التي تمتاز فيها العربية « بالروماني » ، والمعقول أن مخترع الموشحات إنما أفاد من هذه الأغنيات الشعبية ؛ لأنه سيأخذ غالباً ألفاظاً عامية يجعلها مركز موشحته ، كما أخبرنا ابن بسام في حديثه عن نشأة الموشحات . والأغنيات هي المدد الأول لتلك الألفاظ ، وخاصة حين يكون الاقتباس لعمل مشابه ، وهو الموشحات ذات النشأة الغنائية . ويؤيد هذا أن العادة جرت بين الوشاحين على أن يمهّدوا للخرجات بمثل قولهم : « غنّت » . وشبيه بهذا ما

(١) انظر كتابه : La poesia sagrada, pp. 27 ff. .

(٢) انظر : الزجل في الأندلس للدكتور عبد العزيز الأهواني ص ٢ وما بعدها . وانظر مقالنا في

يُحصل في أيامنا، حين يعدد مؤلف أغان حديث إلى بعض الأغنيات الشعبية القديمة التي لا يُعرف لها مؤلف ، فيأخذ بعض أجزاءها ويجمله أساساً لأغنيته .

تطور الموشحات :

وقد كانت فترة نشأة الموشحات ، كفترة نشأة أى فن ، من حيث مشاهدتها لأولى المحاولات التي يعنى عليها الزمن غالباً . ومن هنا ، ولبعد الزمن بتلك الفترة ، لم تبق لنا من هذه الموشحات الأولى التي نظمها مُقدّم وأمثاله أية نماذج . ولكننا نستطيع أن نمصورها موشحات بسيطة التركيب قليلة التعقيد ، تتخذ مجالها من الموضوعات الغنائية كالخمر والطبيعة والغزل ، وتكتب كلها باللغة العربية ، فيما سوى الخرجة ، التي تكتب باللغة الأندلسية الشعبية . كما كانت تُرضى بقلها ولغتها وأغراضها حاجة الأندلسيين حينئذ ، وتعكس اختلاط عنصرهم وامتزاج لغتهم ، وشيوع الغناء والموسيقى بينهم .

وقد تطورت الموشحات بعد فترة نشأتها تطورات عديدة ، وكان من أهمها تطور أصابها في القرن الخامس الهجري ، أيام ملوك الطوائف . ثم تطور آخر بعد ذلك بقليل فرع عنها ما يسمى بالزجل . حتى أصبح هذا الاتجاه الشعبي ممثلاً في لونين : لون الموشحات ، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة الفصحى ، ولون الأرزجال ، وقد صارت تكتب جميعاً باللغة العامية .

وانتقل هذان اللونان من الأندلس إلى المشرق ، فكثرت فيه الوشاحون والزجالون . وعرفهما كذلك الأدب الأوربي ، فتأثرت بهما شعراء جنوب فرنسا المسمون « التروبادور Trovadores » ، كما تأثر بهما كثير من الشعراء الإسبان الغنائيين . وانتقل التأثير إلى الشعر الإيطالي ممثلاً في عدة أنواع ، مثل النوع اليبيني المسمى « لاودس Laudes » والنوع الغنائي المسمى « بالاتا Ballata » .

وقبل أن نختم حديث الموشحات ، نعرض نموذجاً يتضح معه ما سبق أن ذكرناه

من اشمال الخرجات كثيراً على ألفاظ من عامية الأندلس التي تبرز فيها العربية
« بالرومانشية » .

يقول بعض الأندلسيين (١) :

لحظاتٌ بابليةٌ تمتعت قلبي عشقا
ولمى ثغر دفلجٍ لأمنى منه موق

بأبي لورق قلبه ساكن مشواه قلبي
قلما يأمن سريره أو يرى روعة سريري
حسبُ عدالى وحسبه فأنا قد ضاع حسبي
هذه يا عاذليته من سمات الحب حقا
زفرات تنوهج وهي في دمي غرقى

ثم يحضى الشاعر في ذكر أغصان موشحته وأقفاها ، حتى يختتمها بهذه الأسطر :

ألبُ ديهٍ إشتِ ديهٍ دى ذا العنصرَ حقا
بشترى مو المدبج ونشقُ الريح شقا

فهذا الختام الذى ختمت به الموشحة مزيج من ألفاظ عربية وأخرى « رومانشية »
والفقرة الأولى معناها : « هذا اليوم يوم فجرى » أى مشرق . فالكلمة الأولى منها وهى
كلمة « ألب » من الكلمة الإسبانية alba بمعنى فجر ، والكلمة الثانية وهى « ديه » معناها :
يوم ، وهى فى الإسبانية dia ، والكلمة الثالثة وهى « إشت » معناها : هذا . وهى فى
الإسبانية este . أما الفقرة الثانية ، فمعناها « يوم العنصرة حقا » ، والعنصرة عيد من
أعياد الأندلسيين . والكلمة الأولى وهى « دى » معناها : يوم ، ويبدو أنها كانت تنطق « دية »

(١) هو أبو بكر بن بقى المتوفى سنة ٥٤٥ هـ وكان من أعلام الشاهين فى عهد المرابطين .

و«دي» . . وأما الفقرة الثالثة ، فصاها «سألبس مديجي» . والكلمة الأولى وهي «بشري» هي التي صارت في الإسبانية Vestire أى سألبس . والكلمة الثانية وهي «مو» هي ضمير الملك للمتكلم المفرد المذكر ، وقد صارت في الإسبانية mi أو Mio . وأما الفقرة الأخيرة فهي عربية كلها . وعلى ذلك يكون معنى هذا الحتام بجملته : هذا اليوم يوم فجرى ، إنه يوم عيد العنصرة . سوف ألبس ثوبى المزين . وأشق الرمح شقاً^(١) .

(د) الشعراء :

وقد عرفت الأندلس في تلك الفترة عدداً وفيراً ممن يقولون الشعر ، وقد كان من هؤلاء بقية باقية من شعراء الفترة السابقة ، كعباس بن ناصح ، وحسانة التميمية ؛ كما كان منهم من امتد به الأجل إلى الفترة اللاحقة ، مثل ابن عبد ربه ، ومقدم بن معافى . ومن اشتهر في عهد عبد الرحمن الأوسط : ابن الشمر ، وابن قزلمان ، والغززال . ومن عرف في عهد الأمير محمد : عباس بن فرناس ، والعتبي . ومن ذكر في عهد المنذر وعبد الله : ابن عبد ربه ، والقلفاظ ، وعبد يس بن محمود وابن قلزم . وكان كثير من العلماء غير المتفرغين للشعر يقرضه أحياناً ، مثل : عبد الملك بن حبيب ، الذى عرف بالتاريخ ، وسعيد بن عبد ربه ، الذى عرف بالطب ، وابن فرناس الذى عرف بالطبيعات . هذا ، ولم يكن جميع الشعراء من ذوى الأصول العربية ؛ بل كان منهم مولدون ، كالعبلى الذى أوردنا له بعض الشعر ، بل لم يكن قول الشعر العربى مقصوراً على المسلمين من سكان الأندلس ، وإنما كان يقوله كذلك المسيحيون المستعربون كما تقرر ذلك شكوى القس ألفارو القرطبي ، التى سلفت في غير هذا المكان^(٢) .

(١) نشر الموشحة السابقة ودرس خرجتها وحل غوامضها الأستاذ جارتيا جوث في مقال له عن الموشحات في مجلة الأندلس سنة ١٩٥٤ ، وهو ينقل عن مخطوط اسمه عمة الجليس ووثانسة الوزير والرئيس لابن بشرى القرناطى ، وهذا المخطوط ملك الأستاذ كولان المستشرق الفرنسى .

(٢) انظر ما كتب عن اللغات في الأندلس في تمهيد هذا الكتاب .

وليس من المستطاع الترجمة في هذا المقام لكل شعراء تلك الفترة ولا لأكثرهم ولا لأجودهم وحسبنا أن نترجم لشاعرين يمثل أحدهما الاتجاه المحدث، ويمثل الآخر التقليدي:

بجى الغزال (١) :

اسمه بجى بن حنكَم، ويلقب بالغزال لوسامته وظرفه. وأصله من جسيان، وينسب إلى أسرة تنتمي إلى بكر بن وائل. وقد ولد الغزال سنة ١٥٦ هـ. ونشأ نشأة علمية أدبية غير أن الشعر غلب عليه فاشتهر به.

وقد كان للغزال من المواهب الخلقية والخلقية، ما جعله يُختار لبعض الأعمال الكبيرة في إمارة قرطبة في عهد عبد الرحمن الأوسط. لكن طبعه المتحرر كان يصل أحياناً إلى درجة الاستهتار، فيجر عليه كثيراً من الشر، ويقف دون بلوغه أسمى المناصب التي كان بها جديراً. حدّث أن ولاء الأمير عبد الرحمن قبض الأعرار (٢)، واختزانها فتصادف أن قل الطعام في تلك السنة. وارتفع سعر الحاصلات، فباع الغزال ما اختزنه من حاصلات كان قد جابها كأعشار للدولة، واستبدل بها نقوداً. فلما علم بذلك الأمير، غضب وقال: إننا نعد ذلك لنفقات الجند والحاجة عند الجهد. وأمر بأن يؤخذ من الغزال الثمن الذي باع به الحاصلات، وكانت الحاصلات قد كثرت حينئذ ورخصت أسعارها، فأبى الغزال أن يدفع ثمن الحاصلات التي باعها، وقال: إنما اشتري لكم من الطعام عدد ما بعت من الأمداد. فلما علم الأمير بذلك أمر بسجنه

(١) انظر ترجمته وبض أخباره في: المغرب لابن دحية ص ١٢٢ - ١٥٦، وفتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٤٤١ - ٤٤٦، وجزوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٨٨٧، وبنية الملتبس للضبي ترجمة رقم ١٤٦٧، والمغرب لابن سيد ج ٢ ص ٥٧، ٥٨، والمقتبس لابن حيان (الجزء الذى يتناول عصرى الحكم وعبد الرحمن الأوسط، وهو مخلوط كان عند الأستاذ ليلى بروفنسال).

(٢) نوع من الضرائب المفروضة على الأرض.

وقد كتب الشاعر من محبته في قرطبة قصيدة جميلة ، ضمنها تبرير تصرفه ، وبدأها بالغزل فقال :

بعض تصايك على زينب لا خيّر في الصبوة للأشيب
أبعد خمسين تقضيتها وافية تصبو إلى الربوب (١)

ثم انتقل إلى مدح الأمير قائلاً ،

من مبلغ عنى إمام الهدى الوارث الهجد أباً عن أب
أنى إذا أطنب مدأحه قصدت فى القول فلم أطنب
لا فك عنى الله إن لم تكن أذكرتنا من عمر الطيب
وأصبح المشرق من شوقه إليك قد حن إلى المغرب
منبره يهتف من وجده إليك بالسهل وبالمرحب
أطربه الوقت الذى قد دنا وكان من قبلك لم يطرب
هنا به الوجد فلو منبر طار لواقى خطفة (٢) الكوكب
إلى جميل الوجه ذى هبة ليست لحامى الغابة المغضب
لا يمكن الناظر من رؤية إلا التماح الخائف المذنب

وانتهى بعد ذلك إلى المشكلة فقال .

إن ترد المال فإنى امرؤ لم أجمع المال ولم أكسب
إذا أخذت الحق منى فلا تلتبس الريح ولا ترغب
قد أحسن الله إلينا معاً إن كان رأس المال لم يذهب (٣)

(١) الربوب : بق الوحش .

(٢) الخطفة : السرعة

(٣) انظر هذه الأبيات وسبب قولها فى : المطرب لابن دحية ص ١٣٣ - ١٣٦ .

وقد عفا الأمير عنه بعد سماعه هذا الشعر ، وأسند إليه بعد ذلك مهام جليلة ، كان من أخطرها إيفاده في سفارة إلى إمبراطور بيزنطة المسمى « توفلس Theophile » الذي كان قد أرسل سفارة إلى الأمير الأموي ، يعرض معها صداقته ويطلب من عبد الرحمن مودته ، ويبدى رغبة في عقد معاهدة بين القسطنطينية وقرطبة (١) .

وقد قام الغزال بسفارة قرطبة لدى إمبراطور البيزنطيين (٢) خير قيام، وكان يصحبه في تلك المهمة السياسية أندلسي عالم ، يسمى يحيى بن حبيب ، ولكن شخصية الغزال القوية جعلته كل شيء في تلك السفارة التي خلفت شعراً من خير ماجادت به قريحته الشاعر . فقد هاج البحر ، والغزال وصاحبه بركبان السفينة في اتجاه القسطنطينية ، وأحدق بهما الخطر ؛ فاشتدت العاصفة وعلا المرح ، فقال الغزال في ذلك :

قال لي يحيى وصيرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال
شقت القلمين وانبتت عراً تلك الجبال
وتمطى ممالك الموت إلينا عن حبال
فأرأينا الموت رأى السمين حالا بعد حال
لم يكن للقوم فينا يا رفيق رأس مال (٣)

(١) انظر تحقيق هاتين السفارتين في كتاب . الإسلام في المغرب والأندلس ، للأستاذ ليث بروفنسال ص ٩٥ - ١١٤ (والكتاب مترجم عن الفرنسية بقلم الدكتور السيد عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح الدين حلمي والدكتور لطفى عبد البديع) .

(٢) ذكر ابن دحية في المطرب أن سفارة الغزال كانت إلى ملك الجوس ، أي « النورمان » وذكر نفس الأحداث والأشعار التي أوردها ابن حيان في المقتبس في حديث عن رحلة الغزال إلى إمبراطور القسطنطينية . وقد أثبت الأستاذ ليث بروفنسال في كتابه السابق « أن الرحلة لم تكن إلى ملك الجوس ، وأنها كانت إلى إمبراطور القسطنطينية ، وأن ابن دحية قد اعتمد على عناصر قصصية خيالية ولم يعتمد على حقائق تاريخية » . على أنه لا يبعد أن يكون الغزال قد قام برحلة إلى القسطنطينية ، وبأخرى إلى بلاد النورمان ، الذين كانوا قد هاجموا الأندلس في أيامه ، والذي سماه بعض المؤرخين بالجهوس .

(٣) انظر هذه الأبيات في : المطرب ص ١٣٩ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٤٤٤ .

ثم نجا الغزال وصاحبه ، ووصلا إلى حيث أرسلنا ، ونهبأ الإمبراطور البيزنطى لاستقبال سفير عبد الرحمن الأوسط ، وأخبر الغزال بتقاليد بلاط بيزنطة ، التى تقضى بأن يدخل الزائر على الإمبراطور ساجداً ؛ فرفض الغزال ذلك ، واشترط ألا يخرج هو وصاحبه عن شيء من سنتهما ، فوفق على ذلك ، لكن المسئولين فى بلاط القسطنطينية تحايّلوا ، فجعلوا المدخل المؤدى إلى الإمبراطور منخفضاً حتى لا يدخله داخل الإراكماء ، فلما جاء الغزال للدخول على الإمبراطور ورأى الباب كذلك ؛ جلس على إلبتية ومد قدميه وزحف حتى دخل من الباب ثم استوى قائماً ، ثم حيا الإمبراطور بكلمة ترجمت له ، فأعجب بها ، وقال : هذا حكيم من حكماء القوم ودا هية من دهاتهم ، أردنا أن نذله فقابل جوهنا بنعليه .

قالوا : ولم يلبث الغزال أن ظفر بإعجاب الإمبراطورة « ثيودورا Theodora » البيزنطية ؛ فقد كان يوماً يجلس مع الإمبراطور ، فدخلت زوجته وعليها زيتتها ، وهى تبدو كالشمس بهاء طلعة ؛ فجعل الغزال يتأملها ولا يميل طرفه عنها ، وجعل الملك يحدثه ، وهو لا يلتفت إلى مايقول ، وإنما هو منصرف بكل كيانه إلى الملكة الجميلة ، فأنكر عليه الملك ذلك ، وطلب من الترجمان أن يسأله عن تصرفه غير اللائق ، فأجاب الغزال قائلاً للترجمان : « عرفه أنى قد بهرنى من حسن هذه الملكة ما قطعنى عن حديثه ؛ فإنى لم أرقط مثلها » وأخذ فى وصفها والتعجب من جمالها . فلما ذكر الترجمان ذلك للملك تزايدت حظوته عنده ، وسرت الملكة بقوله .

وقد أمرت له بهدية فامتنع عن قبولها . ولما طلبت من ترجمانها سؤاله عن سبب الرفض ، أجاب الغزال : إن صلتها بلجزيلة ، وإن الأخذ منها لتشريف . . . ولكن كفانى من الصلة نظرى إليها وإقبالها على . . . فقالت لترجمانها : متى أحبب أن يأتينى زائراً فلا يحجب^(١) .

(١) انظر : المطرب لابن دحية ص ١٤٢-١٤٣ ، والإسلام فى المغرب والأندلس ص ١٠٧-١٠٨ .

وهكذا كسب الغزال، مودة الملكة ، كما اكتسب إعجاب الملك ، وظل على صلة حسنة بها طيلة مقامه بالقسطنطينية .

وقد خلقت تلك الصلة بين الغزال والإمبراطورة « ثيودورا » بعض الشعر الغزلي المزوج بالدعابة .

سألت الإمبراطورة الغزال مرة عن سنه - وكان قد أصبح في حدود الخمسين - فأجاب مداعباً : عشرون سنة ؟ فقالت للترجمان : كيف يكون له هذا الشيب وهو ابن عشرين ، فقال الغزال للترجمان : ألم تر قط مُهراً يولد وهو أشهب ؟ فلما نقلت إجابته إلى الإمبراطورة أعجبت برده . وفي هذا يقول الغزال :

كَلِّفْتَ يا قَلْبِي هوى متعباً	غالبتَ منه الضيفم الأعباء
إني تعلقت مجوسية	تأبى لشمس الحسن أن تغرباً
أقصى بلاد الله لي حيث لا	يلقى إليها ذاهب مذهباً
يا تود ^(١) يا رُودَ الشباب التي	تُطلع من أزرارها الكوكباً
يا بأبي الشخص الذي لا أرى	أحلى على قلبي ولا أعذباً
إن قلت يوماً إن عيني رأيت	مشبهه لم أعد أن أكذباً
قالت : أرى فؤديه ^(٢) قد نوراً	دعابةً توجب أن أدعباً
قلت لها : يا بأبي إنه	قد يُسَّح المهر كذا أشهباً ^(٣)
فاستضحكت عجباً بقولي لها	وإنما قلت لكي تعجباً ^(٤)

(١) جاء هذا الاسم في المطرب (تود) ويؤخذ جاء في النسخ (تود) وهو الأصح ، فاسم الإمبراطورة في الرواية العربية (تود) الذي يمكن أن يكون ذاخياً « تود » كما في النسخة السابقة .

انظر : المطرب ص ١٤٤ ، والنسخ ج ١ ص ٤٤٤ ، الإسلام في المغرب والأندلس ص ١١٣ .

(٢) الفود : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن .

(٣) الشهب والشبية : بياض فيه سواد .

(٤) انظر هذه الأبيات في : المطرب ص ١٤٤ والنسخ ج ١ ص ٤٣ .

وحسنت له يوماً خضاب شعره فقال :

بكرت تحسن لي سواد خضابى
ما الشيب عندى والخضاب لواصل
تخفى قليلاً ثم يقشعها الصبا
لا تنكرى وضح المشيب فإنما
فلدى ما تهوين من شأن الصبا

فكأن ذاك أعادنى لشبابى
إلا كشمس جلت بضباب
فيصير ما سترت به للذهاب
هو زهرة الأفهام والألباب
وطلاوة^(١) الأخلاق والآداب^(٢)

وذكروا أن الإمبراطورة أتت مرة لزيارة الشاعر في القصر الذي أعد لضيافته واصطحبت معها ابنتها الأمير ميشيل ، وكان شاباً يحب الشراب فأحضر معه نبيذاً فنظم الشاعر في ذلك قصيدة يقول فيها :

وأغيدَ لِيَسْنَ الأطراف رخص^(٣)
ترى ماء الشباب بوجنتيه
من أبناء الغطارف^(٤) قيصرى العمومة حين يُنسبُ والخوول
كأنَّ أديمه نصفاً بصف
وربَّما أكرَّرُ فيه طَرْفِي
على قد سوء لا قصير
ولكنْ بين ذلك في اعتدال
يحنُّ إلى مطرفاً لشكلي

كحيل الطرف ذى عتق طويل
يلوح كرونق السيف الصقيل
من الذهب الدلاص أو الوديل^(٥)
فأحسب أنه من عظم فيل
فتحقِّره ولا هو بالطويل
كفصن البان في قرب المسيل
ويكثر لي الزيارة بالأصيل

(١) الطلاوة : الحسن والبهجة والقبول .

(٢) انظر هذه الأبيات في : المطرب ص ١٤٦ .

(٣) الأغيد : الناعم المشئى ، والرخص : اللين .

(٤) الغطارف : جمع غطريف وهو السيد الشريف والسخي السرى .

(٥) الدلاص : البراق . والوديل : جمع وذيلة وهي القطعة من النضة المجلوة .

أتى يوماً إلى بزق خمر
ليشربها معي وبيت عندي
وجاءت أمه معه فكانا
توصيني به وتقول أحنى
فقلت حماقة منى ونوكاً^(٣)
فأية غرة سبحان ربي
شمولِ الریح كالمسك الفتيل^(١)
فيثيت بيننا ود الخليل
كأم الخشف والرشاء^(٢) الكحيل
عليه البرد في الليل الطويل
فدينك لست من أهل الشمول
لو انى كنت من أهل العقول^(٤)

ثم عاد الغزال من رحلته ، ورأى زرياباً يتمتع بنفوذ هائل عند الأمير عبد الرحمن الأوسط في قرطبة والأندلس جميعاً ؛ فهجاه : ووصل ذلك الهجاء إلى مسامع الأمير - وكان كما هو معروف يؤثر زرياباً ويخصه بالعطف - فقرر نقي الغزال . وقد شفع له بعض أهل الخير ، فعفا عنه الأمير ، غير أن الغزال ضاق بالحياة في الأندلس بعد هذا . ورحل إلى المشرق . وهناك التقى بتلاميذ أبي نواس - وكان ذلك بعد موت الشاعر المشرق بقليل - فراع الغزال مارأى من تهوين تلاميذ أبي نواس من شأن شعراء الأندلس ؛ فتركهم حتى أخذوا في الحديث عن أبي نواس ، ثم قال لهم : من يحفظ منكم قوله :
ولما رأيت الشرِّبَ أكدت سماؤهم
تأبَّطت زرقى واحتبستُ عنانى
وذكر لهم أبيات تلك المقطوعة الخمرية الرائعة . فأعجبوا بالشعر كثيراً وذهبوا في مدحه كل مذهب ، معتقدين أنه - كما أوهمهم - شعر أبي نواس .

فلما أفرطوا ، قال لهم : خفضوا عليكم فإنه لى . فأنكروا ذلك . فأنشدهم قصيدته

التي مطلعها :

- (١) الفتيل : كالفتيت .
(٢) الخشف : ولد الظبي . والرشاء ، الظبي إذا قوى وشى مع أمه .
(٣) النوك : الحمق .
(٤) انظر هذه القصيدة في كتاب ليلى بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٠٨ - ١١٠ .
وقد أورد ابن سعيد في المغرب بعض أبياتها ج ٢ ص ٥٨ .

تداركتُ في شرب النبيذ خطأى^(١) وفارقت فيه شيمتى وحيأتى

وهى القصيدة التى منها الأبيات التى حسبوها لأبى نواس . فلما آتمها خجلوا
وافترقوا عنه .

وقد أوردنا هذه النوادر جميعاً لنبرز ملامح شخصية الغزال . وقد تكون بعض هذه
النوادر من نسج خيال القصاصين ، ولكنها مع ذلك تدل على ما عرف به الشاعر من
صفات ، وما اشتهرت به شخصيته من معالم . وهكذا نفهم أن الرجل كان ذكياً
لبقاً . خفيف الظل ، على كثير من السخرية التى تصل أحياناً إلى عدم المبالاة .

وبنى الغزال بالمشرف مدة ، ثم حن إلى الأندلس ، فعاد إلى وطنه ، وقد أقبلع
عن الشراب ومال إلى الزهد وقول الشعر فيه .

وظل كذلك حتى مات سنة ٢٥٥ هـ تقريباً ، فى عهد الأمير محمد ، بعد أن عُمر
وقارب المائة^(٢) .

وشعر الغزال يسير فى الاتجاه المحدث الذى نقله عباس بن ناصح إلى الأندلس .
وقد عرفنا أن الغزال كان فى أيام نشأته الأدبية من المترددين على مجالس ابن ناصح ،
التي كانت تعقد فى قرطبة ويتناشد فيها الشعراء ويتناقدون ، وعرفنا أيضاً أن الغزال
كان فى تلك النشأة الأدبية بصيراً بالشعر حتى لقد انتقد بعض ما كان يقوله ابن ناصح
فى مواجهته .

ويمكن تقسيم حياة الغزال الشعرية إلى ثلاث مراحل : الأولى . مرحلة الشباب

(١) الخطأ ، كالتخطأ : ضد الصواب .

(٢) جاء فى بقية الملتبس وجذوة المقتبس أنه مات سنة ٢٥٠ عن ٩٤ سنة . ولكن الغزال نفسه قد صرح
فى بعض شعره أنه عاش ٩٩ سنة ، فإذا أضفنا هذه السنوات إلى تاريخ ميلاده كانت وفاته سنة ٢٥٥ .
انظر أبيات الغزال النونية التى أولها : « ألت ترى أن الزمان طوائى » .

والترق . وتغلب على شعره في تلك المرحلة موضوعات الخمر والغزل والمجون والفكاهة .
وقد مرت تماذج عديدة من شعر هذه المرحلة المعالج لتلك الموضوعات .

والمرحلة الثانية ، مرحلة الكبر والتعقل ، وتغلب على شعره في تلك المرحلة موضوعات
النقد الاجتماعي والأخلاقي ، الذي ينبىء عن عمق وعى وقوة إدراك لعيوب الناس ونقائص
الحياة ، مما وصل بالشاعر إلى التشبع بروح السخرية وقوة الإحساس بالمرارة ، بل إلى
التشاؤم الذي حال كثيراً بين عيني الرجل وما في الناس والحياة من خير .

ولعل مما يمثل هذه المرحلة من حياة الغزال الشعرية ، قوله في علاقات الناس القائمة -
في نظر الشاعر - على الختل والعداوة وانتهاز الفرص ونيل القوي من الضعيف :

لا ومنَ أعملَ المطايا إليه كلُّ من ترتجى إليه نصيباً
ما أرى ها هنا من الناس إلا نعلباً يطلب الدجاج وذيباً
أو شبيهاً بالقط أتى بعينه إلى فأرة يريد الوثوباً^(١)
وقوله في المرأة وكونها - في رأيه - كالسراج أو الحان أو الثمرة التي تدنولأول آكل :
يا راجياً ودَّ الغواني ضلَّةً ففؤاده كلفاً بهن موكلاً
لا تكلفنَّ بوصلهن فإنما الكلف المحب لهن من لا يعقل
إن النساء لكالسروج حقيقةً فالسرج سرجك ريثما لا تنزل
فإذا نزلت فإن غيرك نازل ذلك المكان وفاعل ما تفعل
أو منزل الجشاز أصبح غادياً عنه وينزل بعده من ينزل
أو كالثمار مباحة أغصانها تدنو لأول من يمرُّ فيأكل^(٢)
وقوله في الذي يوئى أمراً يحتاج إلى أمانة لأنه في ظاهره أمين ، بينما هو ككل الناس -
في رأى الشاعر - معتدٍ خائن مفسد :

(١) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : المطرب لابن دحية ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

يقول لى القاضى معاذٌ مشاوراً وولّى امرأ فيما يرى من ذوى الفضل
فديتك ماذا تحسب المرء صانعاً فقلتُ وماذا يصنع الدُّبُّ بالنحل
يدق خلاياها ويأكل شهدها ويترك للذبان ما كان من فضل^(١)

ثم قوله فى الناس، وانطباعهم جميعاً - فى رأيه - على الإثم ، وغرقهم فى الذنوب ، لا فرق بين واحد وآخر ، إلا أن هذا مفصوح وذاك مستور :

إذا أُخبرتَ عن رجل برىء من الآفات ظاهره صحيحُ
فسلهم عنه : هل هو آدمى ؟ فإن قالوا نعم فالقول ريح
ولكنْ بعضنا أهل استتار وعند الله أجمعنا جريح
ومن إنعام خالقنا علينا بأنّ ذنوبنا ليست تفوح
فلو فاحت لأصبحنا هروباً فرُادى بالفلا ما نستريح
وضاق بكل متحل صلاحاً لِنَسْنِ ذنوبه البلدُ الفسيح^(٢)

وهذه النقذات الاجتماعية والأخلاقية تعتبر من التجديد الموضوعى الذى طرق به الغزال موضوعات جديدة ، لم يتجه إليها الشعراء قبله إلا على سبيل اللمحات العابرة .

أما المرحلة الثالثة ، فهى مرحلة الضعف والزهد . وفى هذه المرحلة تغلب على شعر الغزال موضوعات الشكوى من تقدم السن ، والحديث عن البلى الذى أخذه بدب فى كل شىء منه حتى الاسم ، ثم ذكر الزهد فى الدنيا ومتاعها الفانى ، والموت والقبر والنهاية المحتومة . ومن شعر هذه المرحلة قول الغزال :

ألستَ برى أن الزمان طوانى وبدلَ خَلَقى كلَّه وبرانى
تحسبني عضواً فعصواً فلم يدع سوى اسمى صحيحاً وحده ولسانى

(١) وردت هذه الأبيات فى : قضاة قرطبة ص ٨٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : جنوة المقتبس ص ٤٥٢ . والنسب : ضد الفوح .

ولو كانت الأسماء يدخلها البليّ
ومالٍ لا أبلى لتسعين حجة
إذا عنّ لي شخصٌ تخيلُ دونه
فيا راغباً في العيش إن كنت عاقلاً
وقوله :

أرى أهل اليسار إذا توفوا
أبوا إلا مباهاة وفخراً
رضيتُ بمن تأنق في بناء
ألمأً يبصروا ما خربته الدهورُ
لعمري أبهمُ لو أبصروهم
ولا عُرِف العبيد من الموالى
ولا من كان يلبس ثوب صوف
إذا أكلَ الثرى هذا وهذا
لقد بلى اسمي لامتداد زمانٍ
وسبع أتت من بعدها ستان
شبيهُ ضبابٍ أو شبيه دخان
فلا وعظ إلا دون لحظ عيان^(١)

هذا ، وبرغم سير شعر الغزال في الاتجاه المحدث ، بما اشتهر به هذا الاتجاه من موضوعات ، وبما عرف له من أسلوب ؛ قد كانت لشعر هذا الشاعر الأندلسي خصائص فنية واضحة ، تميزه عن شعر غيره ممن ساروا في هذا الاتجاه من مشاركة وأندلسيين . وأهم تلك الخصائص : الاتجاه إلى القص والحوار ، والميل إلى التحليل والتعليل ، والتشبع بروح السخرية والتقد ، وإبراد الفكرة المبتكرة والصورة الجديدة من حين إلى حين ، واتساح النظرة الحكيمة واللمحة الفلسفية ؛ مما لا يُعرف كثيراً في شعر الأندلسيين .

(١) وردت هذه الأبيات في : المطرب ص ١٥٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : فنج الطيب ج ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

وقد سبقت نماذج من شعر الغزال تؤكد اتجاهه إلى القص والحوار ، كأبياته في وصف الرحلة البحرية وما كان فيها من هياج للبحر ، وكبعض قطعه التي صور بها ما كان بينه وبين الإمبراطورة البيزنطية . ولم تكن طبيعة تلك الموضوعات المشتملة على أحداث ، هي التي فرضت على الشاعر هذا الاتجاه القصصي ؛ وإنما كان اتجاه الشاعر وميله إلى طريقة القص حتى في الموضوعات التي لا تفرض هذه الطريقة . ومن ذلك أبيات له يعالج فيها مشكلة زواج الفتاة من شيخ غني أو شاب فقير ، وفيها يقول الغزال بأسلوبه القصصي :

وخبرها أبوها بين شيخ كثير المال أو حدث فقير
فقال حُطُّتَا خسف وما إن أرى من خطوة للمستخير
ولكن إن عزمتُ فكل شيء أحبُّ إلىَّ من وجه الكبير
لأن المرء بعد الفقر يُتْرَى وهذا لا يعود إلى صغير^(١)

بل إن الغزال يؤثر هذا الأسلوب القصصي حتى في بعض الهجاء ، ومن ذلك قوله فيمن اسمه أبو حازم :

سألتُ في النوم أبي آدمًا فقلت والقلب به وامقُ
ابنك بالله أبو حازم ؟ صلى عليك الملكُ والحائقُ
فقال لي : إن كان مني وبين نسلِي ، فحواً أمكم طالق^(٢)

ومن لمحات الغزال الحكمية وصوره الجديدة - غير ماتضمنته النماذج السابقة - قوله :

قالت أجكَ قلتُ كاذبةٌ غُرِّيَ بدا من ليس ينتقدُ

(١) وردت هذه الأبيات في : جذوة المقتبس ص ٣٥٢ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ٤٤٢ .

هذا كلام لست أقبله الشيخ ليس يجبه أحدٌ
سيان قولك ذا وقولك إنَّ الريح نعقدها فتنعقدُ
أو أن تقول النار باردة أو أن تقول الماء يتقد^(١)

فقوله : « الشيخ ليس يجبه أحد » لمحة حكيمية فيها صدق التجربة وبساطة التعبير .
وقوله : « الريح نعقدها فتنعقد » صورة فيها الابتكار والدقة وتحليق الخيال .

ومن هذه الصورة المبتكرة الدقيقة كذلك قوله :

ولو كانت الأسماء بدخلها اليلَى لقد بلى اسمى لامتداد زمانى

فتسرب اليلى إلى الاسم ، صورة فريدة لانعرف أحداً سبق بها هذا الشاعر الأندلسى

المحقق .

وفى مثل هذه الصورة الجديدة والأفكار المبتكرة - بالإضافة إلى إثارة أسلوب
القصص - يرى بوضوح اتجاه الغزال كأكثر الشعراء الأندلسيين ، إلى التجويد الفنى .
ولسنا بعد فى حاجة إلى إيراد أمثلة جديدة على شيوع روح السخرية فى شعر الغزال ؛
فكل شعره مشبع بتلك الروح ، التى سيطرت على الرجل فى كل مراحل حياته تقريباً ،
وإن أخذت مظاهر مختلفة تبعاً لمراحل عمر الرجل المديد ؛ إذ كانت فى أول مرحلة تأخذ
مظهر الاستخفاف والتظرف ، وفى ثانى مرحلة تأخذ مظهر المرارة والنقد ، وفى ثالث مرحلة
تأخذ مظهر الاشتمزاز والزهة .

وأخيراً قد خلّف الغزال شعراً كثيراً جمعه ديواناً ورتبه فى الفترة التالية ، شاعرٌ
يسمى حبيب بن أحمد الشطجبرى^(٢) . ولكن هذا الديوان قد ضاع فيما ضاع

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٤٤٣ .

(٢) انظر : مجلة المقتبس ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٥٢ .

من تراث الأندلس ، ولم يبق من شعر هذا الشاعر الأندلسي الكبير إلا بعض قصائد ومقطوعات متناثرة في الكتب التي ترجمت له ، أو عرضت لذكره ، أولشئ من شعره بمناسبة تاريخية أو أدبية (١) .

والذي يدل عليه هذا الباقي من شعر الغزال ، أنه كان من ألمع شعراء فترة صراع الإمارة ، بل كان من أكبر شعراء الأندلس في كل الفترات ؛ وذلك لأصالته الشعرية ، وخصائصه الفنية ، وسبقه إلى موضوعات النقد الاجتماعي والأخلاقي ، واتضح بعض النظرات الحكمية والمسحات الفلسفية عنده ، وتصوير شعره لعصره وحياته إلى حد كبير .

سعيد بن جودي (٢) :

هو سعيد بن سليمان بن جودي السعدي . يتصل نسبه بأسرة تعرف بالرياسة وتنحدر من قبيلة هوازن . ولسنا نعرف شيئاً عن مولده ونشأته الأولى ، ولكننا نعرف أنه شب على الفروسية والميل إلى الأدب . وكان من زعماء العروبة في غرناطة ، أثناء الحركة العنصرية التي كانت بين العرب والمولدين في عهد الأمير عبد الله . وقد كان سعيد أولاً من أعوان الزعيم سوار ، الذي كان على رأس العرب في غرناطة . وخاض ابن جودي بعض المعارك ضد ابن حفصون حتى وقع مرة في الأسر وسجن حيناً . ولكنه تمكن من الخلاص ، وواصل الكفاح ضد مناوئهم . فلما قُتل سوار ، اختار العرب سعيداً زعيماً لهم ، وخطبوا الأمير عبد الله يسألونه الموافقة على رياسة سعيد لهم فوافق . وكان سعيد شجاعاً متحمساً ، فأعلى كلمة الغرناطيين من ذوى الأصول العربية ، وناصرهم على أعدائهم المولدين ، وحارب ابن حفصون وأحرز عليه انتصارات ، حتى هابه هذا

(١) انظر المراجع الواردة في هامش أول الحديث عن الغزال . وانظر المقدم الفريد لابن عبد ربه والبيان المغرب لابن عذارى .

(٢) انظر ترجمته وبعض شعره وأخباره في : المقتبس لابن حيان ، الجزء الذي نشره مشور أنطونيا ، ص ٢٩ وما بعدها .

المتنرد الذى لم يهب حكومة قرطبة ، وحتى أصبح سيف العروبة والإسلام المسلول على الأعداء والمناوئين فى هذه المنطقة من جنوب الأندلس .

وقد افتتن أعوان سعيد بزعيمهم ، حتى عدوا له خصالاً ، قالوا إنها لم تجتمع لسواه ؛ وتلك الخصال هى : الجود والشجاعة والفروسية والشعر والخطابة والشدة والطعن والرماية . غير أنهم كانوا يأخذون عليه ولعه بالنساء . ولعل ذلك مما يكمل صورته كفارس .

وقد خلف سعيد بن جودى شعراً يصوره محارباً قوياً شديداً البأس فى الحرب ، ويمثله مجباً لين العريكة فى الحب . أى أن شعره يصوره كفارس بالمعنى التقليدى للفارس .

فمما يصور قوته وشدة بأسه ، قوله :

الدرع قد صارت شعارى فما	أبسٹ حاشاها لتهجاعى
والسيف إن قصّره صانع	طوّلّه يومَ الوغى باعى
وما كُمتى لى بمستقصر	إذا دعانى للقا داعى
هذا الذى أسعى له جاهداً	كل امرئ فى شأنه ساعى ^(١)

ومن ذلك الضرب أيضاً ، قوله وهو فى أسرابن حفصون :

خليلٌ صبراً راحة الحرّ فى الصبر	ولا شىء مثل الصبر فى الكرب للحر
فلا تياساً من فرحة بعد ترحة	وأن تنعما باليسر من بعد ما عسر
فكم من أسير كان فى القيد موثقاً	فأطلقه الرحمتن من حلق الأسر
لئن كنتُ مأخوذاً أسيراً وكتمتا	فليس على حرب ولكن على غدر
ولو كنت أخشى بعض ما قد أصابنى	حمتنى أطراف الردينية السمر

(١) انظر هذه الأبيات فى : المقتبس لابن حيان ص ١٢٤ .

فقد علمَ الفرسانُ أني كميها
 فيا ظانعاً أبلغ سلامي تحيةً
 وأدّ إلى عُرسي السلامِ وقل لها
 بهمك أني خالتي يومِ موقفي
 وإن لم يكن قبرٌ فأحسنُ موطنًا
 وفارسها المقدام في ساعة الذعر
 إلى والديّ الهاشمين لدى ذكرى
 عليك تحياتي إلى موقف الحشر
 وكربك أمضي لي من القتل والأسر
 من القبر للفتيان حوصلة النسر^(١)

أما شعره الذي يصور ضعفه في حبه ولين عريكته في معارك الغرام ، فمنه قوله في مطربة اسمها جيحان ، كان قد سمعها فهم بها دون أن يراها :

سَمِعِي أبتى أن يكونَ الروحُ في بدني
 أعطيتُ جيحانَ رُوحِي عن تذكُّرها
 فقل لجيحانَ : يا رُوحِي ويا أُمِّي
 كأنني واسمها والدمعُ منكسبٌ
 فاعتاضَ قلبيّ منه لوعةَ الحزنِ
 هذا ، ولم أرَها يوماً ولم تترّني
 استوصِ خيراً بروحِ زالٍ عن بدني
 من مقلتي ، راهبٌ صلى إلى وثني^(٢)

ومن ذلك أيضاً قوله في جاريةٍ عرضت عنه ورمت بطرفها إلى الأرض خجلاً :
 أماتلةَ الأُلحاطِ عنّا إلى الأرضِ
 فإن كان بغضاً لستُ واللهِ أهله
 وما يصور شخصيته بجانبها قوله :

لا شيءَ أملحُ من ساقِ علي عتقِ
 ومن مُواصلةٍ من بعدِ معتبةٍ
 جريّتُ جِرمي جَموحِ في الصبا طلقا
 ومن تناقلِ كاساتِ علي طبقِ
 ومن مُراسلةِ الأحبابِ بالحدّيقِ
 وما خرجتُ لصرْفِ الدمرِ في مَلقِ

(١) انظر هذه الأبيات في : المقتبس لابن حيان ص ١٢٩ .

(٢) انظر هذه الأبيات في المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٣) انظر هذه الأبيات في : المقتبس ص ١٢٥ .

ولا انثنيثُ لداعى الموت يومِ وعسى كما انثنيثُ وحبيلُ الحب في عُنقِ (١)

وقد انتهت حياة سعيد بن جودي نهاية محزنة ؛ حيث قتله بعض حاسديه غدراً سنة ٥٢٨٤ هـ . ولكيلا يؤخذوا بجريمة قتله ، ادعوا أنه تحدى أمير قرطبة عبد الله بن محمد ، وادعوا أنه قال فيه هذه الأبيات :

قلْ لعبد الله يجددُ في الهربِ نَسَجَمُ النَّائِرُ من وادى القصبِ
يا بني مروانَ خلكوا ملكتنا إنما الملك لأبناء العربِ
قربوا الوَرْدُ (٢) المحلى بالذهب واسرجوه إنَّ نجمي قد غلب (٣)

هذا شعر ابن جودي يسير في الاتجاه المحافظ ؛ فهو في موضوعاته يكاد ينحصر في الفخر والحماسة والغزل ، وهو في أسلوبه يميل إلى الأسلوب التقليدي في الشكل والمضمون جميعاً . ويميل هذا الشاعر إلى ذلك الاتجاه له ما يفسره من نشأته وطبيعته وسائر ظروفه ؛ فالرجل - كما عرفنا - قد نشأ على التعصب للعروبة . وعاش زعيماً من زعمائها ، وفارساً من فرسانها ، وكان في أيامها من أبرز المنافحين عن أمجادها ؛ وكل هذا كان يربطه بالمحافظة على القديم ، ويشده إلى ماضي العرب في كل شيء ، ومن هنا جاء ميله إلى الاتجاه الشعري المحافظ .

ومع تلك المحافظة في شعر سعيد بن جودي تتضح لفنه سماته ، وتظهر في شعره شخصيته . فهو يميل إلى الغنائية المرهفة ؛ فيؤثر المقطوعات ، ويختار الألفاظ ، ويصقل التراكيب . ويملاً حنايا شعره بالعاطفة ، حتى لئرى كل ما بين أيدينا من شعره يصلح للتلحين والغناء ، ويكاد يرمم به قارئة ويغنيه منشدته .

(١) انظر هذه الأبيات في المصدر السابق ص ١٢٥ .

(٢) الوريد من الخليل ، ما بين الكيت والأشقر .

(٣) انظر هذه الأبيات في المقتبس ص ٣٠ .

ثانياً : النثر :

يمكن القول بأن النثر في فترة صراع الإمارة قد نال تقدماً وأصاب تطوراً . أما تقدمه فيتضح في تلك الكثرة من الأدباء الناثرين الذين ازدحمت بهم تلك الفترة ، والذين حفظت أسماء كثير منهم كتب التاريخ والتراجم ، حتى لقد عُد لكل أمير من أمراء تلك الفترة عدد من الكتاب أقله اثنان^(١) . فكان من كتاب الأمير عبد الرحمن الأوسط : عبد الكريم بن عبد الواحد ، وسفيان بن عبد ربه ، وعيسى بن شهيد . وكان من كتاب الأمير عبد الله بن محمد : عبد الله بن محمد الرجالي ، وعبد الله بن محمد بن أبي عبده وموسى بن زياد^(٢) .

بل إن الاشتغال بالكتابة لم يعد وقفاً على هؤلاء المسلمين ذوى الأبوة العربية ، ولكنه تعداهم إلى بعض المسيحيين ذوى الأصول الإسبانية ، مثل « قومس بن أنتنيا » الذي عمل حيناً في الكتابة للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، واضطر أخيراً إلى الإسلام حتى ينسجم وضعه ككتاب للأمير الأندلسي المسلم^(٣) .

أما تطور النثر في تلك الفترة ، فأهم مظاهره تأثره أولاً بأسلوب عبد الحميد بن يحيى الكاتب المشرقي ، الذي لمع في أواخر العصر الأموي والذي كان أول من أطال الرسائل وأكثر من التحميدات . ثم تأثره ثانياً بأسلوب الجاحظ الذي تألق في العصر العباسي وكان صاحب مدرسة أسلوبية متميزة ، كان من أهم سماتها : الميل إلى الجمل القصار ، وإجادة استخدام حروف الجر متتابعة متغايرة في دقة وحسن استعمال ، ثم أداء المعنى

(١) راجع : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ١٢١ ، ١٤١ ، ١٧٠ ، ١٧٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر : تاريخ افتتاح الأندلس لابن الفوطي ص ٨٢ ، ٨٣ .

الواحد بعدة جمل ، تبدو في الظاهر تكراراً ، ولكنها في الواقع تجسيم للمعنى وتفنن في إبرازه (١) .

وليس هذا التطور في النثر الأندلسي خلال فترة صراع الإمارة بصعب التفسير ؛ بعد أن عرفنا ما كان لتلك الفترة من وثبة ثقافية ، من شأنها أن تثب بالأدب ، وبعد أن عرفنا ما كان في تلك الفترة أيضاً من نقل الكثير من آثار الأدباء المشاركة إلى الأندلس ، على يد أبي اليسر الرياضي وغيره (٢) .

وقد كان الجاحظ بخاصة ذا شهرة لدى الأندلسيين في تلك الفترة ، وقد وصلت بعض كتبه إليهم في حياته ، ككتاب التريبع والتدوير ، وكتاب البيان والتبيين . كما كان يقصده بعض الأندلسيين للتلمذة عليه ؛ حتى لقد امتدت تلمذة بعضهم عليه عشرين سنة (٣) .

وبعد فهذه نماذج من نثر فترة صراع الإمارة ، نوردها لتبين عليها ما تقدم من أحكام . فمن الخطب خطبة ألفاها الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بعد أن تم دفن والده الحكيم الربضي ، وبعد أن خلفه الأوسط في الإمارة . وفي تلك الخطبة لاتخني تأثيرات عبد الحميد ؛ فهي ذات مقدمة مسهبة وتحميد مطنب . قال عبد الرحمن : « الحمد لله الذي جعل الموت حتماً من قضائه ، وعزماً من أمره ، وأجرى الأمور على مشيئته ؛ فاستأثر بالملكوت والبقاء ، وأذل خلقه فما [لهم نجاة من] الفناء (٤) تبارك اسمه ، وتعالى جلده . وصلى الله على نبيه ورسوله وسلم تسليمًا . وكان مصابنا

(١) اقرأ الرسالتين الواردتين في آخر هذا الحديث وأولاهما قد وجهها الأمير محمد إلى عبد الملك بن أمية ،

وثانيتها قد كتبها وليد بن عبد الرحمن بن غانم إلى الأمير المذكور .

(٢) انظر الفقرة الخاصة بثبوة الثقافة في أول هذا الفصل .

(٣) انظر : معجم الأدباء ج ١٦ ص ١٠٤ .

(٤) في الأصل : فا الفناء . وقد أضيف ما يتضح به المعنى ، ويتفق مع السياق .

بالإمام رحمه الله ، مما جلت به المصيبة ، وعظمت به الرزية ، فعند الله نحتسبه ، وإياه نسأل لإلهام الصبر ، وإليه نرغب في كمال الأجر والذخر. و [قد] عهد إلينا فيكم بما فيه صلاح أحوالكم ، ولسنا ممن يخالف عهدَه ، بل لكم لدينا المزيد إن شاء الله^(١).

ومن الرسائل رسالة بعث بها الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، إلى عبد الملك ابن أمية ، وكان قد اختاره الأمير كاتباً له . وفي تلك الرسالة يظهر تأثير الجاحظ ؛ ففيها تفنن في استخدام حروف الجر ، وإيرادها في تقابل بارع . وفيها كذلك تلك الجملة القصار المتتابعة في غير تكرار أو إملال . يقول الأمير محمد في رسالته : «قد فهمنا عنك ، ولم ذات ما أتينا عن جهل بك ، لكن اصطناعاً لك ، وعائدة عليك . وقد أبحنا لك الاستعانة بأهل اليقظة من الكتاب ، فتخير منهم من تثق به وتعتمد عليه . ونحن نعينك على أمرك بتفقد كتبنا والإصلاح عليك ، إلى أن تركب الطريقة ، وتبصر الخدمة ، إن شاء الله تعالى »^(٢).

ومن الرسائل كذلك ، رسالة لوليد بن عبد الرحمن بن غانم ، بعث بها إلى الأمير محمد يطلب منه - في صورة مستورة - أن يقربه ويسند إليه بعض المناصب الكبيرة . وفي تلك الرسالة يقول وليد : «عظمت نعمة الأمير - أبقاه الله - عن الشكر ، وجلت أياديه عن النشر ، فمضى رمى شكر أدنى ما غمرني ، وحمد أيسر ما اشتغل على ، تكاءدني^(٣) الشكر ، وعجز بي الجهد . ولست بمؤمل مع ذلك عن الاستفراغ في القول ، والاجتهاد في العمل ، إذ لم أرهما يدوران إلا على نعمة أزلقت ، ويقتصران إلا على زيادة انتظرت . وأنا بهما نحيم ، وعليهما معول . والله الناقل لعباده ، بطاعتهم له ،

(١) اقرأ هذه الخطبة في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٣٥ .

(٢) انظر هذه الرسالة في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ .

(٣) تكاءدني : شق على .

وشكرهم أباديه ، من دار الشقوة إلى دار السعادة ، ومن نصّب العاجلة إلى راحة الآجلة « (١) ومن التوقعات ، وما رد به الأمير على الرسالة السابقة ، حيث كتب : « إن الله شاكر يحب الشاكرين . وقد ناديت فأسمعت . ولكل أجل كتاب » (٢) .

ومن المحاورات ، ما كان بين الأمير عبد الله ومولى من مواليه ، حيث اعتذر المولى عن خطأ كان منه ، فقال له الأمير : « إن مخائل الأمور لتدل على خلاف قولك ، وتنبئ عن باطل تنصلك ، ولو أقررت بذنبك ، واستغفرت لجرمك ، لكان أجمل بك ، وأسدل لستر العفو عليك » . فقال المولى : « قد اشمئ الذنب على » ، وحاق الخطاء بي ، وإنما أنا بشر ، وما يقوم لي عذر » . فقال الأمير : « مهلا عليك ريداً بك . تقدمت لك خدمة ، وتأخرت لك توبة ، وما للذنب بينهما مدخل . وقد وسعك الغفران » (٣) . وليس يخفى ما في هذه النماذج جميعاً من السمات المحدثة ، التي لم تكن تبدو في نماذج الفترتين السابقتين ؛ فهنا نرى مراعاة لقيم جمالية ، وقصداً إلى محسنات أسلوبية ؛ تبدو حينئذ في التقابل بين الكلمات والجمل ، وحينئذ في الازدواج بين الألفاظ والتراكيب ، كما تبدو أحياناً في هذا السجع المقبول غير المتكلف ، والتعبير المصقول غير المرتجل . هذا بالإضافة إلى كثرة التحميدات والجمل الدعائية والعناية بالمقدمات ، وما إلى ذلك مما أدخله على النثر العربي أدباء متأثرون بأداب غير عربية

وهكذا لم يعد النثر الأندلسي في تلك الفترة كما كان قبل ذلك نثراً بسيطاً ذا سمات عربية خالصة ، وإنما أصبح نثراً فنياً تتضح فيه تلك المؤثرات التي أصابت مصدره الأصلي في المشرق ، حين اتصل النثر هناك بتقاليد فنية أجنبية ، أهمها التقاليد الفارسية . على أن النثر الأندلسي برغم تقدمه وتطوره في تلك الفترة ، قد ظل مقصوراً على هذا النوع الخالص ، ولم يتعد ذلك إلى النوع التأليفي الذي سيظهر في الفترة التالية .

(١) اقرأ هذه الرسالة في : أخبار مجموعة ص ١٤٨ .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) اقرأ هذه المحاورات وسببها في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٣٠ .

الفصل الرابع

فترة الخِلافة

١ - العهد الذهبي للحكم الأندلسي :

تعود المؤرخون أن يجعلوا فترة الخلافة الأموية بالأندلس تبدأ باتخاذ عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة الناصر لدين الله ، سنة ٣١٦ هـ (٩٢٩ م) وتنتهي بسقوط آخر أموي في قرطبة ، وقيام ابن جهور بالأمر سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) . وقد يكون المؤرخون على حق من الناحية الشكلية ؛ فهم يعنون بما هو رسمي ، والرسميات توجب ذلك فعلا ؛ لأن حاكم الأندلس قد لقب بالخليفة منذ تلك السنة التي حددوا ، ولأن الخلافة انتهت تماماً في التاريخ الذي ذكروا . غير أننا لانؤمن بالشكليات في الدرس الأدبي ، ولا تأخذ بالرسميات أيضاً في هذا الدرس ، وإنما نعني فقط بما هو حقيقي ؛ لأنه هو الذي ينتظر منه تأثير في الأدب . ومن هنا نعتبر فترة الخلافة الحقيقية ، هي فترة عبد الرحمن الثالث ^(١) وابنه الحكم الثاني ^(٢) . أما ما تلا ذلك من زمن حتى قيام ابن جهور بالأمر في قرطبة فلم يكن للخلافة الأموية فيه إلا الاسم . على أن بعض هذا الزمن ، قد خلا تماماً من أي خليفة ، وكان الأمر فيه لآخرين كما سنبين ذلك في موضعه .

وإذن فالخلافة الحقيقية تتمثل في ذلك العهد الذي كان حاكم الأندلس حقيقة خليفة . وهذا العهد لا يعدو أيام عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني . والحق أن الأندلس شهدت في تلك الأيام عهد حكمها الذهبي ؛ فهي لم تعرف قوة نفوذ ، ولا هيبة حكومة . ولا عظمة حاكم ، كما عرفت في تلك الفترة . وكان ذلك أولاً بفضل عبد الرحمن الثالث الذي فعل الكثير من أجل خلافة أندلسية عظيمة ؛ ثم ابنه الحكم الثاني ، الذي سار على سنة أبيه في تدعيم هذه الخلافة .

(١) حكم من سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ هـ (٩١٢ إلى ٩٦١ م) .

(٢) حكم من سنة ٣٥٠ إلى ٣٦٦ هـ (٩٦١ إلى ٩٧٦ م) .

وقد تولى عبد الرحمن الثالث ^(١) أمر الأندلس بعد موت جده الأمير عبد الله سنة ٨٣٠٠ م (٩١٢ م) ، في ظروف كلها قسوة وكلها أخطار ، إذ كانت البلاد في عهد الأمير عبد الله ، نهياً للطامحين والطماعين من عرب وبربر وإسبان ؛ حتى أصبح كثير من أقاليمها مستقلاً عن إمارة قرطبة أو كالمستقبل عنها . هذا بالإضافة إلى الثورات الداخلية والتهديدات الخارجية ، مما أوشك أن يذهب بالإمارة الأموية وربما بالحكم الإسلامي أيضاً .

تولى عبد الرحمن الثالث في تلك الظروف العصيبة ؛ وكان ابن اثنين وعشرين ربيعاً تقريباً ، فاستن سياسة الحزم والقوة والتضحية . وراح يتغلب على الأخطار العديدة في جرأة وذكاء .

وقد بدأ عبد الرحمن بالخارجيين والناشرين داخل الأندلس فأخضعهم واحداً بعد الآخر ، وساعده الحظ بموت بعض هؤلاء الخارجيين ، كابن حجاج المستقل بإشبيلية ، وابن جودي المستقل بقرنطة ؛ فقد ماتا قبيل تولى عبد الرحمن أمر الأندلس .

وهكذا لم تمض إلا سنوات ، حتى عادت أكثر أقاليم الأندلس موحدة تحت إمرة هذا الفتي الأموي القوي . غير أن إقليمين قد تأخرا بعض الوقت في الخضوع لعبد الرحمن . وهما ؛ إقليم بيشتر الذي كان يسيطر عليه ابن حفصون ، وإقليم طليطلة الذي عرف بالثورات وكثرة الحروب . أما الإقليم الأول فقد تم إخضاعه تدريجياً ، إلى أن كانت السيطرة عليه آخر الأمر . فبعد موت ابن حفصون سنة ٩١٧ م دخل ابنه

(١) انظر في ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٣٤ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٣٧ وما بعدها .

وأخبار مجموعة ص ١٥٣ وما بعدها .

حفص في طاعة عبد الرحمن ، وظل آخرون من أبنائه على العصيان حينئذ ؛ ثم ما لبثوا أن هزموا وسقط حصنهم سنة ٩٢٨ م . وأما الإقليم الثاني - طليطلة - فقد شدد عبد الرحمن الحصار عليه ، وظل على هذا الحصار سنتين ؛ حتى لقد أقام على الجبل القريب من طليطلة حصناً سماه مدينة الفتح ، ليكون الحصار دائماً حتى تستسلم . وفعلاً استسلمت المدينة العنيدة الثائرة ، بعد أن أعيت ثورتها كثيراً من الأمراء قبل عبد الرحمن . هذا في داخل الأندلس ؛ أما في خارجها ، فقد كان في مواجهة الناصر خطران عظيمين ، أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب . أما في الشمال فقد كان المسيحيون قد تقووا ، وصارت لهم بعض ممالك تهاجم الدول الإسلامية وتحرز عليها انتصارات ، وتجر على المسلمين كثيراً من الشر . وكانت مملكة ليون Leon ومملكة نافارا Navarra تمثلان هذا الخطر الشمالي .

أما في الجنوب فقد كانت الدولة الفاطمية الناشئة قد مكنت لنفسها في شمال أفريقيا ، وأقامت دولة قوية عاصمتها القيروان . وقد سارت جيوش الدولة الفاطمية غرباً ، واستولت على الشاطيء الإفريقي المقابل للأندلس ، وطردت الحكام المواليين لعبد الرحمن الناصر ، وأصبحت الأندلس مهددة بالخطر الفاطمي .

لكن هذا البطل الأندلسي لم يكن في سياسته الخارجية بأقل منه في سياسته الداخلية ، ولم تكن حملاته خارج الأندلس بأضعف من حملاته في داخلها ، فقد جرد الجيوش لتأديب المسيحيين الشماليين ومن انضم إليهم من الأندلسيين الخارجين . وهذه الحملات وإن أبحق أفلها ، فقد نجح أكثرها ، وأحرز عبد الرحمن بها انتصارات عظيمة . وقد كان يقود تلك الحملات بنفسه ، فملاً قلوب أعدائه رهبة ، وأفعم جنده ورعاياه إجلالاً ومحبة .

وقد بلغ من انتصار عبد الرحمن على نصارى الشمال ، أن تعهد له بعضهم بدفع

الجزية (١) ، واستعان به بعض آخر على تولي عرش مملكته (٢) ، كما سعوا إليه يقدمون بين يديه في قرطبة الولاء والخضوع .

وأما الخطر الفاطمي ، فقد عمل الناصر على رده بكل ما أوتي من ذكاء وأيد . فسمى الأسطول الأندلسي ، وجعله يراقب الشواطئ التي أخضعها الفاطميون ، ويحمي من عدوانهم شواطئ الأندلس . كما أرسل جيشاً كبيراً لاسترداد ما استولى عليه الفاطميون في العدة الإفريقية . واستطاع قواده أن يستردوا المغرب من فاس إلى المحيط ، وأن يعيدوا إلى الشاطئ الإفريقي النفوذ السياسي الأندلسي .

وبهذا استطاع عبد الرحمن أن يؤمن الأندلس من الخارج كما وحدها في الداخل ، وأن يوسع رقعة الدولة الأندلسية ، ويبسط نفوذها ، ويقم في قرطبة أعظم حكومة عرفتها الأندلس في عهدها المديد .

وقد عرفت الدول الأخرى قوة الخلافة القرطبية ، فسعت السفارات من ملوكها إلى الخليفة الأندلسي . وكان من أشهر تلك السفارات ، سفارة ملك الروم التي استقبلها الخليفة في قصر الزهراء ، كما استقبل به ملوك ليون وناغاراً في عظمة وجلال .

وهكذا استحق عبد الرحمن الثالث لقب الخليفة ، الذي أمر أن يخاطب به بعد انتصاراته الباهرة ، وبعد أن أصبح فعلاً أقوى حكام الإسلام في ذلك الحين . ثم مات الخليفة العظيم سنة ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) وخلفه ابنه الحكم الثاني (٣) ،

(١) مثل (توتيا Tota) الوصية على عرش ناغاراً ، ويسمى العرب طوطة .

(٢) مثل (سانشو) Sancho ملك ليون . ويسمى العرب : سانجة بالسين وشانجة بالشين .

(٣) انظر في ترجمته وأعماله وعصره :

البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٨ وما بعدها .

وكتاب العبر لابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ وما بعدها .

الذى على الرغم من عنايته البالغة بالكتب وجمعها ودرسها والتعليق عليها ، وعلى الرغم من كلفه بالفنون والآداب ، وميله إلى العلوم والفلسفات ، كان لا يقصر في المحافظة على هيئة الدولة السياسية وعظمتها الحربية .

وقد ظن به بعض ملوك المسيحيين ضعفاً أول الأمر . فحاول ملكا ليون ونافاراً أن ينكثا بالعهد الذى أعطياها للناصر ، ورفضاً لتسليم حصون كانا قد تعهدا بتسليمها للخليفة الراحل ، وانضم إليهما أمير قشتالة Castilla ، بل أغاروا على حدود الدولة الإسلامية . فأمر الحكم قواده بتعبئة الجيوش ، ثم قاد الجند بنفسه ، وضرب « فرلند » Fernand أمير قشتالة المعتدى ضربة ساحقة ، اضطرته إلى الفرار ، ثم عاد الحكم إلى قرطبة بعد أن لقن أعداءه درساً قاسياً .

وفى قرطبة وفد عليه الأمير « أردون » Ordono الذى كان قد خلعه « سانجة » Sancho وخلفه فى ملك ليون ، بفضل مؤازرة عبد الرحمن الناصر . وعرض « أردون » على الحكم الخضوع والولاء ، ورجاه المساعدة فى إعادته إلى عرشه بعد أن نكث « سانجة » بالعهد الذى كان قطعه للخليفة الأندلسى . وقد جهز الحكم جيشاً لإعادة « أردون » إلى عرشه انتقاماً من ملك ليون الناكث بالعهد ، ولكن هذا الملك أسرع بإرسال وفد من نبلاء بلاده وكبار أساقفتها إلى الخليفة ، ليؤكد له العزم على الوفاء بالعهد ، والتمسك بكل ما كان بينه وبين الناصر من التزامات . فأعرض الحكم عن تأييد « أردون » الذى مالبت أن مات بعد قليل .

ولكن موته شجع ملك ليون على النكث مرة أخرى ، فتجددت الحرب بين الحكم وبين هذا الملك ، ولم يقصر الحكم حربه على ملك ليون ، بل حارب كذلك ملك نافاراً وملك قشتالة ، وأخذهم الواحد بعد الآخر ، حتى اضطرتهم جميعاً إلى الخضوع وقبول ما أراد من شروط للسلم . وبهذا هدمت الحصون القريبة من حصون

المسلمين ، وتعهد الملوك المسيحيون ألا يساعدوا ثواراً وألا يتحالفوا مع خارجيين ،
وألا يعودوا لمحاربة الخليفة .

وهكذا أمن الحكم مسيحي الشمال ، وفرض هيئته وهيبته الدولة الإسلامية على تلك
الأقاليم ، تماماً كما فعل أبوه الناصر من قبل .

أما الفاطميون ، فلم يعودوا في أيام الحكم مصدر خطر على الأندلس ؛ فقد فتحوا
مصر ، وأسسوا القاهرة سنة ٩٦٩ م ، وانتقل إليها المعز لدين الله سنة ٩٧٢ م ، فشغلوا
بذلك عن الأندلس .

غير أن المعز كان قد ترك نائباً عنه على إفريقية والمغرب ، وكان الأدراسة قد
دخلوا في طاعة الفاطميين ؛ فأخذ أعوان الفاطميين يناوشون الأمراء المغاربة المواليين
لحكومة الأندلس . فأرسل الحكم جيشاً إلى المغرب سنة ٩٧٢ م ، استطاع أن
يحرز نصراً كبيراً على الأدراسة . وعاد إلى قرطبة سنة ٩٧٤ م ومعه أمراء الأدراسة أسرى .

وظلت الأندلس حتى وفاة الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) دولة قوية
مهيبة ، شاسعة الرقعة موحدة الأقاليم ، مؤمنة الحدود ، كما كانت في عهد عبد الرحمن
الناصر ، واستحقت تلك الفترة التي سعدت بحكم الناصر والمستنصر أن تسمى بالعهد
الذهبي للحكم الأندلسي .

٢ - الأندلسيون في ظلال الرهاية :

لم يعرف المجتمع الأندلسي وحدة كالتى عرفها في فترة الخلافة ؛ فقد كان منذ
الفتح بين عوامل للتجميع وأخرى للتفريق ؛ حتى كانت الفترة السابقة للخلافة — وهى
فترة الأمير عبد الله — فوقت الفرقة الرهية التى أوشكت أن تفصم عرى الوحدة بين
أبناء الأندلس جميعاً . وكان من مظاهر تلك الفرقة ، أن عاد العرب يتكتلون ، وانقلب

الإسبان يتجمعون ، ورجع البربر ينفصلون ، وبرزت زعامات لهؤلاء وهؤلاء ، تؤيد الفرقة وتدعى نار العنصرية ، لترى هي آخر الأمر الرياسة والسيطرة .

ولكن الحال تبدل في عهد الخلافة ، فقد استطاع عبد الرحمن الثالث أن يعيد إلى الشعب الأندلسي وحدته ، ففضى على الزعامات العربية التي كان يتكفل وراءها من يتمون إلى العرب من أبناء الأندلس ، وقضى كذلك على الزعامات الإسبانية التي كانت معقد أمل الخارجين على النظام من مسلمي الإسبان المعروفين بالمولدين . كذلك أراح الأندلس من الزعامات البربرية التي كانت تثور بسكان الأندلس من أهل شمال إفريقيا ، وتستقل ببعض الأقاليم الأندلسية .

وهكذا رأت العناصر المكونة للشعب الأندلسي أن الخير كل الخير في ترك العنصرية جانباً ، فاندمجوا في المجتمع الأندلسي الكبير اندماجاً توحد معه هذا المجتمع وامتزجت عناصره ، واختفت منه - أو كادت - تلك العنصرية المختلفة ، من عربية وإسبانية وبربرية ، وبرزت بصورة واضحة قومية موحدة مؤتلفة هي القومية الأندلسية .

وقد أدت سياسة الناصر الحكيمة وانتصاراته الباهرة ، وحكمه المديد إلى شيوع الاستقرار ، واستتباب الأمن ، وانتشار الطمأنينة . وأدى ذلك كله إلى إقبال الناس على أعمالهم في جد ونشاط وأمل ، كما أنتج هذا جميعه وفرة في الدخل القوي ، وارتفاعاً في مستوى المعيشة ، ورخاء للدولة والأفراد جميعاً . وقد قيل : إن إيراد الدولة زاد زيادة عظيمة حتى بلغ مايجبي بالأندلس من الكور والقرى خمسة ملايين وأربعمائة وثمانين ألف دينار ، كما بلغ مايجبي من الأسواق ونحوها سبعمائة وخمسة وستين ألف دينار (١) . وقيل كذلك : إن الناصر قد خلف في بيوت المال خمسة آلاف ألف ألف ألف (ثلاث مرات) (٢) .

(١) انظر : فتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٧٧ . والبيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٢) انظر فتح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ١٧٧ .

وكل هذا - على ما قد يكون فيه من مبالغة - يدل على ما وصلت إليه الأندلس من الرقي الاقتصادي في ذلك الحين .

ولم تعرف الأندلس نهضة عمرانية كالتى عرفتها في فترة الخلافة ؛ فقد كان الناصر مولعاً بالبناء ، محبباً للتشييد ، كما كان يعتقد أن البيان يخلد ذكر الباقين ويبقى أسماءهم على الدهر . ومن هنا تم في عهده أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد ، ووصلت العاصمة القرطبية في فترة الخلافة إلى أوج جمالها وأناقته وعمرانها ، فازدحمت بالقصور المشيدة ، وزينت بالحدائق العديدة ، وحملت بالنافورات الكثيرة ، وزودت بالحمامات الوفيرة . وقد قيل : إن مبانيها بلغت أكثر من خمسين ألف قصر للعظماء ورجال الدولة ، وأكثر من مائة ألف بيت للعامة . كما قيل : إن مساجدها بلغت تسعمائة ، ووصلت حماماتها سبعمائة ^(١) ، هذا في وقت كانت بعض دول أوروبا تعتبر النظافة رجساً من عمل الشيطان ^(٢) .

وكان أعظم أعمال الناصر الإنشائية ، مدينة الزهراء ، التى بناها ^(٣) في شمال قرطبة ، وجعل بها قصراً للخلافة وبيتاً لرجال الحكومة والبلاط ، ومسكن للحرس والجنود ، ومسجداً للصلاة والتعليم .

كان قصر الخلافة في هذه الضاحية القرطبية غاية في الجلال والجمال والفن ، وقد جلب الناصر أعمدة بنائه ورخامه ، وتمائيل زينتته ومواد زخرفته . من القسطنطينية وقرطاجنة وشمال أفريقيا ، علاوة على ما أنتجته مدن الأندلس .

(١) انظر نفتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٢١٣ وما بعدها ، والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٣٤٥ - ٣٤٦ ، وقصة العرب في إسبانيا تأليف « استانلى لين بول » ترجمة الأستاذ على الجارم ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٢) انظر المصدر الأخير .

(٣) بدأ في بنائها سنة ٣٢٥ هـ (البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ . والنفتح ج ٢ ص ٢٤٦) .

وكان للخليفة في قصره بالزهراء مجلس يسمى بمجلس الذهب ، لكون قبة وحيطانه قد صفحت بهذا المعدن النفيس . وقد جعل في هذا المجلس حوض عجيب ، أقيمت عليه تماثيل من الذهب المرصع بالدر النفيس ، وهي صور الأسد والغزال والتمساح والثعبان والعقاب والفيل والحمامة ، وكلها تخرج الماء من أفواهها في الحوض (١) .

وقد مست يد التجميل والتعمير مدناً أندلسية أخرى غير قرطبة ، كما شمل الرخاء والأمن والرفاهية غير القرطبيين من الأندلسيين ، وعاش المجتمع الأندلسي في فترة الخلافة عهده الذهبي من الناحية الاجتماعية ، كما عاش في عهده الذهبي أيضاً من الناحية السياسية ؛ حتى نرى أبرع الصور وأروع الأمثلة عن حضارة الأندلسيين وتقدمهم الاجتماعي ، قد أخذت جميعها أو أخذ أغلبها على الأقل ، من حياة أهل الأندلس في فترة الخلافة .

٣ - نهضة الثقافة :

نهضت الثقافة الأندلسية في فترة الخلافة نهضة شاملة ، كان من مظاهرها اتضاح الشخصية العلمية للأندلس ، بل قوة هذه الشخصية واستقلالها إلى حد كبير . وليس من شك في أن ظروف الأندلس في تلك الفترة قد ساعدت على هذه النهضة : فالوحدة والاستقلال ، والأمن والرخاء ، والتحضر والرقى ؛ كل ذلك من شأنه أن يدفع إلى حياة ثقافية ناهضة ، ويساعد على مستوى علمي رفيع . وقد أتيج للأندلس في فترة الخلافة خلفتان وفرا للناس وحدة واستقراراً ، وحققا لهم أمناً ورخاء ، ومكثاهم من تحضر ورفق ؛ فأتاحا لهم كل ما من شأنه أن ينهض بثقافتهم ويرقى بعلمهم . بل إن هذين الخليفين لم يكتفيا بتهيئة الجول للثقافة والعلم ، وإنما دفعا بالأندلس دفعاً إلى نهضتها

(١) اقرأ ما قيل عن الزهراء في : نفح الطيب ج ١ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٦٥ وما بعدها

والبيان والمغرب ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

الثقافية الشاملة ، وذلك بتشجيع القادمين إلى الأندلس من علماء المشرق ، وجلب الكتب القيمة من شتى الأقاليم ، والحث على البحث والتأليف في شتى الفنون . فالناصر قد أحسن استقبال أبي علي القالي وأسند إليه تأديب ابنه الحكم ، ويمكن له ليعلم الأندلسيين في قرطبة ^(١) . وقد حمل القالي إلى الأندلس كثيراً من علم المشرق وأدبه ، ونقل بخاصة مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين ^(٢) ، مثل امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى والحسناء ، ومثل ابن أبي ربيعة وجميل وكثير والأخطل وجريير والفرزدق ، وكثير جداً غير هؤلاء وأولئك . هذا بالإضافة إلى كثير من كتب الأخبار واللغة ، مما أمد الحياة الثقافية الأندلسية في هذه الفترة بشحنة عظيمة من الزاد الدسم .

أما الحكم بن عبد الرحمن ، فقد ثبت أنه لم يولع خليفة بالكتب كما أولع ، ولم يجمع أمير منها مثل الذي جمع . وقد اشتهر بمكتبته الغنية التي بلغت أربعمائة ألف مجلد ^(٣) . وقد كان يحرص على جمع الكتب لها ويدفع فيها أعلى الأثمان ، كما فعل مع أبي الفرج الأصبهاني ، حين وجه إليه ألف دينار ليرسل إليه نسخة من كتاب الأغاني ، فبعث إليه بنسخة من كتابه قبل أن يظهر في بغداد ^(٤) .

وقد كان الحكم كذلك يشجع العلماء على التأليف ، ويقترح على المؤلفين بعض الموضوعات ^(٥) ، ويفسح لهم مكاناً في القصر يخلون فيه للبحث وإنجاز ماعهد إليهم

(١) انظر ما قيل عن قدوم القالي إلى الأندلس في : نفع الطيب ج ٢ ص ٨٤ - ٨٦ وانظر ترجمته في : وفيات الأعيان ج ١ ص ٧٤ .

(٢) انظر فيما حمله القالي إلى الأندلس : الفهرسة لابن خير المجلد الأول ص ٣٩٥ وما بعدها .

(٣) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٦ ، وطبقات الأمم لمساعد الأندلسي ص ٦٦ .

(٤) المقرئ نفع الطيب ج ١ ص ١٨٠ .

(٥) كما اقترح على الخشن تأليف كتابه « فضاء قرطبة » وكما اقترح على الزبيدي تأليف كتابه

« طبقات النحويين » .

من مؤلفات (١) . وهكذا كُتِبَ باقتراحه وتشجيعه كثير من الكتب في مختلف العلوم ، ولقى العلماء في ظله كثيراً من الإقبال والتكريم . ولذلك نهضت الأندلس علمياً في شتى الميادين . وتألقت فيها نابهنون في كل فروع المعرفة التي تمثل الثقافة في ذلك الحين . وليس أدل على نهضة الأندلس العلمية في فترة الخلافة ، من وفرة العلماء والمؤلفات في أغلب فروع المعرفة ، تلك الوفرة التي لم تعرفها الأندلس من قبل والتي اتضحت معها الشخصية العلمية للأندلس واستقلت إلى حد كبير .

في الميدان اللغوي ، نرى أنه قد تأسست أول مدرسة للدراسات اللغوية بالأندلس ، وذلك بعد قدوم أبي علي القالي ، الذي وفد على الأندلس سنة ٣٤٠ هـ (٩٤١ م) والذي ألف كثيراً في الدراسات اللغوية ، وأملى على طلبته الأندلسيين كتابه « الأملى » وفي هذه الفترة برز عدد من الأندلسيين في الدراسات اللغوية مثل : أبي بكر الزبيدي ، الذي عمل « مختصر كتاب العين » وألف كتاب « طبقات النحويين » و« كتاب لحن العامة » وكتاب « الواضح في العربية » وكتاب « الأبنية في النحو » . وكان مؤديباً للأمير هشام ابن الخليفة الحكم المستنصر (٢) .

ومن الأندلسيين الذين عرفوا بالدراسات اللغوية في فترة الخلافة أيضاً أبو بكر ابن القوطية ، الذي ألف « كتاب تصارييف الأفعال » و« كتاب المقصور والممدود » . وكان ابن القوطية من كبار علماء الأندلس في فروع علمية أخرى وخاصة التاريخ (٣) .

(١) كما فعل مع ابن الصفار ليؤلف كتاباً في أشعار خلفاء بني أمية بالشرق (انظر جنوة المقتبس ترجمة ٥٣٣) .

(٢) انظر : وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ ، وتاريخ علماء الأندلس لابن العزضى رقم ١٣٥٧ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ ، ٨٩ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١٢ - ٥١٣ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٨٥ - ٨٩ ، وتاريخ علماء الأندلس ، رقم ٢٣١٨ .

وفي الحقل التاريخي ، ظهر من علماء الأندلس في فترة الخلافة ، أحمد بن محمد بن موسى الرازي ، الذي كان يلقب بالتاريخي لكثرة اشتغاله بالتاريخ . وما ألفت في ذلك : كتاب في « أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم » ، وآخر في « أنساب مشاهير أهل الأندلس » ، وثالث عن « كبار الموالى الأندلسيين » ، ورابع في « صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها » . وقد ضاعت هذه الكتب كلها ، ولم يصل إلينا من مؤلفاته التاريخية إلا قطعة في صفة الأندلس ، وهي مترجمة إلى الإسبانية تحت عنوان « كرونیکا ديل مورو رازيز » ^(١) Cronica del moro Rasis أي تاريخ المغربي الرازي .

كذلك كان من مؤرخي هذه الفترة . أبو بكر بن القوطية . الذي سبقت الإشارة إليه كلفوي ^(٢) . وقد خلف لنا في التاريخ كتابه المشهور « تاريخ افتتاح الأندلس » ^(٣) وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى نهاية إمارة الأمير عبد الله .

وروح الكتاب تتفق مع روح ابن القوطية كحفيد للقوط أولاً ، وكمولى لبني أمية ثانياً ؛ فنحن نراه يدخل في رواياته عنصراً قومياً كأخبار أرتباس مع الصميل ابن حاتم . وهي أخبار تظهر الأمير القوطي في صورة الرجل الموهوب الحميد الخلق ، على حين تصور الزعيم العربي أقل كثيراً من صورة الأمير القوطي . وكذلك نراه يتحدث عن الثائرين على العرب والخارجين عليهم من ذوى الأصول الإسبانية ، كبروان

(١) انظر : Palencia : La literatura arabigo-espanola, p. 144 .

(٢) وانظر تاريخ الفكر الأندلسي (وهو ترجمة الكتاب السابق) ص ١٩٧ .

(٣) وهو حفيد سارة القوطية . حفيدة غيطشة ملك القوط قبل « رذريق » وكانت سارة قد لجأت إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في دمشق لتشكو ظملاً وقع عليها ، فكرمها الخليفة وزوجها أحد مواليه ، فكان من سلالة عالمنا ابن القوطية . انظر ترجمته في : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي . رقم ١٣١٨ . وفي « الأعيان ج ١ ص ٨١٢ - ٨١٣ . وفيما كتبه عنه إلفنج خ ٢ ص ٨٥ - ٨٦ .

(٤) وقد نشره « جايمانوس » وترجمه (ربيراً) إلى الإسبانية سنة ١٩٢٦ ، كما كتب مقدمة دقيقة له .

الجليقي وعمر بن حفصون، كما يورد أخباراً عن الشاعر غريب المتعصب لقومه مستعربى
الاطلة، ثم نراه يحسن القول عن بني أمية في أغلب الأحيان، وهذا أثر من آثار
ولائه لهم (١).

ومن الآثار التاريخية التي ظهرت في تلك الفترة أيضاً كتاب: «أخبار مجموعة» (٢)
وهو مؤلف مجهول، ويتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عهد عبد الرحمن الناصر.
وروح الكتاب فيها ميل إلى العرب عامة وإلى قریش خاصة، وإلى الأمويين
من قریش بصفة أخص.

وقد ألف الكتاب في عهد عبد الرحمن الناصر كما يرى الأستاذ «رييرا» خلافاً
للأستاذ «دوزي» الذي يرى أنه من تراث القرن الحادي عشر الميلادي (٣).

وكان من المؤرخين كذلك في هذه الفترة، عريب بن سعد، الذي كان يعمل
في خدمة الحكم المستنصر. ومن أشهر كتبه «صلة تاريخ الطبري». وكان هذا المؤرخ
الأندلسي طبيباً أيضاً، ومن آثاره في الطب: كتاب في «خلق الجنين وتدبير الحبالى
والمولود» وهو مخطوط بمكتبة الإسكوريال (٤).

كذلك اشتهر بكتابة التراجم بعض علماء تلك الفترة، مثل أبي عبد الملك بن
عبد البر القرطبي، الذي ألف كتاباً عن «فقهاء قرطبة» (٥)، هو من المصادر الرئيسية

(١) انظر : Julian Ribera : Prologo

(وهي المقدمة التي صدر بها الترجمة الإسبانية لكتاب : تاريخ افتتاح الأندلس).

(٢) نشر الكتاب وترجمه إلى الإسبانية. «لافوتي ألكترا» سنة ١٨٩٧.

(٣) انظر : المقدمة التي كتبها «رييرا» لكتاب تاريخ افتتاح الأندلس.
وانظر كذلك مقدمة أخبار مجموعة.

(٤) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٥) انظر : تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الغرضي ترجمة رقم ١٢٠.

التي اعتمد عليها ابن الفَرَضِيّ فيما بعد ، حين ألف كتابه « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » (١) . كذلك كان من كتاب التراجم في فترة الخلافة ، أبو عثمان بن عبد البر الكشكشاني ، الذي صنف كتاباً عن « الفقهاء والقضاء بقرطبة والأندلس » (٢)

ومن عرفوا بكتابة التراجم في تلك الفترة أيضاً ، محمد بن هشام المرواني ، الذي صنف كتاباً في « أخبار الشعراء » (٣) .

ولكن ألع شخصية بين كتاب التراجم في فترة الخلافة ، هي شخصية أبي عبدالله الخُشْتِيّ (٤) ، صاحب كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » (٥) ، الذي ترجم فيه للقضاة في العاصمة الأندلسية من الفتح حتى سنة ٣٧٥ هـ .

والكتاب يضم إلى جانب التراجم العديدة - التي تعرفنا بجمهرة من أهل القضاء والعلم في الأندلس - معلومات قيمة عن الحياة الاجتماعية .

ويقول عنه الأستاذ « ريبيرا » : إن هذا الكتاب يضعنا في قلب قرطبة ، وإن أخباره مصوغة في قالب من الواقعية التي لا يبلغ إلى تصويرها كتاب غيره من كتب التاريخ والأدب (٦) .

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٠ ، ٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٦٣ ، وتاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٦٧ .

(٣) انظر . نفع الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) الخشتي أصله من القيروان ، وقد وفد على الأندلس صغيراً ، وتخرج على بعض علمائها ثم دخل في خدمة الحكم المستنصر ، وألف له كثيراً من الكتب . اقرأ عنه في تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس لابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٤٠٠ وفي : جنوة المقتبس للحميدي ترجمة رقم ٤١ .

(٥) نشره « ريبيرا » وترجمه إلى الإسبانية سنة ١٩١٤ . وأعاد السيد عزت المطار نشره . (بلا ترجمة) سنة ١٩٥٤ .

(٦) انظر حديث « ريبيرا » عن الكتاب في المقدمة التي صدر بها النشرة والترجمة اللتين أذاعهما سنة ١٩١٤ ، وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٦٧ - ٧٧٠ .

وأما في التفسير والحديث ، فقد نبغ كثيرون مثل ابن محاسن ، عثمان بن محمد ،
الذي اشتهر بالتفسير^(١) . ومثل ابن القوطية ، الذي سبق الحديث عنه كلغوى ومؤرخ^(٢)
كذلك اشتهر من علماء الأندلس في تلك الفترة ، ابن الحجام يعيش بن سعيد ،
الذي ألف مسند حديث بأمر الحكم المستنصر^(٣) .

وأما في الفقه ومذاهبه ، فقد برع عديدون ، وكان أكثرهم من أعلام المذهب
المالكي الشائع بين الأندلسيين على ما هو معروف . ومن هؤلاء الذين نبغوا في الفقه
المالكي خلال فترة الخلافة : عبد الله بن أبي دليم ، الذي صنف كتاب « الطبقات فيمن
روى عن مالك من أهل الأمصار »^(٤) ، ومنهم يحيى بن عبد الله بن يحيى الليثي^(٥) .
وهو حفيد الفقيه الأندلسي المعروف ، يحيى بن يحيى الليثي . ومنهم أيضاً أبو بكر بن القوطية
الذي عرفناه لغويًا ومؤرخًا ومحدثًا .

على أن هناك فقهاء آخرين نبغوا في فقه غير الفقه المالكي ، وكان من أسباب
ذلك ، تلك الحرية الفكرية التي أتاحت للعلماء في فترة الخلافة . فقد عُرِفَ بالفقه
الشافعي : عثمان بن أبي سعيد الكناني^(٦) ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم^(٧) ، وأحمد
ابن عبد الوهاب بن يونس ، الذي كان من المترددين على الحكم المستنصر^(٨) . كذلك

(١) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ترجمة رقم ٩٠١ .

(٢) اقرأ عنه في المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٣١٨ .

(٣) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٦١٢ . وجنوة المقتبس الحميدي ترجمة رقم ٩١٥ .

(٤) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، رقم ٧٠٧ . وتاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٢٠ .

(٥) انظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، ترجمة رقم ١٥٩٧ .

(٦) المصدر السابق ، رقم ٨٩٢ .

(٧) اقرأ عنه في : تاريخ العلماء لابن الفرضي ، ترجمة رقم ٢٨٠ ، وفي جنوة المقتبس الحميدي ،

ترجمة رقم ٣٢٢ .

(٨) اقرأ عنه في : تاريخ العلماء لابن الفرضي ترجمة رقم ١٥٤ .

عرف من فقهاء الظاهرية : منذر بن سعيد البلوطي ، وكان قد درس في المشرق على كبار العلماء ، وعندما عاد إلى الأندلس ، أنكر تقليد مذهب مالك ؛ وكان يميل إلى مذهب داود بن خلف الظاهري ، ويحتج له . ولقد كان يلي قضاء لاردة وطُرطُوشة ، ثم نال إعجاب الناصر ولقت نظره بخطبته البليغة في حفل استقبال سفير القسطنطينية ، فولاه الخليفة الصلاة والخطابة بمسجد الزهراء ، ثم ضم إليه بعد ذلك قضاء قرطبة^(١) . والذي بلغ إليه منذر بن سعيد - على ظاهريته ومخالفته للمذهب المالكي الرسمي - يدل على مدى ماساد الأندلس في فترة الخلافة من حرية فكرية ، وما تمتع به العلماء من استقلال في الرأي مهما خالف هذا الرأي مذهب الحاكمين .

وأما الفلسفة ، فقد أخذت مكانها مرة أخرى بعد أن حورب ابن مسرة في الفترة السابقة ؛ فعادت مدرسته من جديد ، وشاعت مبادئه وآراؤه ، وعُرف بالانتماء إلى المدرسة المسرية كثير من أهل الفكر الأندلسيين ، ومن هؤلاء : طريف الروطي ، ومحمد بن مفرج المعافري ، ورشيد بن محمد ، وأبان بن عثمان . وقد كان الفضل في عودة مدرسة ابن مسرة إلى نشاطها يرجع إلى روح التسامح التي سيطرت على فترة الخلافة ، وخاصة أيام الحكم المستنصر^(٢) .

وأما الطب ، فقد ازدهر في تلك الفترة ، ونبغ فيه أعلام من الأندلسيين . وقد كان من مهرة الأطباء في تلك الفترة : سعيد بن عبد ربه ، الذي كانت له طريقة خاصة في علاج الحميات^(٣) . وأحمد بن يونس وأخوه عمر ، اللذان عُرفا بالمهارة في تحضير الأدوية والعلاج ، وخاصة علاج العين^(٤) . وغير هؤلاء كثير من عرفوا أيام الناصر

(١) اقرأ ترجمته وبعض أخباره في : المصدر السابق ، ترجمة رقم ١٤٥٤ ، وفي نصح الطبيب للمقرئ ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٥ ، ٢٦٦ - ٢٦٩ ، ٢٣٠ - ٢٣٣ .
 (٢) تاريخ الفكر الأندلسي ص ٣٣٠ .
 (٣) انظر : طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٤٦ .
 (٤) اقرأ عنهما في : طبقات الأئم لصاعد الأندلسي ص ١٢٤ ، وفي طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٤١ .

والمستنصر^(١) وذاعت شهرتهم ، حتى لقد كان بعض ملوك المسيحيين يلجأون إلى أطباء الأندلس ، لعلاج ما يستعصى من أمراضهم^(٢) .

وأما الرياضيات فقد نبغ فيها كثيرون ، مثل عبد الله بن محمد المعروف بالسرى والذى كان الحكيم يعظمه . ومثل أبي بكر بن عيسى ، الذى كان يجلس للتعليم أيام الحكيم ، وكان مقدماً فى الهندسة والعدد والنجوم^(٣) .

وهكذا نرى عدة ظواهر للحياة الثقافية فى الأندلس خلال فترة الخلافة ، أولاها : تلك المشاركة الواضحة فى أكثر فروع المعرفة ، بل ذلك النبوغ الملموس فى أغلب ألوان الثقافة ؛ حتى نرى من أبناء الأندلس مبرزين فى شتى العلوم والفنون ، ونجد لهم مؤلفات فى مختلف فروع المعرفة . والظاهرة الثانية للحياة الثقافية فى فترة الخلافة : شيوع الحرية الفكرية بصورة واضحة ، وتشجيع العلماء وإكبارهم ، على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم . والظاهرة الثالثة المتصلة بالحياة الثقافية لتلك الفترة : إقبال كثير من الأندلسيين على العلوم الفلسفية والطبيعية ؛ حتى تعدت تلك الفترة بحق من الفترات المعدودات ، التى أتيح فيها للثقافة الأندلسية أن تتصل اتصالاً قوياً بالفلسفات والطبيعات .

وهناك بعد ذلك ظاهرة رابعة جديرة بالاعتبار ، وهى : الاتصال ببعض المعارف الإغريقية واللاتينية . عن طريق الترجمة . فقد ترجمت عن هاتين اللغتين بعض الكتب مثل كتاب « ديسقوريدس » Dioscorides فى الحشائش والأدوية ، وكتاب « هروسيس » Orosius فى التاريخ . وقد وصل هذان الكتابان إلى الأندلس ضمن هدية بعث بها

(١) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٨٠ ، ٨١ .

(٢) انظر : قصة العرب فى إسبانيا « ترجمة الجارم » ص ١٠٩ ، ١١٠ .

وانظر : Palencia, Historia, p. 47 .

(٣) نظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ص ٦٨ .

إمبراطور القسطنطينية «أرمانوس» إلى عبد الرحمن الناصر. وكان الكتاب الأول مكتوباً بالإغريقية ، وقد ترجمه في الأندلس راهب يسمى «نيقولا» قد أرسله الإمبراطور بناء على طلب الناصر. أما الكتاب الثاني فكان مكتوباً باللاتينية ، وقد ترجمه في الأندلس قاضي النصارى بقرطبة ، وقاسم بن أصبغ الأندلسي^(١). ولا يبعد أن يكون هناك كتب أخرى قد ترجمت عن هاتين اللغتين كما حصل لهذين الكتابين ؛ فقد توفرت لتلك الفترة كل الإمكانيات التي تشجع على ذلك ، من حرية فكرية ، ونحس بلحلب الكتب ، ووجود من يستطيعون الترجمة .

وأخيراً هناك ظاهرة خامسة تتصل بالحياة الثقافية لتلك الفترة ، وهي ظاهرة جديدة بالملاحظة ، لما لها من صلة وثيقة ببعض ماسرى من ظواهر أدبية . تلك الظاهرة هي : ظهور الروح القومية الأندلسية في الحياة الثقافية . وقد بدا ذلك واضحاً في العناية بجمع تراث الأندلسيين ، وكتابة تاريخ الأندلس ، والترجمة لأعلام هذه البلاد في شتى الميادين ، من شعراء وعلماء وقضاة ونحويين ، وغير هؤلاء وأولئك من أدباء ومفكرين . والمتتبع لمؤلفات تلك الفترة لا تخطئه تلك الملاحظة ، فسرى اتجاهها واضحاً إلى كل ما هو أندلسي ؛ ففي التاريخ الأندلسي يكتب ابن القوطية وغيره ، وفي رجال الأندلس يكتب خالد بن سعد^(٢) ، وفي قضاة قرطبة يكتب الخشني ، وفي شعراء الأندلس تكتب عدة كتب ، منها في شعراء إقليم إلبيرة فقط نحو عشرة أجزاء^(٣) ، كما يكتب ابن فرج كتابه «الخدائق» الذي يعارض فيه كتاب «الزهرة» لمحمد بن داود

(١) انظر في دخول هذين الكتابين إلى الأندلس ، وترجمة الأول منهما : طبقات الأطباء لابن أبي

أصيبة ج ٢ ص ٤٧ : وانظر في ترجمة الثاني : ابن خلدون ج ٢ ص ٨٨ .

وانظر كذلك : طبقات الأطباء لابن جلجل تحقيق فزاد السيد (المقدمة) .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي ج ١ ترجمة رقم ٣٩٨ .

(٣) انظر : نفع الطبيب للمعري ج ٢ ص ١٢٣ .

الإصبهاني ويزيد عليه ؛ فقد ذكر ابن داود مائة باب في كل باب مائة بيت ، أما ابن فرج فقد ذكر مائتي باب في كل باب مائتا بيت ولم يورد فيه لغبر أندلسي شيئاً^(١).

٤ - نهضة الأدب :

نهض الأدب الأندلسي في فترة الخلافة نهضة عظيمة ، ساعد عليها ما كان من رقي سياسي وتفوق اجتماعي ونهوض ثقافي . وقد بدت نهضة الأدب الأندلسي خلال تلك الفترة في مظاهرة عديدة ؛ منها ظهور بعض الاتجاهات الجديدة في الشعر ، وبعض الأنواع الجديدة في النثر ، هذا بالإضافة إلى تطور الاتجاهات المعروفة ، وازدهار الأنواع المألوفة ، ووفرة النتاج الأدبي وخصوبته وتنوعه ، وشيوع الأدب بين الأندلسيين شيوعاً جعله من أبرز سمات الحضارة الأندلسية في ذلك الحين . وسوف يتضح كل ذلك بتناول نوعي الأدب تناولاً تفصيلياً .

أولاً - الشعر :

يمكن أن يلاحظ دارس الشعر الأندلسي في تلك الفترة عدة ظواهر ، منها ما يتصل بالاتجاهات الشعرية وما طرأ عليها من زيادة أو تطور ، ومنها ما يتعلق بالأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التي أظلت الأندلس في ذلك الحين ، ومنها ما يرتبط باللغة الشعرية وعلاقتها بالحياة اللغوية التي كان يحياها الأندلسيون في تلك السنين ؛ ثم منها ما يتصل بدور الشعر كفن يعبر عن الحياة ، ويؤدي وظيفة حيوية فيها . أما من حيث الاتجاهات الشعرية ، فأول ما يلاحظ هو :

(أ) ظهور الاتجاه المحافظ الجديد :

ويقصد به هذا الاتجاه الشعري الذي كان قد ظهر في الشرق كرد فعل للاتجاه المحدث الذي تزعمه أبو نواس ، والذي خرج بالشعر العربي عن كثير من تقاليده ؛

(١) انظر : جاسوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ١٧٥ .

فجاء هذا الاتجاه المحافظ الجديد Neo clasico . ليعيد الشعر العربي إلى طبيعته العربية ، وذلك بالاقتراب من التقاليد الشعرية الماثورة ، والتخفيف من تلك الثورة المتسرعة التي لحق إليها المحدثون ، كل ذلك دون وقوف أو جمود عندما كان عليه الشعر القديم من بساطة وسذاجة وبداعة ، بل مع سير وتطور يفيدان الشعر مما وصلت إليه العقليّة العربية من رقي ، وما بلغت الثقافة العربية من نهوض ، وما نعم به المجتمع العربي من حضارة .

ومن هنا جاء هذا الاتجاه محافظاً من جانب ومجدداً من جانب ؛ فهو محافظ في منهج القصيدة ولغتها وموسيقاها ، ثم في روحها وأخلاقياتها إلى حد كبير . وهو مجدد في معاني الشعر وصوره ، ثم في أسلوبه وجمالياته إلى درجة بالغة (١) .

فمن حيث المنهج ، يسير أصحاب هذا الاتجاه غالباً على الطريقة القديمة . في البدء ببيكاء الأطلال أو الافتتاح بالغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى الذى قد يسبق بوصف رحلة الشاعر ، وقد يتبع بالفخر بشعره .

ومن حيث اللغة يفضل أصحاب هذا الاتجاه الأسلوب القديم ، في الميل إلى جزالة اللفظ وفخامة العبارة .

ومن حيث الموسيقى الشعرية ، يؤثر أصحاب هذا الاتجاه الذوق القديم ، في حب الأوزان الطوال ذات النغم الوقور ، والقوافى القوية ذات الرنين الرزين .

ومن حيث روح الشعر العربي وأخلاقياته ، يقبل على أصحاب هذا الاتجاه البعد عن التطرف المتسرد وتلك الثورة الجارحة ، التي كانت تسخر من التقاليد وتجرح المواضع ، كما يقبل على أصحاب هذا الاتجاه أيضاً البعد عن الإفراط في المحجون والمجاهرة بالعصيان والفخر بارتكاب الرذائل (٢) .

(١) لتكوين فكرة مفصلة عن خصائص هذا الاتجاه اقرأ : تاريخ الشعر العربي لنجيب البهيقي ص ٤٨٥ وما بعدها ، وأبو تمام الطائي للمؤلف نفسه ص ١٨٤ وما بعدها ، والفن ومذاهب في الشعر العربي لشوقي ضيف ص ١٠٧ وما بعدها ، ومن حديث الشعر والنثر لعله حسين ص ٨١ وما بعدها .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لعله حسين ص ٨٥ .

أما من حيث معاني الشعر وصوره ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يسرون مسيرة المجددين ، في البحث عن المبتكر الرائع أو الغائب الطريف أو البعيد الشارد . ومن هنا كانوا يغيصون غوصاً على المعاني حتى يستخرجوها ، كما كانوا يشفقونها حتى يستوعبوا كل أجزاءها ، بل إنهم كانوا يعترضونها ويقطرونها حتى يحصلوا على أدق عناصرها وأهم محتوياتها .

وأما من حيث الأسلوب وجمالياته ، فقد كان أصحاب هذا الاتجاه يأخذون كذلك بطريقة المجددين ، في تجميل الصياغة بألوان من البديع وتوسيتها بصنوف من المحسنات ، وقد كان من أبرز تلك المحسنات المقابلة والطباق والجناس والتكرار . وقد كان أبو تمام الشاعر المشرق الكبير ، من أوائل من ساروا في هذا الاتجاه ، وتبعه بعد ذلك البحري وآخرون ممن عاصروهما أو جاءوا بعدهما ، حتى وصل هذا الاتجاه إلى غايته بعد ذلك مع أبي الطيب المتنبى ، الذي يمكن أن يعتبر قمة هذا الاتجاه المحافظ الجديد (١) .

وقد دخلت أصول هذا الاتجاه إلى الأندلس في الفترة السابقة ؛ فقد حدثنا الرواة أن نقرأ من الأندلسيين ممن عاشوا في فترة صراع الإمارة ، قد اتصلوا بأبي تمام ، وقرأوا عليه شعره ، ثم عادوا إلى الأندلس حيث أدخلوا هذا الشعر . وقد كان من هؤلاء أبو عثمان بن المتنبى النحوي (٢) ، ومؤمن بن سعيد الشاعر (٣) . كذلك

(١) درج الباحثون على تسمية هؤلاء الشعراء بالمجددين ، وهي تسمية عامة تطلق على الشعراء المجددين من أول بشار ثم أبي نواس ، إلى أبي تمام ومن عاصره وجاء بعده . ولما كان اتجاه الشعراء المجددين من أيام أبي تمام ومن سار في طريقه يخالف اتجاه المجددين من أيام بشار ومن حذا حذوه ، آثرت أن يقصر اسم محدث على الاتجاه السابق الذي رآه بشار وانتهت غايته إلى أبي نواس ، وأن يطلق اسم محافظ جديد على الاتجاه اللاحق الذي بدأه أبو تمام وانتهت غايته إلى أبي الطيب .

(٢) أنظر : تاريخ العلماء لابن الفرضي ترجمة ٢٤٩ ، والمغرب ج ١ ص ١١٢ .

(٣) أنظر : المغرب ج ١ ص ٣٢ .

قد عرفنا ما كان من أبي اليسر الرياضى العالم الرحالة ، وإدخاله إلى الأندلس أشعار أبي تمام والبحرئى فى الفترة السابقة (١) .

ومع هذا لانكاد نرى أثراً لظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى أشعار الأندلسيين خلال فترة صراع الإمارة ، على حين نجد كثيراً من الآثار لظهوره فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث . ولعل السبب فى ذلك هو غلبة الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة غلبة لم تترك حينئذ مكاناً للاتجاه المحافظ الجديد . وإنما غلب الاتجاه المحدث فى الفترة السابقة ، لما سبقت الإشارة إليه من أنه كان أكثر ملاءمة للتعبير عن واقع الأندلسيين الحديد الملقى بالثورة والتعلق بالمظاهر الحضارية المحدثه .

وإنما ظهر هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى فترة الخلافة ، لأنه اتجاه مرتبط كثيراً بالاستقرار الحضارى والتعقل الاجتماعى والهدوء الثورى (٢) ، فهو قد ظهر فى المشرق منذ أوائل النصف الثانى من العصر العباسى الأول . بعد أن هدأت حدة الانبهار باللقاء الأول مع المستحدثات الحضارية ، وبعد أن شبع شعراء القرن الثانى ثورة وهواً ومجوناً ، وبعد أن جاء القرن الثالث وقد ألفت المجتمع العربى الحضارة ومستحدثاتها ، ولم يعد يجن بها فيفقد اتزانها ، كما فعل من قبل جيل أبى نواس .

وقد كان المجتمع الأندلسى فى فترة الخلافة قد ألفت الحضارة كذلك ، واستنفد انبهاره ودهشته بالمستحدثات فى الفترة السابقة ، ولهذا بدأ كثير من الأندلسيين يهتمون بالاتجاه الشعرى المحافظ الجديد ويجدون فيه طريقاً فنياً ملائماً للتعبير عن حياتهم المتحضرة المستقرة المتعلقة .

ولعل من مظاهر هذا الاهتمام ما ذكره بعض الرواة من عناية الخليفة عبد الرحمن

(١) ارجع إلى صفحة ١٦٠ من هذا الكتاب .

(٢) انظر : من حديث الشعر والنثر لطلح حسين ص ٨٥ .

الناصر بشعر أبي تمام وتكليفه جماعة من العلماء والأدباء بانتساخه (١) .

ولعل من مظاهر هذا الاتجاه كذلك ما نراه من إقبال بعض مؤلفي فترة الخلافة على أشعار أعلام هذا الاتجاه من المشاركة ، كما فعل ابن عبد ربه في كتاب العقد ، حيث أورد شواهد عديدة من أشعار أبي تمام والبحرئى وابن المعتز .

وليس من شك في أن دخول ديوان المتنبي إلى الأندلس في فترة الخلافة ، كان من أهم العوامل التي زادت من اهتمام الأندلسيين بهذا الاتجاه المحافظ الجديد . فالمتنبي كان من أشهر شعراء العربية في عصره ، وكان اسمه يجلب في المغرب كما كان يملأ الأسماع والقلوب في المشرق ؛ فدخول شعره إلى الأندلس في فترة الخلافة ، قد أثار اهتمام الأندلسيين بالاتجاه الشعري الذي يسير فيه ، وبالمذهب الفنى الذى يأخذ به . وقد كان دخول ديوانه إلى الأندلس ، عن طريق أهل المغرب الإسلامى ممن اتصلوا بأبي الطيب في المشرق ورووا شعره هناك ، ثم دخلوا به إلى الأندلس .

وفي مقدمة هؤلاء الذين نقلوا شعر المتنبي إلى الأندلس ، زكريا بن الأشج وهو جزائرى الأصل ، كان قد التقى بأبي الطيب خلال إقامته بمصر ، ودرس عليه ديوانه ، ثم رحل إلى الأندلس حيث أذاع هذا الديوان (٢) .

ويبدو أن هذا الاتجاه المحافظ الجديد قد بدأ يطفئ على الاتجاه القديم ، ويبدو كذلك أن الجمهور الأندلسى المثقف أصبح يؤثر هذا الاتجاه ويعتبره الصورة المثلى للشعر التقليدى ، ويؤيد ذلك ما يروى الزبيدى من أن الشاعر الأندلسى ابن يحيى الریحاني ، قد نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب ، وخرج فيها عن مذاهب المحدثين (٣)

(١) انظر : طبقات النحويين لزبيدى ص ٣٥٦ .

(٢) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ترجمة ٤٥٥ .

(٣) يستعمل الزبيدى اصطلاح المحدثين هنا بالمعنى العام الذى درج عليه الباحثون ، أى بما يشمل الاتجاه

الذى نسوق عنه الحديث .

فلم يرضها العامة (١) .

وهكذا ظهرت في فترة الخلافة أشعار أندلسية تسير في هذا الاتجاه المحافظ الجديد وتبدو فيها خصائصه في المنهج والروح ، واللغة والموسيقى . والأفكار والصور ، والصياغة والأسلوب . بل إن بعض أشعار الأندلسيين قد تأثرت بأشعار أعلام هذا الاتجاه من المشاركة ، فجاءت حيناً وفيها ومضات من ذكاء أبي تمام في تقطير المعاني والاهتمام بالبدیع ، وحيناً نفحات من روح البحترى في تأليف الصور والعناية بالبيان ؛ ثم فيها مرة وثبات من ذهنية ابن الرومي في تحليله وتفصيله ، واستقصائه واحتجاجه ؛ ومرة لمسات من أناقة ابن المعتز ، في تشبيهاته المترفة ، وصوره المفضضة المذهبة ؛ وأخيراً فيها قبسات من عبقرية أبي الطيب في سبره للنفوس وتحليله للمشاعر وبلورته للتجارب .

على أن ذلك لم يكن - في الغالب - تقليداً من الأندلسيين لهؤلاء الأعلام المشاركة ؛ وإنما كان إعجاباً بالاتجاه الشعري أولاً ، ورغبة في إثبات مقدرتهم وتفوقهم ثانياً . وليس أدل على عدم التبعية والتقليد ، من أن الشاعر الأندلسي كان يجاهر بموازنة نتاجه بقضج سائقه المشرق ، حين يعالج موضوعاً عاجله ، أو يورد فكرة أورد مثلها ، أو يؤلف صورة رسم نظيرها .

وهذا ابن عبد ربه مثلاً ، يورد نماذج لأبي تمام وغيره من أعلام شعراء المشرق ، ثم يورد أشعاراً له في نفس الموضوعات أومع بعض الأفكار المتشابهة والصور المتقاربة (٢) ، وهو يشير بهذا العرض إلى مقدرته كشاعر أندلسي ، ومحاول إثبات تفوقه على هؤلاء الأعلام ، بل إنه أحياناً يصرح بهذا ، فيعلق بعد إيراد نموذج بما يدل على قصده إلى إثبات التفوق (٣) . فالمسألة إذاً لم تكن تبعية أوسرقة ، وإنما كانت معارضة وتحدياً

(١) انظر : طبقات النحويين للزبيدي ص ٣٩٩ .

(٢) انظر : المقدم الفريد في كثير من فصوله .

(٣) انظر : المقدم الفريد ج ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨ .

وليس معنى ذلك أن الأندلسيين لم يتأثروا بفن سابقهم ومعاصريهم من المشاركة ؛ فالحق أنهم تأثروا إلى أبعد حد ، ولكن هذا التأثير كان في الغالب متأثراً بالمذهب وتعلقاً بالاتجاه ، كما كان في أكثر الأحيان تأثر الأصلاء الواعين ، ذوى الشخصية المتفتحة القوية ، التى تضيف إلى ماتأثره كثيراً من ذاتها وفنها فتغنيه وتنميه .

وقد رأينا أن أهم جوانب هذا الاتجاه المحافظ الجديد أربعة ، وهى جانب المعانى والصور ، وما يجب أن تكون عليه من طرافة وغرابة وجدة ، قد تستدعى توليداً أو تشويقاً أو تقطيراً ، بل قد تستدعى المنطقه والتحليل ، والاحتجاج والاستدلال . ثم جانب الأسلوب ، وما ينبغى أن يحمل به من ألوان البديع وصنوف المحسنات ، وخاصة الجناس والطباق والمقابلة والتكرار . ثم جانب منهج القصيدة وما يغلب أن يتبع فيه من البدء ببيكاء الأطلال ، أو الغزل التمهيدى ، ثم الانتقال إلى الغرض الأساسى ، ثم الانتهاء بختام كثيراً ما يكون فخرأ بالشعر .

وأخيراً جانب اللغة والموسيقى ، وما يغلب أن يراعى فيه من الجزالة والفخامة والجلال .

وفىما يلى عرض لبعض النماذج التى تؤيد ظهور هذا الاتجاه المحافظ الجديد فى الشعر الأندلسى خلال فترة الخلافة ، كما تؤيد معرفة الشعراء الأندلسيين بأثار إخوانهم المشاركة من أعلام هذا الاتجاه ، وتأثرهم بهم وتأثراً لم تلغ معه شخصيتهم الأندلسية .

فن النماذج المتصلة بجانب المعانى والصور ، قول ابن عبد ربه الأديب الأندلسى

فى القلم :

بكفه ساحر البيان إذا	أداره فى صحيفة سحرا
ينطق فى عجمة بلفظه	نصم عنها ونسج البصرا
نواذر يقصر القلوب بها	إن تستبها وجدتها صورا
نظام درُّ الكلام ضمَّنه	سلكاً لخط الكتاب مستطرا

إذا امتطى الخنصرين أذكر من
 يخاطب الغائب البعيد بما
 ترى المقادير تستدف^(١) له
 شخّت^(٢) ضئيل لفعله خطر
 يَسجُ فكّاه ريقة صغرت

فابن عبد ربه يعالج نفس الموضوع الذي عالجها أبو تمام حين قال في القلم :

لك القلم الأعلى الذي بشباته
 لعاب الأفاعى القاتلات لعاه
 له ريقة طلل^(٣) ولكن وقعها
 فصيح إذا استنطقته وهو راكب
 إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت
 أطاعته أطراف القنا وتقوضت
 إذا استغزر الدهن الجلى وأقبلت
 وقد رفدته الخنصران وسددت
 رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف

يصاب من الأمر الكلى والمفاصل^(٤)
 وأرى الجنى اشتارته أيد عوامل^(٥)
 بآثاره في الشرق والغرب وأبل
 وأعجم إن خاطبته وهو راجل
 عليه شعاب الفكر وهي حوافل
 لنجواه تقويض الخيام الجحافل
 أعاليه في القرطاس وهي أسافل
 ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
 ضئى^(٥) وسمينا خطبه وهو ناحل^(٦)

* * *

(١) تستدف تسهل وتستقيم .

(٢) شخت : دقيق ضامر من غير هزال .

(٣) وردت هذه الأبيات في المقدمج ٢ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٤) الأرى : العسل ، والجنى ما يجنى والمسئل أيضاً . واشتارته : استخرجه .

(٥) الضئى في الأصل . المرض الضامر ، الذى كلما غلن البره منه عاد من جديد .

(٦) وردت هذه الأبيات في ديوان أبي تمام ص ٢٥٧ . وذكرها ابن عبد ربه في المقدمج ٢ ص ١٧٤ .

وليس يخفى سيرة الشاعر الأندلسي في نفس الاتجاه الذي سار فيه أبو تمام ، من حيث الغوص على المعنى الغريب ، والجهد في تأليف الصورة الطريفة . بل ليس يخفى تناول الشاعر الأندلسي لبعض معاني أبي تمام وصوره ، ومحاولة تجويدها بالإضافات والتعديلات ، مما وفق فيه حيناً وأخفق حيناً آخر .

فالقلم عند أبي تمام :

فصبح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
فهو ناطق في فصاحة إذا ركب أصابع الكاتب وبدأ يخط ، وهو أخرس
أعجم إن كان راجلا غير ممتط لأصابع الكاتب . أما القلم عند ابن عبد ربه ، فإنه :
ينطق في عجمة بلفظته نصم عنها ونسمع البصرا
أى أنه ناطق في عجمته لاناطق إذا ركب وأعجم إذا لم يركب كقلم أبي تمام .
ثم هو بعد ذلك ناطق عجيب ومتحدث من نوع غريب ؛ لأنه يسمع بالبصر لا بالسمع .
والقلم عند أبي تمام ، يمتطي الأصابع الخمس ، أما عند ابن عبد ربه ، فيمتطي
الخنصرين فقط . وهذا أقرب إلى الدقة . ثم هو عند ابن عبد ربه :

إذا امتطى الخنصرين أذكر من سحبان فيما أطال واختصرا
فهو فارس في ميدان البلاغة ، حيث يُذكر بفارس بلاغي هو سحبان . أما القلم
عند أبي تمام فهو :

إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيام الجحافل
فهو ليس فارساً في ميدان البلاغة ، وإنما هو فارس في ميدان الطعن والضرب ،
فأطراف القنا تطيعه ، والجحوش تنهاوى أمامه كما تنهاوى الخيام أمام العاصفة .

ويلاحظ على بيت أبي تمام أولاً عدم تلاؤم أجزاء الصورة في البيت الأول ، وهي صورة الراكب الذي تفرغ عليه الشعاب الخوافل ؛ ويلاحظ ثانياً البعد الشديد بين الوصف والموصوف ، فالمتحدث عنه قلم ، وقد وصف بأنه فارس تطيعه أطراف القنا وتقوض لنجواه الجيوش تقويض الخيام . وليس من شك في أن تحويل القلم هكذا إلى فارس حقيقي ، أبعد عن الواقع من تصوير ابن عبد ربه له ، بأنه فارس في ميدانه الطبيعي ، ميدان البلاغة .

وإذا رأيت قلم أبي تمام :

رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ضئياً وسمينا خطبه وهو ناحل

وأما القلم عند ابن عبد ربه ، فهو :

شخت ضئيل لفعله خطر أعظم به في ملمسه خطراً

فكلا القلمين ضئيل ولكن أثره ضخيم ، غير أن قلم أبي تمام ناحل وخطره سمين ، وهذه — كما هو واضح — زيادة مفسدة ؛ قد دفع أبا تمام إليها حبه الشديد للمقابلة ، مما ورطه في وصف الخطب بالسمن .

والقلم عند أبي تمام :

له ريقة طلك ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل

أما القلم عند ابن عبد ربه فإنه :

يمج فكاه ريقة صغرت وخطبها في القلوب قد كبرا

فكلا القلمين يمج ريقة قليلة ، لكنها عظيمة الأثر . غير أن أبا تمام جعل هذه الريقة طلا حين يمجها القلم ، ثم يتضاعف أثرها فتصير وابل . وهكذا يقدم الشاعر هذه الفكرة في صورة فنية تستمد عناصرها من الطبيعة . أما ابن عبد ربه فيقف بالفكرة

عند تقديمها تقديمًا إخباريًا مباشرًا ساذجًا . وهذا مما قصر فيه الشاعر الأندلسي عن اللحاق بأبي تمام .

ومن النماذج المتصلة بجانب المعاني والصور كذلك : وتأثرها بالأسلوب الجدلي القائم على الاحتجاج والاستدلال ؛ قول الشاعر الأندلسي ابن أبي عبدة (١) في الورد :

خضعتُ نواوير الرياض لحسنه	فتذلت تنقاد وهي شواردُ
وإذا تبدى الورد في أغصانه	يزهو فذا ميّت وهذا حاسد
وإذا أتى وفد الربيع مبشراً	بطلوع صفحته فنعم الوافد
ليس الميشرُ كالميشر باسمه	خبر عليه من النبوة شاهد
وإذا تعرّى الورد من أوراقه	بقيت عوارفه فهن خوالد(٢)

فليس يخفى أن الشاعر الأندلسي يرد على ابن الرومي (٣) ، الذي كان يفضل

الرجس على الورد في قوله :

خجلتُ حدود الورد من تفضيله	خجلا توردها عليه شاهد
لم يخجل الورد المنورد لونه	إلا وناحله الفضيلة عائد
فَصَلُّ القضيّة أن هذا رائد	زهرة الرياض ، وأن هذا طارد
شتان بين اثنين ، هذا موعد	بتسلّب الدنيا ، وهذا واعد(٤)
للرجس الفضل المبين بأنه	زهر ونور ، وهو نبت واحد

(١) هو أبو الحزم جهور بن عبد الله بن أبي عبدة . ذكره ابن الأبار في : الحلة السراء وأشار إلى

أنه كان من وزراء عبد الرحمن الناصر ، كما نبه إلى أنه غير ابن جهور رئيس قرطبة المتأخر الذي يبدأ

بمكة عصر الطوائف في العاصمة الأندلسية . انظر : الحلة السراء ص ١٣٢ - ١٣٧ .

(٢) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق .

(٣) نبه ابن الأبار إلى ذلك في المصدر السابق .

(٤) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن الرومي ص ٩٧٢ .

فابن أبي عبدة الأندلسي ينقض أبيات ابن الرومي بأبيات علي وزنها وقافيتها ،
ويرد حججه في تفضيل الرجس على الورد ، ويلجأ إلى التذليل والتعليل والجدل كما
يفعل المتناظرون . فإذا قال ابن الرومي :

إن الرجس أفضل من الورد ، لأن الرجس زهرونور ، والورد زهرفقط ، رد ابن أبي
عبدة بأن الورد برغم ذلك قد خضعت لحسنه نواوير الرياض ، فبدت أمامه ذليلة ،
وولت من طريقه شاردة ؛ ودليل ذلك أن الورد إذا أقبلت أيامه وبدأ ، بدأت النواوير
تصفرو وتذبل ، بل إن كثيراً منها يموت .

وإذا قال ابن الرومي : إن الرجس يقود أزهار الرياض حين يسبقها إلى الظهور
مبشراً بها ، وأن الورد على عكس ذلك ، إذ هو يطرد الزهور الأخرى ويأتي على أنقاضها
وفرق بين المنذر بانتهاء الحياة وهو الورد ، والمبشر بقدمها وهو الرجس ؛ إذا قال ابن
الرومي ذلك ، رد ابن أبي عبدة بأن الرجس حين يعيء قبل الورد ليس إلا مبشراً بقدمه ،
والمبشر به خبر من المبشر ، وفي النبوة دليل ذلك ؛ فالمسيح مبشّر بقدم محمد ، ومحمد
أفضل من المسيح .

ومن النماذج المتصلة بجانب الأسلوب ، قول الشاعر الأندلسي أبي علي السناط^(١)
في حسناء :

غزاليّة العينين وردية الحدّ	كثيبيّة السردفين غصنيّة القد
ثنت بثنيها التّقى عن التّقى	وصدّ تصديها الرشيد عن الرشيد
لها ناظر يعدو على القلب لحظة	ونحد على لحظ النواظر يستعدى
تُزّاني عيون الناظرين إذا رنت	بعين لها تزني وتُعنى من الحد ^(٢)

(١) هو أبو الحسن بن حسان ، المعروف بالسناط . ذكره الحميدى في الجذوة ، وقال إنه كان في أيام
الناصر ، وأنه متقدم مكثر . انظر : جذوة المقتبس ترجمة ٣٦٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات في المصدر السابق .

فليس يخفى هنا أسلوب أصحاب هذا الاتجاه المحافظ الجديد من حيث تشابه المقاطع ، وتوازي الكلمات ، وتساوى الجمل ، كما في البيت الأول ؛ ومن حيث الاهتمام بالجناس ، حتى يأتي بعض الأبيات وبين كل كلمتين فيه جناس كما في البيت الثاني ؛ ومن حيث التكرار الذي يجعل عجزُ بعض الأبيات مؤلفاً من كلمات صدره مع تعديل بسيط كما في البيت الثالث . وهذا يذكرنا بالبحرَى في قوله :

وقد يكاد القلب ينقد دونه إذا اهتز في قرب من العين أو بعد^(١)

وقوله :

فنعْمٌ ولم تنعم بنيل تعده وجُملٌ ولم تجمل بعارفة جمل^(٢)

وقوله :

وحسناء لم تحسن صنيعاً وربما صبوت إلى حسناء سيء صنيعها^(٣)
بل إن قطعة الشاعر الأندلسي تذكرنا أكثر بأبي تمام في قوله عن ديار الأحناب :
تُطلّ الطلول^(٤) الدمع في كل موقف وتمثل^(٥) بالصبر الديار الموائلُ
دوارس لم يحف الربيع ربوعها ولا مر في أغفالها^(٦) وهو غافل
فقد سحبت فيها السحائب ذيلها وقد أخلت^(٧) بالنور فيها الخمائل

(١) ورد هذا البيت في قصيدة البحرَى التي مطلعها :

دعا عبرى تجرى على الجور والقصد أظن نسيما تارف الحجر من بعدى

(٢) ورد هذا البيت في قصيدة البحرَى التي مطلعها :

ضبان على عينيك أنى لا أسلو وأن فؤادى من هوى بك لا يخلو

(٣) ورد هذا البيت في قصيدة البحرَى التي مطلعها :

منى النفس في أسماء لو يستطيعها بها وجدها من غادة وولوعها

(٤) تطلّ الدمع : تذهب هدراً

(٥) تمثل بالصبر : تنكل به كتمثل (بالتشديد) .

(٦) الأغفال : جمع غفل ، وهو ما لا علامة فيه من الطرق ، وما لا بناء فيه من الأرض .

(٧) أخلّ القטיפفة : جعل لها خلا ، وهو الهدب .

ومن النماذج المتصلة بمنهج القصيدة ، ميمية ابن هاني الأندلسي في مدح المعز لدين الله الفاطمي ، حيث يبدأ بالغزل التمهيدى فيقول :

أصاحت فقالت وقع أجردَ شَيْطَمِ
وشامت فقالت لمعُ أبيضُ مِخْدَمِ^(١)
وما ذُعرتُ إلا بيجرس حليها
ولا لحت إلا بُرّي في مُخْدَمِ^(٢)
ولا طعمت إلا غيراراً من الكرى
حذارَ فتي يلتقى الغيور بحتفه^(٣)
ويعرق تحت الليل من جلد أرقم
إلى أن ينتقل إلى المدح فيقول :

ألا ليت شعري هل يروع خيامها
عِثَارُ المِذَاكِي^(٤) بالقنا المتحطم
فلو أني أسطيع أنقلت خدرها
بما فوق رايات المعز من الدم
من اللاء لا يصدرن إلا روية
كأن عليها صبيغ خمر وعندم^(٥)
كأن قناها المُلْد وهي خوافق
قدود المها في كل رَيْط مسهم^(٦)
ثم يبالغ في وصف المدوح فيقول :
وروح هُدَى في جسم نور يمهده
شعاع من الأعلى الذي لم يحسم

(١) أصاحت : أنصت . والأجرد : الفرس القصير الشعر . والشيطم : الطويل الجسم الفتي .
وشامت : تطلعت . ومخدم كبير : من صفات السيف القاطع ، ويطلق عادة على سيف الحارث بن أبي
شمر .

(٢) البري : جمع برة ، والبرة : الخللخال . والمخدم : موضع الخللخال من الرجل .

(٣) الفرار : القليل من النوم وغيره . وكلوه العين : يقظها الذي لا يغلبه النوم ، والمهوم : من يهزأه

من الناس .

(٤) المذاكي من الخليل : المكتملة ، وأصله التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو ستان .

(٥) العندم : دم الأخوين أو البقم .

(٦) المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . والرَيْط : جمع رَيْطَة ، وهي الملاءة . والمسهم :

ومتصل بين الإله وبينه
إذا أنت لم تعلم حقيقة فضله
على كل خد من أسارير^(٢) وجهه
فأقسِم لو لم يأخذ الناس وصفه
عن الله لم يُعقل ولم يتوهم

وأخيراً يختم القصيدة بقوله :

وعندي على داني اللقاء وبُعدِه
إذا أشأمتُ كانت لُبانة معرق
تَطاولُ عن أقدار قوم جلاله
وأى قوافي الشعر فيك أحوكها
ولو أن عمري بالغ فيك همي
أسىء ظنوني بالثناء وأنتحى
كمن لام نفساً وهي غير ملومة
ولما تلتقتك المواسم آنفا
ليعلم أهل الشرق والغرب أنني

قصائد تسرى كالجمان المنظم
وإن أعرقت كانت لبانة مشم^(٣)
وتصغر عن قدر الإمام العظيم
وما ترك التنزيل من متقدم
لبقيت حياً ألف عام محرم
لدم ثنائي وهو غير مذمّم
وأفحم ظناً وهو ليس بمقحم
تربصت حتى جئت فرداً بموسم
بنفسي لا بالوفد كان تقدي

ومن النماذج المتصلة بلغة القصيدة وموسيقاها ، هذه القصيدة التي سبقت بعض أجزاء منها ، ثم كثير غيرها مما قاله ابن هاني بخاصة ، حيث يتضح جلياً إنبار اللفظة الجزلة والعبارة الفخمة والموسيقى الجلييلة ، مما يذكرنا بأبي تمام والمنتبي .

ومن الظواهر التي تتصل بالاتجاهات الشعرية كذلك في فترة الخلافة :

(١) مر : شديد الفتل .

(٢) الأسارير : محاسن الوجه .

(٣) أشأمت : توجهت إلى الشام ، وأعرقت : توجهت إلى العراق . واللبانة : الحاجة .

(ب) تطور الاتجاهات السابقة :

ونعني بها تلك الاتجاهات التي عُرُفت في الأندلس قبل الاتجاه المحافظ الجديد ، وهي : الاتجاه المحافظ ، والاتجاه المحدث ، والاتجاه الشعبي . أما الاتجاه المحافظ فقد كان تطوره يتمثل في الذوبان تدريجاً في الاتجاه المحافظ الجديد ، الذي أخذ يحل محله ويؤدى وظيفته في التعبير عن تلك الأغراض التقليدية من مدح وفخر ورتاء وحماسة ، وما إلى ذلك . ولم يعد لهذا الاتجاه المحافظ بصورته القديمة مجال كبير بعد أن تعلق الأندلسيون بالاتجاه المحافظ الجديد ، واعتبروه الصورة المثلى للشعر التقليدي . وأغلب الظن أن هذا المجال الضيق الذي انحصر فيه الاتجاه المحافظ أصبح يتمثل في أوساط الرواة واللغويين وأمثالهم من المشبهين بطرائق العرب القدماء في التعبير . أما الشعراء والجمهور المثقف فقد كان الاتجاه المحافظ الجديد هو أمثل الاتجاهات الشعرية التقليدية عندهم وآثرها لديهم . ولعل مما يؤيد هذا ما سبقت الإشارة إليه من قول الزبيدي : إن الرياحي نظم قصيدة رثاء بناها على مذاهب العرب وخرج فيها عن مذاهب المحدثين فلم يرضها العامة (١) .

وأما الاتجاه المحدث فقد بقي نامياً مزدهراً لبقاء دواعي نموه وازدهاره ؛ فلا تزال الحياة الأندلسية برغم تعقلها واستقرارها من جانب ، تعج بكثير من التحرر وعدم المحافظة من جانب آخر ؛ فالخمر شائعة بين الأندلسيين شيوعاً يجزع معه الخليفة المستنصر ، ويدعوه إلى الأمر بإراقتها والهم باجتماعات كرومها ، لولا أن ينصح بالعدول عن ذلك لعدم جدواه ؛ فإن الأندلسيين — كما قيل للمستنصر — سوف يستخرجون خميرتهم من أى شيء آخر إذا اجتثت الكروم (٢) .

(١) انظر : طبقات النعمان للزبيدي ص ٢٩٩ . والمراد بالمحدثين ما يشمل الاتجاه المحافظ الجديد .

(٢) انظر : جذوة المقتبس ص ١٢ ، ١٤ .

ويعبر عن مشاعر كثير من الأندلسيين في تلك الفترة الشاعر الرمادي (١) ، بقصيدته التي تمثل الاتجاه المحدث ، في موضوعها الحمري ، وأسلوبها القصصي ، وروحها التحرري ، وذلك حيث يقول في موقف المستنصر من الحمري :

بِحَطَبِ الشارِبِينَ يَضِيقُ صَدْرِي وَتُرْمَضُنِي ^(٢) بِلَيْتِهِمْ لَعْمَرِي
 وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عِشَاقٍ أَصِيبُوا بِفَقْدِ حَبَائِبٍ وَمَنُوا بِهَجْرِ
 أَعْشَاقِ الْمَدَامَةِ إِنْ جَزَعْتُمْ لِمَفْرَقَتِهَا فَلَيْسَ مَكَانَ صَبْرِ
 سَمَى طُلَّابِكُمْ حَتَّى أُرِيقَتْ دَمَاءٌ فَوْقَ وَجْهِ الْأَرْضِ تَجْرِي
 تَضَوُّعَ عَرَفِهَا شَرْقًا وَغَرْبًا وَطَبَّقَ أَفْئِدَ قَرْطَبَةَ بِعَطْرِ
 فَعَلَّ لِلْمَسْفُحِينَ لَمَّا بَسَفَحَ وَمَا سَكَنَتْهُ مِنْ ظَرْفِ بَكْسَرٍ ^(٣)
 وَلِلْأَبْوَابِ إِحْرَاقًا إِلَى أَنْ تَرَكْتُمْ أَهْلَهَا سَكَانَ قَفْرِ
 تَحْرِيطِمْ بِذَلِكَ الْعَدْلِ فِيهَا بِزَعْمِكُمْ ، فَإِنْ يَكُ عَنْ تَحْرِي
 فَإِنْ أَبَا حَنِيفَةَ وَهُوَ عَدْلٌ وَفَرَّ عَنْ الْقَضَاءِ مَسِيرَ شَهْرِ
 فَفِيهِ لَا يَدَانِيهِ فَفِيهِ إِذَا جَاءَ الْقِيَاسُ أَتَى بَدْرِ
 وَكَانَ مِنَ الصَّلَاةِ طَوِيلَ لَيْلٍ يَنْقَطِعُهُ بِلَا تَغْمِيضِ شَفْرِ
 وَكَانَ لَهُ مِنَ الشُّرَابِ جَارٍ يُوَاصِلُ مَغْرِبًا فِيهَا بِفَجْرِ
 وَكَانَ إِذَا انْتَشَى غَنَى بِصَوْتِ الْمَضْمَاعِ بِسَجْنِهِ مِنْ آلِ عَمْرٍو ^(٤)

(١) من الشعراء الذين عاشوا صدر حياتهم في فترة الخلافة ، وسوف نترجم له في الفترة التالية التي عاش فيها أكثر حياته .

(٢) أَرْضَهُ : أَوْجَعَهُ وَأَحْرَقَهُ .

(٣) الْمَسْفُوحُ : مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَا يَجْدِي عَلَيْهِ . وَالسَّفْحُ : الْإِرَاقَةُ . وَظَرْفُ الْحَمْرِ : وَعَاثُهَا .

(٤) يَشِيرُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ عُمَانَ الْأَمْوِيِّ الْعَرَبِيِّ الشَّاعِرِ . وَكَانَ قَدْ شَبَّ بِجِدَاءِ أُمِّ مُحَمَّدٍ

ابْنِ هِشَامِ بْنِ إِسْمَاعِيلِ خَالَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، لِيَفْضَحَ وَلِهَا الَّذِي كَانَ وَالِي مَكَّةَ ، فَسَجَنَهُ تَعْنِ سِتِينَ إِلَى أَنْ مَاتَ .

«أضاعوني وأى فتى أضاعوا
فغيب صوتَ ذاك الجار سجن
فقال وقد مضى ليل وثمان
أجارى المؤنسى ليلاً غناءً
فقالوا : إنه فى سجن عيسى
فنادى بالطويلة وهى مما
ويمم جاره عيسى بن موسى
وقال : أحاجة عرضت فلانى
فقال : سجنى لى جاراً يسمى
بسجنى حين وافقه اسم جار الـ
فأطلقهم له عيسى جميعاً
فإن أحببت قل لـجوار جار
فإن أبا حنيفة لم يؤب من
نواقعها من اجل النهى سراً

ليوم كربة وسداد نثره^(١)
ولم يكن الفقيه بذاك يدري
ولم يسمعه غنى : ليت شعرى
لخبر قطع ذلك أم لشر
أناه به المحارس وهو يسرى
يكون برأسه بلخيل أمر
فلاقاه بكرام وبر
لقاضيهما وتميها بشكر
بعمرو ، قال : يطلق كل عمرو
فقيه ، ولو سجنتم بوتراً^(٢)
لجار لا بيت بغير سكر
وإن أحببت قل لطلاب أجر
تطلبه تخلصه بوزر
وكم نهى نواقعه بجهراً^(٣)

والحب الشاذ كان مألوفاً كذلك بين كثير من الأندلسيين ، حتى لرى الغزل
بالمذكر لا يقتصر على مجالات اللهو والمجون فحسب ، بل يتعدى ذلك إلى أكثر المجالات
وقاراً واصطناعاً للجد ، وهو مجال مدح الخليفة . فقد أثرت بعض مدائح عن شعراء
من تلك الفترة ، مقدمة بغزل شاذ ، مما يدل على أن هذا النوع من الغزل قد بلغ من
الشيوع والإلف درجة لم يعد معها مستكراً حتى فى مقام مدح الخليفة نفسه . ومن أمثلة

(١) هذا البيت للمرجى .

(٢) البوتر : الثأر .

(٣) اقرأ هذه الأبيات فى جذوة المقتبس للحيدى ص ١٤ ، ١٥ .

ذلك قول إسماعيل الكاتب في مقدمة قصيدة له يمدح بها الناصر:

اطُّفْتُ أَنامله بعقرب صدغه	عمداً ليلدغ في فؤاد العاشقِ
وكان شاربهِ هلال طالع	قد خطه بالمسك أحذق حاذق
وكانما بجبينه شمس الضحى	قد قُنَّعت بكلام ليل غاسق
وكان وجنته أزاهر روضة	يندى بها السوسان فوق شقائق
فإذا تلفتت قلت صورة دمية	وإذا تبسم قلت خطفة بارق
يا غايبة الحسن الذي هو غايبي	كيف احتمالي في فؤاد خافق
حكم الإله بما تراه فما أرى	من حيلة في دفع حكم الخالق
قل للخليفة من أمية والذي	ما دون فيض نواله من عائق
أنسييت من منصورها ورشيدها	وفضحت من مهديتها والواثق ^(١)

والطبيعة الأندلسية كانت كما هي دائماً ، فاتنة تتصدى لعيون الشعراء ، فتشجذ قرائحهم وتغري شاعريتهم ، وتلهبهم لوحات شعرية هي من خير ما خطت أقلام الأندلسيين . وقد بلغ من افتتان الأندلسيين منذ فترة الخلافة بالطبيعة ، أن بدأوا يخلصون بعض أشعارهم فيها مما كان يخالطها من حديث عن الخمر أو اللهو ، وصاروا يجعلون موضوع الطبيعة في كثير من الأحيان موضوعاً مستقلاً ، يقصد لذاته ويتحدث عن الطبيعة فيه حديثاً خالصاً . ومن ذلك قول عبيدالله بن يحيى^(٢) في الورد وقصّر مداته :

تخلت من الورد الأنيق حداثته	وبان حميد الأنس والعهد رائقه
أقام كرجع الطرف لم يشف غلة	ولم يرو مشتاق الجوانح شائقه
فما كان إلا الطيف زار مسلماً	فسر ملاقيه وسىء مفارقه

(١) وردت هذه الأبيات في : أخبار مجموعة ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) ذكره الحميدى في الجذوة وأشار إلى أنه كان وافر الأدب كثير الشعر جليلاً ، وأنه كان في أيام

على الورد من إلف التصابي تحية وإن حرمت إلف التصابي علائقه^(١)

والتطور الملحوظ الذى طرأ على الاتجاه المحدث فى فترة الخلافة ، هو أن حدة المحجون فيه قد خفت ، فأصبحت المجاهرة بالمعاصى شيئاً لا أثر له تقريباً ، كما صار الاستخفاف بالمواضع الاجتماعية والأخلاقية المرعية مما لا يكاد يحس فى شعر السائرين فى هذا الاتجاه المحدث ؛ فقد حل محل المجاهرة بالمعاصى والاستخفاف بالمواضع والأخلاق ، تجويد الشعر وصفله ، والتفنن فى معانيه وصوره ، والاحتجاج لما تضمنه من أفكار وآراء . وهكذا سترت الجوانب الفنية غالباً ما قد حواه الشعر من مجون وماصوره من لهو .

وأما الاتجاه الشعبى ، فقد اشتد عوده ، حيث اتجه إليه كبار الشعراء فى تلك الفترة ، واتخذوه فى بعض الأحيان إطاراً لتجاربههم .

فقد أخبرنا مؤرخو الموشحات أن ابن عبد ربه والرمادى كانا من الوشاحين ، وابن عبد ربه من أكبر شعراء فترة الخلافة ، والرمادى كذلك من أكبر الشعراء الذين عاشوا الجزء الأول من حياتهم فى نفس الفترة . وليس من شك فى أن اتجاه شاعرين كبيرين كهذين إلى الموشحات . مما يقوى عودها ويدفعها فى سبيل تطورها ونموها ، وهذا ما حدث ؛ فقد حدثنا الرواة كذلك عن تطور أحرزته الموشحات على يد الرمادى ، فذكروا : أنه أول من صنع التضمين فى المراكيز^(٢) . ولعل المراد بهذا أن الرمادى أول من ضمن الخرجات أجزاء من الأغنيات الشعبية الأندلسية ؛ أو من الأمثال والحكم الشائعة ، أو نحو ذلك مما يصدق عليه التضمين .

وبرغم أن الرمادى قد عاش أكثر حياته فى الفترة التالية ، فالمرجح أن يكون هذا التطوير الذى أدخله على الموشحات قد حدث فى فترة الخلافة التى نسوق عنها الحديث ،

(١) وردت هذه الأبيات فى اللجنة ص ٢٥١ .

(٢) انظر : مقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ والذخيرة لابن بسام ق ٢ م ١ ص ٢٠١ .

وذلك لأن هذه الفترة كانت أكثر حرية من الفترة التالية ، والحرية يجوها الرهب هي التي تتيح للشاعر كالرمادى أن يتجه إلى هذا الاتجاه الشعبي أولاً . وأن يطور فيه ثانياً . ومع الأسف لم يُعثر إلى الآن على موشحات من تراث تلك الفترة ؛ ولعل السبب اعتبار الرواة ومؤرخي الأدب الأقدمين هذا الفن الشعري فناً سوقياً لا يستحق التسجيل ، وقد صرح بذلك ابن بسام أول من كتب عن الموشحات من الأقدمين (١) .

هذا ما يتعلق بالاتجاهات الشعرية وما أضيف إليها من زيادات ، وما طرأ عليها من تطورات . وأما من حيث الأفكار الشعرية وصلتها بالنهضة العلمية التي أظلت الأندلس في فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض النماذج الشعرية :

(ح) تسرب بعض الأفكار العلمية :

ولسنا نغنى بذلك نظم الحقائق العلمية في منظومات يسهل حفظها ، وإنما نعنى معالجة بعض القضايا معالجة شعرية تشتمل على أفكار واصطلاحات من ميدان العلم لامن ميدان الفن . ومن أوضح الأمثلة على ذلك ، تلك الأبيات التي يوجهها ابن عبد ربه إلى الفلكي أبي عبيدة (٢) ، مناقشاً إياه في بعض القضايا الجغرافية الفلكية . ورافضاً آراءه في كل ذلك :

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ٢ ص ٢ .

(٢) هو مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة لكونه كان مولماً بالشرق في قبلته . وكان عالماً بالحساب والنجوم . ترجم له ابن الفرضي في تاريخ العلماء وقال إنه توفي سنة ٢٩٥ هجرية . وترجم له الحميدي في الجندوة والضبي في البنية ، وذكر أن وفاته كانت سنة ٣٠٤ هجرية . وهذا التاريخ الأخير هو الراجح ، فإن الأفكار التي يعتنقها أبو عبيدة ويجهار بها تتناسب مع فترة الخلافة وما فيها من حرية فكرية ، ولهذا يرجح أنه عاش طرفاً من تلك الفترة وجاهر بأرائه وتحمل مثل هذا النقد الذي يوجهه إليه ابن عبد ربه . انظر تاريخ العلماء ترجمة ١٤٢٠ ، وجذوة المقتبس ترجمة ٨٢٢ ، وبغية الملتبس ترجمة ١٣٧١ .

أبا عبدة ما المشول عن خبر
 أبيت إلا شذوذاً عن جماعتنا
 كذلك القبلة الأولى مبسلة
 زعمت بهرم أو بيذخت يرزقنا
 وقلت إن جميع الخلق في فللك
 والأرض كوربة حفاً السماء بها
 صيف الجنوب شتاء للشمال بها
 فما لكانون في صنعا وقرطبة
 تحكيه إلا سواء والذي سألا
 ولم تُصب رأى من أرجى ولا اعتزلا
 وقد أبيت فما تبغى بها بدلا
 لا بل عطارد أو مريخ أو زحلا
 بهم يحيط وفيهم يتقسم الأجلا
 فوقاً وتحتاً وصارت نقطة مثلاً
 قد صار بينهما هذا وذا دولا
 برداً وأيلول يدعى فيهما الشعلا^(١)

فهذه قضية يحس معها الشاعر بالنفرة من آراء الفلكيين الذين ينسبون بعض ظواهر الكون لعلاقات بين الكواكب ، وبعدم الاقتناع بما يقول به العلماء من أن الأرض كروية يحيط بها فضاء السماء من كل جهاتها ، وأنها أشبه بنقطة في وسط دائرة ، وأن الفصول تتعاقب على الأرض وتختلف من مكان لآخر باختلاف موقع هذا المكان شمالاً أو جنوباً ، ومن هنا يكون الصيف في الجنوب هو وقت الشتاء في الشمال . وبدل الشاعر على رفضه لتلك النظريات بأن شهر كانون يكون في كل من صنعا وقرطبة برداً برغم أن هذه المدينة في اليمن وتلك في الأندلس ، وبأن شهر أيلول يكون كذلك في كل من المدينتين قيطاً برغم هذا الاختلاف في المكان أيضاً . ولسنا هنا بصدد تفنيد خطأ الشاعر في رفضه أقوال العلماء ، وإنما الذي نريده فقط هو ملاحظة تسرب تلك الأفكار العلمية الكثيرة إلى هذا النموذج من شعر ابن عبد ربه ، وكيف تعرض إلى فكرة الفلك والكواكب وعلاقتها بالظواهر الطبيعية ، وإلى فكرة كروية الأرض وإحاطة السماء بها من

(١) وردت هذه الأبيات في تاريخ العلماء لابن الفرضى ص ١٢٦ وفي طبقات الأمم لمساعد الأندلسي ص ٦٤ ، ٦٥ . وهناك بعض اختلاف بين النص الوارد في تاريخ العلماء والوارد في طبقات الأمم . وقد أخذنا من كل ما يتسق أكثر مع السياق .

كل الجهات ، وإلى فكرة الفصول وتعاقبها على أجزاء الأرض ، واختلافها في كل جزء حسب موقع ذلك الجزء من الشمال أو الجنوب .

ولستا بعد في حاجة إلى أن نقول : إن هذه الظاهرة الشعرية كانت أثراً من آثار شيوع الدراسات الجغرافية والفلكية في فترة الخلافة ، تبعاً لما كان من حرية فكرية ونهضة ثقافية

ومن الأمثلة التي تصور تسرب الأفكار العلمية إلى بعض النماذج الشعرية ، تلك الأبيات التي يوجهها الزبيدي للغوى والشاعر الأندلسي ، إلى الوزير المصحفي ، ليؤكد له من وجهة نظره - خطأ استعمال الفعل « فاض » بالضاد ، ويبين أن صحته « فاظ » بالطاء :

أتاني كتاب من كريم مكرم	فنفسى عن نفس تكاد تفيظُ
فسرّ جميع الأولياء وروده	وسىء رجال آخرون وغيظسوا
لقد حفظ العهد الذي قد أضاعه	لدى سواه والكريم حفيظ
وباحثت عن فاظت وقبلى قالها	رجال لديهم في العلوم حظوظ
روى ذلك عن كيسان سهل وأنشدوا	مقال أبي الغيّاظ وهو مغيظ
وسميت غيّاظاً ولست بغائظ	عدوا ولكن للصديق تغيظ
فلا حفظ الرحمن روحك حية	ولا هي في الأرواح حيث تفيظ (١)

(١) كان الوزير المصحفي قد بعث بكتاب إلى الزبيدي وردت فيه كلمة فاض بالضاد ، فكتب إليه الزبيدي بأبيات غتمها بقوله :

لا تدعن حاجتي مطرحة فإن نفسى قد فاظ فائظها
وكأنه أراد بذلك أن يلفت نظره إلى الخطأ ويرشده إلى إصلاحه .
ولكن المصحفي بعث بأبيات إلى الزبيدي يطلب فيها مزيداً من التفسير ويقول :

فالشاعر هنا يحاول إثبات صحة الفعل « فاظ » بالظاء وتخطئة نطقه بالضاد^(١) . وهو يعتمد إلى التدليل على صحة قوله بذكر آراء الثقات من اللغويين ، وإيراد الشاهد من كلام العرب ، ويضمن نموذج الشعرى بعض الأفكار والاصطلاحات الخاصة بالحقل اللغوي لا الحقل الشعرى . وواضح أن مثل ذلك كان أثراً من آثار النهضة العلمية وازدهار الدراسات اللغوية في فترة الخلافة .

وأما من حيث لغة الشعر وعلاقتها بالحياة اللغوية التي كان يجيها الأندلسيون في فترة الخلافة ، فيلاحظ على بعض نماذج الشعر الفصيح ما يمكن أن يسمى :

(د) الازدواج اللغوي :

ونعني بذلك تسرب بعض الألفاظ من عامية اللاتينية المسماة « رومانثي » Romance إلى لغة الشعر الفصيح ، بحيث يأتي النظم مزدوجاً من الناحية اللغوية . ومن أمثلة ذلك ، هذا النموذج الذي تتضمنه القصة الآتية :

جلس الخليفة الناصر يوماً مع خاصته . وفيهم الوزير ابن جهور والشاعر أبو القاسم لُبّ . فأراد الخليفة أن يداعب جلساءه ، فطلب من الشاعر أن يهجو الوزير ابن جهور ، فامتنع خوفاً على نفسه من سلطة الوزير ، فطلب من الوزير هجاء الشاعر ، فامتنع خوفاً على عرضه من لسان الشاعر . فقال الناصر : فأنا أهجوه ، وأنشد :

لُبُّ أبو القاسم ذو حليمة طويلة في طولها ميلُ

وقد أتتني فديت شاذلة لنفس أن قلت فاظ فانظها

فأوضحها تفسر بنادرة قد بهظ الأولين باهظها

فرد عليه الزبيدي بالآيات التي أوردناها . انظر القصة كلها في جنوة المقتبس ترجمة ٣٤ ص ٤٢-٤٤ ، ٤٥ .

(١) استعمال الفعل بالضاد لغة بعض العرب . انظر : اللسان مادة « فاظ »

ثم قال لابن جهور : لا بد من تذييل هذا البيت ، ودع الاعتذار . فقال :
 وعرضها ميلان إن كُسرت والعقل مأفون ومجبول
 لو أنه احتساج إلى غسلها لم يكفه في غسلها النيل
 فضحك الناصر ، وقال للشاعر المهجو : إنه قد سبب لك القول فقل ، فأنشد :
 قال أمين الله في خلقه لي حيلة أزرى بها الطول
 وابن جُهَيْر قال قول الذي مأكله القَرَضِيل والفول
 لولا حيائي من أمير الهدى نخست بالمنخس « شو » . . .
 ثم أمسك عن الحديث ولم يتم البيت بعد كلمة « شو » فقال له الناصر : « قولو »
 فقال الشاعر : أت هجوته يامولاي . فضحك الناصر ، وأمر له بصلة^(١) .

فكان الشاعر قال في ابن جهور :

لولا حيائي من أمير الهدى نخست بالمنخس « شو قولو »
 والإضحاك والحساسية في هذا الهجاء ، يأتيان من استخدام لفظتين « رومانيتين »
 وهما : « شو » و « قولو » ، والأولى تدل على ضمير الملك للمفرد الغائب ، مثل الهاء
 في التعبير العربي : « كتابه » ، وقد صارت في الإسبانية « سو » Su . والثانية معناها
 الردف . وقد صارت في الإسبانية « كُول » Culo فالمعنى على هذا :

لولا حيائي من أمير الهدى نخست بالمنخس ردفه
 وهكذا استخدمت بعض الألفاظ « الروماني » في بعض النماذج الشعرية الفصحى
 فكان منهما ماسميناه بالازدواج اللغوي .

وليس من شك في أن قوة الصلة بين العنصرين العربي والإسباني في فترة الخلافة ،

(١) وردت هذه القصة والأبيات التي جاءت ضمنها في : نفع الطيب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ٢٤٧ وفي : البيان

المغلوب ج ٢ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

كانت من أسباب تسرب مثل هذه الألفاظ الأجنبية إلى لغة الشعر . هذا بالإضافة إلى روح الحرية وطابع التحرر اللذين كانا من أهم سمات تلك الفترة من تاريخ الأندلس . أما من حيث دور الشعر في تلك الفترة وصلته بالحياة التي كان يحياها الأندلسيون فأهم مظاهره :

(هـ) تصوير العهد الذهبي :

ونعني بذلك أن الشعر في فترة الخلافة قد صور الحياة الأندلسية في عهدها الذهبي ، الذي نعمت في ظلالة سياسياً واجتماعياً وثقافياً . فقد صور الشعر عظمة الدولة وقوة الخلافة ، وتفوقها تفوقاً جعل لإمبراطور الروم يرسل سفراء إلى قرطبة موالين ، وجعل بعض أمراء الإسبان الشماليين المسيحيين يتقدمون إلى العاصمة الأندلسية خاضعين . وفي بعض ذلك يقول منذرين سعيد ، مشيراً إلى وفود سفارة إمبراطور الروم على الناصر :

ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه وكلهم ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فئانه مخافة بأس أو رجاء لنائل
فعمش سالمًا أقصى حياة مؤملاً فأنت رجاء الكل حافٍ وناعل^(١)
ستملكها ما بين شرق ومغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

ويقول عبد الملك بن سعيد . مشيراً إلى قدوم الأمير الأسباني « أردون » إلى المستنصر طالباً العون :

هذا أميرهم أتاه آخذاً منه أواصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً في مأمن لما يبرغ بقتال
سينال بالتأميل للملك الرضا عزاً يعم عسده بالإذلال

(١) وردت هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ١٧٤ .

لا يوم أعظم للولاة مسرة وأشده غيظًا على الأقيال^(١)
من يوم « أردون » الذي إقباله أمل المدى ونهاية الإقبال^(٢)

وصور الشعر كذلك قوة جيش الأندلس وضخامته وسرعة حركته وبعد مسيرته
وشدة تنكيله بالأعداء . ومن ذلك قول إسماعيل بن بدر :

وذى لجب كالبحر عب عبابه فضاقي به رجب الفلا والنائف
قريب الخطا نأى المدى مالىء الملا يجمع تراه واقفًا غير واقف
تركنا به أرض العدو كأنها مجاهل للمرتاد غير معارف^(٣)

كما صور الشعر أيضًا كثيرًا من مظاهر الحياة الاجتماعية ، في جانبها اللاهى
والجاد . وقد مضت عدة نماذج تتصل بالجانب اللاهى . أما الجانب الجاد فتمثله نماذج
كثيرة ضمنتها كتب الأدب والراجم التى حوت أشعاراً من تراث تلك الفترة . ومن أبرز
تلك النماذج ما يعبر عن تجارب ذهنية مصورة فى شعر حكيمى مبنى على البصر بالحياة ،
وسعة الإدراك للحقائق . ومن ذلك قول الناصر :

ما كلُّ شىءٍ فقدتُ إلا عوضنى الله عنه شيئاً
إني إذا ما منعت خيرى تباعد الخير من يديا
من كان لى نعمة عليه فإنها نعمة عليا^(٤)

ومن أبرز النماذج الشعرية التى تمثل الجانب الجاد من حياة الأندلسيين فى تلك الفترة
كذلك ، تلك التى تعبر عن تجارب عاطفية مصورة فى غزل عذرى ، معتمد على صدق

(١) الأقيال : جمع قيل ، وهو الملك .

(٢) وردت هذه أبيات فى : الحلة السراء لابن الأبار ص ١٢٨ .

(٣) وردت هذه أبيات فى : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٤) وردت هذه أبيات فى : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١٧٦ .

العاطفة وعمق الشعور ونبل الإحساس وسمو الروح ، ومن أمثلة ذلك كثير مما يتضمنه كتاب الحدائق ، من مثل قول ابن فرج (١) :

وطائفة الوصال عدوتُ عنها	وما الشيطان فيها بالمطاع
بدت في الليل سافرة فبات	دياجي الليل سافرة التناع
وما من لحظة إلا وفيها	إلى فن القلوب لها دواع
فلتكتُ النهى جمحات شوقى	لأجرى في العفاف على طباعى
وبت بها مبيت السقب يظما	فيمنعه الكعام من الرضاع (٢)
كذاك الروض ما فيه لمثلى	سوى نظر وشم من متاع
ولست من السوائم مهملات	فأتخذ الرياض من المراعى (٣)

وهكذا صور الشعر الأندلسى الحياة الأندلسية بأطرافها الرسمية وغير الرسمية ، وجوانبها اللاهية والحاددة ، وشاع بين الأندلسيين شيوعاً جعله يتغلغل في الحياة العامة ويستخدم في كثير من الأمور اليومية . فكان في بعض الأحيان يؤدي وظيفة الرسائل والبطاقات (٤) ، وأحياناً يحل محل لغة الجدل والمناظرات (٥) . بل ، لقد بلغ من شيوع الشعر وقوة اتصاله بحياة الأندلسيين ، في تلك الفترة ، أن أنطقوا به غير الإنسان في بعض المواقف . وقد حكى أن الناصر أحضر طبيباً لفصده ، وقعد لذلك بالبهو المشرف بأعلى

(١) هو أحمد بن فرج الجياني صاحب كتاب الحدائق ، ترجم له الحميدى في الحدوة وذكر أنه كان وافر الأدب كثير الشعر . وكتابه الحدائق قد ألفه للحكم المستنصر وضمنه كثيراً من نماذج الشعر العذرى للأندلسيين . انظر الحدوة ترجمة ١٧٦ .

(٢) السقب : ولد الناقة . الكعام : الكمامة .

(٣) وردت هذه الأبيات في : جذوة المقتبس ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٤) اقرأ نماذج من ذلك في : نفع الطيب ج ١ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٨ وفي طبقات الأم لصاعد

ص ٧٩ .

(٥) اقرأ بعض شواهد ذلك في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٩ .

الزهراء ، ولما أخذ الطبيب الآلة ليقوم بالجراحة ، أطل زُرزور وصعد على إناء من الذهب كان بالجلس ، وراح يقول :

أيها الفاصد رفقًا بأمير المؤمنين
إنما تفصد عرقًا فيه حيا العالمينا^(١)

وقد قالوا : إن بعض نساء الخليفة ربت هذا الزرزور على حفظ هذا الشعر ، وفاجأت به الخليفة لتسعه بهذه المفاجأة . ويمكن أن تكون في هذه الحكاية مبالغة أو اختراع ، ولكنها مع ذلك دالة على أن الشعر في هذه الفترة كان من الشيع في حياة الأندلسيين بحيث يسمح بمثل هذا الذي يروون عن نطق الزرزور بالشعر .

(و) الشعراء :

شعراء هذه الفترة كثيرون ، وهم من الوفرة بحيث يصعب إحصاؤهم والحديث عن كل واحد منهم . فهم بين خليفة كالناصر والمستنصر ، ووزير كإبن جمهور وإبن شهيد ، وعالم كالزبيدي ومنذر بن سعيد ، هذا بالإضافة إلى الأدباء الذين كانوا يصرفون أكثر نشاطهم إلى الأدب ؛ كإبن عبد ربه وإبن هانيء وغيرهم من الشعراء العديدين الذين عرفتهم تلك الفترة من تاريخ الأندلس ، والذين حفظت المصادر^(٢) أسماء بعضهم وطرفًا من أشعارهم : مثل إسماعيل بن بدر ، وهانيء بن محمد ، وعبيد الله بن يعلى ، وعبد الرحمن بن الأصم وأغلب بن شعيب الجياني ، وعبيد الله بن يحيى بن إدريس . وهؤلاء ممن اشتهروا في أيام الناصر . ومثل : أحمد بن فرج ، وإبن الصفار ، وعبيد الله بن الناصر ، وإبن يعقوب الأعمى ، وأبى بكر المغربي ، ومحمد بن الحسين الطبتي . وهؤلاء ممن اشتهروا في أيام المستنصر .

(١) ورد هذان البيتان وقصتهما في نفع الطيب ج ١ ص ١٦٨ .

(٢) من أهم تلك المصادر : جذوة المقتبس ، وبنية المنتس ، والحلة السيرة ، والمغرب .

وقد كان بعض شعراء فترة الخلافة ممن عاشوا بعض حياتهم في الفترة السابقة وكان لهم فيها نتاج شعري ؛ كابن عبد ربه ، ولكننا سنتبره من شعراء فترة الخلافة ؛ لأنها الفترة التي تم فيها نضجه الفني . كذلك كان ممن أسهموا بنشاط شعري في تلك الفترة ، بعض الشعراء الذين سيلمعون في الفترة التالية مثل الرمادى ، ولكننا سوف نعتبر أمثال هذا الشاعر من شعراء الفترة التي فيها سيلمعون .

ولكثرة الشعراء في فترة الخلافة وصعوبة الحديث عنهم جميعاً في هذا الدرس العام ، سنكتفي بالحديث عن شاعرين فقط ، لأنهما أولاً أبرز شعراء فترة الخلافة ، ولأن شعرهما ثانياً يمثل كل الاتجاهات الشعرية في تلك الفترة . وهذان الشاعران هما : ابن عبد ربه ، وابن هاني .

ابن عبد ربه :

هو أبو عمر ، أحمد بن محمد عبد ربه^(١) ؛ كان جده الرابع مولى لهشام بن عبد الرحمن الداخل . وقد ولد ابن عبد ربه في قرطبة على الأرجح ، وكان مولده سنة ٥٢٤٦هـ . ونشأ بالعاصمة الأندلسية ، متلقياً علوم الإسلام والعربية على كبار العلماء الأندلسيين في ذلك الحين^(٢) ، ثم أكب بنوع خاص على كتب التاريخ والأدب ودواوين الشعر التي جادت بها فرائح المشاركة قبل عهد ابن عبد ربه وفي أيامه^(٣) . وقد زار المشرق كما

(١) اقرأ ترجمته وأخباره في: تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى رقم ١١٨ ، وفي : جنوة المقتبس للحميدى رقم ١٧٢ وفي : بنية الملتبس للضبي رقم ٣٢٨ ، وفي مطمح الأنفس لابن خاتقان ص ٥٨ ، وفي معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢١١ - ٢٢٤ وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٣٢ - ٣٣ وفي المطرب لابن دحية ص ١٥١ وما بعدها .

واقراً حياته مفصلة في كتاب : ابن عبد ربه وعقده لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣) .

(٢) مثل الخشني ووضاح وبقى بن مخلد (ابن الفرضى) .

(٣) القارئ لكتابه العقد والمتأمل في أشعاره ، يدرك اطلاعه على بعض كتب الجاحظ والمبرد وابن قتيبة وسيرة ابن هشام وأشعار الجاهليين والإسلاميين .

يؤكد ذلك حديثه في كتابه «العقد» حين عرض لموضوع وصف بعض البلدان والأماكن المقدسة ، كالمسجد الحرام والكعبة والحجر الأسود والمسجد النبوي (١) وما إلى ذلك ، وإن كنا لانجد ذكراً لهذه الزيارة عند أحد ممن ترجموا له من القدماء (٢) . وبرغم ما يبدو من أن تلك الرحلة كانت أساساً للحج ؛ قد كانت إلى جانب ذلك رحلة لتوسيع الدراسة وتعميق العلم وتقوية الاتصال بثقافة المشرق ، التي كانت دائماً المصدر الأول لثقافة الأندلسيين .

وقد كان أول ظهور شاعرنا كأديب في الفترة السابقة أيام الأمير محمد ، وقد عاصر ابنه المنذر وعبد الله ، الذي كانت لشاعرنا فيه قصائد مدح حفظت المصادر طرفاً منها (٣) . ثم امتد الأجل لابن عبد ربه حتى كان من ألمع شعراء فترة الخلافة أيام عبد الرحمن الناصر وبعد حياة حافلة بالأدب شعراً ونثراً وافته منيته سنة ٣٢٨ ، فدفن بقرطبة بعد أن عاش نحو اثنين وعشرين عاماً .

ويبدو أن ابن عبد ربه كان في شبابه محبباً للمتعة في شيء من التحرر ؛ فكان يشرب ويطرب ويلهو . وما يدل على ذلك قوله :

وقضيبٍ يميس فوق كتيب طيبٍ المجتبي للذيذ العناق
قد تغنى كما استهل يغنى ساقٌ حرٌّ (٤) مغردٌ فوق ساق

وقوله :

ديننا في السماع دينٌ مدِينِي وفي شربنا الشراب عساقِي (٥)

(١) انظر : العقد ج ٣ ص ٢٨٠ وما بعدها (ط . الشرفية - القاهرة) .

(٢) ذكر الدكتور أحمد أمين هذه الزيارة . انظر كتابه . ظهري الإسلام ج ٣ ص ٨٥ .

(٣) انظر : المتنبس لابن حيان (الجزء الذي نشره القس ملشور أنطونيا) ص ٤٣ وما بعدها ،

و ٩٧ وما بعدها .

(٤) ساق حر : هو الطائر المسمي بالقهاري .

(٥) يريد أن يشير إلى أنه على مذهب مالك في إباحة السماع ، وعلى مذهب أبي حنيفة في إباحة شرب النبيذ .

والأبيات الواردة في : يتيمة الدهرج ج ٢ ص ٨ .

وبما يصور تحرره أيضاً في الشطر الأول من حياته قوله :

بزمَامِ الهوى أمتٌ إليهِ وبِحُكْمِ العُقَارِ أقضى عليه
بأبي من زها على بوجهه كاد يدمي لما نظرتُ إليه
ناولَ الكأس واستمال بلحظ فسقتني عيناه قبل يديه^(١)

ولما تقدمت السن بابن عبد ربه تاب وأناب. وأصبح أميل إلى الزهد، ومن شواهد ذلك قوله :

ألا إنما الدنيا غَضَارَةٌ أَيْكَةٌ إذا اخضر منها جانبٌ جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب
وكم سَخِنتِ بالأمس عينٌ قريرة وقرت عيون دمعها اليوم ساكب
فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب^(٢)

وشعر ابن عبد ربه لا يلتزم اتجاهًا واحدًا من تلك الاتجاهات التي كانت معروفة في عهده ، وإنما هو شعر يسير في أكثر تلك الاتجاهات ، ولكن بلا فقدان لشخصية الشاعر أو انحاءه للملامح الخاصة ، بل مع ظهور شخصية متميزة ذات ملامح واضحة .

فابن عبد ربه شاعر قد مد الله في أجله ، فعاصر مدارس عدة وشاهد اتجاهات مختلفة ، ثم هو قد كان رجلاً محبباً للقراءة ، مكثراً من تتبع الأساليب ، ومن هنا كانت حصيلته الأدبية غنية ، ومعرفته بكل الاتجاهات دقيقة . فإذا صادف ذلك كله طبعاً متخيراً وملكة متحررة ، كانت النتيجة تنقلا بين كل الأغصان وتغريداً لكل الأشجار . فهو رجل يسير بشعره في الاتجاه المحافظ حيناً ، وفي الاتجاه المحدث أحياناً ،

(١) وردت هذه الأبيات في : البيهية ج ٢ ص ٦ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : الطرب لابن دحية ص ١٥٥ وفي : جنوة المقتبس للسميني ص ٩٦ .

وفي بيته الدهر للشمالي ج ٢ ص ٧ .

ثم هو يشارك أيضاً في الأخذ بالاتجاه الشعبي ، ويسابق المتجهين إلى المذهب المحافظ الجديد ، الذي كان يقلب على شعره بعد نضجه .

لكن ترك ابن عبد ربه للتقيد بمذهب خاص لم يخف شخصيته ولم يمح ملامحه ؛ فشعره يتسم بسمتين واضحتين هما : البساطة والغنائية . فأكثر شعره تنضح فيه بساطة الفكرة ، بحيث لا تظهر فيها محاولة لتعقيد أو تركيب أو تفلسف . كذلك أكثر صورته الشعرية تبدو بسيطة ، بحيث يسهل إدراكها وتوشك أن تلمس وتحس . وألفاظه أيضاً تأتي جلية واضحة ، بحيث لا تحتاج غالباً إلى تفسير . وكذلك أسلوبه ، يبدو بسيطاً سهلاً ، ويبلغ من السهولة أحياناً أن يذكر جزء من البيت فيوشك أن يكمله السامع .

واستمع إلى قوله في بعض انتصارات الأمير عبد الله على الثائر ابن حفصون لتحس تلك البساطة :

وما فيهما عهد ولا فيهما صلح	هو الفتح منظوماً على إثره الفتح
وأحسن مقرون إلى قدرة صفح	سوى أن صفحاً كان من بعد قدرة
وتخضر طوراً كلما بلها الرشح ^(١)	ومغربة تغبر في النقع كتهما
كساها عقياً أحمرأ ذلك النضح	تراهن في نضح الدماء كأنما
وتسبح في البر الذي ما به سبح	تظير بلا ريش إلى كل صيحة
يرى أن جد الحرب من بأسه مزح	عليها من الأبطال كل ممارس
على أنه طلق لنا وجهه السمح	يعسدونه الأعداء كرباً عليهم
سراحين قبل اليوم فهى لنا سرح ^(٢)	وكان ابن حفصون يعد جياده
وليس يؤدي شكر ما أنعم الجنح	نجا مستكنا تحت جنح من الدجى

(١) المغربة : الخيول الكثيرة العدو . والكت : جمع كيت ، وهو ما خالط حيرته قنوه .

(٢) السراحين : جمع سرحان ، وهو الذئب أو الأسد ، والسرح المال السام .

دعته سُحَّى ذبائح غلبه مَبِيَّة فَرَحًا له منها وقل له الترح (١)
 على أن تلك البساطة لم تكن دائماً مصدر جمال لشعر ابن عبد ربه ؛ فقد كانت
 أحياناً تصل إلى درجة السطحية أو التفاهة ، ومن ذلك قوله بمدح الأمير المنذر بن محمد :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
 فالطير فيها ساكن والوحش فيها قد أنس (٢)

وقوله فيمن اسمه أبو العباس :

الله جردَ للندى والباسِ سيفاً فقلده أبا العباسِ
 ملك إذا استقبلت غرة وجهه قبض الرجاء إليك روح الياسِ
 وبه عليك من الحياء سكينه ومجبة تجرى مع الأنفاسِ
 وإذا أحب الله يوماً عبده ألقى عليه مجبة للناس (٣)

أما السمة الثانية من سمات شعر ابن عبد ربه ، وهي الغنائية ، فنعني بها الغنائية
 بالمعنى الخاص (٤) ، التي تتمثل في غلبة الجانب الموسيقي واتضح العنصر العاطفي ،
 وشيوع الرقة والسلاسة . فأكثر شعر ابن عبد ربه تتضح فيه تلك السمة الغنائية وخاصة
 ما كان متصلاً بموضوع غنائي بطبعه .

ومن ذلك قوله (٥) :

ودعني بزفرة واعتناق ثم قالت : متى يكون التلاق

(١) وردت هذه للأبيات ضمن قصيدة في: المقتبس لابن حيان نشر منشور أنطونيا ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) ويريد هذان البيتان في : وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣ .

(٣) وردت هذه الأبيات في : العقد الفريد ج ١ ص ٨٢ .

(٤) لأن كل ما سوى شعر الملاحم والشعر التمثيلي يسمى شعراً غنائياً بالمعنى العام للغنائية .

(٥) وردت هذه الأبيات في : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٢١ وفي : وفيات الأعيان لابن خلكان

وتصدت فأشرف الصبح منها بين تلك الحبوب والأطياب
يا سقيم الجفون من غير سقم بين صينك مصرع المشاق
إن يوم الفراق أقطع يوم ليتى مت قبل يوم الفراق
ومنه أيضاً قوله :

الجسم في بلد والروح في بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
إن نيك عينك لي يا من كلفت به من رحمة، فهما سهمان في كبدي^(١)

وتلك السمة في شعر ابن عبد ربه - وهي سمة الغنائية - مصدر حرارة شعرية له ،
ومبعث إيجابية فنية فيه . وهو يقوى ويضعف دجاً لحظه من تلك السمة الشعرية الأصلية .
هاتان هما أهم سمات شعر ابن عبد ربه ، فإذا أضيف إليهما تحرره ، وعلم تقيده
باتجاهه في خاص ، تكونت الصورة الكاملة لشاعريته .

وقد جانب الدقة قول المرحوم الأستاذ أحمد ضيف ، في شعر ابن عبد ربه :
إنه كان « من قبيل الصناعة وحب الكلام الجميل لأنه كان يميل إلى قول الشعر ونظم
الكلام ، لا ممن خلقوا شعراء »^(٢) . نعم قد جانب هذا القول الدقة ، لأن ابن عبد ربه
صاحب هذا الشعر المطبوع الذي رأينا بعض نماذجه ، والذي قيل^(٣) إنه جُمع في نيف
وعشرين مجلداً - لا يمكن أن يتصور رجلاً صناعة وحب للكلام الجميل ، كما لا يمكن
أن يسلم بأنه ليس من الشعراء الموهوبين .

كذلك ليس من الأحكام التي يطمئن إليها الباحث ، قول المرحوم الأستاذ أحمد
أمين : في ابن عبد ربه : إنه يسير في ركاب المشاركة ، « ويجهد ما استطاع أن يأخذ

(١) هذان البيتان واردان في : جلاوة المقتبس لعمري ص ٩٥ وفي : المطرب لابن دحية ص ١٥٣ .

(٢) انظر كتابه : بلاغة العرب في الأندلس ص ٩١ .

(٣) انظر : جلاوة المقتبس لعمري ص ٩٤ .

معانيهم ويزيد عليها ويختار في كل نوع من الشعر إماماً من المشاركة ؛ فطوراً إمامه صريع الغواني ، وطوراً أبو العتاهية . وغيرهم ؛ لم يتحرر تحرراً كافياً ولم يصغ إلى قلبه فقط^(١) . نعم ليس هذا القول من الأحكام التي يطمئن إليها الباحث ، وذلك لأن ابن عبد ربه لم يكن يسير في ركاب المشاركة . وإنما كان يعارضهم ، ويهدف إلى التفوق عليهم . وكان مدفوعاً إلى ذلك بثقافته الأدبية الواسعة وطبعه الفنى الأصيل وروحه الأندلسي الطموح المتفق مع الاتجاه العام لعصره ؛ حيث كان الأندلسيون يحاولون دائماً تأكيد ذواتهم الأندلسية ، وإثبات عدم تخلفهم عن المشاركة . فهو لم يكن يأخذ معاني المشاركة ؛ وإنما كان يحاول أن يثبت قدرته على الإتيان بمثلها أو بأحسن منها . وهو لم يكن يتخذ لنفسه إماماً من شعراء المشرق في كل فن ؛ وإنما كان يعارض هؤلاء الأئمة ؛ ليثبت أنه مثلهم أو أقدر منهم . وهو لم يجانب التحرر ويترك الإصغاء إلى قلبه ؛ وإنما تحرر فلم يلتزم مذهباً معيناً ، وأصغى إلى قلبه فقال في كل أحاسيسه وخلجاته . وانظر إلى قوله في معارضة مسلم بن الوليد ، ثم تعليقه هو على تلك المعارضة ، لترى أنه ما كان يسير في ركاب شعراء المشرق ؛ وإنما كان يحاول أن يسبقهم . يقول ابن عبد ربه في معارضة قصيدة مسلم التي مطلعها . أديراً على الزاح لاتشربا قبل :

أقتلتني ظلماً وتجددني قتلي	وقد قام من عينيك لي شاهدا عدل
أطلاب ذحلي ^(٢) ليس لي غير شادن	بعينه سحر فاطلبوا عنده ذحلي
أغارَ على قلبي فلما أتيتُه	أطالبه فيه أغار على عقلي
بنفسي التي ضنت بردٍ سلامها	ولو سألت قتلي وهبت لها قتلي
إذا جثتها صلت حيساء بوجهها	فيعجبنى هجر ألد من الوصل
وإن حكمت جارت على بحكمها	ولكن ذاك الجور أشهى من العدل

(١) اقرأ هذه الأحكام في كتاب الأستاذ أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٢٤ .

(٢) الذحل ؛ الثأر .

كتمتُ الهوى جهدى فجرده الأسي بماء البكا هذا يخط وذا يملئ
وأحببت فيها العذل حباً لذكرها فلا شيء أشهى في فؤادي من العذل
أقول لقلبي كلما ضامه الأسي إذا ما أتيت العز فاصبر على الذل
برأيك لا رأي تعرضت للهوى وأمرك لا أمرى وفعلك لا فعلى
وجدت الهوى نصلاً من الموت مغمداً فجردته ثم اتكيت على النصل
فإن تك مقتولا على غير ريبة فأنت الذى عرضت نفسك للقتل (١)

ثم يعقب ابن عبد ربه على هذه القصيدة بقوله : « فن نظر في سهولة هذا الشعر مع بديع معناه ورقة طبعه ، لم يفضل شعر مسلم عنده إلا بفضل التقدم » (٢) .

وأخيراً ليس من الآراء التي يمكن التسلم بها قول المستشرق الإسباني الأستاذ « بالثيا » Palencia : « إنه كان شاعر بلاط فقط ولم يكن ذا شاعرية ممتازة » (٣) .

فالحق أن ابن عبد ربه لم يكن شاعر بلاط فقط ؛ وذلك لأن له بجانب شعره في بنى أمية الأندلسيين ، أشعاراً كثيرة في شتى الأغراض . والحق أيضاً أن شعره الذي بين أيدينا ، يدل على شاعرية ممتازة . وحسبنا في تقدير شاعريته رأى الشاعر المشرق الكبير أبي الطيب المتنبي الذي تضمنه تلك القصة :

لنى أبو الوليد بنُ عسال الأندلسى أبا الطيب المتنبي فى مسجد عمرو بن العاص ؛
وبعد حديث جرى بينهما قال المتنبي : ألا أنشدنى للمليح الأندلس - يعنى ابن عبد ربه -
فأنشد قوله :

يا لؤلؤ يسبي العقول أنيقاً ورشاً بتقطيع القلوب رفيقاً

(١) وردت هذه الأبيات فى : المقدم الفريد ج ٣ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) انظر : Palencia, Historia de la Literatura Arabigo - Espana, p. 55.

وانظر أيضاً تاريخ الفكر الأندلسى (ترجمة الكتاب السابق) ص ٦٢ ، ٦٣ .

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ورداً يعود من الحياء عتيقاً
وإذا نظرت إلى محاسن وجهه أبصرت وجهك في سناه غريباً
يا من تقطع خصره من ردفه ما بال قلبك لا يكون رقيقاً

فلما أكل الأندلسي إنشاده ، استعاده المتنبي ، ثم صفق بيده وقال : « يا ابن
عبد ربه ، لقد يأتيك العراق حبواً » (١) .

هذا وليس بين أيدينا ديوان لشعر ابن عبد ربه ، على الرغم من أن ديوانه كان غنياً
وضخماً فيما يبدو . فقد ذكر بعض من ترجموا للشاعر أن شعره جمع للحكم المستنصر ،
فجاء في نيف وعشرين مجلداً (٢) ، ولكن هذا الديوان ذا المجلدات العديدة قد ضاع ،
ولم يبق من شعر ابن عبد ربه إلا مجموعة من القصائد والمقطوعات المتفرقة بين كتب الأدب
والمختارات والتراجم ، مثل كتابه العقد ، وكتاب بتيمة الدهر للثعالبي ، وكتاب المقتبس
لابن حيان ، وكتاب المطرب لابن دحية (٣) .

وقد عُرف ابن عبد ربه بأشعار تسمى «المحصّات» . وهي أشعار قالها بعد توبته في
الشطرنج الأخير من حياته ، وعارض بها أشعاراً كان قد قالها أيام لوهه ؛ فكان تلك الأشعار
الأخيرة قد محصت ما كان من أشعاره الأولى . ومن أمثلة تلك المحصّات قوله :

يا عاجزاً ليس يعفو حين يقتدرُ ولا يقضى له من عيشه وطر
عابن بقلبك إن العين غافلة عن الحقيقة وأعلم أنها سقر
سوداء تزفر عن غيظ إذا سمعت للظالمين فلا تبتى ولا تذر
إن الذين اشترؤا دنيا بأخرة وشقوة بنعيم ، ساء ما تجرؤا

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ٩٤ .

(٣) ومثل : نفع الطيب للمقري ، ومطمح الأنفس لابن خاقان ، والبيان المغرب لابن عذارى ،
ورأيات المبرزين لابن سويد ، والقطعة التاريخية التي نشرها بروفنسال وجوست في تاريخ الناصر .

يا من تلهى وشيب الرأس يندبه ماذا الذى بعد شيب الرأس تنتظر
لولم يكن لك غير الموت موعظة لكان فيه عن اللذات مزدجر
أنت المقول له ما قلت مبتدئاً « هلا اذكرت ليين أنت مبتكر »^(١)

وهو يشير بهذا البيت الأخير إلى قطعة له سابقة ، كان قد قالها أيام اللهو ، بمناسبة عزم محبوبه على الرحيل ، وسقوط المطر الذى حال بين ذلك المحبوب والسفر . وفى تلك القطعة يقول ابن عبد ربه :

هلا ابتكرت ليين أنت مبتكرُ هيهات بأبى عليك الله والقدر
ما زلت أبكى حذار الين ملتهدماً حتى رثى لى فىك الريح والمطر
يا برده من حيا مزن على كبد نيرانها بغليل الشوق تستعر
آليت ألا أرى شمساً ولا قمراً حتى أراك فأنت الشمس والقمر^(٢)

وكما عرف ابن عبد ربه بالممحصات ، عرف كذلك بأرجوزته فى الخليفة عبد الرحمن الناصر ؛ تلك الأرجوزة التى مجد فيها الخليفة ووصف حروبه وغزواته^(٣) . والحق أن تلك الأرجوزة أشبه ما تكون بالمنظومات التاريخية ؛ فليس فيها من عناصر الشعر شئ ، ومن الإنصاف للشاعر والشعر أن تعد فى نتاجه التاريخى لا فى تراثه الفنى .

هذا ابن عبد ربه الشاعر . على أن الشعر لم يكن كل نشاطه الأدبى ؛ فهو قد كان أيضاً نائراً من كبار كتاب فترة الخلافة . وسوف نفصل القول فى ذلك حين نتحدث عن النثر فى القسم الخاص به من هذا الفصل .

(١) وردت هذه القصيدة فى : جنة المقتبس ص ٩٥ - ٩٦ . وفى المطرب ص ١٥٤ .

(٢) انظر هذه القطعة فى المصدرين السابقين .

(٣) جاءت هذه الأرجوزة فى المقدم الفريد ج ٢ ص ٢٨٨ - ٣٠٣ .

ابن هاني :

هو أبو الحسن^(١) محمد بن هاني الأزدي . يتصل نسبه من جهة أبيه بالمهلب بن أبي صفرة . وكان أبوه هاني يستوطن أولاً إحدى قرى شمال إفريقيا ، ثم هاجر إلى الأندلس ، حيث ولد ابنه محمد بمدينة إشبيلية سنة ٣٢٠ أو ٣٢٦ على خلاف في ذلك^(٢) . وقد كان الوالد أديباً شاعراً ، فنشأ ابنه بين إشبيلية وقرطبة والبيرة نشأة أدبية شعرية فحصل حظاً وافراً من أدب العرب ودراسة لغتهم وأشعارهم ، ثم قال الشعر ونبع فيه . واتصل بصاحب إشبيلية وحظي عنده ، غير أن مقامه بالأندلس لم يستمر ، بل كان ما حملة حملاً على الهجرة إلى شمال إفريقيا ، وهو ابن سبعة وعشرين عاماً . ذلك أنه كان فيما يبدو قد تعلق بالدعوة الفاطمية وعرف ذلك عنه ، ولعله صرح بشيء من ذلك في شعره . وكانت الدعوة الفاطمية مرفوضة من حكومة الأندلس لأنها كانت تمثل خطراً على هذه الحكومة ، وكان في تعلق ابن هاني بتلك الدعوة ، ثم اتصاله بصاحب إشبيلية الذي هو حاكم من قبل الخليفة الأندلسي ؛ كان في ذلك خطر لاعلى ابن هاني وحده وإنما على حاكم إشبيلية أيضاً . ومن هنا نصح هذا الحاكم ابن هاني بمغادرة إشبيلية والأندلس جميعاً ، فهاجر إلى عدوة المغرب .

وقد تعود بعض المترجمين لابن هاني أن يذكروا في سبب هجرته للأندلس أنه كان مهتماً بالفلسفة كثير الاهتمام في الملذات . وهذان السببان غير مقنعين ؛ فالفلسفة لم تكن في أيام ابن هاني تهمة توجب المطاردة ، بل قد ثبت أن كثيرين من أهل الأندلس

(١) يكنى أيضاً أبا القاسم . انظر في ترجمته وأخباره : جذوة المقتبس للحميدى رقم ١٥٧ ، والمطرب لابن دحية ص ١٩٢ - ١٩٥ . والتكلمة لابن الأبار رقم ٣٥٠ . والإحاطة لابن الخطيب ج ٢ ص ٢١٢ وما بعدها . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٢ ص ٥ ، ٦ ونفح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٧ . وطمح الأنفس للفتح بن خاقان ص ٨٤ - ٨٩ .

(٢) ذكروا أن وفاته كانت سنة ٣٦٢ وأنه مات وعمره ٣٦ سنة أو ٤٢ ، وبطرح سنة من سنة وفاته نحصل على سنة ميلاده ، فلما حصل خلاف في سنة ترقب عليه خلاف في سنة ميلاده .

كانوا يشتغلون بها في تلك الآونة ، التي عرفت بحرية الفكر واحترام كل الاتجاهات وتقدير كل العلوم . كذلك لم يكن الانهماك في المملدات مما يسبب إخراج أندلسي من بلده ؛ فقد كان حب الشراب والسماع والمتاع مما يشيع بين الأندلسيين في أكثر الأحيان ، ولم يكن ابن هاني بدعا بين مواطنيه في ميله إلى المملدات ؛ لهذا كله يرجح أن تكون هجرته لسبب سياسي هو اتصاله بالدعوة الفاطمية . ولعل صلته مباشرة بالحكام والقواد الفاطميين بعد هجرته إلى شمال إفريقيا ، ثم تمكنه من الفكرة الفاطمية ، ومعرفته بمصطلحات الشيعة - كما يدل على ذلك شعره - لعل ذلك كله مما يؤيد هذا التفسير لهجرة ابن هاني من الأندلس (١) .

ومهما يكن من أمر . فقد اتصل ابن هاني في شمال إفريقيا بالقائد جوهر الصقلي ومدحه ، ثم اتصل ببعض الولاة ونال جوائزهم على ما كان له فيهم من مدائح (٢) . وأخيراً وصل خبره إلى المعز لدين الله الفاطمي . فطلب أن يتوجه إليه ، فسار ابن هاني إلى لقائه . وكانت له فيه أشعار قوبلت بالإناعام والتقدير . ولما توجه المعز إلى مصر ، شيعه ابن هاني . ثم رجع إلى المغرب لأخذ عياله ، فتجهز وتبعه ، ولما وصل إلى برقة ، انتهت حياته نهاية غامضة . فقيل : إن شخصاً من أهلها استضافه ، فأقام عنده أياماً ، ثم كانت عريضة عليه في مجلس أنس سببت قتله . وقيل : إنه خرج سكران من دار مضيفه ، فنام في الطريق وأصبح ميتاً ، ولم يعرف سبب موته . وقيل : إنه وجد في ساقية من سواقي برقة مخنوقاً بتكة سراويله . وأغلب الظن أن ابن هاني قد قتل قتلاً سياسياً على يد بعض أنصار حكومة قرطبة المناهضة للفاطميين (٣) . وليس أدل على ذلك من

(١) انظر : تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني للدكتور زاهد علي ص ٢٠ (مقدمة) .

(٢) كان أكثر مدحه بلعفر ويحيى ولدى علي الملقب بباين الأندلسية . وكان جعفر والياً على مدينة

الزواب وكان أخوه مساعداً له وكانا في تلك الآونة موالين للفاطميين .

(٣) انظر المرجع السابق ص ٢٢ (مقدمة) .

هذا الغموض الشديد الذي يكتنف قتل ابن هاني أو موته . وعلى أية حال . قد كانت نهاية الشاعر سنة ٣٦٢ هـ بعد أن بلغ من العمر اثنتين وأربعين سنة ، أو سنًا وثلاثين . على خلاف في ذلك .

هذا وقد كان في سلوك ابن هاني كثير من الاستهتار . كما كان في عقيدته كثير من القلق ؛ فهو قد كان منهكاً في الملقّات ، كما كان لا يتحرج من ذكر ما يحس الدين وما يدل على فساد العقيدة . وشعره في المعز الذي كان يرفعه إلى درجة التأليه دليل على هذا الاستهتار في السلوك والعقيدة جميعاً . وسوف ترد أمثلة كثيرة تؤيد هذا الجانب في شخصية ابن هاني .

وشعر ابن هاني يسير في الاتجاه المحافظ الجديد الذي كان على رأسه بالمشرق في تلك الفترة أبو الطيب المتنبي ، بل إن ابن هاني قد تأثر كثيراً بأبي الطيب حتى كان الأندلسيون يقارنون به ، غير أن شاعرنا كان مع ذلك ذا شخصية شعرية متميزة . وسماه فنية خاصة .

وكان ابن هاني قد عرف شعر البحري وأبي تمام^(١) . كما در وتعلق بمذهبه^(٢) ، ثم كانت قريحته الشعرية وملكته الفنية ، فكان اختياره للاتجاه المحافظ الجديد أولاً ، ثم تميزه بسماه خاصة ثانياً .

ومن هنا لم يكن شعر ابن هاني شعراً يحول فيه اللون الخاص ، ويعتمد فقط على الشعرية التي تمدّها القراءة ، ويعينها الاطلاع على نتاج كالذي قرئ وشعر كالذي

(١) من أدلة ذلك قوله :

من أين أنكر فضلكم ولو أنتم كأي عبادة أو أبي تمام

(الديوان ص ١٨٤) .

(٢) اقرأ قصيدته في رجل كان قد أعاره كتاباً فيه شعر المتنبي ثم أساء استرداده منه (في ص ٧٧ من

ديوان ابن هاني) .

حُصِّل ، وإنما كان لشعر ابن هاني هذا اللون المميز ، والطابع الخاص ، الذي لا يعدو تحصيل صاحبه أن يكون زاداً كالذي ترشفه النحلة من الأزهار المختلفة ، لتخرجه بعد ذلك شيئاً آخر هو العسل الذي فيه طبيعة النحلة وعملها ، إلى جانب طبيعة الرحيق وعنصره .

أما أهم تلك السمات الفنية الخاصة التي تميز شعر ابن هاني برغم اتجاهه المحافظ الجديد ، فسمتان هما : الحدة الشعرية ، والمذهبية السياسية . والسمة الأولى وهي سمة الحدة تتضح في شعر ابن هاني وتشمل مضمونه وشكله على السواء . فهو فنان حاد في فنه الأدبي ، صارخ في لونه الشعري . وحدته تبدو في معانيه وصوره ، وفي ألفاظه وتعايره ، بل في أوزانه وقوافيه .

أما الأفكار ، فيلاحظ أن ابن هاني يتعمقها ، ويبالغ أحياناً فيها ، ولا يهجم بعد ذلك أيقبلها العقل أم لا يقبلها ؛ بل أينكرها الدين أم لا ينكرها ، فهو يقول مثلاً في سيفه :

لي صارم وهو شعبي كحامله يكاد يسبق كراتي إلى البطل

إذا المعز معز الدين سلطه لم يرتقب بالمنايا مدة الأجل^(١)

وهذه حدة مقبولة بل جميلة ؛ لأن الشاعر خفف منها في البيت الأول بقوله «يكاد» ، ثم بتلك الصورة الفنية التي تخيل السيف يسابق صاحبه إلى عدوه . كما خفف منها في البيت الثاني أن الآجال غير معروفة ، فكون السيف لا يرتقب مدة الأجل ليقتضى على العدو ، شيء مقبول جميل .

لكن لابن هاني أحياناً حدة لا يقبلها العقل ، وقد يرفضها الذوق ويأبأها الدين ؛ فهو يقول في كرم بعض ممدوحيه :

(١) ديوان ابن هاني ص ١٦٩ .

من كان أول نقطه في مهده
ويقول في أهمية آخر:

هو علة الدنيا ومن خلقت له
ويقول في تقديسه:

إمام رأيتُ الدين مرتبطاً به
أرى مدحه كالمدح لله إنه
ويقول في سلطانه:

ما شئت لا ما شاءت الأقدارُ
فاحكم فأنت الواحد القهار

وليس من شك في أن الحدة تكون مقبولة حينما تكون عمقاً في الفكرة وصدقاً في التجربة وحرارة في الإحساس . أما حين تكون مبالغة يرفضها الذوق أو العقل أو الدين ، فلإنها تأتي سخيقة ساقطة ، ككثير مما قاله ابن هاني في ممدوحيه وخاصة المعز الفاطمي .

وابن هاني حاد كذلك في صوره الشعرية ؛ فهو يوسع رقعتها ويبرز خطوطها ، ويظهر ألوانها ، ولا يعنيه بعد ذلك أجماع الألوان صارخة أم هادئة ، ولا يهمه أنت الخطوط متناسقة أم متنافرة . فهو يقول مثلاً في تصوير أكله :

يا ليت شعري إذا أوما إلى فه
كأنها وخيبت الزاد يضررها
تبارك الله ما أمضى أسنته
كأن بيت سلاح فيه مخزن

أحلقه لهوات أو ميادينُ
جهنم قذفت فيها الشياطين
كأنما كل فك منه طاحون
مما أعدته للرسل الفراعين

(١) ديوان ابن هاني ص ١٨ .

(٢) ديوان ابن هاني ص ٥ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ٨١ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ٨٨ .

كأنه الحمل المشوى فى يده ذو النون فى الماء لما عضه النون
 كأن فى فكه أيتام أرملة أو باقيات عليهن التباين^(١)

وهذا من جميل التصوير ؛ لأن المقام يحتمل المبالغة ؛ فهو مقام سخريه تتحمل
 هذا التعبير « الكاريكاتيرى » . غير أن ابن هانى فى مقام آخر يصل فى حدته التصويرية
 إلى درجة تفسد الصورة ؛ ومن ذلك قوله فى وصف ليلة : بصورها عادة أرسلت من ظلامها
 شعراً طويلاً مسترسلاً ، وليست من أنجمها شنفاً فى أذنها :

أليتنا إذ أرسلت وارداً وحفاً وبتنا نرى الجوزاء فى أذنها شنفاً^(٢)

ومن ذلك أيضاً قوله فى معذر مورد الخد :

وكان صفحبة خده وعمذاره تفاحة رميت لتقتل عقرباً^(٣)

ومنه كذلك قوله فى البرق :

بل ما لهذا البرق صيلاً مطرقاً ولأى حيسل الشاعين أيتحياً^(٤)

وابن هانى كذلك حاد فى ألفاظه وعباراته ؛ فهو يؤثرها فحمة ذات جرس عال
 ورنين واضح ، وهو فى كثير من الأحيان موفق فى ذلك . ومن هذا قوله :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروع

غداة كأن الأفق سسد بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع

(١) التباين : جمع تباين - بضم التاء وتثنية الباء - رسوم ورسومات صغيرة . وقد وردت هذه الأبيات
 فى : ديوان ابن هانى ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٢) الواردة : الشعر الطويل . والوحف : السمر الكثير الأسود . والشنف : ما يمتد فى أع
 الأذن . والبيت فى ديوان ابن هانى ص ١٦ .

(٣) ديوان ابن هانى ص ١٦ .

(٤) الصل : الحية أو الدقيقة الصفراء . والبيت فى ديوان ابن هانى ص ٣٠ .

فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة
وأين ؟ وما لي بين ذا الجمع مسلك
ألا إن هذا حشد من لم يذق له
ولم أدر إذ شيعت كيف أودع
ولاني بمن قساد الجينوش للموع
ولا لجوادى في البسيطة موضع
غرار الكرى جفن ولا بات يهجع^(١)

على أنه في أحيان أخرى تدفعه الحدة المؤثرة للفظ الفخم والرنين الواضح ، إلى الصخب
والقعقة والإتيان بالغريب . ومن هذا قوله :

أصاحت فقالت : وقعُ أجرد شيطم
وما ذُعتُ إلا بلحس حليتها
ومنه أيضاً قوله :

أقول دى وهى الحسان الرعايبُ
نوى أبعدت طائية ومزارها
سلوا طيئ الأجيال أين خيامها
هم جنبوا ذا القلب طوع قيادهم
وهم جاوزوا طلع الشواجن والغضا
ومن دون أستار القباب محاريب^(٣)
ألا كل طائى إلى القلب محبوب
وما أجأ إلا حصان ويبعوب^(٤)
وقد يشهد الطرف الرغى وهو مجنوب^(٥)
تخب بهم جرؤ اللقاء السراحيب^(٦)

(١) غرار الكرى : القليل من النوم . والأبيات في ديوان ابن هاني ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) أصاحت : أصنت . والشيطم من الخيل : الطويل الجسم . وشامت : تطلعت . والمختم :
السيف القاطع . والبرى : جمع برة ، وهى كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . . والمختم : موضع الخللخال من
الرجل (والبيتان من مطلع قصيدة ص ١٧٢ ديوان) .

(٣) الرعايب : جمع رعبوبة ورعبوب ورعيب وهى : الحارية البيضاء الحسنة الحلوة الناعمة . والمحاريب :
جمع محراب . وهو الكثير الحرب وخوض المعارك . .

(٤) طيئ : قبيلة من العرب . وأجأ : أحد جياهم . والبعبوب من الخيل : السريع الطويل .

(٥) جنبه : قاده إلى جنبه ، فهو جنبى ومجنوب ومجنب . والطرف : الكرم من الخيل .

(٦) الشواجن : جمع شاجنة وهى ضرب من الأودية كثير الشجر . والطلع : شجر عظيم والموز .

والغضا : شجر عظيم واحدته غضاة . والسراحيب . جمع سرحوب وهى الفرس الطويلة الحسنة .

وقد عيب ذلك على ابن هاني . وهو عيب من غير شك . إلا أن من الإنصاف أن يقال : إن هذا العيب ليس عاماً في شعره ولا في أكثره حتى يحكم به على فنه جملة . ومن هنا كان أبو العلاء غير دقيق الحكم حين اعتبر شعر ابن هاني شيئاً لا طائل تحته وقال : « ما أشبهه إلا برحى تطحن قروناً »^(١) . فالحق أولاً أن أكثر شعر ابن هاني لا تصل فيه حدة التعبير إلى الصخب والحلبة والتعقمة ، وإنما أكثره فيه ميل حقيقة إلى اللفظة الفخمة ، والعبارة الجزلة ، والأسلوب ذى الموسيقى الواضحة . وهذا لون من التعبير ومذهب في الأداء ، فكما يجب البعض التعبير المهروس والأداء الهادئ ، يؤثر البعض الآخر الموسيقى الرنانة والأنغام العالية . والحق ثانياً أن حب أبي العلاء الشديد للمنتهي وشعره ، هو الذي جعله يهجن من شعر ابن هاني الشاعر الأندلسي ، الذي كان مواطنوه في المغرب يقارنونه بالمتنبي في المشرق^(٢) . وإلا فكيف يصدق حكم أبي العلاء على مثل قول ابن هاني :

فتكات طرفك أم سيوف أبيض	وكتوس خمر أم مراشف فيك
أجبلادُ مرهفة وفتكُ محاجر	ما أنت راحة ولا أهلوك
يا بنت ذى البرد الطويل نجاده	أكذا يكون الحكم في ناديك
قد كان يدعوني خيالك طارقاً	حتى دعاني بالقنا داعيسك
عينك أم مغناك موعدا وفي	وادي الكرى ألقاك أم واديك
منعوك من سنة الكرى وسروا فلو	عثروا بطيف طارق ظنوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة	لمأ تمايل عطفك اتهموك ^(٣)

وابن هاني كما هو حاد في معانيه وصوره وألفاظه . حاد كذلك في موسيقى شعره ،

(١) انظر : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥ .

(٢) انظر المصدر السابق .

(٣) أنظر هذه الأبيات في : ديوان ابن هاني ص ١٣٤ .

فهو يختار غالباً تلك الأوزان الطوال ذات التفاعيل الكثيرة والنغم الواضح والرزين العالى .
ومن هنا كانت أكثر قصائده من الطويل والبسيط والكامل ؛ وقليل من شعره هو الذى
جاء على غير هذه الأوزان . وقلما نجد له شعراً من الأوزان القصيرة ذات الموسيقى البسيطة
المهذبة . وكما يفعل ابن هاني في الأوزان يفعل في القوافي ، فكثير من شعره يتجم بالقوافي
الفخمة التى تملأ الفم وترجم السمع ، بل إن قوافيه تأتي أحياناً على حروف لم تؤلف
في القوافي كثيراً ، كالثاء والحاء والطاء . ومن أمثلة حدة ابن هاني في موسيقى شعره وزناً
وقافية قوله :

لمن صوبلجان فوق خدك عابثُ ومن عاقد في لفظ طرفك نافث
ومن مذنب في الهجر غيرك مجرم ومن ناقض للعهد غيرك ناكث^(١)
وقوله كذلك :

ألؤلؤُ دمع هذا الغيث أم تقطُ ما كان أحسنه لو كان يلتقط
بين السحاب وبين الريح ملحمة معامع وظبي في الجو تخترط^(٢)
وليثار ابن هاني لتلك القوافي الفخمة أو غير المألوفة قد يجره أحياناً إلى التورط
في الغريب المعنى كقوله :

سرى وجناح الليل أقم أفتح^(٣) ضجيج مهاد بالعبير مضمخ
فحيثُ مزور الخيال كأنه محجب أعلى قبة الملك أبلغ^(٤)
وأخيراً تبدو حدة ابن هاني في كم أعماله الشعرية ؛ فهى في الغالب قصائد . وأغلب

(١) ديوان ابن هاني ص ٢٥ .

(٢) تخترط : تستل .

(والبيتان من مطلع قصيدة في صفحة ٩٦ من ديوان ابن هاني) .

(٣) أفتح ، من الفتح - محرمة - وهو استرخاء المفاصل أو عرض القدم والكف وطولهما .

(٤) الأبلغ : المتكبر .

(والبيتان في شرح ديوان ابن هاني ص ١٨٣) .

تلك القصائد من النوع الطويل المفرط الطول : حتى إن بعضها يتجاوز المائتي بيت .
 هذه هي السمة الأولى من سمته البارزتين . أما الثانية - وهي المذهبية السياسية -
 فتبدو في كون ابن هاني شاعراً مذهبياً ، لا يؤمن بالفن فقط ، وإنما يستخدمه في تدعيم
 مذهب يميل إليه ويدعوله . فابن هاني قد اتصل بالحركة الشيعية وهو في الأندلس ،
 وكانت السبب في خروجه من بلده وهجرته إلى شمال إفريقيا . ثم إنه قد اتصل بزعماء
 الفاطميين اتصالاً مباشراً بعد هجرته ، وعمل للدعوة الفاطمية ، فكان لسانها الناطق
 وداعيتها ذا الصوت الجهوري . ومن هنا كثرت في شعره مصطلحات الشيعة وآراءهم ، وبدت
 في نتاجه خطوط مذهبهم وروح دعوتهم ، واشتمل أسلوبه في كثير من المواطن على
 الحجاج والجدل والتعليل والتدليل ومحاولة الإقناع المنطقي لا التأثير الوجداني . وربما
 لا تخلو قصيدة من قصائده في المعز : من عشرات الأمثلة على ذلك . فهو يقول مشيراً
 إلى فكرة الإمامة :

إمام عدل وفى في كل ناحية
 ويقول مشيراً إلى فكرة العصمة :

كما قضا في الإمام العدل واشتروا^(١)
 مؤيد باختيار الله يصحبه
 ويقول في فكرة ميراث آل البيت للحكم :

وليس فيما أراه الله من خلل^(٢)
 هو الوارث الأرض عن والدين
 ويقول في فكرة تقديس الإمام :

أب مصطفي وأب مرتضى^(٣)
 من شعلة القبس التي عرضت على
 موسى وقد جازت به الظلماء
 من معدن التقديس وهو سلالة
 فخرت به الأجداد والآباء^(٤)

(١) ديوان ابن هاني ص ٩٧ .

(٢) ديوان ابن هاني ص ١٩٢ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ٢١٧ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ٦٠٥ .

ومثل هذه الأفكار الشيعة كثير واضح في شعر ابن هاني^(١) ، ويكنى أن نطالع قصيدة واحدة من قصائده في المعز الفاطمي نستخرج عديداً من الأفكار والآراء الشيعة ، ولندرك ببساطة تلك المذهبية السياسية في شعر ابن هاني ، بالإضافة إلى معالم^١ فنه الأخرى . يقول شاعرنا في مدح المعز ، ويذكر دخول الفاطميين مصر :

تقول بنو العباس : هل فُتحت مصرُ
وقد جاوز الإسكندرية جوهر
وقد أوفدت مصرُ إليه وفودها
فما جاء هذا اليوم إلا وقد غدت
فلا تكبروا ذكر الزمان الذي خلا
أفي الجيش كنتم تتمررون رويدكم
وقد أشرفت خيل الإله طولعاً
وذا ابن نبي الله يطلب وتره
فكونوا حصيداً خامدين أو ارعوا
فإن تبعوه فهو مولاكم الذي
وإلا فبعداً للبعيد فينيه
أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم^(٢)
نبي ننتل^(٣) ما أورث الله نتلة^(٤)
وأنتي بهذا وهي أعدت برقهها
فدونكموها أهل بيت محمد

فقل لبني العباس قد قضى الأمر
تطالعوه البشري ويقدمه النصر
وزيد إلى المعقود من جسرهما جسر
وأيديكم منها ومن غيرها صفر^(٥)
فذلك عصر قد تقضى وذا عصر
فهذا القنا المرأض والحجفل المجر^(٦)
على الدين والدنيا كما طلع الفجر
وكان حتر^(٧) أن لا يضيع له وتر
إلى ملك في كفه الموت والنشر
له برسول الله دونكم الفخر
وبينكم ما لا يقربه الدهر
تنزلت الآيات والسور الغر
وما ولدت ، هل يستوى العبد والحمر
أباكم فإياكم ودعوى هي الكفر
صفت بمعز الدين جماتها^(٨) الكدر

(١) انظر أمثلة كثيرة قد استخرجها الدكتور زاهد عل في مقدمته لشرح ديوان ابن هاني ، المسمى تبين المغانف .

(٢) الصفر بالضم ويثلاث : الخلال .

(٣) القنا المراض : اللدن المهزبة ، الذي إذا هز اضطرب . والحجفل المجر : الجيش العظيم .

(٤) المراد بالطلق : العباس عم الرسول ، لأنه أسري يوم بدر ، فأطلقه النبي صلى الله عليه وسلم بالفدية .

(٥) نتلة : هي أم العباس عم الرسول ، ويقال لها : نتيلة . وهي بنت جناب بن كلب .

(٦) الجمات : جمع جمة ، وهي البئر الكثيرة الماء .

فقد صارت الدنيا إليكم مصيرها
 إمام رأيت الدين مرتبطاً به
 أرى مدحه كالمدح لله إنه
 فيا مالكم هَدَى الملائك هديه
 ويا رازقاً من كفه نشأ الحيا
 ألا إنما الأيام أيامك التي
 لك المحيد منها بالكَ الخير والعلا
 لقد جدت حتى ليس للمال طالب
 فليس لمن لا يرتقى النجم همة
 وددت بلحيل قد تقادم عصرهم
 ولو شهدوا الأيام والعيش بعدهم
 فلو سمع الثوب (٣) من كان رمة
 لناديت من قد فوز (٤) أحي بدولة

وصار له الحمد المضاعف والأجر
 فطاعته فوز وعصيانه خسر
 فنوت وتسيح يحط به الوزر
 ولكن نجر الأنبياء له نَجْر (١)
 وإلا فمن أسرارها نبع البحر
 لك الشطر من نعمائها ولنا الشطر
 وتبقى لنا منها الحلوبة والدر
 وأعطيت حتى ما لمنفسيه (٢) قدر
 وليس لمن لا يستفيد الغنى عن
 لو استأخروا في حلبة العمر أو كروا
 حدائق والآمال موقفة خضر
 رفاتاً ولبي الصوت من ضمه القبر
 تقام لها الموتى ويرتجع العمر (٥)

ولما كان ابن هاني أقرب إلى أبي الطيب منه إلى أي شاعر آخر من شعراء الاتجاه
 المحافظ الجديد ، لاتفاقهما في حدة الطبع أولاً ، ودراسة ابن هاني لشعر المتنبي
 وافتتانه بمذهبه ثانياً ، كان من مظاهر ذلك أخذ ابن هاني لبعض أفكار المتنبي ، كقوله :
 ألم يبد سِرَّ الحب أن من الضنا رقيباً وإن لم يهتك السر هاتك (٦)

(١) النجر : الأصل كالنجار .

(٢) شيء منفس : كنفيس ، ثمين يتنافس فيه .

(٣) الثوب : الدعاء إلى الصلاة .

(٤) فوز : مات .

(٥) هذه الأبيات مختارة من قصيدة لابن هاني . وهي كاملة في ديوانه ص ٧٨ وما بعدها .

(٦) ديوان ابن هاني ص ٢٨١ .

فإن هذا المعنى من قول المتنبي :

وإذا خامر الهوى قلب صب فعليه لكل عين دليل

ومن أخذ ابن هاني لبعض معاني المتنبي قوله كذلك :

إنّ ذلّ العزيز أفضح مرأى بين عينيه من لقاء الختوف^(١)

فهذا المعنى من قول المتنبي :

غير أن الفتى يلاقى المنايا كالحالات ولا يلاقى الهوانا

وهذا مما يعاب على ابن هاني . وما يعاب عليه كذلك : المبالغة المفرطة التي تفضى

أحياناً إلى الاصطدام بالعقل أو الذوق أو الدين ، وقد مضت نماذج لذلك . ثم تكرار

المعنى الواحد في عدة مواضع أحياناً . ومن ذلك قوله :

شهدتُ بمفخرك السموات العلا وتنزل القرآن فيك مديحاً^(٢)

ثم قوله في قصيدة أخرى .

من يشهد القرآن فيه بفضلته وتصدق التوراة والإنجيل^(٣)

ثم قوله في قصيدة ثالثة :

إن الخبير بكم أجهد بخلقكم غيباً فجرد فيكم التنزيلاً^(٤)

ومن ذلك أيضاً قوله :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما ، كانت الأشياء^(٥)

(١) ديوان ابن هاني ص ١٠٦ .

(٢) ديوان ابن هاني ص ٣٢ .

(٣) ديوان ابن هاني ص ١٤٢ .

(٤) ديوان ابن هاني ص ١٤٧ .

(٥) ديوان ابن هاني ص ٥ .

ثم قوله في قصيدة ثانية :

من أجل هذا قدر المقدور في أم الكتاب وكوّن التكوين^(١)

ثم قوله في قصيدة ثالثة :

هو الوارث الدنيا ومن خلقت له من الناس حتى يلتقى القطر والقطر^(٢)

وأخيراً يؤخذ على ابن هاني تورطه أحياناً في التعبير الصاخب واللفظ الغريب . وقد سلفت أمثلة لهذا .

على أن ذلك كله لا يفض من قيمة الشاعر ، ولا يزحزحه عن الصف الأول بين شعراء الأندلس ؛ فهو من غير شك شاعر ممتاز ، يجمع إلى الأصالة الفنية التمكن من أدوات الشعر ، يحشد له غالباً المعنى العميق واللفظ القوي والعبارة المحكمة والصورة الرائعة والموسيقى الرنانة . كل هذا إلى طول نفس ووفرة نتاج .

وكما كان ابن هاني أقدم شاعر أندلسي عرفناه متفرغاً للشعر ، كان كذلك أقدم شاعر أندلسي حفظت لنا الأيام ديوان شعره . فكل سابقه ومعاصريه لم تبق الأيام من تراثهم إلا مختارات هنا وهناك ، قد تكثر وقد تقل . أما ابن هاني فقد بقي له ديوان . ولعل السر في ذلك اتصاله بالحركة الشيعية ؛ فالشيعية كانوا أصحاب مذهب ، لهم دعاة ورواة ، يشيرون أمجادهم وينقلون جميل الثناء عليهم ، وقد كان شعر ابن هاني مادة صالحة لعمل هؤلاء الدعاة الرواة . ومن هنا كان حفظ ديوانه ، الذي بقي ضمن تراث الشيعة . وبما يرجح ذلك أننا لا نجد بين دفتي الديوان شعراً لابن هاني يتصل بإشيلية وحياته فيها . فأغلب الظن أن الشيعة الذين حفظوا ديوانه ، قد عنوا فقط بما يتصل بهم ، أو على الأكثر بالشعر الذي قاله بعد اتصاله بهم وعمله معهم . ومن هنا يرجح أن ديوان

(١) ديوان ابن هاني ص ١٩٧ -

(٢) القطر : الناحية والجانب ، ولعل المراد التقاء جانبي الدنيا بطيها يوم القيامة . ديوان ابن هاني ص ٨١ .

ابن هانيء الذي بين أيدينا لا يمثل كل شعره ، وإنما هو في أغلب الظن مختارات قد اختارها هو في حياته أو اختارها له غيره من الشيعة بعد مماته .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الديوان يحوى مجموعة طيبة غنية من شعر ابن هانيء ، تصور فنه وحياته ، وتأخذ في التراث الأندلسي مكاناً مرموقاً^(١) .

ثانياً - النثر :

كان أهم مظاهر النهضة الأدبية في فترة الخلافة ، ظهور نوع من النثر لم تعرفه الأندلس من قبل ، وهو النثر التأليفي . وهكذا أصبح للأدب الأندلسي في فترة الخلافة نوعان من النثر ، أولهما ذلك النوع الذي عرفته من قبل وهو النثر الخالص ، وثانيهما ذلك النوع الذي ظهر في تلك الفترة ، وهو النثر التأليفي وسنخص كلا منهما بمحدث .

(١) النثر الخالص :

سار هذا النوع من النثر متأثراً بالمذهب الجاحظي الذي بدأ التأثير به في أواخر الفترة السابقة ، وزاد التأثير به في هذه الفترة . كما أخذ هذا النوع من النثر يتجه بشكل واضح إلى المنهجية والعناية بالبده والموضوع والختام . كذلك انعكست عليه فخامة الأندلس وعظمتها في فترة الخلافة . فكثرت الألقاب ، وبحمل الدعائية المفضمة ، والعبارات الاعترافية المعظمة ، وظهر الميل إلى التطويل والتكرار والبسط .

ويلاحظ أن النثر الصادر عن ذوى الثقافة الدينية كان أكثر استشهاداً بالقرآن الكريم ، وأعظم ميلاً إلى السجع ، وأشد تعلقاً بالإطناب .

(١) طبع ديوان ابن هانيء عدة طبعات بعضها في مصر وبعضها في بيروت . وغير طبعاته هي التي حققها زاهد عل ونشرت بالقاهرة سنة ١٣٥٢ هـ .

وقد لقيت الكتابة الرسمية عناية كبيرة في تلك الفترة ؛ حيث قام بها طائفة من الأدباء المقتردين ، ووصل بعضهم إلى مرتبة الوزارة أو الحجابة .

ومن بين الأسماء التي لمعت في هذا الميدان . ابن المنذر ، وابن جهور ، وابن بسيل ، وابن فطيس ، وابن أبي عامر ، والمصحفي^(١) .

وقد عمل بعض النساء خلال فترة الخلافة ، في ميدان الكتابة الرسمية . ومن حفظت أسماؤهن : مزنة^(٢) كاتبة الخليفة الناصر ، ولبنى^(٣) كاتبة الخليفة المستنصر .

وتلك بعض نماذج من فترة الخلافة ، يتضح معها ما أسلفنا من ملاحظات . فن المنشورات ، ذلك المنشور الذي وجهه عبد الرحمن الثالث إلى حكام الأقاليم ليخبرهم باتخاذ لقب الخليفة ، وليأزمهم بمخاطبته به ، ولينبهوا الخطباء إلى مراعاته . وهذا نص المنشور :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد . فإننا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، وليس من كرامة الله ما ألبسه ؛ للذي فضلنا به وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ؛ وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا وعلو أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بدولتنا . والحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه .

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين . وخروج الكتب عندنا وورودها علينا بذلك ؛ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا متحل له ودخيل فيه ومتسم بما لا يستحقه . وعلمنا أن التماذي على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعفناه ، واسم ثابت أسقطناه .

(١) يمكن استخراج أسماء كثيرة من الكتاب من خلال ما كتبه ابن عذارى في البيان المغرب عن تاريخ الناصر والمستنصر ج ٢ ص ٢٣٤ وما بعدها .

(٢) ذكرها ابن بشكوال في الصلة ترجمة ١٥٣٠ ، والضبي في البقية ترجمة ١٦٩٠ .

(٣) ذكرها ابن بشكوال في الصلة ترجمة ١٥٢٩ ، والضبي في البقية ترجمة ١٥٨٩ .

فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه ، إن شاء الله . والله المستعان «^(١) .

ومن الخطب ، تلك الخطبة التي ألقاها الفقيه منذر بن سعيد البلوطي في حفل الاستقبال الذي أقامه الناصر لسفير إمبراطور القسطنطينية ، وكان أبو علي القالي قد وقف ليخطب في هذه المناسبة ، فافتتح بحمد الله والثناء على نبيه ثم أحصر ، فوقف منذر وبدأ من حيث انتهى القالي فقال : « أما بعد حمد الله والثناء عليه والتعداد لآلائه والشكر لنعمائه ، والصلاة على محمد صفيه وخاتم أنبيائه : فإن لكل حادث مقاماً ، ولكل مقام مقالاً ، وليس بعد الحق إلا الضلال . وإني قد قمت في مقام كريم ، بين يدي ملك عظيم ، فأصغروا إليّ معشر الملأ بأسماعكم ، وأتقنوا عني بأفئدتكم . إن من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت . وإن الجليل - تعالى في سائه ، وتقديس بصفاته وأسماؤه - أمر كلمه موسى - صلى الله جل وعز على نبينا وعليه وعلى جميع أنبيائه - أن يذكرّ قومه بأيام الله جل وعز عندهم . وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسوة حسنة . وإني أذكركم بأيام الله عندهم . وتلافيه لكم ، بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعركم ، وأمنت سربكم . ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم : ومستضعفين فقواكم ، ومستندين فنصركم . ولاه الله رعايتكم ، وأسند إليه إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم في مثل حدقة البعير ، من ضيق الحال ونكد العيش والتغيير . فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء ، وانتقلتم بيمين سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء . أنشدكم الله معاشر الملأ ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها ؟ ألم تكن البلاد خراباً فعزرها ، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها

(١) انظر : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، وقد جاء في آخر المنشور ،

« وكعب يوم الخميس لليتين خلقتا من ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ . »

ونصرها ؟ فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافته ، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افتراقها بإمامته ، حتى أذهب الله عنكم غيظكم ، وشفى صدوركم وصرتم يداً على عدوكم ، بعد أن كان بأسكم بينكم . فأنشدكم الله ، ألم تكن خلافته قتل الفتنة بعد انطلاقتها من عقابها ؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها ؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد ، حتى باشره بالقوة والمهجة والأولاد ، واعتزل النسوان ، وهجر الأوطان ، ورفض الدعوة وهي محبوبة ، وترك الركون إلى الراحة وهي مطلوبة ، بطوية صحيحة ، وعزيمة صريحة ، وبصيرة ثابتة نافذة ثاقبة ، وريح هابة غالبة ، ونصرة من الله واقعة واجبة ، وسلطان قاهر ، وجد ظاهر ، وسيف منصور ، تحت عدل مشهور ، متحملاً للنصب ، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب ؛ حتى لانت الأحوال بعد شدتها ، وانكسرت شوكة الفتنة عند حلتها ، ولم يبق لها غارب^(١) إلا جبهه ، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده^(٢) . فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلغ أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً . حتى تواترت لديكم الفتوحات . وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخيرات والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأتقيين والأذنين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق ، وبلد سحيق ؛ لأخذ حبل بينه وبينكم جملة وتفصيلاً ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً . ولن يخلف الله وعده ، ولهذا الأمر ما بعده ، وتلك أسباب ظاهرة بادية ، تدل على أمور باطنة خافية . دليلها قائم ، وجفنها غير نائم . وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم^(٣) . وليس في تصديق ما وعد الله ارتياب ، ولكل نبأ مستقر ولكل أجل كتاب . فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه ، واسألوه المزيد من نعمائه ؛ فقد أصبحتم بين خلافة أمير

(١) الغارب : الكاهل . وأجلب : القطع .

(٢) القرن : الذئابة ، وانخصلة من الشعر . والعبارة في الأصل : « ولا نجح لأهلها قرن إلا جده » .

وقد ضبطناها بما يتفق مع السياق ويتفق معه معنى .

(٣) زاد في الأصل : الآية .

المؤمنين - أيده الله بالعصمة والسداد ، وألهمه خالص التوفيق والرشاد - أحسن الناس حالاً ، وأنعمهم بالا ، وأعزهم قراراً ، وأمنهم داراً ، وأكثفهم جمعاً وأجملهم صنماً ؛ لا تهاجمون ولا تزدادون ، وأنتم بحمد الله على أعدائه ظاهرون . فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم صلى الله عليه وسلم ؛ فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن في التعلق بعصمتها ، والتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقق الدماء ، وصلاح الخاصة والدهماء ، وأن يقوم الطاعة تقام الحدود ، وتوفى العهود ، وبها وصلت الأرحام ، ووضعت الأحكام ؛ وبها سد الله الخلل ، وأمن السبل ، ووطأ الأكتاف ، ورفع الخلاف ، وبها طاب لكم القرار ، واطمأنت بكم الدار . واعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به فإنه تبارك وتعالى يقول : " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم " (١) . وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين ، وصنوف الملحدين ؛ الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملاكم ، الآخذين في مخاذلة دينكم ، وهتك حريمكم ، وتوهين دعوة نبيكم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين . أقول قولي هذا ، وأختم بالحمد لله رب العالمين ، مستغفراً الله الغفور الرحيم ، فهو خير الغافرين (٢) .

ومن أمثلة المراسلات ، ما دار بين الفقيه أبي إبراهيم والأمير الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وكان الفقيه قد دعى إلى حفل رسمي بالزهراء فتخلف فغضب الخليفة وأمر ابنه الحكم بالكتابة إليه في ذلك ، فكتب .

« بسم الله الرحمن الرحيم . حفظك الله وتولاك ، وسدك ورحاك . لما امتحن أمير المؤمنين - مولاي وسيدى أبقاه الله - الأولياء الذين يستعذبهم ، وجنك متعلماً في

(١) زاد في الأصل : الآية .

(٢) وردت هذه الخطبة في : نفع الطيب المقرئ ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٢ .

الولاية متأخراً عن الصلاة . على أنه قد أُنذرك — أبقاه الله — خصوصاً للمشاركة في السرور الذى كان عنده — لا أعدمه الله المسرة — ثم أُنذرت من قبل إبلاغاً في التكرمة ، فكان منك على ذلك كله من التخلف ما ضاعت عليك فيه المعذرة . واستبلغ أمير المؤمنين في إنكاره ومعاتبته عليه ، فأعيت عليك الحجة . فعرفنى — أكرمك الله — ما العذر الذى أوجب توقفك عن إجابة دعوته ، ومشاهدة السرور الذى سر به ، ورغب المشاركة فيه ؛ لنعرفه — أبقاه الله — بذلك ، فتسكن نفسه العريضة إليه إن شاء الله تعالى .

وقد أجابه أبو إبراهيم كاتباً :

« سلام على الأمير سيدى ورحمة الله . قرأت — أبقى الله الأمير سيدى — هذا الكتاب وفهمته ، ولم يكن توفى لنفسى ، إنما كان لأمر المؤمنين سيدنا — أبقى الله سلطانه — لعلمى بمذهبه ، وسكونى إلى تقواه ، واقتفائه لأثر سلفه الطيب ، رضوان الله عليهم ؛ فإنهم يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتنونها بما يشينها ، ولا يغض منها ، ويترك إلى تنقيصها ؛ يستعدون لديهم ، ويتزينون بها عند رعاياهم ومن يفد عليهم من قصادهم . فلهذا تخلفت ، ولعلى بمذهبه توقفت إن شاء الله تعالى » (١) .

ومن أمثلة المحاورات ما دار بين الناصر وابنه الحكم بشأن منذر بن سعيد . وكان هذا الفقيه قد انتقد الناصر فى إسرافه فى تشييد قصر الزهراء ، حتى شغل بها عن شهود الجمعة ثلاث مرات . وكان مما انتقد به الفقيه الخليفة ، ابتداءه خطبة حضرها الخليفة بقوله تعالى : « أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون » . فغضب الناصر وأقسم ألا يصلى الجمعة وراء منذر — وكان قاضى مسجد الزهراء — وشرع يصلى وراء قاضى الجماعة بمسجد قرطبة .

(١) انظر الرسائلين وقصتهما فى : نفع العليب ج ٢ ص ١٧٥ ، ١٧٦ .

وقد قال الناصر لابنه في ذلك :

« والله لقد تعمدتني منذر بخطبته ، وما عنى بها غيري ، فأسرف على ، وأفرط في
تقريعي وتفريعي ، ولم يحسن السياسة في وعظي ، فزعزع قلبي وكاد بعصاه يقرعني » .
فقال الحكم :

« فما الذي يمنعك من عزل منذر عن الصلاة بك ، والاستبدال بغيره منه إذكرهته ؟ »
فزجره الناصر وقال :

« أمثل منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه - لأأم لك - يعزل لإرضاء نفس
ناكبة عن الرشد ، سالكة غير القصد ؟ ! هذا ما لا يكون . وإني لأستحي من الله ألا
أجعل بيني وبينه في صلاة الجمع شقيقاً مثل منذر في ورعه وصدقه ، ولكنه أخرجني
فأقسمت ، ولوددت أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكى ؛ بل يصلى بالناس حياته
وحياتنا ، إن شاء الله تعالى . فما أظننا نعاض منه أبداً » ^(١) .

ومن المحاورات الطريفة ، تلك المحاورة التي دارت بين الناصر ومنذر نفسه ، وكان
الناصر قد أبدع في تزيين قبة بالذهب والفضة ، حتى جعلها تحطف الأبصار ، وسأل
ذات يوم جلساءه من الوزراء والحاشية عنها ، فأكبروا صنعهم وأثنوا عليه . ثم دخل عليهم
منذر بن سعيد ، فلما جلس سأله الناصر عن القبة كما سأل غيره ، فقال له : « يا أمير
المؤمنين ، ما ظننت أن الشيطان - لعنه الله - يبلغ منك هذا المبلغ ، ولا أن تتمكن من
نفسك هذا التمكين - مع ما أتاك الله من فضله ونعمته ، وفضلك به على العالمين
حتى ينزلك منازل الكافرين » .

فانفعل الناصر وقال له :

« انظر ماذا تقول ، وكيف أنزلتني منزلتهم » .

(١) اقرأ هذه المحاورة وقصتها في : نفع الطيب ج ١ ص ٦٦ ، ٣٦٧ .

فقال له منذر :

« نعم أليس تعالى يقول : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون » .

فوجم الخليفة ، وأطرق ثم قال :

« جازاك الله يا قاضي أعنا وعن نفسك خيراً ، وعن الدين والمسلمين أجلّ الجزاء ، وكثر من أمثالك ؛ فالذي قلت هو الحق »^(١) .

(ب) النثر التأليفي :

قد ظهر هذا النوع من النثر خلال فترة الخلافة في صورتين : أو تمثل حينذاك في فرعين ، الفرع الأول : التأريخ الأدبي ، والفرع الثاني : التأليف الأدبي أما الفرع الأول ، فكان تأريخاً ساذجاً بطبيعة الحال ؛ فهو مزيج من التراجم ، والأخبار ، والمختارات ، والحديث عن الشعر والشعراء . ومن أمثلة ذلك ما ألفه عثمان بن ربيعة القرطبي باسم « طبقات الشعراء بالأندلس »^(٢) . وما ألفه محمد بن هشام المرواني باسم « أخبار الشعراء بالأندلس »^(٣) . ثم ما ألفه عبد الله بن محمد بن مغيث بعنوان « شعر الخلفاء من بني أمية »^(٤) . وأخيراً ما ألفه أبو عمر أحمد بن فرج الجياني بعنوان « الحداثق » . وقد ألف الجياني هذا الكتاب للحكم المستنصر ، وأودعه مختارات من أشعار الأندلسيين في الحب . معارضاً بذلك كتاب الزهرة لابن داود الأصبهاني . وقد تضمن هذا الكتاب

(١) اقرأ هذه المحاوره وقصتها في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٨ . وزاد في هذا المصدر أن الناصر « قام عن مجلسه ذلك وهو يستغفر الله تعالى . وأمر بتقصف سقف القبة » .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٨٥ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، وجذوة المقتبس ترجمة ١٩٥٩ ، ونفع الطيب ج ٣ ص ٣٢٦ ، ٣٢٧ .

(٤) انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٤٦ ، وتاريخ الفكر ص ٢٨٦ .

بالإضافة إلى ذلك كثيراً من أخبار الشعراء الأندلسيين حتى القرن الرابع الهجري^(١) .
 ومن المؤسف أن أكثر هذه المؤلفات قد ضاع^(٢) . ولم يبق مما فقد إلا مقتبسات
 في كتب ألفت بعد ذلك . ومع ضياع أكثر هذه الكتب يلاحظ أن هذا النوع من التأليف
 قد جاء متأثراً بنظيره في المشرق ؛ فمثلاً يلاحظ أن كتاب عثمان بن ربيعة « طبقات الشعراء
 بالأندلس » قد حمل الاسم الذي سبق به ابن سلام في كتابه « طبقات الشعراء » . كذلك
 يلاحظ أن كتاب عبد الله بن مغيث « شعر الخلفاء من بني أمية » قد عمل صاحبه
 ما عمله الصولي في كتابه « الأوراق » الذي تناول فيه شعر بني العباس . وأوضح من ذلك
 كله في تأثر الأندلسيين في هذا النوع من التأليف بإخوانهم المشاركة ، « كتاب الحدائق »
 الذي ألفه ابن فرج الجياني ؛ فقد قال فيه الحميدى صاحب جذوة المقتبس : إنه
 عارض فيه كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الأصبهاني ، إلا أن أبا بكر إنما ذكر
 مائة باب ، في كل باب مائة بيت . والجياني أورد مائتي باب . في كل باب مائتي بيت ،
 ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر ، ولم يورد فيه غير أندلسي شيئاً^(٣) .

ويستفاد من حديث الحميدى ، أن الأندلسيين مع تأثرهم بالمشاركة في هذا الفرع
 الأدبي كانوا يحاولون التفوق على سابقهم المشاركة ، وكانوا أحياناً يتفوقون فعلاً . وهم في كل
 ذلك مدفوعون بروح القومية الأندلسية التي كانت تدعوهم دائماً إلى تأكيد ذواتهم وإبراز
 جهود بلدهم .

وأما الفرع الثاني من فروع النثر التأليفي وهو فرع التأليف الأدبي فنحنى به تأليف
 كتب أدب بمفهوم القرن الثالث والرابع لكامة أدب ؛ فقد كان الأدب يعنى في تلك

(١) انظر : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٧٦ .

(٢) توجد نسخة مخطوطة من كتاب (طبقات الشعراء بالأندلس) في مدينة فاس (تاريخ الفكر
 الأندلسي ص ٣٨٥) .

(٣) جذوة المقتبس . ترجمة رقم ١٧٦ .

الفترة ، الثقافة العربية الخالصة . التي تتمثل في كل ما يكون به التأديب والتهذيب . وعلى هذا جاء كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الكامل للمبرد . وكتاب الأمل لأبي علي القالي ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني . فكلها كتب أدب بمعنى كتب ثقافة عربية خالصة ، يكون بها التأديب والتهذيب والتثقيف . وقد جمعت هذه الكتب بين مختارات الشعر والنثر ، وبين التاريخ والطرائف ، وبين اللغة والرواية ، وبين البلاغة والنقد ، وما إلى ذلك من فروع الثقافة العربية الخالصة . وكانت تلك الكتب مع اشتراكها في الطابع الثقافي العربي العام ، تفترق فيما بينها تبعاً لميل صاحبها إلى فرع معين من فروع الثقافة ، ومن هنا كان الغالب على البيان والتبيين مثلاً طابع البلاغة . وعلى الكامل والأمل طابع اللغة ، وعلى الأغاني طابع التراجيح والشعر الغنائي . وقد أسهم الأندلسيون خلال فترة الخلافة في هذا الفرع الأدبي بكتاب قيم هو كتاب :

العقد الفريد

وقد ألفه أحمد بن عبدربه الشاعر والأديب الأندلسي المعروف . وهو كتاب أدب بهذا المعنى القديم لكلمة أدب ، ذلك المعنى الذي كان شائعاً في القرنين الثالث والرابع ، والذي في ظلاله ألف الجاحظ والمبرد والقالي وأبو الفرج . فهو كتاب ثقافة عربية عامة ، يجمع بين التاريخ والأخبار والمختارات الشعرية والنثرية ، ويتعرض للبلاغة والنقد والعروض والموسيقى والأخلاق والعادات .

وقد قسم ابن عبدربه كتابه إلى خمسة وعشرين باباً ، وسمى كل باب باسم حبة من حبات العقد الحقيقي ، وجعل تلك الأبواب في ترتيبها كحبات العقد المنظوم في ترتيبه فهو يبدأ عقده بكتاب اللؤلؤة في السلطان ، ثم ينثي بكتاب الفريدة في الحروب ومدارها ، ثم يتبع ذلك بكتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد ، ثم بكتاب الجمانة في الوفود ، ثم بكتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ، ثم بكتاب الياقوتة في العلم والأدب ،

ثم بكتاب الجوهرة في الأمثال ثم بكتاب الزمردة في المواعظ والزهد ، ثم بكتاب الدرّة في التعازي والمرثي . ثم بكتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ، ثم بكتاب العسجدة في كلام الأعراب ، ثم بكتاب المجنبة في الأجوبة . وهنا تأتي الواسطة في الخطب . وبعد الواسطة تأتي أبواب بتلك الأسماء السابقة ، كأنها حبات ماثلة تأتي على الجانب الآخر من واسطة العقد الحقيقي . فيأتي بعد الواسطة كتاب المجنبة الثانية في التوقيعات والفصول والصدور وأخبار الكتبة . ثم كتاب العسجدة الثانية في الخلفاء وتاريخهم وأيامهم ، ثم كتاب اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطالبيين والبرامكة ، ثم كتاب الدرّة الثانية في أيام العرب وقائعهم ، ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعها ومخارجه ، ثم كتاب الجوهرة الثانية في أعاريض الشعر وعمل القوافي ، ثم كتاب الياقوتة الثانية في علم الألحان والاختلاف فيه ، ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ، ثم كتاب الجمانة الثانية في بيان المتنبتين والموسومين والبخلاء والطفيليين ، ثم كتاب الزبرجدة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان ، ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب ، ثم كتاب اللؤلؤة الثانية في الفكاهات والملح .

وهكذا ينتهي آخر باب في العقد بلؤلؤة كما بدأ أول باب بلؤلؤة ، تماماً كما ينتهي أي عقد بحبة ماثلة للحبة التي بدأ بها .

ويلاحظ من هذا العرض السريع لأبواب الكتاب ، طبيعة المادة التي يحويها . وأكثر مواد الكتاب تتصل بالمشرق وتاريخه وسير أعلامه وأخبار فنانيه . والقليل جداً من مواد العقد هو ما يتصل بالأندلس . وهذا ما حدا بالصاحب بن عباد إلى القول عن هذا الكتاب : « هذه بضاعتنا ردت إلينا»^(١) .

والسبب في إيراد المؤلف كتابه على هذا النحو المشرق ، هو أنه أراد أن يتقل إلى

(١) انظر : معجم الأدباء لياقوت ج ٤ ص ٢١٤ ، ٢١٥ .

مواطنيه ثقافة عامة عن المشرق تغنيهم عن الرجوع إلى كثير من الكتب وعديد من المراجع . كما أن المؤلف أراد أيضاً أن يبين تفوق الأندلسيين حتى في الثقافة المشرقية نفسها .

أما مصادر كتاب ابن عبد ربه . فهي كثيرة متنوعة ، قد اتصل بها المؤلف بما أتبح له من ثقافة واسعة وعمر مديد . وفي مقدمة تلك المصادر « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، « والبيان والتبيين » و « البخلاء » و « الحيوان » للجاحظ ، و « الكامل » للمبرد ، و « طبقات الشعراء » لابن سلام ، و « السيرة » لابن هشام ، و « كليلة ودمنة » لابن المقفع . هذا إلى كثير من دواوين الشعراء الجاهليين والإسلاميين^(١) .

ولابن عبد ربه طريقتة في العرض ؛ فهو دائماً لا يأتي بالسند ، على عكس صاحب الأغاني . وهو أحياناً لا يدقق فيما يروي من أخبار . ثم هو غالباً يتبع ما يورد من نصوص شعرية بشعر له هو .

والكتاب عظيم القيمة من النواحي التاريخية والأدبية والعلمية ، وهو ذخيرة أدبية حافلة بالنصوص القيمة شعراً ونثراً في شتى الفنون والأغراض والمواقف ، وهو موسوعة ثقافية عربية عامة ، فيها اللغة وفيها النقد وفيها العروض ، بل فيها الموسيقى . وهو إلى ذلك مصدر لمعرفة كثير من تاريخ الأندلس وأخبار حكامها وعادات أهلها . والكتاب بعد ذلك كله أهم مرجع لفن ابن عبد ربه ؛ فهو يشتمل على نماذج كثيرة من شعره ونثره . هذا ، والكتاب لم يكن يوصف « بالفريد » في أيام صاحبه ، وإنما كان يسمى بالعقد . وقد أضاف بعض المتأخرين الوصف بالفريد ، فعرف من يومها « بالعقد الفريد » . فقد ذكر الكتاب في كل المراجع القديمة مجرداً من هذا الوصف ؛ ذكره الضبي في « بغية المنتمس » قائلاً عن ابن عبد ربه : « وله الكتاب الكبير المسمى بالعقد في الأخبار » . وذكره ياقوت في « معجم الأدباء » بنفس الاسم فقال عن المؤلف : « وهو صاحب

(١) اقرأ تحليلاً وافياً لمواد العقد في كتاب الأستاذ جبرائيل جبور : ابن عبد ربه وعقده .

كتاب العقد في الأخبار» . وكذلك كل المؤلفين المتقدمين لم يذكرها كلمة «فريد» التي أشهر بها كتاب «العقد» فيما بعد ، مثل ابن شرف القيرواني ، والفتح بن خاقان ، وصاعد التطيلي ، وابن خلكان ، وابن خلدون ، وابن بسام . ولعل أول من ذكر كلمة «فريد» هو الأبشيهي صاحب «المستطرف في كل فن مستظرف» . وربما كان ذكر الأبشيهي لتلك الصفة بدافع تكوين سجمة ، فهو يقول في كتابه : «ونقلت كثيراً مما نقله ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد ، ورجوت أن يجد مطالعه كل ما يقصد ويريد»^(١) .

وليس من شك في أن ابن عبد ربه قد أخرج هذا الكتاب في صورته الكاملة أيام الناصر ، بل إن هذا الإخراج كان بعد أن تلقب الناصر بلقب أمير المؤمنين^(٢) أي بعد سنة ٣١٦ هـ ؛ لأن ابن عبد ربه يخلع على الناصر هذا اللقب . ومع هذا فالمرجح أن المؤلف قد بدأ في عمل هذا الكتاب قبل عهد عبد الرحمن الناصر ؛ لأن الأرجوزة العروضية التي فيه مختومة بالدعاء للأمير عبد الله^(٣) . ولعل ابن عبد ربه كانت لديه بعض مواد الكتاب قبل تأليفه بصورته التي هو عليها الآن ، وكان من تلك المواد ما أعده قبل عهد الخلافة ، ومنها ما أعده أيام الخلافة ، ثم جمع ذلك ونسقه وكمله وأخرجه في هذا «العقد»^(٤) .

ونثر ابن عبد ربه - كما يبدو من كتابه - نثر جيد خال من التكلف ، أقرب إلى الوضوح والسلاسة ، مع ميل شديد إلى الاقتباس والاستشهاد وإيراد مآثور القول ، ومع

(١) انظر في هذا ، التحقيق المفصل الذي كتبه جبرائيل جبور عن كتاب العقد ، في كتابه القيم ، ابن عبد ربه وعقده .

(٢) انظر العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٨ .

(٣) انظر : العقد الفريد ج ٣ ص ١٥٤ .

(٤) طبع كتاب العقد عدة مرات في مصر منها : طبعة بولاق سنة ١٢٩٣ . وطبعة العثمانية سنة ١٣٠٢ . وطبعة الشرفية سنة ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ . وطبعة الأزهرية سنة ١٣٣١ . وأحسن طبعة هي التي أخرجتها لجنة التأليف بتحقيق الأساتذة : أحمد أمين وإبراهيم الإبياري وأحمد الزين .

رغبة في التزيين والسجع في بعض الأحيان . وهذا نموذج من كتاب العقد ، يصور طريقة ابن عبد ربه وأسلوبه ، ويعطى فكرة عن آرائه في الأدب وتأليفه . يقول ابن عبد ربه في مقدمة العقد :

« . . . وبعد ، فإن أهل كل طبقة ، وجهابذة كل أمة ، قد تكلموا في الأدب وتفلسفوا في العلوم على كل لسان ومع كل زمان . وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غايته ؛ وبذل مجهوده ، في اختصار بديع معاني المتقدمين ، واختيار جواهر ألفاظ السالفين ، وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار ، والمتخير إلى اختيار . ثم إنى رأيت آخر كل طبقة . وواضع كل حكمة ، ومؤلف كل أدب أعذب ألفاظاً ، وأسهل بنية ، وأحكم مذهباً ، وأوضح طريقة من الأول ؛ لأنه ناقض متعقب ، والأول بادئ متقدم .

« فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة . والكتب المترجمة ، بعين إنصاف ، ثم يجعل عقله حكماً عادلاً ، ويفصلاً قاطعاً ؛ فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع ، طيبة المنبت ، ذكية الثمرة ، يانعة الثمرة ؛ فنأخذ بنصيبه منها كان على إرث من النبوة ، ومنهاج من الحكمة ؛ لا يستوحش صاحبه ، ولا يضل من تمسك به .

« وقد ألفتُ هذا الكتاب ، وتخيرت جواهره من متخيرات جواهر الأدب ، ومحصول جوامع البيان ؛ فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب . وإنما لي فيه تأليف الأخبار ، وفضل الاختيار ، وحسن الاختصار ، وفرش في صدر كل كتاب . وما سواه فأخوذ من أفواه العلماء ، ومأثور عن الحكماء والأدباء . واختيار الكلام أصعب من تأليفه ؛ وقد قالوا : اختيار الرجل وافدٌ عقله .

« وقال الشاعر :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره

« وقال أفلاطون :

عقول الناس مدفونة في أطراف أقلامهم ، وظاهرة في حسن اختيارهم . فتطلبت
نظائر الكلام : وأشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادير الأمثال ، ثم
قرنت كل جنس منها إلى جنسه ؛ فجعلته باباً على حدة ، ليستدل الطالب للخبر على
موضعه من الكتاب ونظيره في كل باب .

« وقصدت من جملة الأخبار وفنون الآثار أشرفها جوهرًا ، وأظهرها رونقًا ، وألطفها
معنى ؛ وأجزأها لفظًا ، وأحسنها ديباجة ، وأكثرها حلاوة وطلاوة ؛ آخذ بقول الله تبارك
وتعالى : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » وقال يحيى بن خالد : الناس يكتبون
أحسن ما يسمعون ، ويحفظون أحسن ما يكتبون ، ويتحدثون بأحسن ما يحفظون .
وقال ابن سيرين : العلم أكثر من أن يحاط به ، فخذوا من كل شيء أحسنه . وفيما
بين ذلك سقط الرأي وزلل القول ، ولكل عالم هفوة ، ولكل جواد كبوة ، ولكل صارم
نبوة .

« وقيل للعتابي : هل تعلم أحداً لا عيب فيه ؟ قال : الذي لا عيب فيه لا يموت
أبداً ، ولا سبيل إلى السلامة من ألسنة العامة . وقال العتابي : من قرض شعرا أو وضع
كتابا فقد استهدف للخصوم واستشرف للألسن ، إلا من نظر فيه بعين العدل وحكم
بغير الهوى ، وقليل ما هم .

« وحذفتُ الأسانيد من أكثر الأخبار ، طلبا للاستخفاف والإيجاز ، وهرباً من
التثقيب والتطويل ؛ لأنها أخبار ممتعة وحكم ونوادير ، لا ينفعها الإسناد باتصاله ، ولا
يضيرها ما حذف منها . وقد كان بعضهم يحذف أسانيد الحديث عن سنة متبعة ،
وشريعة مفروضة ؛ فكيف لا تحذف من نادرة شاردة ، ومثل سائر ، وخبر مستطرف ،
وحديث يذهب نوره إن طال وكثر ؟ ! . سأل حفص بن غياث الأعمش عن إسناد

حديث ، فأخذ بحلقه وأسنده إلى حائط وقال : هذا إسناده ! ! . وحدث ابن السماك
بحديث ، فقيل له ما إسناده ؟ فقال : هو من المرسلات عرفاً ، وحدث الحسن البصرى
بحديث ، فقيل له : يا أبا أسعد ، عن ؟ قال وما تصنع بعمن يا ابن أخي ؟ أمّا أنت
فناثك مواعظته ، وقامت عليك حجته .

« وقد نظرتُ في بعض الكتب الموضوعة ، فوجدتها غير متصرفة في فنون الأخبار ؛
ولا جامعة لجل الآثار ، فجعلت هذا الكتاب جامعاً لأكثر المعاني التي تجري على أفواه
العامة والخاصة ، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة . وحليت كل كتاب منها بشواهد
من الشعر ، بجانس الأخبار في معانيها . وتوافقها في مذاهبيها ، وقرنت بها غرائب من
شعري ، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ،
حفظاً من المنظوم والمشور ،^(١) .

الفصل الخامس

فترة الحجّانية

١ - فترة حكم استبدادي :

تمثل هذه الفترة في السنين التي حكم الأندلس فيها من الناحية الرسمية الخليفة هشام الثاني^(١) الذي بويغ بعد موت أبيه الحكم المستنصر . أما من الناحية الحقيقية ، فقد كان الحكم لمحمد بن أبي عامر ، الذي عمل اجباً للخليفة وتلقب بالمنصور^(٢) ، ثم لابنه عبد الملك ، الذي خلف أباه في الحجابة وتلقب بالمظفر^(٣) ، ثم لابنه الثاني عبد الرحمن ، الذي عمل عمل أبيه وأخيه وتلقب بالمأمون^(٤) .

ذلك أن هشاماً بويغ بالخلافة ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، فلم يكن يستطيع أن يلبى الأمر بنفسه ؛ وتصادف أن كان من رجال القصر وقتئذ ، رجل ذكي طموح ، هو محمد بن أبي عامر ، الذي تمكن من انتزاع السلطان لنفسه شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح الحاكم الفعلي بعد فترة وجيزة^(٥) . ثم سار ابناه من بعده على سنته ؛ حتى لم يبق لهشام مع المنصور وابنيه من بعده إلا اسم الخلافة فقط^(٦) .

وابن أبي عامر من نسل عبد الملك المعافري ، أحد المحاربين العرب الداخلين مع طارق بن زياد . ويتصل نسبه ببني عامر لإحدى قبائل اليمن . وقد استوطن بجده

(١) بويغ بالخلافة سنة ٣٦٦ وخلع سنة ٣٩٩ هـ (٩٧٦ - ١٠٠٩ م)
 (٢) استأثر بالحجابة بعد أن سجن المصحف سنة ٣٦٧ وظل حتى توفى سنة ٣٩٢ هـ (٩٧٨ - ١٠٠٢ م) .

(٣) عمل بعد موت أبيه من سنة ٣٩٣ إلى أن توفى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٢ - ١٠٠٨) .
 (٤) عمل بعد أخيه شهوراً حتى قتل في رجب سنة ٣٩٩ هـ (مارس سنة ١٠٠٩ م) وعلى هذا تكون فترة الحجابة نحو ٣٢ سنة .

(٥) انظر أخباره وتاريخ فترة في : البيان المغرب ج ٣ ص ٣٨٢ وما بعدها . وفي النسخ ج ١ ص ١٨٥ وما بعدها . وانظر أيضاً : Levi, Historia. pp. 397 ff.

(٦) انظر في تاريخ المظفر : المصدر السابق ص ٤٣٧ وما بعدها ، وفي تاريخ المأمون نفس المصدر ص ٤٥٥ وما بعدها .

إقليم الجزيرة الخضراء ، وكان أبوه من علماء عصره . أما محمد بن أبي عامر نفسه ، فقد رحل إلى قرطبة شاباً يطلب العلم ويتمرس بالأدب ، وبدأ حياته العلمية كاتب عرائض على باب القصر الخليلي بقرطبة ، ثم انتقل إلى عمل في القصر ، حيث اختارته الملكة صُبْح ليكتب عنها . ثم زكته عند الخليفة الحكم المستنصر ، فولاه بعض المناصب المالية والقضائية . وأسند إليه الإشراف على أموال ابنه الأمير هشام ولي العهد . ولما مات الخليفة الحكم . كان ابن أبي عامر أحد الشخصيات الكبيرة في القصر . والمرموقة في الدولة . وقد وصل إلى ما وصل إليه بمساعدة الوزير المصحفي صديقه . والملكة صبح المعجبة به .

وقد تآقت نفس ابن أبي عامر إلى انتزاع السلطان . ولم يكن في الميدان وحده ، بل كان هناك الحاجب المصحفي ، وهناك القائد غالب ، ثم هناك الصقالبة وعلى رأسهم جؤذر وفائق . وقد استطاع ابن أبي عامر أن يتغلب على هؤلاء جميعاً ، وأن يضر بهم الواحد بعد الآخر ، فتعاقد أولاً مع المصحفي للقضاء على نفوذ الصقالبة ، ثم اتفق ثانياً مع غالب القائد للتخلص من المصحفي الوزير ، ثم حارب غالباً آخر الأمر فقضى عليه . وانتهى الأمر بتفرده كأعظم شخصية في الدولة بعد الخليفة . ولكي يطغى على الخليفة أيضاً حجه عن الناس حججاً حقيقياً وصرف هو كل شئون الدولة ، وما زال ينتزع لنفسه كل يوم كسباً جديداً حتى صارت كل السلطات في يده . وكاد الناس ينسون الخليفة المؤيد ، أمام الحاجب المنصور .

وقد كان ابن أبي عامر ، محبباً للجهاد كثير الغزوات ، حتى قيل إنه كان يغزو كل عام مرتين ، وإن غزواته قد بلغت نيفاً وخمسين ، وإن النصر كان حليفاً له ، حتى استحق بجدارة لقب المنصور . فقد اجتاحت جيوشه عدة مرات أقاليم مسيحية الشمال ، وانتصرت في قشتالة وجليقية وقطلونية^(١)

(١) اتخذ لقب المنصور سنة ٥٣٧١ . انظر : البيان المغرب ج ٢ ص ٤١٧ .

وأخيراً مات ابن أبي عامر أثناء عودته من غزو قشتالة ، ودفن بمدينة سالم ، بعد أن كفن بكفن كان يحمله دائماً في غزواته ، وأمر بأن يذرّ عليه تراب كان يجمعه مما تخلف على جسمه من آثار تلك الغزوات العديدة ، وأوصى بأن يكتب على قبره :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحى الثغور سواه^(١)

وقد خلفه في الحجابة ابنه عبد الملك وتلقب بالظافر ، واتبع سنة أبيه في التفرد بالسلطان ، وحجب الخليفة وإبعاده عن كل شيء ذي أهمية في السياسة أو الحكم . وكذلك اتبع سنة أبيه في الجهاد والغزو ، فرد اعتداءات ملوك الشمال ، وحافظ على هبة الدولة وسلامة حدودها ، ثم مات في ريعان شبابه .

وتولى بعده أخوه عبد الرحمن ، وتلقب بالمأمون . وكانت أمه مسيحية بنت رجل يسمى « سانشو » ولذا سماه الفقهاء « سانشول » Sanchuelo أى سانشو الصغير ؛ وذلك لأنهم كانوا يكرهونه ، كما كان يكرهه كثير من الأندلسيين بسبب استهتاره واتهامه بقتل أخيه عبد الملك . وربما كان نسبه لأم مسيحية من أسباب كراهيته .

وكان ذلك كله بمثابة البارود الذى ينتظر الشرارة ليتفجر . وقد انطلقت الشرارة ، وكان مطلقها (سانشو) نفسه ؛ فقد دعاه طمعه إلى الضغط على الخليفة ليكتب له بولاية العهد ، وفعلاً امتثل الخليفة وكتب بالعهد له . وهنا غلى مرجل الغضب في نفوس الأندلسيين وانتهزوا فرصة غيابه في غزو لإقليم ليون في أول سنة ١٠٠٦ م وثاروا بقيادة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، الذى انضم إليه الساخطون على العامريين وخاصة من كانوا على ولاء لبني أمية ، من يمنين ومصريين . وهاجم الثائرون

(١) ورد هذان البيتان في نفع الطيب ج ١ ص ١٨٦ .

قصر الخلافة ، وقتلوا الحراس ، واضطروا الخليفة إلى التنازل عن الخلافة لزعيم الثورة محمد بن هشام ، الذى ولى الخلافة ، وتلقب بالمهدى .

ولما وصلت أنباء الثورة إلى المأمون أثناء عودته من غزوته . عزم على إخمادها ، ولكن جنده البربر انفصلوا عنه ، وأخذوا يتسللون أثناء مسيره ويدخلون قرطبة ، ويباعون الخليفة الجديد . ثم قبض على المأمون ، وقتل وصلبت جثته . وهكذا دالت دولة بنى عامر ، وانتهت فترة الحجابة .

وقد كان الطابع السياسى لتلك الفترة ، هو الطابع الاستبدادى ؛ ففيه القوة التى تحمل الضعف ، والانتصار الذى ينطوى على الهزيمة ، والصعود الذى ينذر بالهبوط . ذلك لأن القوة كانت قوة الحاكم لا قوة الشعب ، والانتصار كان انتصار الطمع لا انتصار المبدأ . كما كان الصعود صعوداً انتهازياً ، لا تسنده دعائم من القيم تضمن له البقاء . فالمنصور قد سلك للوصول إلى تحقيق مآربه طريقاً غير نبيل . حيث قضى على الكفاءات التى رأى فيها حثماً من سلطانه ، واستعان بالمرتزقة من الجنود المسيحيين والصقالبة والبربر ، وسجن وقتل . حتى لم يسلم منه صديقه وحموه ، بل لم يسلم ابنه نفسه^(١) . وقد يكون كل هذا قد حقق له قوة ، وقد تكون تلك القوة قد انعكست حيناً على الدولة . ولكنها فى الواقع كانت قوة شكلية ، قوة مؤقتة ، تنهى بانتهاء صاحبها . فبعد موت المنصور ، سارت الدولة فترة وحيزة بقوة الدفع ، ثم ما لبثت أن اشتعلت فيها ثورة كانت مبدأ فتنة طاحنة ، لم تود بالدولة العابرية وحدها ، بل بالدولة الأموية ووحدة الأندلس جميعاً . وسوف نفصل القول فى تلك الفتنة فى الفصل التالى إن شاء الله .

(١) من صحاباه : صديقه المصحف الحاجب ، وحموه غالب القائل ، وابنه عبد الله ، وكان قد اشرك

فى حركة ضد أبيه ولكنه وقع فى يده فقتله .

٢ - فترة تحلل اجتماعي

عادت إلى المجتمع الأندلسي في فترة الحجابة كثير من الأمراض التي كان قد برئ منها في سنيه السالفة ؛ فقد أدى استخدام المنصور للمرتزقة من البربر والصقالبة ومسيحي الإسبان ؛ إلى نوع من الانفصال بين الشعب والجيش ؛ بل وإلى شيء من الكراهية يضمها هؤلاء لهؤلاء . كذلك أدى سلوك المنصور في الاستبداد بالأمر والاستئثار بالحكم ، إلى نوع من الانقسام في المجتمع الأندلسي فكان من الناس من يفضي عن استبداد المنصور واستئثاره ، لأن عينيه تمثلتان بمشاهد الشجاعة ومواكب النصر ؛ ولأن بصره منجذب دائماً إلى هذا التوفيق الهائل الذي أحرزه المنصور في إخضاع الأعداء المسيحيين ، وهزيمة جيوش المعتدين ، وتأمين الأندلس من الخارج والداخل على السواء . على أنه كان من الناس أيضاً من ينظر بعين الاستنكار إلى تصرفات المنصور ؛ لتخلصه بطريقة قاسية من كل رجال الدولة الأكفاء ، ولحجبه بصورة مؤلمة للخليفة الشرعي للأندلس ، ثم لتقريبه للمرتزقة الغرباء دون الأندلسيين الأقربين .

وليس من شك في أن مسلك المنصور في الوصول إلى السلطان ، ونجاحه في السيطرة على كل شيء ، قد أدى إلى تفتش روح الطمع ، وشروع التطلع إلى الغلبة ، وخاصة بين هؤلاء الذين كانوا يرون أن ابن أبي عامر دونهم في المنبت والاستعداد . وغير ذلك مما يؤهل للسلطان والحكم .

هذا ، وقد أدت الانتصارات الكثيرة إلى وفرة الغنائم وكثرة الثروات ، مما ساعد على انتشار اللهو وشيوع الإقبال على الملذات .

وقد كان المنصور نفسه قدوة في ذلك ؛ فهو على الرغم من ظهوره بمظهر المتعصب للدين ليجامل الفقهاء ويقوى مركزه بين الشعب ، كان في حياته الخاصة متحرراً ،

يحب الشراب والرقص واللهو . وقد كانت له مجالس أتس تحكى أخبارها بعض كتب الأدب^(١) .

وقد كان المنصور محباً لتقليد الخلفاء والأمراء الأمويين ، بل ربما كان ميالاً إلى منافستهم والتفوق عليهم . لهذا اهتم بالتعمير والإنشاء مثلهم ، فبنى مدينة الزاهرة^(٢) وجعلها مقر حكمه وموطن رجاله وحرسه ، وذلك ليقابل بها الزهراء التي بناها الناصر ، والتي كانت مقر الخليفة الاسمي هشام . وأنشأ المنصور كذلك المنية العامرية^(٣) ، وجعلها بالبساتين الرائعة والقصور الفخمة ، ليباهى بها المنى التي أنشأها أمراء بني أمية ، كنية الرصافة التي كان قد أقامها عبد الرحمن الداخل .

وكما زاد أمراء بني أمية وخلفاؤهم في مسجد قرطبة الجامع ، زاد المنصور أيضاً فيه زيادة كبيرة ، وأدخل عليه إصلاحات قيمة ، ربما فاقت ما عمله بعض الأمويين أنفسهم^(٤) . وله غير ذلك كثير من أعمال البناء والإنشاء في القناطر والقصور وغيرها^(٥) .

هكذا كان المجتمع في فترة الحجابة مجتمعاً فيه استقرار وثراء وحضارة وترف من جانب ، وفيه طبقية وعنصرية وطمع وكراهية ونفاق وطو وتحلل من جانب آخر . ولسنا نبالغ إذا قلنا إنه كان مجتمعاً يحمل في أعماقه بركاناً يوشك أن ينفجر ، ولكنه حتى ذلك الحين كان بركاناً هامداً يوهم بهدوئه أنه جبل راس ، ويخدع بما فيه أنه منجم غني ،

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٧ .

(٢) انظر : نفع الطيب للمقرى ج ١ ص ٢٧٠ وما بعدها .

(٣) انظر : المرجع السابق ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٤) انظر : المصدر السابق ص ٢٥٥ وما بعدها . والبيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٢٢٩ ،

٢٣٠ .

(٥) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ١٩١ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

٣ - فترة تقييد الثقافة

سارت الثقافة الأندلسية في فترة الحُجَابَة ، بقوة الدفع الذي دفعته في الفترات السابقة ، وخاصة في فترة الخلافة . لذلك لا نلاحظ تقدماً جدياً في أي ميدان من ميادين المعرفة ، ولا تضادف أعلاماً بارزين في أي فرع من فروع الثقافة ، هذا باستثناء تلك البقية الباقية من أعلام فترة الخلافة . وربما كان من عوامل استمرار الثقافة الأندلسية في تلك الفترة على شيء من السير ، أن المنصور بن أبي عامر كان على صلة قديمة بالثقافة ، قد ارتبط بها منذ نشأته ؛ وأنه كان على صحبة قوية للعلماء ، قد أخذ نفسه بها منذ ولادته . وقد قيل : إنه كان له مجلس علمي يضم كبار علماء عصره ، وأن هذا المجلس كان يعقد اجتماعات دورية أسبوعية يحضره المنصور ، طيلة إقامته بقرطبة^(١) .

هذه أولى الملاحظات على الثقافة الأندلسية في فترة الحُجَابَة . وهناك ملاحظتان أخريان ، لعلهما أهم ما غير ملامح الثقافة الأندلسية عما كانت عليه في فترة الخلافة . أما أولاهما فمخول الدراسات الفلسفية . وأما الثانية فنشاط الدراسات اللغوية . وقد كان مخول الدراسات الفلسفية بسبب مقاومة المنصور لتلك الدراسات ، ترضياً للعامّة وكسباً لتأييد الفقهاء . ومن أبرز أعماله في ذلك إحراقه لكتب الفلسفة والمنطق والفلك ، التي كانت تمتلئ بها مكتبة الحكم المستنصر ، وبهذا تقيدت الحرية الفكرية ، وتهدب الناس الاتصال بالعلوم العقلية ، وكان من نتائج ذلك كما يقول بعض المؤرخين ، أن سكن أكثر من كان قد تحرك للحكمة ، وختلت نفوس من شبوا للفلسفة ، وآثر هؤلاء وأولئك التسرُّ ، بل إن بعضهم قد هاجر إلى المشرق أيام المنصور فراراً من الأذى وطلباً للحرية^(٢) .

(١) انظر : جلوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ .

(٢) انظر : طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ص ٦٦ - ٦٩ .

وهكذا عوّق هذا الفرع من فروع الثقافة عن النمو ، بعد أن بدأ يورق وخاصة في أيام الحكم المستنصر ، راعي حرية الفكر .

وأما نشاط الدراسات اللغوية في فترة الحجابة ، فأهم أسبابه قدوم اللغوي المشرقي الأديب ، صاعد البغدادي^(١) الذي وفد على الأندلس أيام المنصور ، فتلقاه تلقياً حسناً ، متشبيهاً بالناصر في تلقيه لأبي علي القالي .

وقد جاء تنشيط صاعد للدراسات اللغوية في الأندلس خلال الحجابة ، من جهة أن الأندلسيين كانوا يحسون بشبه مركب نقص أمام المشاركة كما عرفنا^(٢) ، ولهذا كانوا يميلون غالباً إلى إظهار تفوقهم على كل مشرقى وافد عليهم . وكما حاول يحيى الغزال إدخال الفنان زرياب ، وكما أراد منذر بن سعيد هزيمة أبي علي القالي ، كذلك تصدى كثير من علماء فترة الحجابة لكشف صاعد البغدادي ، فكانت بينه وبينهم مناقشات لغوية كثيرة ، بلغت أحياناً درجة التحدى ، بل انحدرت في بعض الأحيان إلى هوة نصب الجبال ؛ كل ذلك ليسقط العالم المشرق فيسقط معه النفوذ الأدبي المشرق الذي كان يثقل كاهل الأندلسيين فيما يبدو .

وهكذا كان لمحاورات الأندلسيين ومناظراتهم لصاعد ، أثر كبير في تنشيط الحركة اللغوية في فترة الحجابة ، على الرغم مما تحلل تلك المحاورات والمناظرات من كيد ونصب

(١) كنية هذا الرجل : أبو العلاء ، واسمه صاعد بن أبي الحسن بن عيسى ، وهو ربمى النسب ، طبرى الأصل ببغدادى التربة . وقد وفد على الأندلس أيام المنصور ، سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) تقريباً وكان عالماً باللغة والأدب والأخبار ، كما كان سريع الجواب حسن الشعر بارع الارتجال ، محباً للمزاح . انظر ترجمته وبعض أخباره في : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٢ وما بعدها . وفي نفح الطيب للمقرئ ج ٢ ص ٨٦ وما بعدها . وفي : المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٩ وما بعدها في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٢٢٩ .

(٢) انظر : صفحة ٦٢ من هذا الكتاب .

أحاييل^(١) . وذلك أن الرجل كان — إلى طبيعته الفنية — على كثير من العلم والرواية والبصر بالشعر العربي ، وقد اعترف له بعض الأندلسيين بالتفوق^(٢) .

وقد كان كتاب « الفصوص » الذي ألفه صاعد ، ذا أثر كذلك في تغذية الدراسات اللغوية والأدبية بالأندلس . وهو كتاب كان صاعد قد أملاه على الأندلسيين في مسجد الزهراء . وأراد له أن يتفوق على أمالي القالي^(٣) . وكان المنصور قد كافأه عليه مكافأة كبيرة ، قيل إنها خمسة آلاف دينار^(٤) . وقد تتبع هذا الكتاب أدباء الأندلس نقداً وتبريحاً^(٥) .

هذا ولا تُذكر الثقافة الأندلسية في فترة الحجابة ، دون أن ينوه بابين الفرضي وكتابه « تاريخ علماء الأندلس » ؛ فالرجل من أجل العلماء الأندلسيين ، وكتابه من أشهر ما أخرجت الأندلس من ذخائر^(٦) .

وقد ألف ابن الفرضي عدة كتب ضاعت فيما ضاع من تراث الأندلس مثل : « تاريخ شعراء الأندلس » وكتاب في « المؤتلف والمختلف » . ولكن شهرة ابن الفرضي قد اقترنت بكتابه القيم الباقي « تاريخ علماء الأندلس » ، الذي يعتبر أقدم معجم رجال

(١) انظر طرفاً من ذلك في : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٨ ، وفي : النسخ ج ٢ ص ٨٨ . وانظر بعض ما اتهم به الأندلسيون صاعداً في : الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٧١ وفي : النسخ ج ٢٧٠ ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) أقرأ بعض شواهد ذلك في الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٢١ - ٢٢ .

(٣) انظر : نصح الطيب ج ٢ ص ٧٧ .

(٤) انظر : نيات الأعيان ج ١ ص ٢٢٩ .

(٥) انظر : النسخ ج ٢ ص ٨٧ .

(٦) واسم الرجل أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي ، وقد اشتهر بابن الفرضي . وهو من أهل قرطبة . وكان فقيهاً محدثاً خطيباً جماعاً للكتب ، حتى كانت له منها خزافة عامرة ، وقد تولى القضاء في بلنسية حيناً ، ثم انتهت حياته أيام الفتنة بقرطبة على يد البربر . انظر ترجمته في : جذوة المقتبس للحميدى رقم ٥٢٧ وفي : الصلة لابن بشكوال ٥٧١ . وفي الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ١٢٠ ، ١٢١ .

أندلسي عام بين أيدينا^(١) ، والذي لا يستغنى عنه باحث في الحياة الثقافية الأندلسية ، ولا مترجم لشخصية من شخصيات العلماء الأندلسيين الأولين ، ممن عاشوا في القرن الرابع أو قبله .

٤ - فترة جمود الأدب

سار الأدب كذلك في فترة الحجابة بقوة الدفع الذي دفعته في الفترات السابقة ؛ فظل على ما كان عليه من أنواع ، ولم يعرف غير الذي كان يعرف من المذاهب . بل إن بعض الظواهر الأدبية الطيبة التي بدت في فترة الخلافة ، وكان يرجى لها النماء فيما بعد ، قد اختفت في فترة الحجابة ، ولم تجر الأمور معها على ما كان يتوقع . كل هذا بسبب تأثر الأدب بالظروف السياسية الاستبدادية ، والأحوال الاجتماعية المنحلة ، والأوضاع الثقافية المقيدة وهذا تفصيل ذلك :

أولاً - الشعر :

ظل الشعر خلال فترة الحجابة على تلك الاتجاهات التي ظهرت في الأندلس خلال الفترات السابقة ، وكان بعضها وافداً من المشرق وبعضها الآخر نابعاً من الأندلس ، وهي الاتجاه المحافظ والاتجاه المحدث والاتجاه الشعبي والاتجاه المحافظ الجديد . ولم يضاف إلى تلك الاتجاهات المعروفة أي اتجاه جديد خلال فترة الحجابة . بل إن بعض الظواهر الشعرية التي ظهرت في الفترة السابقة ، وكانت سبب إثراء للشعر وتوسيع لميدانه ، قد اختفت في فترة الحجابة ؛ فعاد الشعر أفقر تراثاً وأضيق ميداناً . فظاهرة

(١) نشره المستشرق الإسباني « كوديرا » Codera في مجلدين سنى ١٨١٩ ، ١٨٩٢ وسماه بالاسم الذي ذكره ابن بشكوال صاحب الصلة ، وهو (تاريخ علماء الأندلس) ثم نشره السيد عزت الطارقي مجلدين سنة ١٩٥٤ . وسماه بالاسم الذي ذكره الحميدى في جنوة المقتبس وهو (تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس) .

تأثره بالنهضة العلمية واستخدامه للمعاني الفلسفية ، مما كان يبشر بظهور شعر فلسفى ؛ هذه الظاهرة قد اختفت في فترة الحجابة ، وعاد الشعر إلى معانيه المألوفة وموضوعاته الغنائية المعروفة . وليس يصعب تعليل اختفاء هذه الظاهرة بعد أن عرفنا ما كان في عهد الحجابة من محاربة للفلسفة وإحراق لكتيبها ومطاردة للمشتغلين بها . فكما كانت الحرية العقلية في فترة الخلافة سبباً في ظهور الشعر الفكري أو بواكير الشعر الفلسفى ، كانت الاستبدادية الفكرية في فترة الحجابة سبباً في اختفاء هذا اللون من ألوان الشعر .

على أنه إذا كان الشعر قد سار في تلك الفترة على اتجاهاته المعروفة ، واستمر على أغراضه المألوفة ؛ فإن بعض الأغراض كان أوفر حظاً وأشد نشاطاً ؛ وذلك نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية الخاصة التي تميزت بها الحياة الأندلسية في تلك الفترة . ومن تلك الأغراض التي كانت على حظ موفور من النشاط خلال فترة الحجابة :

(أ) المجون :

فقد كثر الشعر في الدعوة إلى الشراب ، ووصف ما يدور في مجالس اللهو ، ثم في الحديث عن لذائذ ومتع قد يصل إلى حد الأدب المكشوف . وقد نشط هذا الغرض الشعرى نتيجة لشيوع التحلل في المجتمع الأندلسي وميله إلى اللهو ، وإقباله على المتع الحسية ؛ من شراب ورقص واقتناء لحسان الجواوى ، فمن كثر سبهن ضمن ما كان ما يسبى في الانتصارات الحربية الكثيرة .

ومن أمثلة شعر المجون في تلك الفترة ، ما نقله ابن بسام في هذا الخبر : كتب عبد الملك بن شهيد إلى المنصور في يوم قرّر فقال :

أما ترى برّد يومنا هذا صيرنا للكمن أفذاذا
قد فطرت صحة الكبود به حتى لكادت تعود أفلاذا

فادعُ بنا للشَّمول مصطليا نُغذِّ سيرا إليك إغذاذا
 وادع المسمى به وصاحبه تدع نبلا وتدع أستاذا

قال ابن بسام : « وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالعيال ، فأمر بإحضار الأصحاب ، وأحضر الوزير أبا مروان (عبد الملك بن شهيد) وأخذوا في شأنهم ، فر يوم من الطيب لم يشهد ، وألوان من اللهو لم تُعهد . وطما الأمر وسما ، حتى تصايح القوم وتزافنوا^(١) ، ودار الدور (بالرقص) ثم انتهى إلى الوزير ابن شهيد ، وكان لا يطيق القيام لنقرس كان يلازمه ، فأقامه الوزير أبو عبد الله بن عياش ؛ فارتجل الشيخ أبياتاً جعل يقود بها وينشد :

هاك شيخ قاده عذر لكا قام في رقصته مستهلكا
 لم يطق رقصها مستتبنا فأنى يرقصها مستمسكا
 عاقه من هزها معتدلا نقرس أنحى عليه فاتكا
 طرب اللهو وقد حسق له طربا أرقصه حتى اشتكى
 من وزير فيهم رقاصة قام من طيب بناغى ملكا
 أنا لو كنت كما تعرفنى قمت لإجلالا على رأسى لكا
 قهقهة الإبريق منى ضحكا ورأى رعشة رجلى فبكى^(٢)

ومن شعر المجون كذلك ما دار بين عبد الملك بن شهيد والمنصور بشأن بعض الجوارى . وكان ابن شهيد قد تخلف عن غزوة ، فكتب إلى المنصور بعد عودته بالسبي يطلب منه أن يهديه بعض الحسان ممن سبين في تلك الغزوة ، فكان مما قال :

أنا شيخ والشيخ يهوى الصبايا فبنفسى أقيك كل الرزايا

(١) تزاغوا : تراقصوا .

(٢) اقرأ هذه القصة وما اشتملت عليه من شعر في: الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٦ ، ١٧ .

ورسولُ الإله أسهم في الفتنىء لمن يحث فيه المطايا
فاجعلنى - فديت - أشكرمعرو فك وأبعث بها عذاب الثنايا
وكان مما رد به المنصور على هذا الطلب :

قد بعثنا بها كشمس النهارِ في ثلاث من المهأ أبكارِ
وامتحناً بعدرة الغيد إن كنت تَوَحَّى بوادر الأعذار
فاتسد واجتهد فلأنك شيخ سلخ الليل عن بياض النهار
صانك الله من كلالك فيها فن العار ككئة المسمار

فتلقى الشيخ الهدية ، وكتب بعد ذلك لابن أبي عامر بهذا الشعر الذى يستر مكشوفه
بكثير من الحيل البلاغية :

قد فضضنا ختام ذاك السوارِ واصطبغنا من النجيع الجارى
ونعمنا في ظل أنعم ليل ولونا بالبدر ، ثم الدرارى
وقضى الشيخ ما قضى بحسام ذى مضاء عَضْب الظبا بتار
فاصطنعه فليس يجزيك كفرةً واتخذة فحلا على الكفار^(١)

ومن الأغراض الشعرية التى نشطت كذلك في فترة الحجابة :

(ب) المدح :

فقد كان الحاجب يحس بالحاجة إلى تثبيت سلطانه غير الشرعى ، فكان يتخذ
من أفواه الشعراء أبواق دعايته . ومن هنا أحاط المنصور نفسه بجماعة من شعراء عهده ،
وجعل لهم ديواناً خاصاً ، يُعطى فيه كل على حسب طبقته^(٢) ، كما كان يصطحبهم

(١) اقرأ هذه الأبيات وقصتها في : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ١٨ ، ١٩ ، وفى نفع الطيب
المقرى ج ١ ص ٢٧٤ . وبين المصدرين خلاف فى النص . وقد اخترنا الأحسن من كل .

(٢) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ص ١٠٣ ، ٢٣٩ .

معه في الغزوات ، لتسجيل ما يحظى به من انتصارات ، ثم التفتى بذلك بين الأندلسيين (١)
ومن النماذج الشعرية التي تمثل هذا الغرض الشعري ، قول ابن دراج القسطللي
للمنصور :

ما كفرُ نعماك من شأني فيثيني	عما توالى لنصر الملك والدين
ولا ثنأني وشكري للوفاء بما	أوليتني ، دون بذل النفس يكفيني
حقاً على النفس أن تبلى ولو فئت	في شكر أيسر ما أضحيت توليتني
ها إنها نعمة ما زال كوكبها	إليك في ظلمات الخطب يهديني
تنأى بجوهر ود غير مبتذل	عندي . وجوهر حمد غير مكنون
وحبذا النأى عن أهلي وعن وطني	في كل بر وبحر منك يدينني
وموقف للنوى أغليت متئدي	فيه وأرخصت دمع الأعين العين
من كل نافرة ذلت لقود يدي	في ثني ما يدك العلياء تحبوني
والخدر يخفق في أحشاء والهة	تردد الشجو في أحشاء محزون
أجاهد الصبر عنها وهي غافلة	عن لوعة في الحشا منها تناجيني
يا هذه كيف أعطى الشوق طاعته	وهذه طاعة المنصور تدعوني
شدي على نجاد السيف أجعله	ضجيع جنب نبا عن مضجع الهون
رضيت منها وشيك الشوق لي عوضاً	وقلت فيها للوعات الأسي بيني
فإن تشج تباريح الهوى كبدي	فقد تعوضت قرباً منك بأسوني
وإن يمت موقف التوديع مصطبري	فأحر لي بدنو منك يحيني
وأى ظل سوى نعماك يلحفني	أوردي ماء سوى جدواك يرويني (٢)

كذلك كان من الأغراض الشعرية التي نشطت في فترة الحجابة :

(١) انظر : الإحاطة لابن الخطيب ج ٧ ص ٧١ (المختصر المطبوع في القاهرة سنة ١٣١٩) .

(٢) هذه الأبيات من قصيدة وردت في يتيمة الدهر للمالي ج ٢ ص ١٠٤ - ٧٠٥ .

(ج) الوصف :

فقد كثرت مظاهر الرف ، وتعددت مشاهد الجمال ، وشاعت في الحياة الأندلسية ألوان مادية استرعت انتباه الشعراء ، وأوحت إليهم بنقلها في لوحات من القريض . وقد كانت الطبيعة من أهم ما جذب أنظار الشعراء الوصافين ، حتى لنجد شعر الطبيعة قد اتضح معالمه واحتل مكاناً واضحاً في الشعر الأندلسي منذ ذلك الحين ؛ فقد وصفت الرياض وأنوارها ، والحدائق وأزهارها ، بل أنطقت الأزهار فتفاضلت ، وأجرى الثناء على لسانها فدحت . ومن أمثلة ذلك ما نرى في أشعار أبي مروان الجزيري ، الذي يعد من أبرع شعراء تلك الفترة^(١) . والذي لا شك فيه أن وقوف الأندلسيين على شعر الصنوبري^(٢) وتأثرهم به ، كان من أسباب نضج شعر الطبيعة الأندلسي وازدهاره في تلك الفترة . وقد دخل شعر هذا الشاعر المشرق إلى الأندلس في أواخر فترة الخلافة مع محمد بن العباس ، وهو عالم من أهل حلب ، وكان قد تلقى علمه بالمشرق ، وروى شعر الصنوبري عنه ، ثم نقله إلى الأندلس حين وفد عليها في أيام الحكم المستنصر^(٣) .

ومعروف أن الصنوبري اشتهر بشعره في الطبيعة ورياضها وأزهارها ، حتى كان أجمل شعره الروضيات والنوريات^(٤) . فكان لوقوف الأندلسيين على شعره ، أثر في نضج شعرهم في الطبيعة ، وظهور روضياتهم ونورياتهم التي أريد لها أن تنافس روضيات الصنوبري ونورياته . والقارئ لشعر الجزيري — خير شعراء الطبيعة في هذه الفترة —

(١) اقرأ بعض أشعاره وأخباره في : النخبة ق ١ م ٤ ص ١١ وما بعدها .

(٢) هو أحمد بن محمد بن الحسن النسي الحلبي المتوفى سنة ٣٣٤ هـ . اقرأ عنه في : شذرات الذهب لابن المهديج ٢ ص ٣٣٥ . وفي التاريخ الكبير لابن عساكر ج ١ ص ٤٥٦ .

(٣) انظر : تاريخ علماء الأندلس لابن القرضي ترجمة رقم ١٤٠٤ .

(٤) جمع بعض شعره في الطبيعة ، الأستاذ محمد راغب الطباخ ، وجعله في كتاب سماه «الروضيات» والكتاب مطبوع في حلب سنة ١٩٣٢ .

يرى بجلاء روح الصنوبرى وطيفه، يرفان وراء أكثر الصور، ويخلقان مع معظم الأخيطة
ومن ذلك قول الجزيري على لسان بهار المنية العامرية :

حَدَقُ الحِسانُ تُفَرِّهُ لى وتغارُ وتضل في صفى النهى وتحار
طلعتُ على قضبي عيون كأمى مثل العيون تحفها الأشفار
وأخصُّ شىء بى إذا شبهتني دُرَّرٌ تنطقُ سلكها دينار
أهدى له قصبُ الزمرد ساقه وجباه أنفس عطره العطار
أنا نرجس حقاً بهرت عقموم ببديع تركيبي فقبيل بهار^(١)

ومن نماذج شعر الطبيعة في فترة الحجابة ما كان يمزج فيه وصف الطبيعة بالمدح ،
وكثيراً ما يكون هذا حين يحدث الوصف بحضرة الممدوح ، أو حين يكون الموصوف
مما يتصل به . وكثيراً ما كان الحاجب يحث على هذا الوصف في مجلس من مجالسه أو
روضة من رياضه . ومن أمثلة هذا اللون من الوصف قول أبي المطرف بن أبي الحباب ،
وكان قد دخل على المنصور في المنية العامرية ، فوقف على روضة فيها ثلاث سوسنات ،
ثنتان منها قد فتحتا ، وواحدة لم تنفتح :

لا يوم كاليوم في أيامنا الأولِ بالعامرية ذات الماء والظلمل
هواؤها في جميع الدهر معتدل طيباً وإن حل فصل غير معتدل
ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها بالسعد أن لاتحل الشمس في الحمل
كأنما غرست من ساعة وبدا السوسان من حينه فيها على عجل
أبدت ثلاثاً من السوسان مائلة أعناقها من الإعياء والكسل
فبعض نوارها لبعض منفتح والبعض منغلق عنهن في شغل

(١) انظر: الذخيرة ق ١٤ م ١ ص ٣٣ .

كأنها راحة ضمت أناملها من بعد ما ملثت من جودك الحقل
وأختها بسطت منها أناملها ترجو نذاك كما عودتها فصل^(١)

(د) النقد السياسي :

وقد كان ذلك نتيجة لعدم سلامة الوضع السياسي في نظر كثير من الأندلسيين ، حيث يوجد خليفة شرعى معطل ، وإلى جانبه حاجب مستبد مسيطر ، هذا إلى جانب نفوذ أم الخليفة المسماة صبح ، ووصول المنصور عن طريقها إلى كثير مما أراد . ووضع كهذا من شأنه أن يثير بعض الشعراء وينطقهم بما يعبر عن سخط الساخطين وتبرم المتبرمين . ومن ذلك قول بعضهم :

أبى أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكبُ
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب^(٢)

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم على لسان الخليفة هشام .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتسلك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه^(٣)

وألذع من ذلك قول بعض الشعراء ينتقد الوضع كله في كثير من السخرية والتجريح :

اقرب الوعدُ وحنان الهلاكُ وكل ما تحذره قد أذاكُ
خليفة يلعب في مكتب وأمه حُبلى وقاضٍ . . .^(٤)

وآخر الأغراض الشعرية التي برزت في فترة الحجابة :

(١) اقرأ هذه الأبيات في : نفع الطيب ج ١ ص ١٧٢ .

(٢) ورد هذان البيتان في : نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٦ .

(٣) ورد هذان البيتان في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٢ ص ٤١٨ .

(٤) قد حذفنا الكلمة الأخيرة لقبها ويمكن فهمها من السياق . والبيتان في النفع ج ١ ص

(هـ) الاستعفاف :

وقد كان نتيجة طبيعة لوجود كثير من الضحايا السياسيين في تلك الفترة . وأروع أشعار استعفاف خلفها فترة الحجابة ، هي أشعار الوزير المصحفي ، الذي رأى فيه المنصور عقبة في سبيل الوصول إلى غايته ، فألقى به في السجن بعد أن وصل عن طريقه إلى المجد . وكان الرجل شاعراً مجيداً ، فنظم كثيراً من مقطوعات الاستعفاف الرقيقة ، ولكنها لم تحرك قلب المنصور . ومن مقطوعات المصحفي الاستعافية قوله له :

هينى أسأت فأين الفضل والكرمُ إذ قادني نحوك الإذعان والندمُ
يا خير من مُدّت الأيدي إليه أما ترثي لشيخ نعاها عندك القلم
بالغت في السخط فاصفح صفح مقتدر إن الملوك إذا ما استرحموا رحموا^(١)
ومن استعفاف المصحفي كذلك قوله :

لئن جلت ذنب ولم أعتدّه فأنت أجل وأعلى بدا
ألم تر عبداً عدا طوره ومولى عفا ورشيداً هدى
ومفسد أمر تلافيته فعاد فأصلح ما أفسدا
أقلني أقالك من لم يزل يقيك ويصرف عنك الردى^(٢)

(و) الشعراء :

عرفت الأندلس خلال فترة الحجابة طائفة من الشعراء ، الذين كان بعضهم قد عاصر الفترة السابقة وأسهم فيها بنشاط شعري ، والذين عمر بعضهم حتى أدرك الفترة اللاحقة وشارك فيها بنشاط شعري أيضاً . وقد آثرنا ذكر هؤلاء الشعراء هنا ، لارتباطهم

(١) اقرأ هذه الأبيات في الذخيرة ق ١٤٤ ص ٥١ وفي . نفع الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) انظر : نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٧ .

أكثر بفترة الحجابة ، الأمر الذي من شأنه أن يجعلهم أكثر تأثراً بتلك الفترة وأشد انفعالا بها .

ويبدو أن شعراء فترة الحجابة كانوا كثيرين ؛ حتى لقد قيل : إن المنصور قد سحب في إحدى غزواته أربعين شاعراً من طبقات مختلفة^(١) . ومع هذا فالأسماء الباقية التي اقترنت بأشعار تتصل بتلك الفترة ، ليست من الكثرة بهذا الحد الذي ذكروا . ولعل السبب في ذلك هو ضياع كثير من الأشعار والآثار بسبب ما أعقب تلك الفترة من اضطراب . ومهما يكن من أمر فقد بقيت أسماء نفر من شعراء فترة الحجابة ، كما بقيت بعض أشعار تتصل بتلك الفترة ، ومن هذه الأسماء : الحاجب المنصور ، والوزير المصحفي ، والأديب الجزيري ، والشاعر ابن بدر ، والزاهد بن أبي زمنين^(٢) ، والأمير الطليق^(٣) . ولكن ألمع شاعرين تألقا في فترة الحجابة هما : الرمادي والقسطلي وسنفرود كلا منهما بحديث .

(١) انظر : Palencia, Literatura. P. 58

وانظر أيضاً : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٦٦ .

(٢) اقرأ بعض أشعار المنصور في : نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٩٠ وبعض أشعار المصحفي في المرجع نفسه ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، وبعض أشعار الجزيري في النخبة ق ١٤٤ ص ٣١ وما بعدها .

واقرا ترجمة ابن أبي زمنين وبعض شعره في : جنوة المقتبس ترجمة رقم ٥٧ .

(٣) هو مروان بن الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر ، كان شاعراً رفيقاً يشبه في بني أمية ابن المعتز في بني العباس . وقيل إنه قتل أباه لأنه وجد مع جاريت له ، فسجنه المنصور مدة ثم أطلقه بعد أن رأى في منامه أن النبي يأمره بإطلاقه ، فسمى بالطليق لهذا . وقد مات سنة ٤٠٠ هـ . انظر : نفع الطيب ج ٢ ص ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، وجنوة المقتبس ترجمة رقم ٧٩٩ ، وبغية الملتبس ترجمة رقم ١٢٤٢ ، وبيضة النهر للشعالي ج ١ ص ٤٠٢ ، والمغرب لابن سديد ج ١ ص ١٧٦ ، والحلة السيراء لابن الأبار ص ١١٤ وما بعدها .

- انظر أيضاً البحث الذي كتبه عنه جارثيا جوث في Cincos Poetas Musulmanes

الرمادى :

اسمه يوسف بن هارون^(١) ، وكنيته أبو عمر ، أما الرمادى فلقبه . وقد ظن بعض من ترجموا له أن هذا اللقب نسبة إلى مكان بالمغرب يسمى الرمادة ، وأن منه أحد أجداد الشاعر^(٢) . غير أن هذا اللقب ليس — كما ظنوا — نسبة إلى الرمادة ، وإنما هو الصورة العربية للقب « رومانى » كان يطلق على الشاعر كأثر من آثار امتزاج العربية بالرومانية في المجتمع الأندلسى .

ومما يؤكد هذا أن بعض المصادر الأندلسية القديمة قد حفظت لنا هذا اللقب بصورته الرومانية ، ونبت كذلك إلى نقل هذا اللقب من صورته غير العربية إلى صورته العربية ؛ فقال ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة ، في ترجمته للشاعر يوسف بن هارون : « كان يلقب بأبى جنيش فنقل إلى الرمادى »^(٣) . فكلمة جنيش هي الكلمة الرومانية التي صارت في الأسبانية Genisa «ثنيسا» ومعناها رماد . فأبو جنيش هي أبو رماد أو الرمادى^(٤) .

وهو من أسرة تتصل بقبيلة كندة ، ولذا يقال له : يوسف بن هارون الكندى .

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره وأشعاره في : جذوة المقتبس ترجمة رقم ٨٧٨ وفي الصلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ . وفي بقية الملتبس للضبي رقم ١٤٥١ ، وفي المطرب لابن دحية ص ٣ ، وفي وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٤٢ وما بعدها . وفي مطمح الأنفس ص ٧٨ - ٨٤ - وفي يتيمة الدهر ج ١ ص ١٠٠ وما بعدها ، وفي المغرب ج ١ ص ٣٩٢ ، وفي المعجب ص ١٦ ، وفي نفع الطيب ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ .

(٢) من ظن ذلك صاحب جذوة المقتبس ، وتابعه من نقلوا عنه .

(٣) انظر : الصلة ترجمة رقم ١٤٩١ .

(٤) انظر : Palencia Literatura. P.59

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٦٨ .

وقد ولد في السنوات الأولى من المائة الرابعة^(١) . ونشأ بقرطبة وتثقف على علماءها ، واكتسب صناعة الأدب من شيخه أبي بكر بن هذيل^(٢) كما أفاد كذلك من علم أبي علي القالي ، إذ روى عنه كتابه الأمل . ويبدو أن الرمادي قد قام بالتدريس في قرطبة حيناً ، بعد أن بلغ من العلم درجة تسمح له بذلك ؛ فقد ذكر اسمه ضمن من قرأ عليهم بعض الدارسين في تلك الفترة^(٣) . ولكن المرجح أن الشعر اجتذبه في عهد مبكر من حياته ، كما تدل على ذلك قصيدته في استقبال أبي علي القالي حين وفد على الأندلس^(٤) . وقد عاصر الرمادي عدداً من حكام الأندلس ، وكان له في عهد كل منهم نشاط شعري ؛ فقد عاصر عهد الناصر ، وكان مما أثر عنه من شعر قيل في تلك الفترة ، قصيدته التي استقبل بها القالي ، والتي يقول في مطلعها :

مَنْ حَاكَمَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَدُوِّي الشَّجْوُ شَجْوِي ، وَالْعَوِيلُ عَوِيلِي^(٥)

كذلك عاصر الرمادي عصر المستنصر ، وكان مما أثر عنه من شعر قيل في تلك الفترة ، تلك القصيدة التي قالها دفاعاً عن الخمر ، حين عزم الخليفة على إراقها وهم باجتماع الكروم ؛ وهي القصيدة التي مطلعها :

بِخَطْبِ الشَّارِبِينَ يَضِيْقُ صَدْرِي وَتُرْمَضُنِي بِلَيْتِهِمْ لِعَمْرِي^(٦)

(١) لأنه كان حين قدم القالي إلى الأندلس سنة ٣٣٠ شاباً يقول الشعر ، ويتحدث عن شعرات بيض تنزلن بمفرقه ، فإذا فرضنا أنه كان حينئذ في حدود السابع والعشرين من عمره كان مولده نحو سنة ٣٠٣ .

(٢) انظر ترجمته ، في : جنوة المقتبس رقم ٩٠٧ .

(٣) من قرأ على الرمادي ، أرقم بن عبد الرحمن ، انظر : المغرب ج ٢ ص ١٤ .

(٤) وقد القالي على الأندلس سنة ٣٣٠ .

(٥) وردت أبيات من هذه القصيدة ، في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٠ ، وفي يتيمة الدهر ج ٢

ص ١٠٠ .

(٦) وردت هذه القصيدة في : جنوة المقتبس ص ١٤ - ١٥ .

وكان من شعر الرمادى فى عهد الحكم بعض الشعر السياسى الذى انتقد فيه الشاعر الخليفة ، ومنه قوله :

يُوَلَّى وَيَعزَلُ مِنْ يَوْمِهِ فَلَا ذَا يَتِمُّ وَلَا ذَا يَتِمُّ^(١)

وقد كان من نتائج هذا اللون من الشعر أن سجن الشاعر ، فألف فى سجنه مجموعة شعرية سماها «كتاب الطير» ؛ ووصف فى هذه المجموعة كل طائر معروف وذكر خواصه ، ثم ذبل كل قطعة بمدح لولى العهد هشام بن الحكم ، مستشفعاً به إلى أبيه فى إطلاق سراحه^(٢) .

ويبدو أن الرمادى لم يخرج من السجن إلا بعد موت المستنصر ، ثم عاصر كذلك عهد المنصور ، وكان له فى أيامه نشاط شعرى ملحوظ . ويبدو أيضاً أن بعض هذا النشاط كان سياسياً ؛ فقد آثم الشاعر بهجاء المنصور ومشايعة خصومه ، فعاقبه ابن أبى عامر وأمر بتغريبه ، ثم استشفع له عنده ، فحفظ الحكم إلى المقاطعة الاجتماعية ؛ فقد طلب إلى الناس ألا يكلمه أحد ولا يتصل به أحد ، فعاش فترة قاسية من حياته وكأنه ميت^(٣) .

والمؤكد أن تلك المقاطعة لم تستمر بقية حياة الشاعر كما ظن بعض الرواة ، والمرجح أنها لم تستمر بقية عهد المنصور ، كما ذكر ذلك البعض^(٤) ؛ وذلك لأن الرمادى قد عاش مدة بعد عهد المنصور ، حتى شهد الفتنة ، كما تقول أدق الروايات^(٥) ، وليس بمعقولا

(١) ورد هذا البيت فى المصدر السابق ص ٣٤٩ .

(٢) انظر المصدر السابق ، الصفحة نفسها .

(٣) انظر : المعجب لعبد الواحد المراكشى ص ١٦ .

(٤) ظن ذلك المراكشى : انظر المصدر السابق .

(٥) قال الحميدى فى جنوة المتنبس : إن الرمادى «عاش إلى أيام الفتنة» ؛ وقال ابن بشكوال فى الصلة : إنه «توفى سنة ٤٠٣ هـ» . وقال ابن خاقان فى المطمح : «أدرك الفتنة وغاص لجنتها» . انظر الجنوة ص ٣٤٩ ، والصلة ص ٦٣٨ ، والمطمح ص ٧٠ .

أن يظل الشاعر معاقباً بحكم المنصور حتى بعد موته وزوال عهده، ثم إن من الثابت أن الرمادي كان من مداح المنصور^(١)، وأن المنصور كان يقر به ويعتز به^(٢). والذي يطمأن إليه، أن ذلك كله لم يكن في أوائل عهد المنصور؛ لأن تلك الفترة هي الفترة التي آهم فيها الشاعر بهجاء الحاجب ومشايعة خصومه، والمعقول أن يكون إكثار الشاعر من مدح المنصور، وتقريب المنصور له واعتزازه به، في الجزء الأخير من حياة ابن أبي عامر، بعد أن صفع عن الشاعر وأراد كسبه إلى جانبه واستغلال موهبته الشعرية في الدعاية لعهده.

وقد كانت للرمادي رحلات خارج قرطبة، اقترنت بنشاط شعري. ومن هذه الرحلات رحلته إلى سرقسطة، حيث قصد عبد الرحمن بن محمد التنجيبي واليه^(٣)، ومدحه بقصيدة^(٤) مطلعها:

قفوا تشهدوا بئى وإنكار لأئمى على وقوفى فى الرسوم الطواسم
ومن رحلاته كذلك رحلة إلى شترين، حيث قصد فرحون بن عبد الله واليه^(٥) ومدحه بشعر منه تلك القصيدة^(٦) التي مطلعها:

(١) انظر: المغرب ج ١ ص ٣٩٢.

(٢) اقرأ مثالا من هذا الاعتزاز في: نفع الطيب ج ٢ ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن مطرف بن هاشم التجيبي، كان من كبار رجال الدولة في أيام المنصور، وقد استعان به في التخلص من منافسيه، ولما رأى شر المنصور يقترب منه دبر مؤامرة مع عبد الله بن المنصور للتخلص منه، ولكن المنصور كشف المؤامرة. ثم تحايل للقبض على التجيبي وقتله سنة ٣٨٩. اقرأ بعض أخبار هذا الرجل في: البيان المغرب ج ٢ ص ٤٢٢ - ٤٢٣. وفي المغرب ج ١ ص ١٩٧، وفي جذوة المقتبس ص ٣٤٧، وفي نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧.

(٤) وردت أبيات هذه القصيدة في: جذوة المقتبس ص ٣٤٨، وفيها حكاية رحلة الشاعر إلى سرقسطة.

(٥) هو محمد بن عبد الله بن عبد الواحد، ويشتهر بفرحون، كما يعرف كذلك بابن الويلة، كان والياً على شترين أيام الحكم المستنصر ثم أيام الحاجب المنصور.

انظر بعض أخباره في: الحلة السبراء لابن الأبار ص ١٥٥ - ١٦٥.

(٦) وردت أبيات من هذه القصيدة في المصدر السابق، وفي حكاية الشاعر مع فرحون

أبيها العارض والمهدي لمستقيه وبلا
حين لا بهدي إذا ما استسقي العارض طلاً

وامتدت حياة الرمادي كما تقدم حتى شهد طرفاً من الفتنة، ثم مات فقيراً معدماً معانياً لشروور تلك السنوات المريرة سنة ٤٠٣ هـ (١). وهكذا عاش الرمادي نحو مائة عام؛ لأنه كان شاعراً حين قدم القالي إلى الأندلس سنة ٣٣٠ هـ، فكأنه عاش ثلاثة وسبعين عاماً بعد مقدم القالي، فإذا فرضنا أنه كان يوم أن قدم القالي في حدود السابعة والعشرين، وأنه بخاصة تحدث في مدحة للقالي عن شعرات بيض بدأت تتسرب إلى رأسه، إذا فرضنا له هذه السن يوم أن قدم القالي، كان عمره يوم مات لا يقل عن مائة عام.

هذا وقد كان في أخلاق الرمادي كثير من الجراءة، وفي سلوكه كثير من الاستهتار، وربما كان في عقيدته ميل إلى التشيع. ومن مظاهر جرأته، هذا النقد السياسي الذي ووطه مع الخليفة المستنصر، ثم مع الحاجب المنصور. كذلك كان من مظاهر استهتاره، شعره الكثير في الخمر والدفاع عنها، وفي الغلمان والتشبيب بهم، ثم مجاهرته بألوان من السلوك لا يجاهر بها غير المستهترين. ومن ذلك قوله في غلام مسيحي:

قَبَلْتُهُ أَمَامَ قَيْسِهِ شَرِبْتُ كَاسَاتِ بَتَقْدَيْسِهِ
يَتَقَرَّعُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرِي لَهُ مِينَ فَرَطِ شَوْقِ قَرَعِ نَاقُوسِهِ (٢)

وهذا من آثاره اتصاله بالمسيحيين وتردده على أديرتهم ومنادمته لقساوستهم. ومن شواهد مجاهرته كذلك بسلوك المستهترين قوله:

(١) انظر الجذوة ص ٣٤٩، والصلة ص ٦٣٨، والمطعم ص ٧٠.

(٢) ورد هذان البيتان في المطعم ص ٨٣.

فكان في تحليل أزراره أقوَدَ لي من ألف شيطانِ
فُتِّحَتِ الجنة من جيبه فبتُّ في دعوة رضوان^(١)

ولعل من مظاهر ميل عقيدته إلى التشيع حديثه عن علي والحسين في مثل قوله :

أنا إن رمتُ سُلوًا عنك يا قُرّةَ عيني
كنت في الإثم كمن شا رك في قتل الحسين
لك صلوات على قلبي دليلاً لحَيّتي
مثل صلوات عليّ يوم بدر وحسين^(٢)

شعره :

وقد خلف الرمادي شعراً كثيراً من غير شك ؛ وذلك نظراً لتبكيه في قول الشعر ،
وامتداد أجله الذي كان نحو القرن ؛ ثم نظراً لما عرف من سرعتة في قول الشعر^(٣) وعدم
المعاناة فيه .

وقد قال الشعر في أكثر أغراضه المعروفة ، بل طرق بعض الأغراض الجديدة
كدراسة الطير ؛ التي اتجه إليها أثناء سجنه ، والتي تحدث فيها شعراً عن كل طائر معروف
وذكر خواصه .

وبرغم ذلك ، لم يؤثر عن هذا الشاعر ديوان يجمع أطراف شعره ، بل لم يبق من
شعره هذا الكثير إلا بعض قصائد ومقطوعات مفرقة في كتب الأدب والتراجم والتاريخ ،

(١) هذان البيتان ضمن قطعة وردت في : المطرب لابن دحية ص ٤ .

(٢) وردت هذه الأبيات في : يتيمة الدهر للثعالبي ج ٢ ص ١٩٢ .

(٣) انظر : جذوة المقتبس ص ٣٤٦ .

التي عرضت للشاعر أو بعض من اتصل بهم^(١) . وكان مما ضاع من شعر الرمادي قصائده في المنصور ، وأشعاره في الطير . أما جل الباقي من شعره فمقطع غزلية ، وخرية ، مما يدل على أن هذين الغرضين كانا من أهم أغراض شعره .

اتجاهه :

وشعر الرمادي -- حسب ما بقي من نصوصه -- كان يسير أحياناً في الاتجاه المحدث ، وأحياناً في الاتجاه المحافظ الجديد . وأغلب الظن أن الشاعر كان يؤثر الاتجاه الأول حين يكون الموضوع أو الموقف أقرب إلى اللهو والتحرر والدعابة . كما كان يؤثر الاتجاه الثاني حين يكون الموضوع ألصق بالحد والمحافظة والتوقر . فمثلاً حين يذهب إلى سرسطة ، لينال رفاً والياً محمد بن عبد الرحمن التجيبي ، كمن يستعين به على نيل حبيبته «متعة» التي كان يعاني في عنف تجربة حبها ؛ نراه يقول في قصيدته لعبد الرحمن :

قفوا تشهدوا بشي وإنكار لأئمي	على بكائي في الرسوم الطواسم
أيا من أن يغدو حريقاً تنفسي	وإلا غريقاً في الدعوى السواجم
خذوا رأيه إن كان يتبع كل من	ينسوح على ألافه بالملاوم
فهذا حسام الأيك يبكي هديله	بكائي ، فليفرغ للوم الحسام
وما هي إلا فرقة تبعث الأسي	إذا نزلت بالناس أو بالبهائم
خلا نظري من نومه بعد «خلوة»	متى كان ميني النوم ضربة لازم ^(٢)

فهر هنا يبدأ مدحه لعبد الرحمن التجيبي بالغزل لينتقل منه إلى المدح ، وفقاً للمنهج

(١) انظر المصادر التي ذكرت في هامش أول الحديث عن الرمادي .

(٢) وردت هذه الأبيات مع قصة حب الشاعر لمتعة واتجاهه إلى سرسطة في : جنوة المتنبس

المحافظ الحديد ، وهو يعنى بطرافة المعنى وغرابة الصورة ، والمبالغة فى هذا وتلك ، ثم هو يعنى ببعض المحسنات ، كالتجنيس بين « خلا » و « خلوة » فى البيت الأخير . كل هذا إلى رعاية الفخامة فى التعبير والجزالة فى اللفظ والجلال فى الوزن والقافية .

أما حين يذهب إلى شترين ، ويلقى إهمالاً من بعض رجال واليها فرحون بن عبد الله ، ويفرض الموقف عليه شيئاً من المرارة الدافعة إلى السخرية والدعابة ، نراه يقول لفرحون :

أيها العارض والمهائى لمستسقيه وبلا
حين لا يهدى إذاما استسقى العارض طلا
قائداً أفنت مغازيه العدا سبيها وقتلا
إن ضيفاً قاصداً قلت له : أهلا وسهلا
قد توسعت له فيما يسر الضيف خندلاً^(١)
ماله فرش على الأرض سوى وجه المصلّى
لم تجد عيني لنوم بمبيت السوء كحلا^(٢)

فهو هنا يدخل فى صميم غرضه دون تمهيد بغزل ، كما أنه يعنى ببساطة الفكرة وشيوع روح السخرية ، ويؤثر بعد ذلك كله التعبير الرشيق واللفظ البسيط والموسيقى الهادئة القريبة من لغة الحديث . وكل ذلك من سمات الشعر المحدث . وواضح جداً أن أسلوب الرمادى فى هذا النموذج يذكرنا بأبيات الغزال التى قالها فى وصف هياج البحر حين ركب هو وصديقه السفينة متجهين إلى حيث أرسلنا فى سفارة^(٣) . وهى الأبيات التى أوطأ :

(١) الخذل : ترك النصرة .

(٢) وردت هذه الأبيات وحكاية الشاعر مع فرحون فى : الحلة السبراء ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) اقرأ قصة هذه السفارة ورحلتها وما قيل فيها من شعر فى صفحة ١٥٨ وما بعدها من هذا الكتاب .

قال لى صحبى وصرنا بين موج كالجبال
وتولتنا رياح من دبور وشمال

على أنه إذا كان الباقي من شعر الرمادى يدل على أن شعره كان قسمة بين هذين الاتجاهين ، فإن ما ذكره المؤرخون للموشحات يدل على أن الاتجاه الشعبي كان يجتذب شعر الرمادى أحياناً ، فقد ذكروا أنه كان من المشاركين في قول الموشحات ، بل إنه كان من المطورين لها ، الذين أدخلوا على أسلوبها بعض الزيادات (١) .

مستواه :

والباقي من شعر الرمادى بعد ذلك قسمان من حيث الجودة الفنية ، فقسم قليل الجودة ، يصل أحياناً إلى السطحية والنثرية ، وقسم على جانب عظيم من الجودة ، يصل أحياناً إلى القمة من الناحية الشعرية . ويغلب على الظن أن القسم الأول من مخلفات عهود الرمادى الأولى بقول الشعر ، قبل أن تنضج شاعريته ، وأن القسم الثاني من آثار الفترات المتأخرة من حياته الفنية ، بعد أن استوت شاعريته واكتمل نضجها . ويرجح هذا الظن أن نماذجه الشعرية الملتصقة تاريخياً بعهوده الأولى تنحدر إلى النوع الأول ، أما نماذجه الصحيحة النسبة إلى العهود المتأخرة فتسمو إلى النوع الثاني . ويمكن أن نتأمل بعض قصيدته في أبي على القالى ، التي هي من الناحية التاريخية من نتاجه في عهوده الأولى . أو نتأمل بعض أبيات من قصيدته في الدفاع عن الحمر حين أمر المستنصر بإراقبها وهم باجتثاث الكروم ، وهي الأخرى من نتاجه في العهود المتقدمة من حياته الفنية ، وسوف نرى من تأمل جزء من هذه أو تلك ، أن عدم جودة بعض شعره مرتبط بتلك العهود المتقدمة ، حين كانت شاعريته لم تنضج بعد .

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام في ٢ م ١ ص ٢ ، ومقدمة ابن خلدون ص ٥٨٤ .

يقول الرمادى فى مدح القالى :

منّ حاكمٌ بينى وبين عدولى الشجو شجوى والعويل عويلى
فى أى جارحة أصون معذبى سلمتُ من التعذيب والتنكيل
إن قلتُ فى بصرى فشمّ مدامعى أو قلتُ فى كبدى فم غليلى
وثلاثُ شيات نزلن بمفرقى فعلمتُ أنّ نزولن رحيلى
طلعتُ ثلاثٌ فى نزول ثلاثة واش وجه مراقبٍ وثقيل
فعدلتنى عن صبوتى فلئن ذللتُ لقد سمعت بذلة المعدول^(١)

وفى هذه الأبيات يلاحظ ضعف المستوى الفنى لأكثر من سبب ؛ ففيها عدم الترابط كما يظهر فى البيت الأول ، إذ لا ترابط بين شطريه أصلاً ؛ فالشاعر يتساءل فى الشطر الأول عن يحكم بينه وبين العدول ، ويقرر فى الشطر الثانى أن الشجو شجوه والعويل عويله، ولا علاقة مطلقاً بين الأمرين. وكما فى البيت الثانى بالنسبة لسابقه ؛ فهو فى البيت الثانى يتساءل عن المكان الذى يصون فيه حبيبته ، بينما كان فى البيت الأول يتساءل عن يحكم بينه وبين عدوله ، ويقرر أن الشجو شجوه والعويل عويله . وكما فى البيت الرابع مع ما قبله من أبيات ؛ فقد انتقل فيه فجأة إلى الحديث عن الشيات التى نزلت بمفرقة . بعد أن كان يتحدث عن أشياء لا علاقة لها بذلك أصلاً . وفى هذه الأبيات --- زيادة على عدم الترابط --- ركافة فى بعض المواطن ، كما فى البيت الثانى الذى يقول فيه :

فى أى جارحة أصون معذبى سلمت من التعذيب والتنكيل ؟

فهو يريد أن يقول : فى أى جارحة سلمت من التعذيب والتنكيل أصون معذبى ؛ لكنه اضطر بسبب ضغط الوزن والقافية إلى طول الفصل بين الموصوف وهو « جارحة » ،

(١) وردت هذه الأبيات فى : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٤١٠ . وفى تيسية الدهر ج ٢ ص ١٠٠ .

وبين الوصف وهو « سلمت من التعذيب والتنكيل » ، فجاء السياق مهلهلاً ركيكاً .
وفي هذه الأبيات سطحية في بعض الأجزاء ، كما في هذا البيت السابق الذى يتساءل
فيه الشاعر هذا السؤال ، مما جعل المتنبي يعلق عليه تعليقاً قاسياً مكشوفاً ، حين قال :
« يصونه في . . . »^(١).

وأخيراً يلاحظ في تلك الأبيات تعمل بعض المحسنات عملاً بحيل الصياغة الشعرية
في بعض الأحيان إلى شيء أقرب إلى العمليات الحسابية ، وذلك حيث يقول الشاعر
عن الشعرات الثلاث النازلات بمفرقه ، وتسيبين لظهور بعض المتاعب :

طلعت ثلاثٌ في نزول ثلاثة واش وجه مراقب وثقيل

ويقول الرمادى في قصيدته التى يدافع بها عن الخمر ويحتج على من أمروا بإزالتها :

تحرّيمٌ بذاك العادل فيها بزعمكم ؟ فإن يك عن تحرّى

فإنّ أبا حنيفة وهو عدل وفرّ من القضاء مسير شهر

فقيهٌ لا يدانيه فقيه إذا جاء القياس أتى بدر

وكان من الصلاة طويل ليل يُقطعه بلا تغميض شفر

وكان له من الشراب جارٌ يواصل مغرباً فيها بفجر^(٢)

إلى أن يمضى قاصداً حكاية هذا الجار السكير الذى كان يأتى كل ليلة متغنياً بقول

العرجى :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كرهية وسداد ثغر

ثم قبض عليه ، فسأل عنه أبو حنيفة ، وحين علم بسجنه سعى لإطلاق سراحه .

(١) حذفنا اسم السواة التى ذكرها المتنبي اعتماداً على فطنة القارئ . انظر : نفع الطيب ج ٢

(٢) هذه الأبيات من قصيدة وردت في : جنوة المقتبس ص ١٤ - ١٥ .

فيلاحظ في أبيات الرمادى هنا نثرية تبعد بها عن لغة الشعر ، كما يلاحظ هذا الاستطراد الشديد ، الذى يصرف الحديث أحياناً عن الشيء الأساسى المتحدث عنه ، إلى موضوع آخر يوشك أن يقطع الصلة بالموضوع الأصيل . فالحديث أساساً عن الحمر والدفاع عنها والتشكيك فى جرم شربها وعقوبة معاقرها . ولكن الشاعر حين أراد الاحتجاج لذلك ، وبدا له أن يستشهد بحكاية أبى حنيفة مع جاره ، قد صرف الحديث إلى أبى حنيفة ، فأخذ يصفه فى عدله وفراره من القضاء ، وفى أنه فقيه فذ لا يدانيه فقيه ، وأنه مشهور بالقياس الذى يأتى فيه بالدرر ، وفى أنه كان طويل القيام بالليل ، وأنه كان يقضيه فى الصلاة دون أن يغمض له جفن . وكان يكفى أن يذكر الشاعر أبا حنيفة ووقفه إلى جانب جاره ، دون الاستطراد بذكر كل تلك الصفات للفقير الغنى عن التعريف .

ويمكن بعد ذلك أن نأمل شعر الرمادى المرتبط تاريخياً بعهوده المتأخرة ، مثل قطعته السابقتين فى عبد الرحمن بن محمد التجيبى ، وفرحون بن عبد الله ؛ لمرئى مستوى آخر من الشعر ، فيه تجنب الشاعر كل تلك العيوب التى كانت تشيع فى شعره إبان عهده المبكرة بقول الشعر . ومن هنا يستطيع ببساطة أن ينسب جل شعره الجيد إلى فترة نضجه الفنى الذى يرجح أن تكون أواخر عهد الحكم ، وطول عهد المنصور . ويؤكد ذلك مثل هذا الشاهد من شعر الرمادى فى السجن :

أعنيَ إن كانت لدمعك فضلة تُشَبِّتُ صبرى سباعة فتدقنى
ولو ساعدت قالت : أمين قلة الأسى تبتت دموعى ، أم من البحر تستقنى

وقالت تظن الدهر يجمع بيننا ؟ فقلت لها : من لى بطن محقق
ولكننى فيما زجرت^(١) بمقلتى زجرتُ اجتماع الشمل بعد التفريق

(١) الزجر: التكهين .

فقد كانت الأشعار في مثل بعدنا فلما التقت بالطيف ، قلتُ سنلتقي
أباكية يوماً ، ولم يأت وقتُه سينفد قبل اليوم دمعك فارقي^(١)

ففي هذه الأبيات يلاحظ كثير من الترابط ، الذي يشد بعضها إلى بعض ، ويؤلف بينها فيما يقارب الوحدة العضوية . ففي البيت الأول يرجو الشاعر — في يأس — أن تمده عينه بفضل ما لديها من دمع ، لعل ذلك ينفس عن نفسه ويثبت صبره، وفي البيت الثاني يعلل الشاعر ليأسه من إمداد عينه بفضل من دمع . فيبين أن عينه لو فرض وقدمت مساعدة ما ، لكانت تلك المساعدة هي جوابها : بأن لا دموع لديها ، وذلك لأن الأسي لم يكن قليلا فيبقى بعض الدمع ، ولأن البحر لا يمد المآقي فتجد شيئاً تقدمه بعد الذي قدمت .

وفي الأبيات التالية ينتقل الشاعر إلى الحديث عن صاحبه ، وسؤالها إياه عن احتمال اجتماع الشمل بعد التفرق ، وعن إجابته لها بالأمل في ذلك على وجه البعد، وعن تعليل ذلك بأن الأشعار كانت نافرة منه بعيدة عنه بعد الحبيبة ، ثم أنست إليه ودنت منه حين التقي الخيال بطيف تلك الحبيبة ؛ فكان هذا الالتقاء الخيالي تكهنياً وتأميلاً بعيداً عن اللقاء الحقيقي . ثم يحدث الشاعر صاحبه في صراحة مريرة بأن اللقاء الواقعي على فرض حدوثه قد يطول انتظاره ويتراخى مجيء يومه ، ومن هنا، عليها ألا تستمر في بكائها هذا اليوم ؛ لأن دمعها قد ينفد قبل أن يجيء .

كذلك يلاحظ على تلك الأبيات — زيادة على الترابط المشبه للوحدة العضوية — صدق التجربة الباعث على حرارة العاطفة ، وترقق التعبير المسبب لقوة التأثير ، ثم تلازم الموسيقى الشعرية مع الموضوع ووزانه والانفعال وضخامته .

(١) وردت هذه الأبيات في : مطمح الأنفس ٨١ - ٨٢ .

وعلى هذا الأساس الذي حدد لتوزيع شعر الرمادى على مرحلتى حياته الفنية ،
يمكن أن ينسب إلى مرحلة نضجه مثل تلك القطعة الغزلية :

على كبدي تهيمى السحاب وتذرفُ وعن جزعى تبكى الحمامُ وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلى وتلك على فقدى نوائح هُتَف
ألا ظعنتُ ليلي وبان قطينها ولكننى باق فلوموا وعنفوا
وأنستُ فى وجه الصباح ليينها نحولا كأن الصبح مثل مدنف^(١)

ففى هذه الأبيات تتجلى قدرة الشاعر فى تحقيق الوحدة ؛ حيث يقع كل بيت بل كل شطر من بيت ، فى موقعه الذى لا يمكن أن يزحج عنه . ثم فيها كذلك تتجلى قدرة الشاعر فى الربط بين مشاعره وبين الطبيعة ، وفى استغلال بعض مظاهر تلك الطبيعة رسم صور شعرية تنمى التعبير الشعرى وتصدق به . فالسحب تهيم بالمطر لتبرد غليله ، والحمامُ تبكى لتنوح على جزعه ؛ بل إنه أشبه بميت تغسله السحب الواكفة وتنوح عليه الحمامُ الهاتفة . إن صاحبه قد رحلت وبعد ركبا ، ولكنه هو باق ، ومن هنا كان طبيعياً أن تذهب نفسه حسرات وأن يبلغ الحال به ما بلغ ، فليلم اللائمون إذن وليعنف المعنفون ، فهم فى الحق متجنون . وماذا يضيره من هؤلاء وأولئك ؟ إن الطبيعة نفسها أحست فراق الحبيبة وتأثرت لبعدها ، فهذا هو الصبح يراه الشاعر — من خلال إحساسه الخاص وشعوره بالمأساة — ناحلا شاحب الوجه ، كأنه هو الآخر محب مدنف فارقه من يجب .

وفى هذه الأبيات بعد هذا تتضح قدرة الشاعر على رسم الصور الفنية البارة التى يحكمها التأزر ، كما تتضح قدرته على الصياغة الشعرية الرائعة التى يشرق فيها البيان .

(١) وردت هذه الأبيات فى المصدر السابق ص ٨٢ .

وأهم سمات شعر الرمادى المكتمل النضج : المبالغة فى المعنى ، والتحويل فى الصورة ، وشيوع روح السخرية والاستهتار ، فى الموضوعات غير الجادة كالحمريات والغزل الشاذ ، وانضاح حرارة العاطفة والهالك ، فى الموضوعات الجادة كالعذريات والشكوى . ثم الاتجاه إلى خلع الحياة الإنسانية على الطبيعة الصامتة ، والميل أحياناً إلى الأسلوب القصصى ، الذى قد يشتمل على حوار . وأخيراً إيثار الوضوح فى اللغة وعدم الاحتفال كثيراً بالصياغة . ولعل بعض ما مضى من نماذج يؤكد سمة المبالغة فى المعنى . والتحويل فى التصوير عند الرمادى . ومن أبرز النماذج الدالة على تلك السمة قوله فى الغزل :

وإني لأغضى الطرف عنك جلالة وخوفاً على خديك من لخطأتى
ولو أننى أهملت عيني بأن ترى سناك لحالت دونها عبراتى
زعمت بأنى حلت عنك ولم أكن أعنيك فى بئى وفى حسراتى
وهل أنا إلا طالب لمنينى إذا حُلت عنى فى يديه وفاتى (١)

فكون الشاعر يغضى عن النظر إلى محبوبه خوفاً على خديه من النظرات ، وكون الشاعر يعتبر طالباً لمنينته إذا هو تحول عن حبيبته الذى فى يديه وفاته ؛ مثل هذا كله من الأفكار المبالغة . وقول الشاعر إنه لو ترك عينيه ترى نور المحبوب لحالت دموعه دون الرؤية ، من الصور المهولة كذلك .

وأكثر مبالغة من ذلك تهويلاً قوله بمناسبة ارتجال أحبته :

غداً يرحلون فيما يرمُ رسالك كن بالظلام بطيء اللحاق
ويا دمع عينيَّ سندَّ الطريق وأفرغ عليهم نجيع المآتى
ويا نفسى جئهم من أمام وقابلهم بنسيم احتراق

(١) وردت هذه الأبيات فى أيتيمة الدهر ج ٢ ص ١٠١ .

ويا همّ نفسى بهم كنى ظلاما وقيدهم عن نوى وانطلاق
ويا ليل من بعد ذا إن ظفرت بالصبح فاقدف به فى وثاق^(١)

ففكرة تسخير عناصر الطبيعة المختلفة لتعويق الأحباب عن السفر ، فكرة كلها مبالغة ، وصور الدمع وهو يسد الطريق ، ويفرغ على الأحباب غيوث العيون ؛ والزفير وهو يهب من أمام ويقابل الأحباب بفيح الحريق ؛ وهمّ النفس وهو يتحول إلى ظلام يمنع الرؤية ويسد المسالك على الراحلين ، والليل وهو يظفر بالصبح فيقبض عليه ويقذف به فى القيد ، حتى لا يتمكن هذا الصبح من القدوم ؛ كل هذه صور مهولة شديدة المبالغة .

أما شيوع روح السخرية والاستهتار فى الموضوعات غير الجادة ، فن أبرز شواهدة قول الرمادى فى الحمر مخاطباً مسيحياً اسمه نصير :

اشرب الكأس يا نصير وهات إن هذا النهار من حسباتى
بأبى مزة ترى الشمس فيها فى صفاء أصفى من المرأة
يسرع الناس نحوها بازدحام كازدحام الحجيج فى عرفات
هاتها يا نصير إنا اجتمعنا لقلوب فى الدين مختلفات
فإذا ما انقضى دنان على اللهو اعتمدنا مواقع الصلوات
لو مضى الدهر دون راح وقصف لعسدنا هذا من السيئات^(٢)

فالشاعر هنا واضح السخرية بين الاستهتار ببعض المقدسات ؛ حيث جعل إسراع السكارى إلى الحمر وازدحامهم حولها كازدحام الحجيج حول عرفات ، وكان من الممكن - لو أراد الشاعر - أن يشبه ازدحام السكارى بأبى مشهد آخر من مشاهد الزحام ، ولكنه أراد السخرية بهذه الشعيرة المقدسة . ثم إنه سخر فى موضع آخر سخرية لا تقل عن

(١) وردت هذه الأبيات فى : جذوة المتبس ص ١٦٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات فى : مطمح الأنفس ص ٨١ .

تلك ؛ حيث قال ؛ إن دنان الخمر إذا ما فرغت ولم يعد مجال للشرب ، توجهنا إلى أماكن الصلاة . فهو يشرب ويلهو مع أصحابه أولاً ثم يصلون ثانياً ، فصلاتهم مسبوقة بالسكر واللهو الذي تفرغ منه الدنان ، وكأنهم لا يذهبون إلى الصلاة تعبداً ولا إقامة لشعيرة ، وإنما يذهبون عريضة وهزءاً ، أو في الأقل يذهبون لأنهم لم يجدوا الأفضل في زعمهم ، وهو الشراب واللهو . وأخيراً يسخر الشاعر سخريته الثالثة ، حيث يقرر أنه هو وأصحابه يرون أن الدهر لو مضى دون سكر وخمر ، لكان من السيئات والذنوب . وهذا عكس تام للفكرة الدينية التي ترى أن السكر والخمر من أكبر المآثم .

وأما اتضاح حرارة العاطفة في الموضوعات الجادة ، فقد مضت بعض شواهد من شعر الرمادى في الحب العذرى وفي الحديث عن آلام السجن .

وأما خاصة الاتجاه إلى خلع الحياة الإنسانية على الطبيعة الصامتة ، فنن شواهدنا قول الرمادى في مقدمة طبيعية لبعض قصائده :

تأمل بإثر الغيم من زهرة الثرى	حياة عيون متن قبل النعيم
كأن الربيع الطلق أقبل مهديا	بطلعة معشوق إلى عين المغرم
تعجبت من غوص الحيا في حشا الثرى	فأقشى الذى فيه ولم يتكلم
كأن الذى يسقى الثرى صرفُ قهوة	تم عليه بالحديث المكم ^(١)

فالشاعر في هذه الأبيات يخلع الحياة الإنسانية على الطبيعة ، فيصور الأزهار عيوناً تفتحت بالحياة بسبب المطر ، بعد أن كانت ميتة بسبب الجفاف . ويصور الربيع محبوباً طلق المحيا ، قد جاء يهدى بجماله طلعة المعشوق إلى عين المغرم . ثم يصور الأرض إنساناً يشرب من المطر خمراً تتغلغل في أعماقه فتذيع أسراره دون أن ينطق ؛ فالأرض تعبر عن سعادتها وبهجتها بالمطر في صورة ما تزدهر به من أزهار وأنوار وأعطار ،

(١) وردت هذه الأبيات في : الحلة السراء ص ١٠٩ .

يهو تعبير صامت لا حديث معه ، كتعبير الشارب المنتشى ، بنظراته ولمحاته ومظاهر بهجته المختلفة . وليس يخفى هنا تأثير الشاعر بحياته الخاصة فيما يجمع على الطبيعة من حياة الإنسان ؛ فالشاعر كان كثير تجارب الحب ، شديد التعلق بالخمرة ؛ حتى لقد كانت الخمريات والغزليات من أبرز وأكثر أشعاره ؛ لهذا نراه يقيم علاقات حب في الطبيعة ؛ ويجعل الأرض حين تشرب المطر سكيراً يحنس الخمر ، فتبدو بهجته دون حديث .
وأما خاصة الاتجاه أحياناً إلى أسلوب القص ، فقد مضت بعض شواهدهما ، كقصيدة الدفاع عن الخمر . وكأبيات آلام المحبس .

وأما خاصة الوضوح في اللغة ، فسمة عامة ، يمكن أن تلاحظ في كل شعر الرمادي . ولو تتبعنا كل ما ورد له من نماذج لما تخلفت تلك السمة في نموذج واحد . فن النادر جداً أن تحتاج كلمة استخدمها أو تعبير ألفه ، إلى بحث عن المعنى أو استفسار عن المراد .

وأما خاصة عدم الاحتفال كثيراً بالصياغة ، فسمة تبدو في كثير من شعر الرمادي ؛ فأكثر صياغاته بعيد عن العمل والتصنع ، بل بعيد أحياناً عن الصقل والتجويد ، وقلما تدل صياغة شعرية من صياغاته على احتفال كبير بغير توصيل معانيه ومشاعره في أبسط تعبير . بل إنه يصل أحياناً في عدم الاحتفال بالصياغة إلى عدم تحقيق الأسلوب الشعري الملائم للمضمين ، مما يدل على أن الرمادي كان غالباً يهتم بالمضمون ، أكثر من اهتمامه بالشكل . فمثلاً نراه يقول في مقدمته الرائعة لقصيدة السجون :

وما هي إلا فرقة تبعث الأسى إذا نزلت بالناس أو بالبهائم
فيذكر ببساطة كلمة «البهائم» على ما فيها من ثقل ظل ، لا يناسب الشفافية التي ترف على القطعة كلها .

ونراه كذلك يقول في الحديث عن محبوبته ، من أبياته في ذكر آلام السجن :

تُكلفني أن أعجب الدهر إنها لجاهلة من لي بإعتاب محق
 فيصف صاحبه بالجهل ، على ما في هذا الوصف من تقليل لشأن تلك المحبوبة
 التي ذكرها بكل حب وإجلال في باقي القطعة .

ثم نراه يقول أيضاً في أبياته التي يتحدث فيها عن رحيل الأحباب :

ويا نَقَسَى جَنَّهُمُ من أمام وقابلهم بنسيم احتراق

فهو لا يريد « النفس » في الحقيقة ، وإنما يريد الزفراء خاصة ، لكنه ذكر كلمة
 « النفس » على قصورها وعدم دقتها هنا في أداء المعنى . وهو كذلك لا يريد « النسيم »
 في الواقع ، وإنما يريد الهجير أو نحوه من الهواء اللافح المحرق . ولكنه ذكر كلمة النسيم
 على رقها وإيحائها بالترويح والإنعاش ، مما يناقض المراد تماماً .

وأخيراً نراه يقول من قطعة غزلية .

يا شِيقَةَ النفس واصلها بشقتها
 فإنما أنفُسُ الأعداء تهتجر^(١)
 ظلمتني ثم إنى جئت معتذراً بكفك أنى مظلوم ومعتذر

فهو يريد أن يقول في عجز البيت الأول : فإنما تهتجر أنفس الأعداء . لكنه سماه
 هذه الفكرة دون اهتمام بالدقة وحسن الأداء للمعنى ، فقدم وأخر لرعاية الوزن والقافية .
 كذلك هو يريد في صدر البيت الثاني أن يقول : إنك ظلمتني لكنني أنا الذي جئتك
 معتذراً بعد ذلك . ولكنه لم يؤد هذه الفكرة بالصياغة التي تلائمها ، وإنما بتلك الصياغة
 التي تقل كثيراً عن جودة ما يراد بها من معنى .

والسبب في كل ذلك وأمثاله : هو عدم احتفال الرمادي كثيراً بالصياغة ، وميله
 أحياناً إلى التعبير في سرعة عما يخطر له من معان وما يترأى له من صور وما يحس به

(١) الشقة من الشيء : نفضه . تهتجر : تهاجر وتتقاطع .

من انفعال . ولعل ذلك هو ما عناه بعض من ترجموا له حين قالوا عنه ، إنه كان سريع القول^(١) .

ومع ذلك فالرمادى معدود في كبار شعراء الأندلس ، حتى لقد قال بعض شيوخ الأدب في وقته « فتح الشعر بكندة ونخم بكندة »^(٢) . وهم يقصدون أن الشعر فتح بامرئ القيس الكندي ، ثم نخم بالمتنبي والرمادى الكنديين كذلك .

ولعل مما يدل على مكانة الرمادى ومزنته وتقدير معاصريه له . ما روى من أنه نال على إحدى قصائده ثلاث مائة دينار ذهباً ، غير نفقات الطريق في الذهاب والإياب . وهي قصيدته التي مدح بها عبد الرحمن بن محمد التجيبي صاحب سرقسطة^(٣) .

القَسْطَلِي :

يعرف بابن دَرَّاج ، ويلقب بالقَسْطَلَسِي^(٤) ، ويسمى أحمد ، ويكنى

(١) انظر : جذوة المقتبس ص ٣٤٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٤٧ .

(٤) اقرأ ترجمته وأخباره وبعض أشعاره في : جذوة المقتبس الحميدى ترجمة ١٨٦ ، والذخيرة

لاين بسام ق ١ م ١ ص ٤٣ وما بعدها ، وفي الصلة لاين بشكوال ترجمة ٧٥ ، وبغية المنتسب للضي

ترجمة ٣٤٢ ، والمغرب لاين سعيد ج ٢ ص ٦٠ - ٦٢ ، ٢٩٩ ، ٣٤٥ . وفي وفيات الأعيان

لاين خلكان ج ١ ص ٤٢ - ٤٣ ، والمغرب لاين دحية ص ١٥٦ والمعجب للمراكشي ص ٢٥ ،

واليان المغرب لاين عذارى ج ٢ ص ٢٧٤ ، ج ٣ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ ، وفي : الروضة

المعطار لبيد المنعم الحميري ص ١١٥ - ١١٦ ، ١٦٠ ، والإحاطة لاين الخطيب ج ٢ ص ٨١ ، وأعمال

علام لاين الخطيب ص ١٢٢ - ١٢٤ ، ١٧٩ - ٢٠٠ ، ٢١٢ - ٢١٥ ، ٢٢٢ - ٢٢٥ . وفي

هجرة أنساب العرب لاين حزم ص ٤٦٦ - ٤٦٧ ، والنجوم الزاهرة لاين تغرى بردي ج ٣ ص ٢٧٢ -

٢٧٠ ، ونفح الطيب للمقري ج ٢ ص ١٤٢ - ١٤٣ ، وبتيمة الدهر للثعالبي ج ٤ ص ١١٤ - ١١٦ .

أبا عمر (١) . أما لقبه القسطلي فنسبة إلى بلدة قسطلة Ciacella في غرب الأندلس (٢) . وقد ولد ابن دراج سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) في بيت ذي مكانة من بيوت قسطلة ؛ فقد نسبت البلد إلى الجد الأعلى للأسرة ، فقبل لها : « قسطلة دراج » كما كان هذا الجد وبنوه الذين ينتمى إليهم شاعرنا ، يتداولون رياضة هذه البلد (٣) .

وأسرة بن دراج ذات أصول بربرية تنتمي إلى صنهاجة (٤) ، وكانت - فيما يبدو - ضمن البربر الذين دخلوا الأندلس في فترة الفتح ، ثم اندمجت هذه الأصول في البيئة الأندلسية ، واتحدت مع العناصر البشرية الأخرى التي كونت المجتمع الأندلسي ، حتى أصبحت بمعنى الزمن أندلسية تماماً ، لا يكاد يربطها بالبربر إلا هذا النسب المحفوظ . وهذا شأن كل العناصر البربرية التي دخلت الأندلس في تاريخ مبكر .

ولا يعرف شيء عن نشأة ابن دراج الأولى ، إذ لم يتعرض لها من ترجموا له من الأندلسيين والمشاركة ، غير أننا نستطيع أن نستنتج من شعره ، أنه نشأ في بلده نشأة أدبية ، وتزود بثقافة لغوية وتاريخية ، وأقبل بنوع خاص على شعر الجاهليين والإسلاميين ، وفتن بنوع أخص بالاتجاه المحافظ الجديدي في الشعر ، ذلك الاتجاه الذي وصل إلى قمته في القرن الرابع الهجري ، حين انتهت زعامته في المشرق إلى الشاعر الجهمي أبي الطيب المتنبي ، وفي المغرب إلى الشاعر المجلجل ابن هاني الأندلسي . ومن المؤكد أن ابن دراج قد أطل على دراسة شعر هذين الشاعرين الكبيرين .

(١) اسمه كاملاً ، أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج (انظر ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٥١ - ٥٣ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧٢) .

(٢) هذا ما عليه أكثر الباحثين ، على أن ابن سعيد يذكر أن ابن دراج من قسطلة أخرى في إقليم جيان بموسطة الأندلس ، وقد رجح ذلك الدكتور محمود مكي . (انظر مقدمة ديوان ابن دراج ص ٢٨ وما بعدها) .

(٣) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٦٠ .

(٤) انظر : جبهة أنساب العرب لابن حزم ص ٢٦٦ - ٢٦٧ .

وأول ما يذكر من أخبار ابن دراج صلته بالمنصور بن أبي عامر ، وقدومه إلى قرطبة ليبدأ عهد التألق بها . فبعد أن قوى عود القسطلي ، وآس من نفسه القدرة الثقافية والأدبية ، تطلع إلى العاصمة الأندلسية حيث الشهرة والمال والمناصب ، وحيث كانت الرياسة في ذلك الحين للحاجب المنصور ، الذي يقرب الشعراء ويستخدمهم السنة لتأكيد سلطانه وتسجيل أبعاده . وهكذا قدم ابن دراج إلى قرطبة ، ومدح المنصور بقصيدته التي يقول في مطلعها :

أضاء لها فجرُ النهيٰ فناهاها عن الدنيف المضي بجرّ هواها
وضللها صبح جلا ليلة الدجي وقد كان يهديها إلى دجاها

ثم يمضي في الغزل التمهيدى ووصف الرحلة وفراق الأهل واستقرار الآمال في رحاب المنصور ، إلى أن يقول :

فحطتُ بمنى الجود واخجد رحلها لدى ملك إحدى لواظ طرفه
هو الحاجب المنصور والملك الذي سليل الملوك الصّيد من سرو حمير
لُبَاب معاليها وإنسان عينها معظمها منصورها وجوادها
ووارث ملك أثباته ملوكها نماه لقود الخيل « تبيع » فخرها
ذوو الملك والتيجان والغرر التي جدّير بها التيجان أن تتباهي^(١)

(١) تاريخ إنشاء هذه القصيدة هو سنة ٣٨٢ هـ كما أشار إلى ذلك الحسيني في الجذوة (ص ١٠٣)

وقد وردت هذه القصيدة كاملة في ديوان ابن دراج ص ١٠٠ وما بعدها .

وقد كانت تلك القصيدة مبعث حسد للقسطلي ، ومثار تشكيك الوشاة فيه ، فقد خاف كثيرون ممن حول المنصور من شعراء وأدباء ، أن يؤثر هذا الفتى الوافد من قسطة على مكانتهم ، واستكثروا عليه أن يشاركهم في ديوان الشعراء . فاتهموه بالسرقة والانتحال عند المنصور . وكان من نتائج ذلك أن استحضره المنصور ليختبره - على طريقته حين يشكك في عالم أو أديب - فاقترح عليه بعض الموضوعات وطلب إليه أن يقول فيها شعراً ، فقال ابن دراج شعراً مرتجلاً فيما اقترح عليه القول فيه . وهكذا زالت تهمة السرقة والانتحال عنه ، ووصله المنصور بمائة دينار ، وأثبتته في جملة شعرائه وأجرى عليه الرزق^(١) .

ولم يفت الشاعر الذكي أن يؤكد شاعريته بما هو أكثر من ذلك ليقضى قضاء تاماً على مزاعم الحاسدين ، فأعد قصيدة جديدة أنشدها للمنصور في نفس المجلس الذي امتحن فيه ، وكأنه كان يحس أن ما سيقوله ارتجالاً سيأتي دون الدرجة الفنية التي يجب أن يعرف بها كشاعر ؛ وكأنه كان يحس أيضاً أن من واجبه الرد الموضوعي المباشر على اتهام المتهمين . ولذا أنشد المنصور القصيدة المدحية الطويلة ، التي يقول في أولها :

حسبي رضاك من الدهر الذي عتبا وعطف نعماك للحظ الذي انقلبا

يا مالكا أصبحت كفي وما ماكت ومهجتي وحياتي بعض ما وهبا

ثم يمضي إلى أن ينتقل إلى ذكر محنة الاتهام الباطل له بالانتحال فيقول :

ودسّسوا لي في مثنى حباثلهم شنعاء بيتاً بها حران مكتنبا

من بعد ما أضرم الواشون جاحمة كانت ضلوعي وأحشائي لها حطبا

حتى هُزرتُ فلا زلد القريض كبا فيما لدى ولا سيف البديه نبا

وأشرقتُ شهادات الحق تنشر لي نورا غدت فيه أقوال الوشاة هبا

(١) انظر : جذرة المقتبس للحمدي ص ١٠٣ - ١٠٤ .

هيهات أعجز أهل الأرض أن يجدوا للدرّ غير عباب البحر متسبا
وحاش للورد أن يُعزى إلى رَمَضٍ (١) وأن يكون له غير الربيع أبا
وهكذا ، إلى أن يقول في قدم الحاسدين لكبار الشعراء ، وفي بيان تنوع قدراته
الأدبية :

ولستُ أول من أعيت بدائعهُ فاستدعت القول ممن ظن أو حسبا
إن امرأ القيس في بعض لمنهم وفي يديه لواء الشعر إن ركبا
والشعر قد أسر الأعشى وقيسده دهرًا ، وقد قيل : والأعشى إذا شربا
وكيف أظما وبجوى زاخر فطننا إلى خيال من الضحّضاح قد نضبا
فإن نأى الشك عنى ، أو فها أنذا مهياً للجليّ الخير مرتقبا
عبدك لنعمائك في كفيه فجر هدى سارٍ لمدحك يجلو الشك والريبا
إن شئت أملى بديع الشعر أو كتباً أو شئت خاطب بالمشور أو خطبا
كروضة الحزن (٢) أهدي الوشى منظرها والماء والزهر والأنوار والعشبا
أو سابق الخليل أعطى الحضر (٣) متثدا والشد والكرّ والتقريب والخبيا (٤)

وهكذا تأكدت منزلة الشاعر في بلاط المنصور ، فلم يكن في ديوان الشعراء
فحسب ، بل ما لبث أن ضم إلى ديوان الإنشاء ، تمكنه من صناعة النثر إلى جانب
تمكنه من صناعة الشعر . . وما زال ابن دراج يصعد حتى أصبح من كبار شعراء المنصور ،
إن لم يكن أكبرهم أجمعين . وظل يعمل في خدمته شاعراً يمدح ويسجل الانتصارات

(١) الرض : شدة وقع الشمس على الرمل .

(٢) الحزن : ما غلظ من الأرض .

(٣) الحضر بضم الحاء وسكون الصاد : ارتفاع الفرس في العدو .

(٤) قصة هذه القصيدة واردة في : جذوة المقتبس ص ١٠٣ - ١٠٤ ، والقصيدة كلها واردة

في الديوان ص ٣٦٣ وما بعدها .

ويصور كبار الأحداث ، وناثراً يجيد ما يطلب منه تحريره في ديوان الانشاء ؛ حتى مات المنصور . ثم استمر يعمل مع الحاجب الجديد عبد الملك المظفر ، وظل كذلك يمدحه ويسجل انتصاراته ويصور كبار الأحداث في عهده . وحين شبت الفتنة بالأندلس ، بعد فترة الحجابة ، وتناوب الأمر في قرطبة رؤساء مختلفون بربر^١ وأمويون ، اتصل ابن دراج ببعض هؤلاء الرؤساء ومدحهم^(١) ، ثم اضطر إلى مغادرة قرطبة بسبب ما تعج به من قلاقل وما تنوء تحته من اضطرابات . فأتجه إلى سبتة في العدة الإفريقية ومدح رئيسها^(٢) . وكانت هذه الرحلة أولى رحلاته خارج الأندلس ، كما كانت الأخيرة ؛ فليس في أخباره ولا في شعره ، ما يدل على أنه قصد إقليماً خارج الأندلس غير سبتة . ولم يلبث ابن دراج أن عاد إلى الأندلس ، إذ يبدو أنه لم يجد فيها مستقراً ولا في رئيسها ملاذاً . وقصد شاعرنا بعد ذلك عدة أقاليم أندلسية ، مادحاً رؤساءها مؤملاً أن يجد الاستقرار في بعضها^(٣) . ولكنه - فيما يبدو - عجز عن أن يظفر بتحقيق أمله . وأخيراً قصد إقليم سرقسطة ، حيث المنذر بن يحيى التجيبي يلي الأمر هناك ، فنعم بكثير من الاستقرار ، وظفر بعظيم من التقدير ، في ظل هذا الحاكم ، ثم في ظل ابنه من بعده يحيى بن منذر بن يحيى التجيبي^(٤) ، مما جعله يستوطن إقليم سرقسطة ، ولا يفارقه في تلك الفترة الأخيرة من حياته ، إلا ليقصد دائية ، حيث كان على رياستها مجاهد العامري

(١) من اتصل بهم : ابن عبد الجبار وسليمان المستعين ، وعبد الرحمن المرتضى ، والقاسم ابن حمود . انظر : ديوان ابن دراج والذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٦ وما بعدها .

(٢) هو علي بن حمود أخو القاسم بن حمود . انظر القصيدة التي مدح بها الشاعر علياً في الديوان ص ٧٥ .

(٣) تردد القسطل على ألمرية وعليها خيران العامري ، وعلى بلنسية وعليها مبارك ومظفر العامريان ، وعلى شاطبة وعليها الفتح بن أفنج ، وعلى طرطوشة وعليها لييب العامري . انظر الديوان لترى أشعاره في هؤلاء الموالى العامريين ص ٨٦ ، ٩٥ ، ١٠١ ، ١٠٩ ، ٥٢٠ . وانظر : الصقالبة في إسبانيا للدكتور مختار العبادي : لتعرف قصة هؤلاء الموالى العامريين وإمارتهم في الأندلس .

(٤) انظر الديوان ص ١٢٤ وما بعدها .

المعروف بعلمه وتأديه وإكرامه للعلماء والأدباء وتشجيعه لهم^(١). وأغلب الظن أن ابن دراج قد عاد بعد هذه الرحلة ثانية إلى سرقسطة. وأنه ظل بها بقية حياته ، حتى مات بها^(٢) سنة ٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) .

هذا ، وقد كانت أخلاق ابن دراج على كثير من الاستقامة والبعد عن التحرر الذي كان يتورط فيه كثير من معاصريه . كذلك كان في طبيعته كثير من الجهد والحساسية المسيبين لشيء غير قليل من الأذى . ومن أبرز طباع ابن دراج إحساسه العميق بالأسرة ، وتعلقه الشديد بزوجته وأولاده^(٣). ثم شيء آخر يلاحظ في طبيعته ابن دراج ، وهو الشعور بالحاجة إلى الأمن ، والإحساس بضرورة الحامي ، الذي يتحقق في ظله الاستقرار .

وهذه الملامح النفسية والأخلاقية تدرك جميعاً في شعره ، وتبدو بوضوح لمن يعيش ولو مع بضع قصائد من هذا الشعر .

شعره :

ويعتبر ابن دراج من أغرز الشعراء الأندلسيين شعراً ، بل من أكثر شعراء العربية نتاجاً ، فقد خلف ديواناً ضخماً . أكثره من القصائد الطوال التي يغلب عليها طول النفس^(٤)

(١) انظر في ترجمة مجاهد : جنوة المقتبس الحميدى ترجمة ٨٤٩ ، وانظر في وفادة بعض العلماء والأدباء عليه وإكرامه لهم : الجنوة ، والذخيرة لابن بسام ق ١ م ٤ ص ٤ - ٥ ، ٩٧ والصلة لابن بشوال ترجمة ١٢٥ . وانظر قصيدة التسطلي في مدح مجاهد بالديوان ص ٤٧٨ .

(٢) هذا ما عليه أكثر من ترجموا له ودرسوا حياته . ويرجح الدكتور محمود مكى أن ابن دراج مات في دانية ، ويذكر مبررات هذا الترجيح . انظر مقدمة الديوان ص ٦٩ - ٧٠ .

(٣) كان عدد أفراد الأسرة التي يعولها ابن دراج أخيراً أربعة عشر فرداً ، كما يدل على ذلك قوله :

ولسببة مع مثلهم أنا كلهم في الثائبات وليس كلهم أنا

ويبدو أنه كان له سبع بنات وأربعة أولاد : كما يدل على ذلك قوله :

بسبع كسبح سماء السموم وأربعة كربوع الغفاه

وأته بزوجته وشخص آخر لعله خادم ، ثم بالشاعر نفسه يكمل عدد الأفراد أربعة عشر .

(٤) حقق هذا الديوان وقدم له الدكتور محمود مكى ، ونشره المكتب الإسلامي بدمشق سنة ١٩٦١ .

وموضوع المدح هو الموضوع الرئيسي الغالب على قصائد ديوان ابن دراج ، حتى لا يكاد يعثر فيه على أعمال شعرية مستقلة غير المدح ، سوى بعض الآثار القليلة التي توشك أن تضع في زحمة المدح . ومن ذلك قصيدتان قصيرتان في الغزل^(١) ، وثالثة في الاستهداء^(٢) . بل إن موضوع المدح يغلب لدرجة أن الشاعر قد يمزجه بما قد يعرض له من وصف زهر ونحوه ؛ مما يتصل بمدح من ممدوحه^(٣) .

ولعل غلبة المدح على هذا النحو في شعر ابن دراج ، كان مبعثها أن هذا الشاعر لمحت إلحاح ظروف معينة بدأ حياته الفنية وختمها شاعراً رسمياً ، يعمل في خدمة الحكام والرؤساء ، من المنصور بن أبي عامر ، إلى يحيى بن المنذر التجيبي^(٤) . أما هذه الظروف المعينة التي دفعت بالشاعر إلى أن يكون شاعراً رسمياً ، فبعضها يرجع إلى أحواله الخاصة ، وبعضها يرجع إلى أحوال عصره العامة . فعروف أن أجداده كانوا سادة بلدة قسطلة وحكامها ، أي أنه ألف العيش الرغد والحياة الناعمة ، فعمل سلطان قومه قد زال ، ولعل رياستهم قد انتقلت إلى غيرهم ، ولكن ابن دراج ظل على تعلقه بحياة القصور والاتصال بالرؤساء . ومعروف كذلك أن ابن دراج كان ذا عيال عديدين وأسرة كثيرة التكاليف ثقيلة المسئوليات^(٥) ، فعمل ذلك أيضاً كان من دوافع إكثاره من المدح ، حتى ينام ما يسد به حاجة العيال العديدين والأسرة الباهظة . وقد صرح الشاعر نفسه بما يؤكد هذا ، وذلك في مثل قوله :

وتحت جناحيّ مقدمي وتعطفيّ ثمان وعالت بالبنين إلى الشطر

(١) انظر : ديوان ابن دراج ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

(٢) انظر : ديوان ابن دراج ص ١٥٨ .

(٣) انظر : ديوان ابن دراج ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٢٥٣ .

(٤) انظر ما كتب عن حياة ابن دراج في الصفحات الأولى من ترجمته .

(٥) انظر ما كتب عن أولاده في آخر ترجمته ص ٣١٢ هامش (٣) .

فما جهدوا فلُكا كما جهدوا يدي ولا أنقضوا ظهراً كما أنقضوا ظهري
ولولاهم لم أبدأ صفحة معدوم ولم أسمع الأعداء دعوة مضطر (١)

ومعروف كذلك أن ابن دراج قد صدم في أول عهده بالانتقال إلى قرطبة ، وعانى كثيراً من الدس والتحريض والاتهام بانتحال الشعر ، حتى يحال بينه وبين النجاح الفني الذي كان يحلم به (٢) ؛ فلعل ذلك بالإضافة إلى ما تقدم ، قد خلف في نفسه نوعاً من القلق وعدم الاطمئنان ، مما حملته حملاً على البحث عن المستقر ، والالحاح في طلب الحامى ، واللجوء إلى ظل القوى .

تلك بعض أحوال ابن دراج الخاصة التي ربما تفسر غلبة المدح على قصائده . أما أحوال عصره العامة ، فواضح أنها كانت أحوالاً قاسية ربما شجعت كثيراً على هذا السلوك . فقد أظلت أولاً فترة المنصور وابنيه ، بما فيها من حكم استبدادى . برغم ما حفلت به من انتصارات وأمجاد حربية وسياسية . وهذا اللون من الحكم الاستبدادى ، يحمل حملاً على تسخير الطاقات المختلفة في خدمة النظام الحاكم (٣) ؛ فكأنه كان لا بد للقسطى لكي يتلاءم مع فترة الحجابة ، وحتى لا ينال من الأذى ما ناله كثيرون ، أن يسخر فنه في خدمة المنصور ومدحه ومدح ولديه . ثم أظلت بعد ذلك فترة الفتنة ، بما فيها من قلق وخوف وضياح (٤) ، مما يدفع دفعاً إلى طلب الحامى والبحث عن المستقر واللجوء إلى القادرين على الحماية المحققين للاستقرار ، من ذوى النفوذ والسلطان .

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة لابن دراج ، والبيت الأول يقع في صفحة ١٩٠ والبيتان الثالث والرابع يقمان في صفحة ١٩٤ من الديوان .

(٢) انظر : ما كتب عن ذلك في الصفحات الأولى من ترجمته .

(٣) انظر ما كتب عن سياسة فترة الحجابة في أول هذا الفصل ، ثم ما كتب عن الشعر في الفصل نفسه .

(٤) انظر ما كتب عن هذه الفترة في أول الفصل الأخير من هذا الكتاب .

فلعل ذلك كله كان من أسباب أمداح ابن دراج الكثيرة ، فالحق أن أحواله الخاصة وأحوال عصره العامة تفسر هذا بل تسوغه إلى حد كبير .

أغراضه :

إلا أنه يجب أن يلاحظ أن المدح وإن غلب على قصائد ديوان ابن دراج فإنه لم يستأثر بتلك القصائد التي قيلت أساساً فيه . فأكثر قصائد الديوان التي أخذت عنوان المدح ، أو قيلت لبعض ممدوحيه في مناسبة ما ، لا تخلو من أغراض أخرى ، كثيراً ما زاحمت الغرض الأصلي ، بل كثيراً ما طغت عليه . وعلى هذا يكون من الظلم لابن دراج وشعره أن تحسب تلك القصائد مدحاً خالصاً ، وأن يسقط من ديوانه ما فيه من موضوعات أخرى ، ربما كانت أهم ما فيه ، برغم تخللها لقصائد أخذت عنوان المدح .

وأهم تلك الأغراض الفرعية التي يضمها الديوان ، وتتضمنها قصائد المدح : وصف مواقف الوداع وفراق الأهل ، ووصف الأسفار ومشاق الرحلة في البر والبحر وبالنهار والليل ، ثم التعبير عن تجارب القلق والغربة والضيق ، والإحساس بقسوة الأيام على الأبناء ، وأخيراً وصف المعارك الحربية ومشاهد الجيوش والعدد البرية والبحرية .

فابن دراج كثير الحديث عن وداعه لزوجته وأولاده ، وصاف لما يكون في مواقف الوداع من مشاهد حسية وآلام نفسية . وهو قد يفتتح بعض قصائده بذلك ، وقد يذكره في خلال القصيدة ، ولكنه يلج عليه ويهتم به ويوفيه حقه من القول . ومن ذلك قوله في أول قصيدة يمدح بها المنصور بن أبي عامر .

دَعِيَ عَزَمَاتِ الْمَسْتَضَامِ تَسِيرُ فَتَسْجُدُ فِي عَرْضِ الْفَلَا وَتَغُورُ
لعل بما أشجاك من لوعة النوى يَسْعُرُ ذَلِيلٌ أَوْ يَفُكُ أَسِيرُ
ألم تعلمي أن الثواء هو النوى^(١) وأن بيوت العاجزين قبور

(١) النوى : الملاك .

إلى قوله :

ولا تدانى للوداع وقد هفا
تناشدنى عهد المودة والهوى
عني بمرجوع الخطاب ولحظه
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت
فكل مُفدأة التراب مرضع
عصيتُ شفيع النفس فيه وقادني
وطار جناحُ الشوق بي وهفتُ بها
بصبري منها أنة وزفير
وفي المهدي مبغوم^(١) النداء صغير
بموقع أهواء النفوس خبير
له أذرع محفوفة ونحور
وكل تحية المحاسن ظير^(٢)
رواح لتداب السرى وبكور
جوانح من ذعر الفراق تطير^(٣)

فالشاعر هنا يبدأ قصيدته المدحية بالحديث إلى زوجته ، مبرراً لها سفره وفراقه لها ولولده ، وبوصف موقف الوداع بينه وبين الزوجة والولد ، مبيناً أن الزوجة حين اقتربت منه للوداع ، قد زفرت زفرة وأنت أنينا لعبا بصبر الشاعر ، ثم راحت تناشده وتستحلفه بعهد الود والحب أن يبقى . ولا ينسى الشاعر الطفل الرضيع الذي يمثل جزءاً من هذا المشهد الحزين ، فيذكر أن ابنه الرضيع كان ساعة هذا الوداع في مهده ، لا يستطيع أن ينطق إلا بغما ، فهو عاجز عن فهم ما يدور بين الأب والأم من حديث باك ، ولكنه ذو نظرات مدركة خبيرة ، تفهم حالات الأب والأم وما هما فيه من ألم وحزن . ثم يمضي الشاعر متحدثاً عن هذا الطفل ومنتزته ، حيث سكن القلوب وافتش الأذرع والنحور ، ليصل إلى القول بأنه مع ذلك قد تركه وعصى فيه شفيع الدمع . وهكذا طار بالشاعر جناح الشوق ، وهفت بزوجته جوانح من ذعر الفراق تطير . وكما هو واضح ،

(١) بنم فلان صاحبه : لم يفصح له عن معنى ما يحدثه ، وبفت الطيبة : صاحبت بأرغم ما يكون من صوتها .

(٢) الظير : الظئر ، وهي الماطقة على ولد غيرها المرضعة له .

(٣) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ص ٢٩٧ - ٢٩٩ .

قد جمع القسطلی فی هذه الأبيات بين وصف المشهد حسياً ونفسياً ، حيث الحديث من الزوج عن السفر وجدواه ، والإقناع من الزوجة بالبقاء وضرورته ، وحيث تُن الزوجة وتزفر ، ويزلزل صبر الزوج ويهفو ، وحيث الرضيع في مهده ، يتابع ما يحدث بنظراته الواعية ، ولكنه لا يبين ، وحيث تشفع نفس الأب لهذا الوليد ، لكن العزيمة تغلب شفاعة النفس ، وينتهي الصراع بالفرقة القاسية ، التي يطير معها الزوج بجناح الشوق ، وتضطرب بسببها جوانح الزوجة ، حتى لتوشك أن تطير من الفرع .

ومن ذلك أيضاً قول القسطلی فی خلال قصيدة أخرى يمدح بها المنصور بن أبي عامر :

ولله عزى يوم ودعتُ نحوه	نفوساً شجاني بثها وشجاها
وربة خدر كالجمان دموعها	عزيز على قلبي شطوط نواها
وبنت ثمان لا يزال يروعي	على النأي تذكاري خفوق حشاها
وموقفها والبين قد جد جسده	منوطاً بجبلي عاتق ^(١) يداها
تشكى جفاء الأقربين إذا النوى	ترامت برحلي في البلاد فتاها ^(٢)

فالشاعر لا ينسى خلال قصيدته المدحية أن يذكر موقف الوداع بينه وبين أهله ، ويخص بالذكر زوجته التي كانت تبكي بدمع كالجمان ، وابنته ذات الثمان ، التي كانت أحشاؤها تخفق اضطراباً وحرناً لفراق الوالد . ثم يصورها وقت الوداع ، وقد تعلقت يداها بكتفيه ، وراحت تشكو إلى أبيها ما قد يصيبها بعده من جفاء الأقارب . فالمشهد كما هو واضح يمتزج فيه الوصف الحسي بالوصف النفسي ، ففيه دموع وتوسل وخفوق أحشاء وتعلق من الطفلة بأكتاف الأب ، ثم فيه شجو يحركه البث ، واستشعار للوعة الفراق وألم البعاد ، وارتياح من مشهد خفوق أحشاء الطفلة وعلو قلبها وانخفاضه من الانفعال .

(١) العاتق : موضع الرداء من المنكب ، أو ما بين المنكب والمعق .

(٢) وردت هذه الأبيات في : ديوان ابن دراج ص ١٣ - ١٤ .

وابن دراج كذلك وصاف للأسفار والرحلات مفصل للقول فيها حيناً تكون بالبر أو بالبحر ، راسم لما يكون خلالها من مشاهد ، شارح لما يعانى فيها من أهوال . وهو كعادته يمزج بين الوصف الحسى والنفسى ، ويجمع إلى المشاهد الخارجية الانفعالات الداخلية . ومن قوله فى بعض الأسفار البرية نهراً وليلاً :

ولو شاهدتني والصواخذ ^(١) تلتظي	على ورقراق السراب يمور
أسلّط حرّ الماجرات إذا سطا	على حرّ وجهي والأصيل هجير
وأستنشق النكباء وهي بوارح ^(٢)	وأستوطن الرضاء وهي تفسور
وللموت فى عين الجبان تلون	وللذعر فى شمع الجرىء صغير
لبان لها أنى من الضميم جازع	وأنى على مّصّ الخطوب صبور
أمير على غوّل التائف ^(٣) ما لله	إذا ريع إلا المشرقى وزير
ولو بصرت بنى والسرى جمل عزمى	وجرسى لجنّان ^(٤) القلاة شمير
وأعتسف المومة فى غسق الدجى	وللأسد فى غيل الغياض زثير
وقد حومت زهرّ النجوم كأنها	كواعب فى خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنها	كثوس متهّ ^(٥) والى بهن مدير
وقد خيلت طرق الحجره أنها	على مفرق الليل البهيم قثير ^(٦)
وثاقب عزى والظلام مروع	وقد غص أجنان النجوم فتور
لقد أيقنت أن المتى طوع همتى	وأنى بعطف العامرى جسدير ^(٧)

(١) الصواخذ : من مخدته الشمس أى أحرقته .

(٢) البوارح : الرياح الحارة فى الصيف .

(٣) التائف : المفاوز والصحارى ، وهى جمع تنوفة .

(٤) الجنان : جمع جن .

(٥) المها : البلور .

(٦) القثير : الشيب .

(٧) وردت هذه الأبيات فى ديوان القسطل ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

فالشاعر هنا يتحدث عن مشاهد الطريق وأهواله التي يعانها المسافر بالنهار ثم بالليل ، فيذكر اشتداد الحر الذي يتلظى ، والسراب الرقراق الذي يمور ، والقيظ الذي يتسلط لهيبه على الوجه في النهار الذي أصيله هجير ؛ ويذكر الرياح النكباء التي تستنشق ، والرمضاء الفائرة التي توطأ . وهو لا يغفل الوصف النفسي ، فيذكر مخاوف المسافر ، وإحساسه بالموت إحساساً يصوره في عينه ألواناً مختلفة وأشكالا متعددة ، كما يجسم الرعب واستيلاءه على المسافر في تلك الظروف ، بحيث يجذع حواسه فيسمع له صغيراً . حيث الظلام الكثيف يتخلله زئير الأسد ، وحيث تتراقص زهر الكواكب في السماء ، كحسان كواعب في حديقة خضراء ، وحيث تدور نجوم القطب ، مثل كتوس بلور يدور بها ساق ، وحيث يظهر طريق المجرة كأنه شيب أبيض على مفرق الليل الأسود ، وحيث يروع الظلام ، حين تقتر جفون النجوم فتغمض منها العيون .

ومن ذلك أيضاً قوله في بعض الرحلات البحرية :

إليك شحتنا النملك تهوى كأنها	وقد ذُعتُ عن مغرب الشمس غربانُ
على بلج خضر إذا هبت الصبا	ترامى بنا فيها تسيير وثهلان ^(١)
موائل ترعى في ذراها موائل	كما عبّدت في الجاهلية أوئان
وفي طي أسمال الغريب غرائب	سكن شغاف القلب شيب وولدان
يرددن في الأحشاء حتر مصائب	تزيد ظلما ليلها وهي نيران
إذا غيض ماء البحر منها مددنه	بدمع عيون تمتريهن أشجان
وإن سكنت عنا الرياح جرى بنا	زفير إلى ذكر الأخبية حنان
يقفن وموج البحر والهّم والدجى	تموج بنا فيها عيون وآذان
ألا هل إلى الدنيا معاد وهل لنا	سوى البحر قرأوسوى الماء أكفان ^(٢)

(١) ثير وثهلان : جبلان .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان القسطل ص ٨٧ - ٨٨ .

فالشاعر هنا يتحدث عن القلك التي تهوى ساعة الغروب كأنها غريبان خائفة من مقدم الليل . ويصفها وهي تسرع على حجج الماء الخضر التي تقذف بما يشبه جبلي ثبير وشيلان كلما هبت الريح ، فتبدوا السفن موائل ترى في أعلاها ركابا قد تجمدو من الخوف فصاروا كالأصنام . ثم يتحدث الشاعر عن نفسه وأهله الذين سكنوا منه شغاف القلب ، وراحوا يرددون في أحشائه هيب مصائب تزيد الليل ظلاماً ، برغم أن تلك المصائب فيران من المفروض أن تضيء . ثم يذكر الشاعر أن أهله سيكون ، ودموعهم غزار ، فلو أن البحر غاض مائه ، لمدته دموعهم بما تجرى فيه السفينة ، كما يذكر أنهم يزفرون ، وزفرائهم قوية ، فلو أن الريح هدأت لسيرت تلك الزفراء الشراع . وأخيراً يذكر أن أهله كانوا يقولون بين أمواج البحر والهلم والظلام التي تضطرب فيها العيون والآذان : هل لنا عودة إلى الدنيا ؟ وهل لنا قبر غير البحر أو أكفان غير الماء ؟

وهكذا يصف الشاعر أهوال الرحلة البحرية ، ويصور وقع تلك الأهوال على النفس ، فيجمع إلى الأوصاف الخارجية الانفعالات الداخلية . ويمزج بين الوصف الحسي والوصف النفسي مزجاً فنياً رائعاً .

وابن دراج كذلك كثير الحديث عن أولاده ، دائم الحنين إليهم ، والاهتمام بأمرهم . وربما كان هذا اللون من الحديث أبرز موضوعات ابن دراج الشعرية التي تتخلل قصائده المدحية . فقد ذكر أبناءه ألواناً مختلفة من الذكر ، بلغت أكثر من عشرين مرة في ديوانه^(١) . وهذه ظاهرة قد لا يشاركه فيها شاعر عربي آخر . ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التي أحاطت بابن دراج ، من شدة حساسيته بأولاده ، إلى قسوة الأيام عليه وعليهم ؛ فقد اضطر الرجل أول الأمر إلى مغادرة بلده قسطة إلى العاصمة

(١) انظر : ديوان القسطل ص ٩ ، ١٣ ، ٧٤ ، ٧٨ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ١٠٠ ، ١٠٧ ،

١١٠ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٦٧ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ١٩٠ ، ١٩٨ ، ٢٠٧ ،

قرطبة ، وفي هذه المرة ترك أولاده إلى أن هيا له ولهم حياة مستقرة ، غير أن الفتنة وقعت بعد فترة من الاستقرار والرفاهية ، وحملت الشاعر على الضرب في الآفاق بحثاً لنفسه ولأولاده عن الملجأ والقوت ، فكان يرحل عنهم أحياناً ويودعهم راحلين عنه أحياناً أخرى ، وكان في أكثر الأحيان مفتقداً لهم أو لبعضهم ، حاملاً لهمهم ، محسباً بقسوة الأيام عليهم . ثم إنهم بلغوا حداً من الكثرة يرهق الكاهل ؛ فقد كانوا بضعة عشر ، بين بنين وبنات (١) ، كما كانوا جميعاً معلقين في عنق أبيهم في تلك الظروف القاسية التي أظلت الأندلس في تلك السنين . لهذا كله نرى ابن دراج يكاد يكون أكثر شعراء العربية ذكراً لأولاده ، وشكايه من قسوة الأيام عليهم . ومن ذلك ما سبق من حديث الوداع لزوجته وطفله الرضيع ، ومن حديث الوداع لزوجته وطفلته ذات الثمانية الأعوام . ومنه أيضاً قوله في اغتراب أبنائه على رغم تعلقه بهم ، ونشردهم عنه على شدة حاجتهم إليه :

في ستة ضُعبوا وضعف عدُّهم	حملاً ليهور الفؤاد مُبَلَّدِ (٢)
شدَّ الجلاء رحالهم فتحَمَلَتْ	أفلاذُ قلب بالهموم مبدد
وحدت بهم صعقات روع شرَّدت	أوطانهم في الأرض كل مشرد
لا ذات خدرهم يُرام لوجهها	كينٌ ولا ذو مهدم بمهدد
عاذوا بلمع الآل (٣) في مدِّ الضحى	من بعد ظل في القصور ممدد
من كل عار بالتجمل مكس	ومزود بالصبر غير مزود (٤)

ومن ذلك أيضاً قوله في قسوة غربتهم عليهم ، وشدة حنينهم إلى دراهم ، حتى إنهم

(١) انظر الحديث عن حياة القسطل ص ٣٢٦ هامش ١ .

(٢) المبلد : المتلهف غير المتجدد .

(٣) الآل : السراب .

(٤) وردت هذه الأبيات في : ديوان ابن دراج ص ٧٤ .

ليحزنون كلما تخيلوا داراً لساكنين ، ويتألمون كلما رأوا حيواناً أو طائراً يستمتع بمربض
أو عش ، على حين هم مشردون هائمون :

في أهل دار كالكواكب والنوى بعد النوى فمَلَكٌ بهم دَوَّارٌ
كانوا جمالا للزَّمان فأصبحوا وهمُ عليه بالتغرب عار
تنبو الديار بهم وتلك ديارهم غرض المصائب ما بها ديارَ
قد أقفروا وطن الأنيس وأنست بهمُ مفاوز بالفلا وقفار
يتأهون إذا رمت أوهامهم داراً لساكنها بها استقرار
ويهيجهم عينٌ لهنَّ مرائب ويشوقهم طير لها أوكار^(١)

وابن دراج كثير الحديث عن قلقه وضياعه وسوء حاله . وغنى عن البيان شرح أسباب ذلك عند هذا الشاعر ؛ فظروف الرجل الخاصة ، وظروف الأندلس العامة ، كانت من دوافع ذلك ، وخاصة إذا كانت كل تلك الظروف تحيط بشاعر شديد الحساسية كابن دراج ، الذي لم ينس أنه ذل بعد عز ، واحتاج بعد غنى ، واضطر وهو الشاعر الكبير ، وسليل السادة من حكام قسطللة إلى أن يقصد الناس لبيع شعره بقوته وقوت أولاده^(٢) . ومن نماذج شعره في ذلك قوله :

أقرُّ عيون الشامتين وليتي أبرِّد ما تطوى الضلوع من الغلِّ
أمرُّ بهم ألقى الثرى وكأعما فوادي من أحداقهم غرضُ النبيل
إذا الأسد الضرغام أنفذ مقتلى فما فرعى إلا إلى الأرقم الصلِّ
وإن ذاب حرُّ الوجه من حرِّ نارهم فما مستغاثي منه إلا إلى السهل
ومن شيمة الماء القراح إذا صفا إذا اضطرمت من تحته النار أن يغلي^(٣)

(١) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ص ١٥٧ .

(٢) اقرأ ما كتب عن تفسير كثرة أمداحه في أول هذا الفصل .

(٣) وردت هذه الأبيات في ديوان القسطللي ص ٤٦ .

ومنه أيضاً قوله :

وكان ضياعي حسرة وتنادماً
وأصبحتُ في دار الغنى عن ذوى الغنى
سيوى حسرتى عرض ووجه تضعضعا
وللسرِّ والصبرِ الجميل تأخرًا
فيا عبرتى سُحى لعلى مبلل
ويا زفرتى هل فى وقودك جدوة
إذا لم يفد شيئاً ولم يغنى شيئاً
وعوّضتُ فاستقبلتُ أسعدَ يوماً
لقارعة البلوى وكانا عتاديا
فأمهما حرصى وكانا إماميا
بيحريك ما أنزفت من ماء عينيا
تتير لنا صباحا ثناها الأسي مسياً^(١)

وابن دراج بعد ذلك من وصاف المعارك الحربية . ولا غرو ؛ فقد عاش في فترة كانت المعارك من أبرز نشاط حكامها ، وكان الشاعر يعمل في خدمة هؤلاء الحكام . فكثيراً ما خاض المنصور معارك ضد مسيحي الشمال ، وكثيراً ما خاض غير المنصور من الرؤساء معارك أخرى ، وقد كان طبيعياً أن يحتل وصف تلك المعارك مكاناً فسيحاً فيما يقول ابن دراج للمنصور وغيره من شعر ؛ لأنه كان رابطاً بحياته بهم ، جاعلاً منه في خدمتهم وتسجيل انتصاراتهم وأمجادهم . ومن هنا كثر حديثه عن المعارك والمحاربين وعدد الحرب . ومن شعره في بعض المعارك ، قوله لمنذر بن يحيى التجيبي :

في جحفل كالليل جرأه له
أمددت فيه بالملائكة التي
وكسوت فيه الشمس بُردَ عَجاجة
والجو بحمى والدماء سوافك
والمقفرات سوافق وخوانق
كل رفعن صدورهن لغارة
من عز نصرك جحفل جرأه
نصرت بها أعمامك الأنصار
للموت تحت ظلها إسفار
والأرض ريباً والسماء غبار
والشاهقات أسنة وشفار
ما إن لها قبل الصدور مغار^(٢)

(١) وردت هذه الأبيات في ديوان القسطل ص ١٨٠ .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان القسطل ص ١٥٣ .

ولقد غلبت صور المعارك الحربية على خيال ابن دراج ، حتى استخدمها في أبعد الموضوعات عن هذا الجلو الدامى العنيف . فقد نقل صور المعارك مثلا إلى الغزل ، وإلى وصف مجالس الأُنس ، وطبق كل تفاصيل المعارك على هذين الغرضين الرقيقين ، ومن ذلك قوله متغزلا :

وَقَدَفْتَ نَبْلِي فِي الصَّبَا وَحِرَابِي	أَوْجَعْتُ ^(١) خَيْلِي فِي الْهَوَى وَرَكَابِي
عَضْبًا تَرْتَرِقُ فِيهِ مَاءُ شِبَابِي	وَسَلَّتْ فِي سُبُلِ الْغَوَايَةِ صَارِمًا
خُضَاقَةٌ بِهَوَائِحِ الْأَطْرَابِ	وَرَفَعَتْ لِلشُّوقِ الْمَبْرَحِ رَايَةَ
مَسْرُودَةٌ ^(٢) بِصَبَابَةٍ وَتَصَابِ	وَلَبِستَ لِلنَّوَامِ لَامَةً خَانِعَ
نَكَصَرَ الْمَلَامُ بِهَا عَلَى الْأَعْقَابِ	وَبَرَزَتْ لِلشُّكْوَى بِشِكَّةٍ مَعْلَمَ ^(٣)
بِغُرُوبِ دَمْعِ صَائِبِ التَّسْكَابِ ^(٤)	فَاسْأَلْ كَيْفَ الْوَجْدِ كَيْفَ أَثْرَتِهِ
فِي جِحْفَلِ الْبُرْحَاءِ وَالْأَوْصَابِ	وَاسْأَلْ جُنُودَ الْعَدْلِ كَيْفَ لَقِيْتَهَا
ذَهَلَ الْعَتَابُ بِهَا عَنِ الْإِعْتَابِ ^(٥)	وَلَقَدْ كَرَّرْتَ عَلَى الْمَلَامِ بَزْفَرَةَ

ومن أبرز الموضوعات التي يصفها ابن دراج : السفن وركوبها ، والبحار وأهوالها . وواضح أن هذه الظاهرة إقليمية محلية ترتبط أشد الارتباط بوضع الأندلس كشبه جزيرة ، تكثُر الرحلة فيها من مكان إلى آخر عن طريق البحر . وقد كان ابن دراج من أكثر الشعراء الأندلسيين التفاتاً إلى البحر والسفن وأهتماً بهذا وتلك ، حتى لقد تحدث عنها مرات

(١) أوجفت : سير وجيفا ، والوجيف : ضرب من سير الخيل .

(٢) اللامة : الدرع ومسرودة : من السرد ، وهونسج الدرع .

(٣) الشكة : السلاح . والمعلم : الفارس الجريء الذى يتخذ علامة تدل عليه .

(٤) غروب الدمع : جمع غرب ، وهو انهمال الدمع وتدفعه . وصائب : من الصوب وهو الإنصباب .

(٥) وردت هذه الأبيات : في ديوان القسطل ص ١٨١ - ١٨٢ .

عديدة خلال قصائده . وقد مضت قطعة له في الحديث عن البحر والرحلة فيه . ومن ذلك أيضاً قوله في السفينة :

وكم عجزتُ عننا ذواتُ قوائمٍ فعجنا بمُوجِ ما لهن قوائمُ
جآجى^(١) غربان تطير لنا بها على مثل أطواد الفيافي نعائم
لها من أعاصير الشمال إذا هوت خوآف ومن عصف الجنوب قوادم
يُحاجتى بها : ما حاملٌ وهو راقد وما طائر في جـوّه وهو عائم
سرتُ من عصا موسى إليه قرابة فطَبُّ بفلق البحر والصخرِ عالم
وشاهدَ لقسم الحوتِ بونسَ فاقنتدى فغادرٍ وسارٍ وهو للسفرِ لاقم^(٢)

هذا شعر ابن دراج من حيث الموضوعات ، وقد رأينا أن الموضوع الغالب في الظاهر ، هو موضوع المدح ، ولكن خلال قصائد المدح المستبدة بالديوان ، أغراض كثيرة هامة ، أبرزها كما تقدم : وصف مواقف الوداع للزوجة والأولاد ، ووصف الأسفار براً وبحراً ، تهازلاً ولبلاً ، وتصوير الغربة والقلق والضياع ، وخاصة غربة الأبناء وقلق الأهل وضياع الأسرة ؛ وأخيراً تسجيل المعارك الحربية ، ووصف البحار والسفن .

فنه وسماته :

أما شعر القسطلي من الناحية الفنية ، فأول ما يلاحظ عليه أنه يبلغ الذروة من الاتجاه المحافظ الجديد ، وتوضح فيه معالم هذا الاتجاه^(٣) بأكمل ما يكون الانضاح ، وتبدو فيه ناضجة كأحسن ما يكون النضج . حتى ليتمكن أن يعتبر ابن دراج قمة هذا الاتجاه في الأندلس ، في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس .

(١) الجآجى : جمع جؤجؤ وهو الصدر .

(٢) وردت هذه الأبيات وفي : ديوان ابن دراج ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٣) اقرأ ما كتب عن هذا الاتجاه في صفحة ٢١٧ وما بعدها من هذا الكتاب .

وبرغم أن ابن دراج كان يسير في هذا الاتجاه الذي سار فيه كثيرون غيره من المشاركة والأندلسيين ؛ قد كانت له مميزات خاصة تجعل لشعره شخصية ذات سمات واضحة بين أشعار الآخرين من أصحاب هذا الاتجاه الأندلسيين والمشرقيين . ويمكن أن نلخص تلك السمات في خمس ، وهي : اللون المحلي ، والشعور الأسرى ، والتحليل المعنوي ، والوصف النفسى ، والنضح الثقافى .

أما سمة اللون المحلي ، فنحنى بها كون الشعر واضح التأثير بطابع الإقليم ومؤثراته وشعر ابن دراج يبين الأندلسية بشكل يدل قارئه وسامعه على أن صاحبه من أبناء الأندلس ، المتأثرين بموقعها وحياتها السياسية والاجتماعية واللغوية أوضح تأثير . ففي شعر ابن دراج ذكر لكثير من أسماء البلاد الإسبانية التى اتصل بها المسلمون خلال معاركهم مع المسيحيين .

ومن ذلك قوله :

وبسطةٍ من « قَشْتَلَةَ » يدَ آمن لرضاك فيها بارقٌ وسوارٌ^(١)

وقوله :

وبيعةٌ « شَنْتَ قَرْوَجَ » أوريت فوقها سنا لهب فيه لعميانها شرحٌ^(٢)

وقوله :

« وَقَلْنِيَّةٌ » أنشأت فيها عارضاً للحرب أبرق بالحتوف وأرعدا^(٣)

(١) المراد بقشتلة المنطقة المسماة بالإسبانية « كاستيليا Castilla » وتقع في وسط شبه الجزيرة الإيبيرية . الاسم يرد كذلك في المراجع العربية : قشتالة وقشتيلة ، ولكن الصورة التى جاء عليها في بيت ابن دراج أقرب الصور إلى التطق الإِسباني . والبيت وارد في ديوان ابن دراج ص ١٦٥ .

(٢) الشاعر يقصد « بشنت قروج » كنيسة كانت تسمى بالإسبانية « سنا كروث Santa cruz » أى الصليب المقدس . وكانت مما غربه المنصور في حملاته على نصارى الشمال . والبيت وارد في ديوان القسطل ص ٢٩١ .

(٣) قلنية : اسم مدينة في قشتالة ، كانت من أمتع معاقل المسيحيين في هذه المنطقة وترد في =

وقوله :

فَتَتَّ مِنْهَا قِوَاصِي « بَنَيْلُونَتِيهِ » بالهدم والنار فتاً فتاً في عضده^(١)
وفي شعر ابن دراج إيراد لكثير من أسماء الملوك والأمراء الإسبان الذين كانوا على احتكاك بالدولة الإسلامية في الأندلس ، بالحرب أو المهادنة .

ومن ذلك قوله :

«وَفِرْدِ لَسْدُ» رددت الملك في يده وما رجاً غَيْرَ رَدِّ الرُّوحِ في جسده^(٢)

وقوله :

ودنا ابنُ «رُدْمِير» يزلزل خطوه أملٌ تقسمُ نفسه وحِذارُ^(٣)

وقوله :

وقد تيممَ «شَنْج» منك عائدة تجيره من سيوف الكرب والوجل^(٤)

وفي شعر ابن دراج كذلك استخدام لمعاني كلمات من اللاتينية المحلية التي تسمى «رومانثي» ؛ فهو يذكر الكلمة من هذه الكلمات ، ثم يستخدم معناها اللاتيني استخدام العارف به ، ويبني على ذلك فكرة شعرية . ومن ذلك قوله في الحديث عن حصن «لونة» وفتح المنصور له :

ولأمِثْلُ يَوْمِ نَحْوِ «لُونَةِ» سِرَّتَهُ وقد قَسَمْتُ شَمْسَ النَّهَارِ غِيَاهِبَهُ

«المراجع العربية أيضاً باسم قلونية . ولكنها في بيت ابن دراج أقرب إلى صورة النطق الإسباني الذي يسمى تلك المدينة Clona . والبيت وارد في ديوان ابن دراج ص ٤٥٥ .

(١) بنبلونة : اسم عاصمة مملكة البشكنس أو مملكة نبرة في شمال شبه الجزيرة الإيبيرية وهي بالإسبانية : « Pamplona » كما وردت في بيت ابن دراج ص ١٤٦ .

(٢) « فرذند » : أحد الأمراء المسيحيين . والاسم بالإسبانية قريب من هذا وهو « Fernando » والبيت وارد في ديوان القسطل ص ١٥٠ .

(٣) « ابن رذمير » هو ملك ليون ألفونسو الخامس . وقد نسب إلى جد أبيه ، واسم هذا الجد بالإسبانية Ramiro والبيت في الديوان ص ١٥٥ .

(٤) « شنج » هو شانجة بن غربية بن فرذند ثالث قوامس قشتالة . وكان ماصراً للمنصور وابنيه وأسمه بالإسبانية Sancho والبيت وارد في ديوان القسطل ص ٤١٤ .

إلى قوله :

فيا ليت قُوطًا حين شاد بناءه رآه وقد خرت إليك جوانبه
ويا ليت إذ سماه بدرًا معظمًا رآه وفي كسف العجاج مغاربه^(١)

فقد اعتمد الشاعر على أن معنى « لونه Luna » في اللاتينية : البدر ، واستخدم هذا المعنى اللاتيني الأصل ، في البيت الثالث ؛ حيث قال : وليت من سمي الحصن بالاسم الدال على النور ، وهو اسم « لونة » ليته قد رآه وقد كسف في غبار المعركة .

وفي شعر ابن دراج استعمال لألفاظ أندلسية خاصة ، بعضها منسرب من هذه اللهجة اللاتينية المحلية المسماة « رومانثي » . ومن أمثلة ذلك قوله :

وانصب مجانقًا من النِّيم التي أحجارهن من الرواطيم والنَّخَب^(٢)

فكلمة « نيم » في الشطر الأول : جمع نيمة ، وهي القنينة أو الزجاججة في استعمال الأندلسيين خاصة . وكلمة الرواطم في الشطر الثاني : جمع رطومة وتنطق أيضاً رضومة ، وهي القنينة كذلك ، وقد تسربت إلى لغة الأندلسيين من « الرومانثي » ، ويقال لها في تلك اللغة Arradoma أو Rotoma^(٣)

وفي شعر ابن دراج كما مر ، تأثر واضح بالموقع الجغرافي للأندلس ، كسبه جزيرة تحيط بها المياه من أكثر الجهات ، ويُنْتَقَل بين أطرافها بطريق البحر ، وتستخدم السفن كوسيلة ذات شأن بين وسائل المواصلات . ومن هنا كثر وصف ابن دراج

(١) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ص ٢٤ - ٢٦ .

(٢) ورد هذا البيت في ديوان القسطل ص ٣٦ .

(٣) انظر : ملحق القواميس العربية لدوزي ج ٣ ص ٧٤٣ ، ج ص ٥٣٤ وانظر دراسة حول

الأصوات الأندلسية لشتايجر ص ١٦٣ ، ٣٥٤ .

للبحر والسفن والرحلة المائية ، وقد مضت نماذج من ذلك ؛ كما كثرت في شعره الصور
والتشبيهات المستمدة من البحر ، كقوله في بعض ممدوحيه :

وكأنني بيمينه في لحظة للحرب يتخريقاً بالقنا أمواجهاً^(١)
وقوله :

صليتَ ونار الحرب يذكو سعيها ونحضتَ موج الموت تطفو غواربه^(٢)
وقوله :

ونحضت وقد أعييت نجاةً غريقها وهالت بأموج المنيايا بجورها^(٣)
وقوله :

ليزّه به بحر كان مدوده نوافل من معروفه وفضول^(٤)
وقوله :

يسوايح في لبحر بحر سوايح فاضت على الأرض الفضاء مدودها^(٥)

وديوان ابن دراج يعد سجلاً لأهم المعارك التي دارت بين المسلمين ومسيحي الشمال
في عهده، كما أنه سجل لكثير من العلاقات بين الرؤساء الأندلسيين ومجاوريه من الملوك
والأمراء المسيحيين .

وسمة المحلية تلك التي تتضح في شعر ابن دراج، تضيف سمة جديدة إلى السمات
الخاصة التي عرفنا بعضاً منها للشعر الأندلسي منذ أول عهده^(٦) . ولم يكن ابن دراج

(١) ورد هذا البيت في الديوان ص ٢٨ .

(٢) ورد هذا البيت في الديوان ص ٢٤ .

(٣) ورد هذا البيت في الديوان ص ٢٢ .

(٤) ورد هذا البيت في الديوان ص ٨ .

(٥) ورد هذا البيت في الديوان ص ٦٤ .

(٦) راجع ما كتب عن تلك السمات في هذا الكتاب أثناء الحديث عن الشعر في فترة تأسيس الإمارة .

أول شاعر أندلسي ظهر في شعره هذا اللون المحلى ؛ فمن الممكن تلمس طلائع هذا اللون عند شعراء أندلسيين قد سبقوه زمناً ، كالغزال وأبي التمام لبّ وابن عبد ربه ، ولكن ابن دراج قد تفرد بين هؤلاء جميعاً باتضاح اللون المحلى في شعره بشكل لا يحتاج إلى تلمس أو بحث ؛ فهو في شعره لون واضح في أكثر من جانب ، ويبرز في أكثر من ناحية ؛ ومن هنا اعتبر سمة من سماته ، وأضيفت تلك السمة إلى سمات الشعر الأندلسي التي تفرق بينه وبين الشعر المشرق ، منذ اتضحت في شعر ابن دراج .

وأما سمة الشعور الأسرى ، فنعنى بها غلبة العاطفة الأسرية واتّصافها بشكل يلفت النظر . وقد كان ذلك الجانب بارزاً في شعر ابن دراج ؛ فقارى شعره بطالع ألواناً مختلفة من الحديث عن الزوجة والأولاد والبنات ، في وداعهم ورحيلهم ، وحاجتهم وضياعهم ، وثقل مسئوليتهم وشدة الإحساس بمطالبهم . وقد مضت نماذج تؤكد هذه السمة من سمات شعر ابن دراج .

وأما سمة التحليل المعنوي فنقصد بها ميل الشاعر غالباً إلى تحليل المعنى ، وبسط الفكرة ، وتوسيع جوانب الصورة . وقد كان ابن دراج واضح الميل إلى التحليل المعنوي بهذا المفهوم ؛ فهو لا يحمل ولا يركز ، ولا يكتفى باللمسة السريعة واللمحة العابرة ، وإنما يفصل ، ويحلل ويبسط ويوسع ، ويستطرد ويستوعب ، على نحو ما عرف عن ابن الرومي في هذا المذهب . ومن أمثلة ذلك قول القسطلي في الدعوة إلى مجلس أنس :

جهز لنا في الروض غزوة محتسباً	واندب إليها من يساعد وانتدب
واحمل على نخيل الهوى شيم الصبا	واعقد لجيش اللهو ألوية الطرب
واهتف بأجناد السرور وقُدْ بها	نحو الرياض وأنت أكرم من ركب
جيشاً تكون طبوله عيّدانه	وقرونه النايات تسعدها القصب
واهزز رماحا من تباشير المنيّ	واسلل سيوفاً من معتقة العنب

وانصب مجانقياً من النِّيم التي أحجارهن من الرواطم والنَّخَب^(١) لمعاقل من سوسن قد شَيِّدَتْ أيدى الربيع بناءها فوق القضب فهو يحلل معنى المعركة في مجلس الشراب ، ويفصل أجزاء هذا المعنى تفصيلاً لا يترك جزئية ، وينقل صورة المعركة بكل تفاصيلها وعددها إلى هذا المجلس ، بحيث لا يدع مما يكون للمعركة دون أن يجعله للمجلس الذي يلبسه صورتها ؛ فهناك التجهيز والاحتساب والندب ، وهناك الحمل على الخيل وعقد لواء الجيش والهناف بالخنود ، وهناك الطبول والعيدان والرماح والسيوف ، وهناك بعد ذلك كله المجانق والأحجار والمعاقل .

وكثيراً ما كانت تورط هذه السمة في الإملال أو التعسف أو الإحالة أو اهتزاز الصورة ، كما يرى في هذا النموذج السابق ؛ فقد بلغ تحليل المعنى ، وحبك صورة المعركة على صورة مجلس الشراب حد التعسف والافتعال ، وحمل ذلك على الملل ورؤية بعض الصور مهزوزة أو شائبة . فليست تتصور الحمره سيوفاً ، ولا الكاسات مجانق . وإنما هي الرغبة الملحة في التحليل والتفصيل وتتبع كل الجزئيات واستقصاء كل الجوانب ؛ قد ورطت في الإحالة واهتزاز الصور وأساءت إلى الجمال الفني .

على أن ابن دراج في أكثر الأحيان موفق في هذا التحليل مقارب للكمال فيه ، وذلك يتأتى له عادة حين يصدر عن عاطفة صادقة وتجربة حية . ومن أمثلة ذلك قوله مقارناً بين وقفه من بنيه وموقف ممدوحه من جنده :

وقد عاذ أبطالُ الجِلادِ بعطفه كما عاذ أطفالُ الجِلاءِ بعِطْفِيَّاتِ
وقد قصرتُ عنه رماحُ عداته كما قصرتُ عنهم رِياشُ جناحِيا
ولكن أواصي بين عارٍ ولايس أقلصُ عن ذبيَّاتٍ لأئسِّي على تسيِّبِ^(٢)

(١) النِّيم : جمع نيمة وهي الزجاجة أو القنينة ، والرواطم : جمع رطوة ، وهي القنينة كذلك واللفظتان من الألفاظ الأندلسية المحلية . انظر هامش ص ٣٤٥ .

(٢) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ص ١٧٩ .

فهذا التفصيل في المقارنة رائع ، لأن مصدره الصدق والإحساس الدافق : الذي يحمل على أن يصور الشاعر أبناءه في أكثر من وضع بائس ، أن يصور نفسه منهم في أكثر من موقف عاجز. فهم يعوذون بعطفه ويتعلقون به احتياجاً وحباً وطلب حماية : ولكن ريش جناحيه أقصر من أن يدفئهم أو يحميمهم ، وأمام الحنو العاجز والالتجاء المسكين ، لا يجد الأب بدءاً من أن يواسي بين اللابس والعارى من بنيه ، فيقصر الثوب للابس ليجد فضلة يثنيها على العارى .

وأما سمة الوصف النفسي ؛ فنحن بها تجاوز الوصف الجانب الحسي الخارجي ، وتغلغلنا إلى الجانب النفسي الداخلي ، بحيث يصور الشاعر خلجات النفس وجنات الوجدان ، ووقع الأحداث والأشياء على هذا وذاك . وقد مضت نماذج من شعر ابن دراج في موقف الوداع ، وفي الحديث عن القلق والضياع ، وفي وصف حال الأبناء مغترين مشردين . وكل هذه النماذج تؤكد إجادة ابن دراج لهذا الوصف النفسي . ومن أوضح شعر القسطلي تصويراً لهذه السمة ، قوله عن استشعار أبنائه للغربة :

يتأوهون إذا رمت أوهامهم داراً لساكنها بها استقرارُ
ويهيجهم عين لمن مريض ويشوقهم طير لها أوكار (١)

وأما سمة النضح الثقافي ، فنقصد بها أن ثقافة الشاعر تتسرب إلى شعره وتنضح عليه ، بحيث يشف منها ويشير إليها ويستمد منها . وقد كان ابن دراج ذا ثقافة واسعة ، وخاصة في التاريخ والأدب .

وقد تمثل نضح الثقافة التاريخية في شعر ابن دراج في كثرة إيراد أسماء القبائل والأعلام والأماكن والمواقع ذات الصلة بالتاريخ ، وكثيراً ما يتلاعب ابن دراج بهذه الأسماء التاريخية فيشتق منها ، ويجانس بينها ويحتلب معانيها .

(١) ورد هذان البيتان في ديوان ابن دراج ص ١٥٧ .

ومن ذلك قوله في لقائه لبعض ممدوحيه :

وأصبتُ في سبأ مورثَ ملكها يسبي الملوكةَ ولا يدبُ لها الضمَّاءُ
فكأنا تابعتُ تبعَ رافعاً أعلامه ملكاً يدين له الوري
والخارثَ الجفنيَّ ممنوع الحمي بالخيل والآساد مبدول القري
وحططتُ رحلي بين نادى حاتم أيام يقري موسراً أو معسرا
ولقيتُ زيد الخيل تحت عجاجة تكسو غلائلها الجهاد الضمراً^(١)

كذلك تمثل نضح ثقافة ابن دراج الأدبية في الإشارة أحياناً إلى أسماء أدباء ،

وأقوال دارت حولهم ، وصفات خلعت عليهم ، كقوله :

إنَّ امرأ القيس في بعض لمتهمم وفي يديه لواء الشعر إن ركبا
والشعر قد أسر الأعشى وقبده دهرأ ؛ وقد قيل والأعشى إذا شربا^(٢)

على أن أهم ما تمثل فيه النضح الثقافي لحصيلة ابن دراج الأدبية، هو تلك المعارضات

الشعرية العديدة التي خلفها ؛ فقد عارض قصائد لأبي نواس والمنتبي وصاعد البغدادي^(٣).

(١) وردت هذه الأبيات في ديوان ابن دراج ص ١٢٩ .

(٢) ورد هذان البيتان في ديوان ابن دراج ص ٣٦٦ .

(٣) عارض رائية أبي نواس التي مطلعها .

أجاة بيتنا أبوك غيور وميور ما يرمى لديك عير
برائته التي مطلعها :

دعي عزيمات المستضام تسير فتجنبد في عرض الفلا وتغور
وعارض رائية المنتبي في ابن العميد التي مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكالك إن لم يجر دممك أوجرى
برائته التي مطلعها :

بشارك من طول الترحل والسرى صبح بروح السفر لاح فأسفرا
وعارض هائية لصاعد البغدادي بهائته التي مطلعها :

أضاء لها فجر النهي فنهاها عن الدنف المضى بجر هواها
(انظر جفوة المقتبس ص ١٠٣ وديوان ابن دراج ص ١٠) .

وقد مضى شرح الدافع الذي كان يحدو بالأندلسيين إلى عمل معارضات لشعراء مشاركة كبار ، وهذا الدافع - وهو إجمالاً تأكيد الذات الأندلسية - كان وراء معارضات القسطلي ، مضافاً إليه هذا الزاد الثقافي والأدبي الضخم ، الذي يزيد الرغبة في هذه المعارضة ويمكن منها وينجح فيها .

أما نضج الثقافة اللغوية ، فقد تمثل في استخدام بعض أفكار نحوية ، مثل قوله في قيمة ما قد يستهان به وفي قوته كذلك :

فقد تُخفَض الأتماء وهي سواكن ويعمل في الفعل الصحيح ضمير^(١)

ولكن أهم ما يتمثل فيه نضج ثقافة ابن دراج اللغوية ، هو تمكنه من اللغة ومفرداتها تمكناً ساعده كثيراً على طول النفس في القصائد واستخدام العويص من القوافي ، وورطه أحياناً أيضاً في استعمال الغريب من الألفاظ .

منزلته :

هذا ، وقد كان القسطلي ذا منزلة شعرية عظيمة بين الأندلسيين ؛ فقد قال عنه مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان : « وأبو عمر القسطلي سباق حلبة الشعراء العامريين ، وخاتمة محسني أهل الأندلس أجمعين »^(٢) . وقال عنه ابن بسام صاحب الذخيرة : « وكان أبو عمر القسطلي وقته لسان الجزيرة شاعراً ، وأولا حين عد معاصريه من شعرائها المشهورة ، وآخر حاملي لوائها ، وبهجة أرضها وسماها ، وأسوة كتابها وشعرائها »^(٣) . وقال عنه ابن حزم القرطبي : « لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد » . وقال فيه كذلك : « لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج

(١) ورد هذا البيت في ديوان ابن دراج ص ٣٠٣ .

(٢) هذا الكلام منقول عن الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٤٤ .

(٣) انظر : المصدر السابق ص ٤٣ .

لما تأخر عن شأو حبيب والمنتبى»^(١) . وكذلك كانت لابن دراج شهرة كبيرة في الشرق ؛ فقد ذكره الثعالبي ونقل بعض شعره ، وقال عنه : « كان بصقع الأناطلس كالمنتبى بصقع الشام ، وهو من الشعراء الفحول . وكان يجيد ما ينظم ويقول »^(٢) .

ومن هذه الأقوال ، وما سبق أن ذكرنا عن شعر ابن دراج في موضوعاته وسمايات فنه ، وما تدل عليه النماذج التي عرضناها هنا وهناك ، يتضح أن المرحوم أحمد أمين لم يكن دقيق الحكم على ابن دراج ، حين أورد أبياتاً من قصيدته الرائية ، ثم عقب عليها بقوله : « فرى من هذا محاكاة للمنتبى في الوزن والقافية وتقليده في أسلوبه ومعانيه »^(٣) .

فالحق أن القسطلي لم يكن يحاكي أو يقلد ، وإنما كان كغيره من شعراء الأندلس يعارض الكبار من شعراء المشرق ، بدافع الرغبة في تأكيد الذات الأندلسية وإظهار سبق الشعراء الأندلسيين .

كذلك يتضح من كل ما سبق أن المرحوم الدكتور أحمد ضيف لم يكن صائب الحكم حين قال عن القسطلي : « لم يكن شاعراً فطرياً يقول الشعر عن شعور صحيح أو دافع نفسى ، وإنما هو مقلد بارع التقليد ، حتى في المعاني التي لم تشعر بها نفسه ، وفي وصف الأمكنة التي لم يرها إلا في كلام الشعراء ؛ فهو من الذين اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام ليمدح من يريد »^(٤) .

وأساس هذا الحكم البعيد عن الصواب ، عدم دراسة الدكتور أحمد ضيف لابن دراج دراسة كافية ، بسبب عدم ظهور ديوان الشاعر يوم كتب عنه . وأول الأخطاء

(١) هذا الكلام منقول عن جنة المقتبس للحميدى ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٢) انظر . يتيمة الدرر ج ٢ ص ١١٦ .

(٣) انظر . ظهر الإلام ج ٢ ص ١٣٤ .

(٤) انظر . بلاغة العرب في الأندلس ص ٩٧ .

في حكم الدكتور ضيف أنه وصف ابن دراج بأنه لم يكن شاعراً فطرياً . ومن يكون شاعراً فطرياً إذا لم يكن ابن دراج صاحب هذا الديوان الضخم ذى القصائد المطولات ، التي تتسم بالجيشان والتدفق والغزارة المنبثة عن الفطرية والموهبة ؟ . ونأني الأخطاء قول الدكتور ضيف : إن ابن دراج لم يكن يقول عن شعور صحيح أو دافع نفسى . فهذا القول إن صدق على بعض شعر الرجل في المدح ، فإنه لن يصدق على كله ، كهنا الذى قاله فيمن أحبههم ويجلهم واتصل بهم اتصالاً نفسياً من ممدوحه كالمصور . ثم إن كلام الأستاذ ضيف لا يصدق أصلاً على هذا الشعر الكثير الغزير الذى قاله الرجل في زوجته وأبنائه ووداعهم وفرقتهم وضياعهم وغربتهم ، ولا على الشعر الكثير الغزير الذى قاله ابن دراج في قلقه وحنينه وتأفقه وسوء حظه . وثالث أخطاء المرحوم ضيف قوله : إن ابن دراج مقلد بارع . فالذى كان من ابن دراج ليس تقليداً ، وإنما معارضة ، وقد عرضنا دوافع هذه المعارضة ، من ابن دراج ومن غيره من الأندلسيين . ورابع الأخطاء عند الأستاذ ضيف ، اتخاذ ذكر ابن دراج لأمكنة لم يرها دليلاً على الكذب والتقليد . فالحق أن إيراد ابن دراج لهذه الأمكنة ، كإيراد كل شعراء العربية وغير العربية لأماكن ذات دلالات خاصة وارتباط بذكريات معينة ، مما يثريه ذكر تلك الأماكن الموحية . وخامس الأخطاء في كلام الأستاذ ضيف قوله عن ابن دراج : إنه ممن اتخذوا الشعر صناعة لفظية ، وآلة من آلات الكلام لمدح من يريد . فالحق أن الرجل استخدم شعره فعلاً في التنكسب ، ولكنه كان في ذلك كأكابر الشعراء المشارقة والأندلسيين في تلك العهود ، التي لم يكن التنكسب بالشعر فيها مما يعاب ، والتي كان الشاعر فيها أشبه برجل الدعاية في عهودنا الحديثة . على أن الرجل لم يجعل شعره مدحاً كله كما رأينا ، وإنما عبر به عن تجارب نفسية قلما عبر عن مثلها شاعر في عصره .

والذى لا شك فيه بعد ذلك كله أن ابن دراج كان من شعراء الصف الأول بين الأندلسيين ؛ بل إنه من شعراء الصف الأول بين شعراء العربية الأقدمين . وعلم

الذين لم يحسنوا الحكم على شعره أن شعره كان ضائعاً معظمه ، وأن ديوانه كان محتجباً وقت كتابة هذه الأحكام التي لا تعطى الرجل حقه ومكانته

هذا ، ولم يكن ابن دراج شاعراً فقط ، وإنما كان ناثراً أيضاً ؛ وقد عمل في ديوان الإنشاء للمنصور بن أبي عامر . كما حفظت بعض كتب الأدب طرفاً من نثره^(١) .

ثانياً - النثر :

لم يؤثر عن فترة الحجابة نثر من النوع التأليفي ، الذي يضم إلى التعبير الجميل أفكاراً ومعارف ، والذي يجمع إلى إمتاع الوجدان تغذية الفكر ، والذي يحتاج عادة إلى نضج عقلي وازدهار ثقافي واستقرار نفسي . وإنما أثر عن تلك الفترة نثر من النوع الخالص ممثلاً في قطع وصفية وبعض الرسائل والوصايا .

ويبدو أن هذا النوع من النثر كان مزدهراً في فترة الحجابة ، حيث وجد ديوان كتاب ، يحررون الرسائل ، ويصدرون المنشورات ، ويصفون المعارك ، ويسجلون الغزوات^(٢) . كذلك كانت مظاهر الحياة المترفة والحضارة المتأنقة مما دعا بعض الأدباء لتسجيل مشاهداتهم نثراً ، ولم يعد الأمر مقصوراً على تسجيل تلك المشاهدات شعراً . ومن هنا برز النثر الوصفي ، الذي لا ينقصه إلا الوزن والقافية ليكون من نوع الشعر .

وأهم ما يلاحظ على أسلوب النثر في فترة الحجابة ، ظهور أثر طريقة ابن العميد ، تلك الطريقة التي تميل غالباً إلى الإطناب ، وتعتمد كثيراً على المحسنات وخاصة السجع والجناس والمقابلة والازدواج ، والتي تتجه أيضاً إلى تضمين النثر بعض الأمثال أو الإشارات

(١) انظر : جنوة المقتبس للحميدي ص ١٠٣ ، والمطرب لابن دحية ص ١٥٦ . والذخيرة لابن

بسام ق ١ م ١ ص ٤٣ وما بعدها .

(٢) انظر جنوة المقتبس للحميدي ص ١٠٢ ، ١٠٥ .

التاريخية أو التلميحات الثقافية بعامة ، ثم تُعنى كذلك بتدعيم النثر بالشعر ، الذى يتخلله أحياناً ويأتى في نهايته أحياناً أخرى .

وليس من شك في أن حياة الترف ومظاهر الفخامة في فترة الحجابة ، كانت من أسباب الاستجابة إلى هذه الطريقة في أسلوب النثر خلال تلك الفترة . وليس من شك أيضاً في أن آثار ابن العميد ومن تَمَدَّوا طريقته كالصاحب ابن عباد ، قد وصلت إلى الأندلس قبيل تلك الفترة ، فيما وصل من تراث المشرق خلال القرن الرابع ، وبخاصة في فترة الخلافة . ولكن أثر هذه الطريقة قد اتضح في فترة الحجابة بعد أن تمثل الأندلسيون تلك الطريقة .

على أن الأسلوب المعروف من قبل ، والمعتمد إلى حد كبير على الطريقة الجاحظية ، قد بقى في فترة الحجابة إلى جانب هذا الأسلوب الجديد ، وحفظت لنا بعض المراجع نماذج من كل من الأسلوبين .

وهذه بعض الأمثلة التي توضح ما قدمنا من أحكام :

يقول أبو مروان الجزيري^(١) ، في قطعة وصفية له على لسان بنفسج العامرية :
« إذا تدافعت الحصوم - أيد الله مولانا المنصور - في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ،
فإليه مفرزها ، وهو المقنع في فصل القضية بينها . لاستيلائه على المفاخر بأسرها ، وعلمه
بسرّها وجهرها . وقد ذهب البهار والرجس في وصف محاسنهما ، والفخر بمشابهتهما
كل مذهب . وما منهما إلا ذو فضيلة ، غير أن فضلى عليها أوضح من الشمس
التي تغلونا ، وأعذب من الغمام الذى يسقينا . فإن كانا قد تشبها ببعض ما في العالم
من جواهر الأرض ومصاييح السماء . وهى من الموات الصامت ، فإني أشبهه بأحسن
ما زين الله به الإنسان وهو الحيوان الناطق ، مع أنى أعطر منهما عطراً وأحمد

(١) اقرأ بعض أخباره في : الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ١ ص ٣١ وما بعدها .

خبيراً ، وأكرم إمتاعاً شأهداً وغائباً ، ويانعاً وذابلاً . وكلاهما لا يمتنع إلا ريثماً بينع ،
ثم إذا ذبل تستكره الأنوف شمه ، وتستهدف الأكف ضمه . وأنا أمتع رطباً ويبساً ،
وتدخرني الملوك في خزانتها وسائر الأطباء ، وأصرف في منافع سائر الأعضاء . فإن فخراً
باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساق ، فلا غرو ، إن الوشي ضعيف ، والهواء لطيف ،
والمسك خفيف ، وليس المجد يدرك بالصرع .

« وقد أودعت - أيد الله مولانا - قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه ،
وحضرت بنفسى . لثلا أغيب عن حضرتهما ، فقد بما فضل الحاضر وإن كان مفضولاً ،
ولهذا قالوا . ألد الطعام ما حضر لوقتته ، وأشعر الناس من أنت في شعره . فلمولانا
أتم الفضل ، في أن يفصل بحكمه العدل .

« شهدت لنوار البنفسج ألسن^(١) من لونه الأحوى ومن إيناعه
لمشابه الشعر الأنيث أعاره القمر المنير الطلق نور شعاعه
ولربما جمد النجيج من الطلى^(٢) في صارم المنصور يوم قراعه
فحكاه غير مخالف في لونه لا في روائحه وطيب طباعه
ملك جهلنا قبله سبل الهدى حتى وضحن بنهجه وشراعاه
في سيفه قصر^(٣) لطول نجاهه وتعام ساعده وفسحة باعه
ذو همة كالبرق في إسراره وصريمة^(٢) كالحيين في إيقاعه
تلقى الزمان له مطيعاً سامعاً وترى الملوك الشم من أتباعه^(٣) »

(١) الطل : الأعناق ، جمع طلية ، بضم فسكون ففتح ، أو جمع طلاء بضم ففتح .

(٢) الصريمة : العزيمة .

(٣) وردت هذه القطعة في الذخيرة لابن بسام ق ٤ م ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ .

ويقول ابن دراج القسطلي في إحدى رسائل سليمان بن الحكم (١) :
 « حاد به أن استشف الحسني قبل جمومه (٢) ، وأستكره الدر قبل حفوله ،
 أو أتعامى عن سراج المعذرة . وأرغب عن أدب الله في نظرة إلى ميسرة . ولكن :

ماذا تقول لأفراخ بذي مسرّخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر
 ما أوضح العذر لي لو أنهم عذروا وأجمل الصبر بي ، لو أنهم صبروا
 لكنهم صغروا عن أزمة كبرت فما اعتذارى عن عذره الصغر !»

« وقد قلبت لهم ظهر الأمور ، وميزت بين المعسور والميسور ، فما وجدت أحسن
 بدءاً ، ولا أحمد عوداً ، مما أذن الله فيه لعباده الذين أعمرهم أرضه ، وسخر لهم بره
 وبحره ، أن يمشوا في مناكبها ويأكلوا من رزقه . - حيث نتقلب في كرمك ، وأين نأمن
 في حرمك . وحيث لا توحشنا دعوتك : ولا تفوتنا نعمتك . من ملكك إلى ملكك
 ومن يمينك إلى شمالك (٣) » .

في هذين النموذجين السابقين يتضح أثر طريقة ابن العميد السائفة الذكر ؛
 ففيها تدعيم للنثر بالشعر ، وفيها ميل إلى البديع وخاصة السجع والجناس والمقابلة
 والازدواج ، ثم فيها انعكاسات ثقافية واضحة ، كما يراد بعض الأمثال في النموذج
 الأول ، وكالاتباس من القرآن الكريم والشعر القديم في النموذج الثاني .
 ويقول المنصور بن أبي عامر في وصيته لابنه عبد الملك (٤) :

(١) هو أبو أيوب سليمان المستعين بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . وكان قد بويع
 بالخلافة في منتصف ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ بعد وفاة له على محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي الذي قام
 بعد الدولة العارمية .

(٢) استشفه : أتى عليه ، من استشف الإناء : شرب كل ما فيه . والحسني : مجتمع الماء . والجموم :
 الوفرة والكثرة .

(٣) وردت هذه الرسالة في . الذخيرة ق ١ ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) هذه الوصية تمثل الاتجاه الجاحظي بخلاف القطميين السابقين فهما تمثلان الاتجاه الجديد المعتمد
 على الزخرفة والتطويل وتضمين الشعر .

« يا بني ، لست تجد أنصح لك مني ، فلا تُعدّنين مشورتى ، فقد جردت لك رأى مرويتى على حين اجتماع من ذهنى . فاجعلها مثالا بين يديك . قد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلقت جباية تزيد على ما ينوبك بلجيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك فى الإنفاق ، ولا تقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعا ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة . فاقصد فى أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك . والرعية استقصيت لك تقويمها . وأعظم مناها أن تأمن البادرة وتسكن إلى لين الخبئة^(١) . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ؛ فلا تم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه ؛ فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الخنث فى يمين البيعة إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة . فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فإنى أرجو أنى وإياك منه فى سعة ، ما تمسكنا بالكتاب والسنة^(٢) . . .

فإن انقادت لك الأمور بالخضرة ، فهذا وجه العمل وسبيل السيرة ؛ وإن اعتاصت^(٣) عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تنتظر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا ما لكم فى نفوس بنى أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من وثب عليك منهم فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف ، فانتبذ بمخاصتك وغلما نك على بعض الأطراف التى حصنتها لك . واختبر غذك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك فى يد مروانى

(١) البادرة : ما ييدر فى الغضب من قول أو فعل . والخبئة : الاعتزال والناحية ، والجانب المحتجب .

(٢) تركت هنا جزءا من الوصية قد لا يتعلق بالسياسة العامة قدر تعلقه بشئون أسرة المنصور . ويمكن الرجوع

إليه فى صفحة ٥٧ ، ٥٨ من الذخيرة ق ١٤ م ١ .

(٣) اعتاص الأمر : استدار والتاث .

ما طاوعتك بنائك ؛ فإني أعرف ذنبي إليهم»^(١)

ويقول ابن برد الأكبر^(٢) ، في رسالة عن المظفر بن أبي عامر إلى بعض الرؤساء :

« أما بعد - آتاك الله رشداً ، وأجزل من توفيقه قسطك - فإن الله تعالى خلق الخلق غنياً عنهم ، وأنسأهم بمهل غير مهمل ، بل ليحصى آثارهم ، وليبلوا أخبارهم . وجعلهم أحياناً^(٣) متباينين ، وأطواراً مختلفين ؛ فمنهم المختص بالطاعة ومنهم المبتلى بالمعصية ، وبين الفريقين أقوام خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم . ولو شاء الله لكان الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين ولذلك خلقهم . والسعيد من خاف ربه وعرف ذنبه ، وبادر بالتوبة قبل فواتها واستعطف الرحمة قبل منعها . وإن كنت تركت قصدك ، وخالفت رشداً ، ونكبت عن سبيل سلفك ، فلم يوحشك ممن شردت عليه مكروه نالك به ، ولم يؤنسك ممن جنحت إليه أمل لم تطمع فيه إلا لديه ؛ بل كنت آمننا المخاوف ، بعيداً عن المكاره ، قريب المكاتب ، رفيع الدرجة ، مصدراً في أهل النصيحة والثقة ؛ خلا أنه حدث بينك وبين الحاجب ما لم يزل يحدث بين القواد والعمال على قديم الزمان ، مما لم يبلغ أن يُخرج ذا الرأي الأصيل عن طبقته ، ولا يجاوز أن يزيد المحقق على المحل في خصوصته ، والله عليم أن أمير المؤمنين لم يبخصك في تلك الهبات خطأً ، ولا أولئك إعراضاً ، ولقد اعتنى بمصلحتك وعزم على إزاحة علتك حتى ينهياً من ذلك ما بقي بأملك لو أنظرته . واستقام فيه ما يزيد على طلبتك لو صبرت

(١) وردت هذه الوصية في الذخيرة ق ٤ م ١ ص ٥٦ - ٥٨ .

(٢) هو أبو حفص أحمد بن برد ، جد أحمد بن محمد برد الأصغر . وكان أبو حفص ذا حظ وافر من الأدب نثره وشعره . وكان قد قلده ديوان الإنشاء في الدولة العامرية بعد ابن الجزيري . وامتد أجله حتى كتب لبعض من حكموا بعد العامريين كسليمان المستعين . ومات سنة ٤١٨ هـ . (انظر في ترجمته وبعض آثاره الأدبية : جذوة المقتبس ترجمة رقم ١٠٧ ، والذخيرة ق ١ م ١ ص ٨٤ وما بعدها) .

(٣) الأحياء : المختلفون . وإخوة أحياء : أهمهم واحدة والآباء شتى .

عليه ؛ ولك في القدر المقدور فسحة ، وفي القضاء المحتوم مندوحة ، ولن تضيق بك السبل عند أمير المؤمنين ؛ وأنت بين طاعة سائفة ، واستقامة مروثة ، وبين إنابة منتظرة ، وتوبة مستقبلة ، فأحدي الخاليتين تحط الذنوب الكبيرة ، وتغطي على العيوب الكثيرة . فالآن - عصمك الله - واللبيب^(١) رضى ، والمركب وطى ؛ وبابك إلى رضا أمير المؤمنين مفتوح ، وسبيلك إلى حسن رأيه سهل ، ولا يذهب بك اللجاج إلى عار الدنيا ونار الآخرة . إياك ومصارع الناكثين . وحذار موارط الغادرين^(٢) .

وفي هذين النموذجين يبدو أثر للطريقة الجاحظية التي سبق الحديث عنها والتي كانت سائدة في الفترة السابقة تقريباً . وتتضح سمات هذه الطريقة خلال هذين النموذجين الأخيرين ، في الميل إلى الجمل القصار ، وال فقرات المتقابلة ، وعدم تعمد المحسنات ، باستثناء السجع الذي يأتي طبعاً بين الحين والحين ؛ ثم في الإلحاح على المعنى وتأديته بعدة أساليب فيما يوهم التكرار وليس تكراراً . وأخيراً في إجادة استخدام حروف الجر والظروف بعامة .

(١) اللبيب : ما استرق من الرمل ، وما يشد في صدر الدابة ليمنع استرخار الرجل .

(٢) وردت هذه الرسالة في الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٨٨ ، ٨٩ .

الفصل السادس

فترة الفتن

١ - السياسة بين الانقلابات والاضطرابات :

ليس لهذه الفترة طابع سياسى أصدق مما وصفت به من أنها فترة الفتنة المييرة . فقد عانت الأندلس منذ سقوط الدولة العامرية إلى قيام الحكم الجمهورى^(١) فتنة طاحنة ، كان من آثارها أن قتل كثير من الأندلسيين وتفككت وحدتهم وتصدعت قوتهم وأهدرت قيمهم . وذلك لأن الساطان ظل موضع نزاع بين الأمراء الأمويين أولاً ، ثم بينهم وبين الرؤساء البربر ثانياً^(٢) ، وقد دفع حب الغلبة بعض هؤلاء وهؤلاء إلى الاستعانة بالأمراء المسيحيين ، وكان الثمن هو تسليم بعض المدن والحصون الأندلسية ، وإباحة العاصمة قرطبة لجنود الإسبان الداخلين مع المتغلبين .

(١) تبدأ فترة الفتنة من سنة ٣٩٩ وتنتهى ٤٢٢ هـ (١٠٠٩ - إلى ١٠٣١) م .

(٢) طول الخلافة في هذه الفترة من الأمويين والبربر :

محمد المهدي	من ٣٩٩ إلى ٤٠٠ هـ (١٠٠٨-١٠٠٩)	م المرة الأولى
سليمان المستعين	٤٠٠ » ٤٠٠ »	المرة الأولى (١٠٠٩-١٠٠٩)
محمد المهدي	٤٠٠ » ٤٠٠ »	المرة الثانية (١٠١٠-١٠١٠)
هشام المؤيد	٤٠٠ » ٤٠٣ »	المرة الثانية (١٠١٣-١٠١٠)
سليمان المستعين	٤٠٣ » ٤٠٧ »	المرة الثانية (١٠١٦-١٠١٣)
الناصر على محمد حمود	٤٠٧ » ٤٠٨ »	(١٠١٦-١٠١٨)
عبد الرحمن المرتضى	٤٠٨ » ٤٠٩ »	(١٠١٨-١٠١٨) بشرق الأندلس
المأمون القاسم بن حمود	٤٠٨ » ٤١٢ »	المرة الأولى (١٠١٨-١٠٢٢)
المعتل يحيى بن حمود	٤١٢ » ٤١٣ »	المرة الأولى (١٠٢٢-١٠٢٣)
المأمون القاسم بن حمود	٤١٣ » ٤١٤ »	المرة الثانية (١٠٢٣-١٠٢٣)
عبد الرحمن المستظهر	٤١٤ » ٤١٤ »	(١٠٢٣-١٠٢٣)
محمد المستنق	٤١٤ » ٤١٦ »	(١٠٢٣-١٠٢٥)
المعتل يحيى بن حمود	٤١٦ » ٤١٧ »	المرة الثانية (١٠٢٥-١٠٢٧)
هشام المعتد	٤١٧ » ٤٢٢ »	(١٠٢٧-١٠٣١)

فقد ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار الأمير الأموي ، على عبد الرحمن بن أبي عامر وقوض الدولة العامرية وأنهى فترة الحجابة على ما هو معروف^(١) ولكنه اضطهد البربر لأنهم كانوا أعوان العامريين وجندهم ، وطارد الصقالبة لأنهم كذلك كانوا رجال العامريين وخدمهم ، وتشدد مع الأندلسيين وزرع السلاح من كثير منهم ، لأنه كان يخاف هياجهم . وأعلن كذلك وفاة الخليفة هشام ، بعد أن أحضر جثة تشبه جثته ، وأشهد على الوفاة بعض الفقهاء ورجال القصر ، وشيع جنازة الخليفة وهو حي لا يزال . إذ كان قد سجنه في مكان خفي .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، عُرف محمد بن هشام - رغم اتخاذ لقب المهدي - بالفسق والفجور والميل إلى المملذات ، كما اشتهر بالقسوة والعنف . وقد أثار كل ذلك العامة عليه ونفروهم منه ، فانتَهز الفرصة أمير أموي اسمه هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر - وكان المهدي قد سجن أباه - فثار بطائفة من الخانقين على المهدي . وتقدم إلى القصر وطلب من المهدي ترك الخلافة له . وفي أثناء ذلك عبث البربر بقرطبة ، وكان كثير منهم ضمن الثائرين ؛ فقام القرطبيون بمطاردة البربر لا دفاعاً عن المهدي وإنما دفاعاً عن أنفسهم . وقد استطاعوا أن يجلوهم عن قرطبة . وفي أثناء ذلك قتل الأمير الثائر على المهدي .

ولم تنته الفتنة عند هذا الحد ؛ فقام أمير أموي آخر ، هو سليمان بن الحكم بن سليمان ابن عبد الرحمن الناصر ، وانضم إلى البربر المتحفرين خارج قرطبة ، فبايعوه بالخلافة ، وتلقب بالمستعين . وقد أراد المستعين وأعوانه البربر أن يحتشدوا لدخول قرطبة ؛ فاتجهوا أولاً إلى مدينة سالم ، وطلبوا من حاكمها واضح أن ينضم إليهم فرفض ، فاتجهوا إلى أمير قشتالة^(٢) وطلبوا منه المساعدة ، وكان قد سبقهم إلى طلب المساعدة نفسها رسل من

(١) كانت حركة المهدي سنة ٣٩٩ هـ - ١٠٠٩ م وكانت خلافته - منذ أن قام إلى أن قتل - عشرة أشهر .

(٢) اسمه سانشو جارثيا Sancho Garcia .

قبل المهدي . ولما كان الأمير القشتالي يعرف ضعف المهدي ، فإنه آثر مساعدة رسل المستعين ، واشترط لذلك الاستيلاء على حصون ومدن مما في أيدي المسلمين . ولما أخذوا المؤن والمساعدات زحفوا على قرطبة ونازلوا المهدي وهزموه ، وأبيحت قرطبة للبربر والقشتاليين مدة (١) . وكان من نتائج هذه الحرب بين المهدي وجنده والمستعين وأعدائه ، قتل آلاف ، وغرق آلاف ، وتدمير الكثير من قصور قرطبة ، ونهب العديد من متاجرها ، وانتشار الرعب والأسى بين من بقي من سكانها . أما المهدي فقد فر إلى طليطلة ، وتبعه المستعين . وقبل أن تناله يده كان واضح حاكم مدينة سالم الموالي للمهدي ، قد استنجد أميرى قطلونيا المسيحيين (٢) ، فأجده على شروط سخية في صالح القطلونيين . ولما وصله المدد انضم إلى المهدي ، فاضطر المستعين إلى الانسحاب ثانياً إلى قرطبة . ولكن المهدي وواضحاً والقطلونيين تبعوه ، واستطاعوا هزيمته واضطاراه إلى الفرار خارج قرطبة ، وقعت العاصمة الأندلسية مرة ثانية (٣) فريسة لجيش منتصر يعاونه إسبان مسيحيون . وخرج القطلانيون من قرطبة بعد فترة مثقلين بالأسلاب .

وأخيراً رأى الجنود الأندلسيون التخلص من الأمويين المتنازعين ، فثاروا على المهدي وقتلوه (٤) ، وبايعوا من جديد هشاماً المؤيد الذي كان قد شيع المهدي منذ حين جنازته الكاذبة ، وعمل واضح وزيراً هشام في هذه المرة . وقد حاول سليمان استرداد السلطان فطلب العون من حليفه السابق أمير قشتالة ، فطلب هذا الخليف حصوناً من واضح ، وكأنه يهدده بمساعدة المستعين إن لم تسلم الحصون ، فاضطر واضح إلى التسليم .

(١) كان دخول المستعين على رأس البربر إلى قرطبة سنة ٤٠٠ هـ - ١٠٠٩ م .

(٢) هما : رامون الثالث أمير برشلونة Ramon III de Barcelona

وإرمينجول أمير أرخيل Ermengol de Urgel .

(٣) كانت هذه المرة بعد المرة الأولى بستة أشهر .

(٤) كان ذلك في آخر سنة ٤٠٠ هـ .

ومع هذا لم يسلم الأمر لهشام في تلك الخلافة الثانية . فقد كان البربر خارج قرطبة يعيشون وينهبون ، حتى لقد دمروا الزهراء وحولوها إلى خرائب^(١) . ثم حاصروا قرطبة . وكان القرطبيون قد ثاروا على واضح وزير هشام وقتلوه ، وجعلوا مكانه في الوزارة ابن أبي مضاء وظلوا يذافعون عن مدينتهم حيناً ، ثم اقتحمها عليهم البربر بقيادة سليمان المستعين ، فدمروا ونهبوا وقتلوا فيها الكثير^(٢) . واستدعى المستعين هشاماً وأنبه على قبوله الخلافة . ويقال إنه قتله سراً ، ويقال إنه سجنه ففر بعد حين من سجنه وعمل عاملاً عادياً في الأندلس ثم هاجر إلى المشرق . وبهذا الغموض انتهت قصة هشام . أما المستعين فظل حيناً يحكم ، ولكن الميدان لم يخل له بانتهاء هشام والمهدى من بني أمية ، فقد ظهر خطر جديد من غير الأمويين . ذلك أنه كان من قواد البربر الكبار الذين عاونوا المستعين أخوان ، أحدهما كوفى بولاية سبته وطنجة ، وهو على بن حمود ، والآخر كوفى بولاية الجزيرة الخضراء وهو القاسم بن حمود . وقد تآقت نفس على إلى تولى الحكم في الأندلس ؛ فهو بربرى ، والبربر هم ذوو القوة حينئذ ، وعلى رماحهم قامت دولة المستعين . فتحالف على بن حمود مع صقلبي من أعوان بني عامر كان يلي المربة ، وهو خيران العامرى . واتفق معه على الزحف إلى قرطبة . وانضم البربر إلى ابن حمود . ولما خرج المستعين للقائه قبضوا عليه وسلموه لعل يفتله . ثم دخل ابن حمود قرطبة ، ويوبع بالخلافة^(٣) ، وأخلص له خيران العامرى أول الأمر ، ثم ما لبث أن انقلب عليه ، وأخذ يدعو في شرق الأندلس لأمير أموى جديد هو عبد الرحمن بن عبد الملك الناصر الذى يوبع في شرق الأندلس ولقب بالمرتضى . وقد انتهى أمر على بن حمود بأن اغتيل على أيدى بعض خدمه من أعوان الأمويين^(٤) ، فخلفه أخوه القاسم بن حمود . وكان

(١) كان هذا التدمير المحزن سنة ٤٠١ هـ - ١٠١٠ م .

(٢) كان دخول سليمان والبربر هذه المرة سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م .

(٣) كان ذلك سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م .

(٤) كان ذلك سنة ٤٠٩ هـ - ١٠١٨ م .

حاكم سر قسطة قد دخل في دعوة المرتضى ، وزحف مع خيران العامري إلى غرناطة . ولكن هذا الزحف انتهى بالفشل ، لخلاف بين المتحالفين فهزم المرتضى وفر إلى إحدى القرى حيث قتل . وهكذا تخلص القاسم بن حمود من هذه الدعوة الأموية الجديدة . ولكن الأمر لم يستقر له ؛ فقد طمع ابن أخيه واسمه يحيى بن علي بن حمود ، في أن يكون الأمر له مكان أبيه ، فزحف إلى المغرب وانضم إليه كثير من البربر الناقمين على القاسم استخدامه للعبيد دونهم . ولما اقترب يحيى من قرطبة ، فرعه القاسم إلى إشبيلية ، ودخل يحيى العاصمة الأندلسية ، التي وقعت من جديد في أيدي جنود منتصرين^(١) . ولم يستقر يحيى طويلاً في قرطبة ؛ فقد انفض أعوانه واضطر إلى اللجوء إلى مالقة^(٢) . وعاد القاسم بن حمود من جديد إلى قرطبة . ولكنه لم يستقر أيضاً ؛ فقد ثار عليه القرطبيون وطرده ، فهرب إلى إشبيلية ، ولكنه وجدها هذه المرة مغلقة الأبواب في وجهه ، فاضطرب أمره ، حتى قبض عليه يحيى ابن أخيه ، فكانت نهايته على يديه .

وهنا اختار أهل قرطبة أميراً أموياً جديداً للخلافة ، فبويع عبد الرحمن بن هشام ابن عبد الجبار بن الناصر ، ولقب بالمستظهر^(٣) . ولكن الأمر لم يستقر لهذا الخليفة الجديد ؛ فقد شبت ثورة ضده بزعامة أموي آخر ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، ونجحت الثورة وقبض على المستظهر وقتل^(٤) . وبويع الأموي الجديد ، ولقب بالمستكني^(٥) . ولكن هذا الخليفة الجديد لم يحسن الحكم وأغضب رجال قرطبة وأهل الفكر والرأى فيها ، فلجأوا إلى يحيى بن خالد وقتلوه . وعلم المستكني بتجهت

(١) كان ذلك سنة ٤١٣ هـ - ١٠٢٣ م .

(٢) كان ذلك في السنة التالية .

(٣) كان ذلك سنة ٤١٤ هـ - ١٠٢٣ م .

(٤) كان ذلك بعد أسابيع من مبايعته بالخلافة .

(٥) هو أبو ولادة الأديبة صاحبة ابن زيدون .

يحيى بن حمود للاستيلاء على قرطبة ، ففر متخفياً في زى امرأة وخرج من قرطبة حيث دس له السم فمات . واختار القرطبيون يحيى بن حمود فكان الخليفة بها للمرة الثانية ، واكتفى أخيراً بإنبابة وزير عنه للحكم ، وترك جنود لإقرار الأمن ، واستقر هو بمالقة . وكان يحيى بعيد النظر في عدم بقائه بقرطبة هذه المرة ، إذ كانت الفتنة لا تترك لحاكم فرصة استقرار . ففي هذه المرة اتفق خيران العامري حاكم ألمرية ، ومجاهد العامري حاكم دانية ، على إخراج الحموديين وإعادة الحكم الأموي ، وكان القرطبيون قد ملوا حكم البربر ، فتآمروا مع زعيمى الصقالبة خيران ومجاهد على إنهاء الحكم الحمودى ، ثم طرد الحموديين من قرطبة بمعاونة الجند الصقالبة الموجودين فيها ، إذ فتحوا أبوابها للقوات التى أرسلها خيران ومجاهد ، وباغت الجميع البربر وطردهم إلى غير رجعة . ثم حاول مجلس كبراء المدينة إعادة الحكم الأموي ، فاختار الوزير أبو الحزم بن جهور الأمير هشام بن عبد الملك بن الناصر ، أخا عبد الرحمن الرابع الملقب بالمرتضى . وتمت البيعة لهشام الثالث ، ولقب بالمعتد بالله^(١) ، وكان بعيداً عن قرطبة حين بويغ ، ثم استطاع الوصول إليها بعد صعوبات من الخارجين على الحكومة المركزية .

ولم تستقر الأمور باختيار الخليفة الجديد ، فقد خيب الآمال بعكوفه على الملذات وتبلمده ، وتركه الأمور في يد وزيره الحكم بن سعيد . وقد أساء هذا الوزير إلى العلماء وإلى الشعب باستهانه بالأولين وفرضه الضرائب الباهظة على الآخرين . وأضيف إلى ذلك منافسة الزعيم القرطبي الكبير ابن جهور له ، فعزم على إسقاطه وخلع خليفته . وكان الجند قد ثاروا لتأخير رواتبهم ، وفي الثورة قتل الوزير الحكم بن سعيد ، ونهب القصر ، واعتصم هشام الثالث بأحد الأبراج ، واجتمع مجلس الكبراء في قرطبة بزعمارة ابن جهور يبحث تلك الأحداث . وأخيراً استقر رأى على إلغاء الخلافة نهائياً . ثم ركبوا وحطهم

(١) كان ذلك سنة ٤١٨ هـ - ١٠٢٧ م .

(٢) كان وصوله سنة ٤٢٠ هـ - ١٠٢٩ م .

حراسهم ومواليهم ، واتجهوا إلى القصر وناشدوا الناشرين بالكف عن أعمال العنف ،
فرضوا لهم . ثم نادوا هشاماً الثالث ووعده بالأمان إن تنازل عن الخلافة ، فتنازل
و . ن . ، وأعلن إنهاء الخلافة ، وآل الحكم إلى مجلس الكبراء الذي يرأسه ابن جهور ،
وانتهت فترة الفتنة^(١) سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) . وبدأ عصر جديد من عصور الأندلس
سيكون موضوع كتاب تال إن شاء الله .

٢ - المجتمع بين الضياع والمرارة :

من البديهي أن مجتمعاً يعيش في مثل تلك الظروف القاسية ، يكون مجتمعاً مضطرباً
قلقاً ، منهار القيم شاعراً بالضياع مفعماً بالمرارة . وهكذا كان المجتمع الأندلسي أيام
الفتنة المييرة ، وخاصة المجتمع القرطبي ، حيث كثر تتابع الحكام أمويين وبربر ،
وحيث تعدد انسحاب جيش منهزم ليدخل آخر منتصر ، وحيث شاع التدمير والسلب
وكل أعمال العنف التي شملت الزاهرة والزهراء وقرطبة جميعاً .

ومن البديهي كذلك أن تعطل أمثال تلك الأحداث القاسية كل نشاط صناعي ،
وتعرقل كل رخاء تجاري ، وتوقف كل نماء زراعي وأن تسبب المجاعات وتنتشر الأوبئة
وتشيع الكوارث^(٢) .

وطبيعي أن تنعكس ظلال فترة هذه الفتنة المييرة على نفوس الناس فتملأها بالاضطراب
والقلق ، وتنعمها بالمرارة والإحساس بالضياع ، وتدفعها إلى التماس الراحة والبحث عن

(١) انظر في هذه الفترة : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٥٠ وما بعدها .

وانظر : Levi Provençal, Historia, P, 457. ff.

(٢) انظر : الذخيرة لابن يسامق ١ م ١ ص ٣٠ ، ٣١ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ .

وانظر : البيان المغرب لابن عذاري ج ٢ ص ٦٢ - ٦٤ ، ١٠١ - ١١٥ .

وانظر أيضاً : طوق الحمامة لابن حزم ص ١١٦ ، فهو يتحدثنا عن أخ له مات بالطاعون الواقع في

قرطبة سنة ٤٠١ هـ .

المستقر . والناس مختلفون في التماس راحة قلوبهم والبحث عما يقر نفوسهم ؛ وذلك لاختلاف طبائعهم وظروف حياتهم . فمنهم من يجد راحته في إغراق همومه في الكأس ، وإفناء متاعبه في الملهذات ، ومنهم من يجد استقراره في الهروب من قلقه إلى الانطواء ، والفرار من نفسه إلى العزلة ، ومنهم من يرى الراحة والاستقرار في اللجوء إلى ذوى السلطان ؛ والعيش في كنف أصحاب النفوذ . على أن من الناس من لا تسمح له الظروف بشيء من ذلك ، بل تقضى عليه بأن يكتوى بالنار حتى يحترق . وهكذا كان المجتمع الأندلسي في فترة الفتنة ، وكان موقف أفرادها إزاء لهيبها المحرق . فقد لجأت طائفة إلى الملهذات وأقبلت على أنواع اللهو^(١) ، كما انطوت طائفة أخرى على نفسها واعتكفت أوهاجرت بعيداً عن مناطق الاضطراب^(٢) . هذا على حين سعت طائفة ثالثة إلى الحكام ترضاهم على اختلافهم ، وتحرق البخور لهم على تباينهم ، وتمشى في ركاب كل المنتصرين منهم^(٣) . كل هذا والغالبية العظمى من الأندلسيين - وخاصة القرطبيين - يعانون الفتنة كأشد ما تكون المعاناة ، ويكتون بها كأقصى ما يكون الاكتواء .

لهذا كله شاع في المجتمع الأندلسي على عهد الفتنة ؛ اللهو والنفاق والانطواء والحزن والشكوى ؛ وكلها كرد فعل للاضطراب والقلق وانهباء القيم والشعور بالمرارة والإحساس بالضياع .

٣ - الثقافة بين الجزر واللد :

كان من نتائج أحداث فترة الفتنة ، أن تعطل النشاط الثقافي وخاصة في قرطبة

(١) انظر بعض أخبار محمد بن هشام بن عبد الجبار كثال هذه الطائفة ، في البيان المغرب ج ٢ ص

(٢) انظر سيرة أبي محمد بن حزم كثال هذه الطائفة ، في الفقرة التالية الخاصة ببعض علماء ذلك العهد .

(٣) انظر مواقف بعض الشعراء الذين يمثلون هذه الطائفة كالقسطل وابن الحناط ، في الصحيرة ق ١ م ١ .

مسرح المأساة ؛ فقد أغلقت المدارس وانفضت حلقات الدرس^(١) وقتل بعض العلماء^(٢) ، وهاجر البعض إلى حيث يلتمس شيئاً من الأمن^(٣) . على أن ذلك لم يخدم أنفاس الثقافة الأندلسية في ذلك الحين ؛ فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار في فترة الخلافة ، أو انتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة ، فحفظوا للأندلس كثيراً من علمها وتراثها رغم ما كان من فتنه مبيدة^(٤) . كما كان هناك بعض الأساتذة ممن وفدوا على الأندلس من أقطار إسلامية أخرى . وكان لهم في الأندلس حينذاك جهاد علمي مشكور^(٥) . كذلك كان في بعض الأقاليم الأندلسية البعيدة عن مركز الفتنة حظ من النشاط العلمي . بقدر ما أتيج لتلك الأقاليم من الاستقرار والهدوء . وقد كان شرق الأندلس من تلك الأقاليم التي نعمت ببعض الأمن ، فعرفت بعض المدن هناك في تلك الآونة بحياة علمية على شيء من الخصوبة .

على أنه قد يأتي الخير من الشر ، كما يخرج الورد من الشوك ؛ فقد كان ممن خرجهم فترة الفتنة برغم ما بها من أحداث وأهوال ، عالمان جليلان لهما مكانهما في الصف الأول بين علماء الأندلس : ولهما كذلك منزلتهما بين الأدباء ، ولذلك ستفرد كلا منهما بجديث في هذا المقام . لغلبة الجانب العلمي عليهما . هذان العالمان هما : أبو محمد ابن حزم ، وأبو مروان بن حيان .

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣١ .

(٢) كابن الفرضي صاحب «تاريخ» علماء الأندلس ، الذي قتل ضمن من قتل أيام اقتحام البربر لقرطبة سنة ٥٤٠٣ .

(٣) مثل ابن حزم الذي ارتحل إلى شاطبة حيث ألف أعظم كتبه . (انظر سيرته في هذا الفصل) .

(٤) من هذه البقية الصالحة من علماء الأندلس : أبو عمر أحمد بن محمد بن الجسور ، وكان أحد شيوخ الحديث (انظر : بغية الملتبس للضبي ص ١٤٣) وأبو محمد عبد الله بن يوسف الرهوني ، وكان مؤدياً محدثاً مجوداً للقرآن (انظر : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٥٩٤) .

(٥) ألمع العلماء الوافدين على الأندلس في تلك الآونة : أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد ابن أبي يزيد المصري ، وكان أديباً نساباً حافظاً للحديث عالماً بالأخبار . (انظر الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٧٥٦) .

ابن حزم :

هو أبو محمد بن علي بن أحمد بن سعيد بن حزم^(١) ، ويلقب بالقرطبي نسبة إلى موطن ولادته ونشأته ، كما يلقب بالظاهري نسبة إلى المذهب الفقهي الذي اشتهر به . وأصول ابن حزم تحيط بها ظلمة كثيفة ؛ فيقال : إن إسرته تنحدر من أصل فارسي ، حيث ينسب نسبه إلى رجل من أهل فارس اسمه يزيد ؛ كان مولى ليزيد بن أبي سفيان ، ويقال : إن أسرة ابن حزم من أصل إسباني ، وأن جده الأدنى كان حديث عهد بالإسلام . ويبدو أن هذا القول هو الأقرب إلى الصواب ؛ لأننا لا نعرف للموالى نسباً محققاً ، ولأننا لا نجهل ما كان من انتحال كثير من الأنساب العربية ما أمكن ، فإن لم يمكن فلتكن أنساب موال للعرب ؛ كل ذلك ليرتفع قدر متحل النسب فيكون في طبقة الغالبيين الفاتحين . ومما يرجح هذا الرأي في أصل ابن حزم ، ميل ابن حيان المؤرخ الأندلسي إليه^(٢) . وقد كان ابن حيان معاصراً لابن حزم . فلعل جد ابن حزم أو أحد تلاميذه اصطنع هذا النسب الذي ينسب به إلى فارس ويرفعه إلى مرتبة الفاتحين ، لأننا نستكثر على ابن حزم الفقيه الدقيق أن يصطنع نسباً غير صحيح .

ومهما يكن من أمر فأسرة ابن حزم كانت تعيش أولاً في إقليم لبلة^(٣) Liebla وفي بلدة كانت تسمى « منت ليشم » وأصبحت تسمى اليوم « منتبخار أو « كاسا منتبخا

(١) اقرأ سيرته وبعض أخباره في : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٤٠ وما بعدها ، وفي جنوة المفتس للحميدى ترجمة رقم ٧٠٨ ، وفي بغية الملتبس للضبي ترجمة رقم ١٢٠٤ ، وفي الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٨٩١ ، وفي معجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٢٣٥ وما بعدها ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤٢٨ وما بعدها ، وفي طوق الحمامة لابن حزم ، وفي نصح الطيب للمقرئ ج ١ ص ٣٥٨ وما بعدها . وقرأ دراسات عنه في : ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجري ، وفي : ابن حزم الأندلسي للشيخ محمد أبي زهير ، وفي مقدمة الترجمة الإسبانية لطوق الحمامة الذي قام بها الأستاذ جاريثا جومث .

(٢) انظر رأى ابن حيان في : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٣) يقع هذا الإقليم في غرب الأندلس قرب المحيط الأطلسي وبينهما نجوستة إيمبال .

« Casa Montija » وكانت تلك الأسرة أسرة متواضعة تعيش على ما تغله الأرض من الرزق . ثم تطلعت عيونها إلى أضواء عاصمة الأندلس ، وتحركت بهذا القانون الاجتماعى الذى يجذب الناس إلى العواصم ، فقررت الانتقال إلى قرطبة . وكان ذلك فى زمن سعيد بن حزم^(١) ، جد علمنا أبى محمد . والأبناء التى لدينا عن حياة سعيد هذا بقرطبة قليلة وغامضة ، وعلى العكس من ذلك أبناء ابنه أحمد ، فهى أكثر وأوضح . وأحمد هذا هو والد علمنا أبى محمد بن حزم . فمن المعروف عن أحمد بن سعيد أنه كان أديباً بارزاً وعالماً صالحاً وإدارياً حازماً ؛ وكان إلى ذلك كله ذا مهارة عظيمة فى الاتصال بالأوساط السياسية وكسب ثقة الحكام . فسرعان ما تقدم إلى صفوف الإداريين ، واستمر فى تقدمه حتى كان وزيراً للمنصور بن أبى عامر . وهنا ارتفعت منزلته درجات ، وانتقل بيته من بلاط مغيث غربى قرطبة ، إلى مدينة الزاهرة شرق العاصمة ، حيث قصر الحاجب القابض على زمام الأمور . وكانت لباقة أحمد بن سعيد عظيمة للغاية ؛ فقد استطاع أن يكسب ثقة المنصور مع الاحتفاظ بالولاء الصادق للخليفة الأموى ؛ ومن هنا ظل محتفظاً بمكانته عند الحاجب والخليفة جميعاً ، وظل بيته حتى شبت الفتنة من البيوت الرفيعة بين بيوت الوزراء والمرموقين .

فى هذا البيت ولد على بن حزم سنة ٣٨٤ هـ (٩٩٤ م) ، ونشأ فى تلك الأسرة التى تعتبر إحدى الأسر الأرستقراطية الجديدة ، التى كانت تعيش فى ترف وحسن مظهر ، وتأخذ مكانها فى أعلى مستوى بين الأسر القرطبية . وقد قضى صاحبنا فترة صباه فى حريم قصر أبيه ؛ حيث عهد إلى النساء بتربيته

(١) هذا ما ذهب إليه الأستاذ « أسين بلاثويس » وتلميذه الأستاذ « جارتيا جوث » أما الأستاذ الحاجرى فيرجح أن الهجرة إلى قرطبة كانت فى أيام حزم ، الجد الأكبر لأبى محمد . (انظر ص ٢٩ من كتابه ابن حزم صورة أندلسية) .

ومحفيظه القرآن^(١) .

ولعل السبب في ذلك ما كان قد أصيب به على وهو صغير من مرض قلابي^(٢) ، أو لعل السبب هو فرط التدليل أو الترف ، أو لعله شيء غير هذا وذاك ، فهذا لا يعيننا كثيراً ، وإنما الذي يعيننا هو أن ابن حزم نشأ في هذه الفترة من حياته بين حريم القصور ، وكانت نشأته مترفة ناعمة ، وكانت إلى ذلك على كثير من المحافظة ورعاية الخلق القويم . وقد أكسبته تلك البيئة النسوية كثيراً من الخبرة بأحوال النساء وأسرار نفوسهن ، كما أتاحت له تجارب عاطفية فتحت قلبه الغض على الحب والعشق ، كذلك أمدته تلك البيئة بكثير من قصص الغرام ، وأطلعت على عديد من أحوال العشق ، ووجهته منذ حداثة إلى البحث في فلسفة الحب .

أما ترف البيئة ونعومتها وأرستقراطيتها ، فقد طبعت على رقة المزاج ونعومة المشاعر وإباء النفس . كما وجهته التربية المحافظة إلى الأخذ بالسلوك القويم والبعد عن كل ما يشين ، برغم ما كان في صدر حياته من مخالطة لصنوف من النساء في بيت أبيه وفي غيره من البيوت .

وبعد الخامسة عشرة تقريباً تبدأ مرحلة جديدة من مراحل حياة ابن حزم ، وهي مرحلة الخروج إلى الحياة والتحصيل والدرس والتعلم خارج البيت . وقد كان بدء هذه المرحلة حوالي سنة ٣٩٩ هـ^(٣) ، حيث خرج أبو محمد إلى مجالس العلماء ، فتردد على ابن الجسور^(٤) . وجلس إلى الرهوني^(٥) ، وانضم إلى حلقات أبي القاسم المصري^(٦) ،

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) انظر المصدر السابق ص ١٦ .

(٣) انظر : جذوة المقتبس للحميدى ترجمة رقم ٧٠٨ ، والصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٨٩١ ، وبنية الملتس للضبي رقم ١٢٠٤ ، وفتح الطيب المقرئ ج ١ ص ٣٥٩ .

(٤) انظر ترجمته في : بنية الملتس رقم ١٤٣ .

(٥) انظر ترجمته في : الصلة رقم ٥٩٤ .

(٦) انظر ترجمته في : الصلة رقم ٧٥٩ .

وأخذ عن هؤلاء وغيرهم ، واتجه حينئذ نحو العلوم الدينية بنوع خاص . وظل يواصل التحصيل في قرطبة برغم ما بها من أحداث أوائل الفتنة ، حتى اضطرت أعمال العنف ومطاردة أنصار الأمويين إلى الهجرة . فترك قرطبة سنة ٤٠٤ هـ^(١) واختار مدينة ألمرية^(٢) ، وهناك واصل درسه وتحصيله الذي بدأه في قرطبة . ويبدو أنه في المرية عنى بالدراسات الفلسفية والإسرائيلية ، حيث كان في هذه المدينة جماعة من المشتغلين بالفلسفة وخاصة من أتباع ابن مسرة^(٣) ، كما كان بها أيضاً بعض الإسرائيليين الذين اضطراب ابن حزم إلى دراسة دياناتهم ، لينجح في مناظراتهم^(٤) .

ولكن الظروف لم تترك ابن حزم يفرغ للعلم الذي أخذ نفسه بتحصيله كأحسن ما يكون التحصيل ، بل دفعته إلى بعض النشاط السياسي الذي ربما كان يجرف المفكرين في تلك الآونة عن رضا حيناً ، وعن سخط حيناً آخر . فقد قبض على ابن حزم في ألمرية ، لما اشتهر به من الولاء للأمويين ، وسجن بها حيناً ثم نفي ، فتوجه إلى حصن القصر^(٥) . ولما علم أن أموياً يدعى له في بلنسية ، وهو عبد الرحمن الرابع الذي لقب بالمرتضى ، انتقل إلى بلنسية ليكون في نصرة الأمير الأموي الجديد . ومعروف أن حركة هذا الأموي قد فشلت ، وأن أنصاره كانوا بين قتييل وفار ومعتقل . وقد كان الاعتقال نصيب صاحبنا ابن حزم ، حيث اعتقله صاحب غرناطة وسجنه حيناً ، ثم أطلقه . وقد توجه ابن حزم بهد ذلك إلى قرطبة سنة ٤٠٩ هـ^(٦) ، بعد قيام القاسم ابن حمود على الخلافة بها ، وسلوكه أول الأمر مسلك المهادنة والترضية . واستأنف

(١) انظر : طوق الحمامة ١١٠ .

(٢) إحدى المدن الواقعة على البحر الأبيض في الركن الجنوبي الشرق من الأندلس .

(٣) انظر : الفصل ج ٤ ص ١٩٩ .

(٤) انظر : طوق الحمامة ص ١٧ . وكتاب الفصل ج ١ ص ١٠٢ .

(٥) انظر : طوق الحمامة ص ١١٧ .

(٦) انظر : طوق الحمامة ص ١١ .

ابن حزم في قرطبة حياته العلمية والأدبية حيناً ، ثم دفعته الظروف إلى السياسة من جديد .
 فقد بويج في قرطبة لأموى جديد ، هو عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ،
 وكان هذا الأموى محباً للمفكرين والأدباء ؛ فاستوزر بعضهم ، وجعل ابن حزم
 في مقدمتهم . ولكن المستظهر سقط بعد قليل ، وقام مقامه المستكني ، فسجن
 ابن حزم حيناً ؛ ولم يطلقه إلا سقوط المستكني وتقويض خلافته . وخرج ابن حزم
 من السجن ، على عجز عن عمل أي شئ لنصرة بنى أمية ، وعلى مرارة مما لاقى من
 السياسة ، وربما كان على عزيمة أيضاً للانصراف إلى العلم ، فهاجر بعد قليل إلى
 شاطبه Jativa في شرق الأندلس . وكان قد نضج علمياً وفنياً . وهناك ألف أعظم
 كتبه الأدبية « طوق الحمامة » ^(١) ثم ألف أعظم كتبه العلمية « الفِصَل في الأهواء
 والنَّحَل » ^(٢) .

ثم سقطت الخلافة الأموية نهائياً بالأندلس ، وساد عصر الطوائف ، فلم يعد
 هناك من تيارات السياسة ما يجرف ابن حزم من جديد ، بعد انتهاء دولة الأمويين
 الذين كان صاحبنا يكن لهم كل الولاء . وصارت حياة ابن حزم خالصة للعلم ،
 وتنقلا مستمراً بين أقاليم الأندلس المختلفة . وذلك لإشاعة علمه ، ونشر
 المذهب الظاهري ، التي تحول إليه وآمن به وقضى بقية حياته منافعاً عنه ؛ فقد كان
 أول أمره مالِكياً كأكثر فقهاء الأندلس ، ثم مال إلى المذهب الشافعي حيناً ، ثم تحول
 إلى الظاهرية في قوة وإلى النهاية . ولعل هذا التحول كان بسبب نفرته مما تورط فيه الفقهاء
 من التأويل الكثير والتحوير الشديد والاستنباط المتضارب ، كما كان بسبب كراهيته

(١) انظر : طوق الحمامة ص ١ . وكان تأليف هذا الكتاب بين سنتي ٤١٧ و ٤١٨ كما يستفاد
 من إشارات في الكتاب نفسه (انظر : ابن حزم صورة أندلسية للدكتور طه الحاجري ص ١٥٣ - ١٥٤) .
 (٢) وضع هذا الكتاب في أيام آخر الأمويين في الأندلس هشام الثالث الملقب بالمتد . وقد نص على
 ذلك . وبذلك يبين أن يكون قد ألفه ما بين ٤١٨ - ٤٢٢ هـ (وانظر : ابن حزم للدكتور الحاجري
 ص ١٥ - ١٦) .

لما كان عليه كثير من الفقهاء من نفاق ومجازاة للحكام وإخضاع للنصوص حسب هوى المتسلطين ؛ فدفعه ذلك دفعاً إلى التمسك بالظاهر والاحتكام إليه ؛ لأنه شيء لا يمكن التلاعب به ولا المساومة عليه . فكان ظاهرة ابن حزم قد كانت رد فعل لظروف عصره وأحوال مجتمعه وما عاناه في فترة الفتنة من محنة خلقية وعقلية (١) .

ومهما يكن من أمر فقد أبحر ابن حزم خلال تنقلاته إلى جزيرة ميورقة ، وكان عليها أحمد بن رشيق ، نائباً عن مجاهد العامري الذي كان يحكم جزر البليار ، ويؤثر البقاء في دانية ، وإنابة ابن رشيق عنه في ميورقة . وفي تلك الجزيرة نشر ابن حزم مذهبه وأحدث بضجة علمية هائلة . فكثرت تلاميذه ومؤيديه ومعارضوه . ثم وفد على الجزيرة أبو الوليد الباجي ، وكان أحدث سناً من ابن حزم ، كما كان قريب عهد بالقدوم من المشرق ، وكان إلى ذلك ركناً من أركان المالكية في الأندلس (٢) ؛ فناظر ابن حزم ، ويبدو أنه كتلت كثيراً من الفقهاء ضده . ونفر حاكم الجزيرة منه . وهنا اضطر أبو محمد إلى ترك ميورقة والتنقل في أقاليم أخرى من الأندلس . وأخيراً توجه إلى إشبيلية حيث المعتضد بن عباد . ولكن مقامه في إشبيلية لم يطل ، وأغلب الظن أن اعتزاز ابن حزم أو إيمانه بنفسه لم يتح له أن يصبر كثيراً على العيش في كنف المعتضد ، وأغلب الظن أيضاً أن منافسة الفقهاء له وتكلمهم ضده ؛ كانت من أسباب التعجيل برحيله عن مملكة المعتضد . ولم يجد ابن حزم مستقراً أهدأ من موطن أسرته الأول في إقليم لبلة ، حيث قضى بقية حياته في التعليم والتأليف بعيداً عن المكائد التي عمجرت عن ملاحظته فلاحقت كتبه ؛ إذ أخرجها في إشبيلية علناً المعتمد بن عباد ، الذي كان قد ولى إشبيلية بعد موت أبيه ، والذي وقع تحت تأثير الفقهاء الحانقين على

(١) انظر في تمليل تحول ابن حزم إلى الظاهرية ؛ ابن حزم - صورة أندلسية للدكتور الحاجري ص

١٢٢ وما بعدها .

(٢) انظر في ترجمته ؛ نفح الطيب ج ١ ص ٣٥٣ وما بعدها .

ابن حزم ، فارتكب هذه الفعلة المنافية لحرية الرأي واحترام كرامة العقل . ولكن تلك الحادثة لم تضعف من عزيمته ابن حزم ، بل قابلها بقوله :

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذى تضمينه القرطاس بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلت ركائبي وينزل إن أنزل ويدفن فى قبرى
دعوتى مسن لإحراق رقى وكاغد وقولوا بعلم كى يرى الناس من يدرى
وإلا فعودوا فى المكاتب بدأة فكم دون ما تبغون لله من ستر (١)

وظل ابن حزم يواصل رسالته العلمية الكبيرة حتى وافته منيته سنة ٥٤٥٦ هـ بعد أن عاش أكثر من سبعين عاماً ، قضى معظمها فى النشاط العلمى والأدبى .

فقد وضع ابن حزم كثيراً من المؤلفات فى فنون مختلفة ، ولو بقيت كلها لكان لها وحدها أكبر مكان فى المكتبة الأندلسية ؛ ولكن أيدى الزمن عدت على بعض مؤلفات ابن حزم ، واستطاع البعض الآخر أن يفلت من تلك اليد العادية ، وهذا البعض الباقى من أخصب وأدسم ما خلف الأندلسيون من تراث (٢)

فى الفقه والأصول ، ألف ابن حزم عدة كتب أهمها كتاب « الإبطال » الذى بسط فيه أبو محمد دقائق المذهب الظاهرى . وله أيضاً كتاب « المحلى » الذى يناقش فيه أصول المذهب الشافعى . ثم لهُ كذلك كتاب « الحصال » الذى ضاع ، والذى يغلب على الظن أنه كان شرحاً لأصول المذهب المالكى ، ثم كتاب « الإيصال » الذى أوجز فيه ابن حزم ما بسطه فى كتاب « الحصال » .

وفى تاريخ الأديان خلف صاحبنا كتابه المشهور « الفصل فى الملل والأهواء

(١) وردت هذه الأبيات فى الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٤٤ ، وفى معجم الأديباء لياقوت ج ١٢ ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢) روى أبو رافع عن الفضل بن على بن حزم أنه اجتمع عنده بخط أبيه من تأليفه نحو أربعائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . انظر الترجمة رقم ٨٩١ فى الصلة لابن بشكوال .

والنحل» . وهو كتاب حافل بما فيه من تاريخ - نقدي للأديان والفرق والمذاهب على اختلافها ^(١) ، وقد قال المستشرق الإسباني «أسين بلاثيوس» Asin Palacios «إننا لا نجد بين أدينا وثيقة أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب «الفصل» لابن حزم ؛ فهو يمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذي لم يتوقف أبداً خلال العصور الوسطى ، فيما يتصل بتاريخ الأديان والمذاهب ؛ ففي ثنايا صفحات هذا الكتاب يتجلى لنا ذلك النسيج الذهبي ، الذي تتألف منه الفلسفة الخالدة ، ذلك النسيج الذي صنعته أوفر عبقريات الإغريق حكمةً بأيديها الصبور في مهارة فائقة . وعلى ضوء صفحاته نرى كيف يزداد النسيج سعة وامتداداً ، وكيف تدخل في تكوينه على مر العصور أنسجة جديدة ؛ وربما وجدنا أن هذه الأنسجة لا تضاهي نسيج الإغريق روعة وبريقاً ، ولكنها لا تقل عنه متانة وقدرة على البقاء وزاها تجرد وتزداد إحكاماً ، بفضل ما أدخله عليها التفكير النصراني الشرقي ، وما أضافه إليها المسلمون من مادة أوفر . وقد كان المسلمون آخر من انتهت إليهم أطراف هذه العناصر كلها ، ولهذا قد تجمعت بين أيديهم ثمرات هذا التطور الفكري الغني ونتائجه ، ومن ثم لم يكن من العسير عليهم أن يسبقوا مفكري النصارى من أهل الغرب في تحليلها ووضع منهجها وأساسها اللذين سيقوم عليهما التفكير المنهجي ، «الإسكو لاستي» ، في القرن الثالث عشر» ^(٢) .

وفي الفلسفة ألف ابن حزم كتباً في مراتب العلوم والمنطق ، وفي نقد أبي بكر الرازي . وقد ضاعت كلها . ولكن بقي لنا مما يستحق الذكر كتابه المسمى «الأخلاق والسير في مداواة النفوس» وهو أشبه بسجل يوميات ، دون فيه ابن حزم ملاحظات منتزعة من تجاربه وخبراته في الناس والحياة ، وهذه الملاحظات قد صاغها ابن حزم

(١) نشر كتاب الفصل في القاهرة سنة ١٣٢١ هـ . وترجمة المستشرق الإسباني أسين بلاثيوس

إلى الإسبانية ، ونشره في سنتي ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ م .

(٢) انظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٢٨ .

في تركيز ودقة ، فجاءت كأنها مبادئ عامة أو حكم بالغة .

وقد قال المستشرق الإسباني « أسين بلاثيوس » Asin Palaios عن أسلوب ابن حزم في هذا الكتاب : « وهذا الأسلوب الوعظي الحكمي الذي اتبعه ابن حزم ، يجعل كتابه هذا شبيهاً بحكم « ديمقراط » و « سنيكا » ، ولا يخلو الكتاب مع ذلك من الفقرات الطوال ، كهذه القطعة الجميلة التي يذم فيها الغرور ، أو تلك التي يصارحنا فيها برذائل ونقائص أخلاقية يراها في نفسه ، ويقرها في تواضع يذكرنا باعترافات القديس « أوغسطين » . وفي مواضع أخرى من الكتاب يصف ابن حزم أخلاق البشر في أسلوب يفيض حيوية ويتجرد عن الميل والهوى . وإن الإنسان ليشعر وهو يقرأ كلام ابن حزم في هذا المقام كأنه يطالع كتب الأخلاق التي كتبها « ثيوفراست » أو « لا برويير » أو يقرأ « مقالات في الأخلاق والسياسة لبيكون »^(١) .

وفي التاريخ خلف ابن حزم عدة رسائل وكتب . ومن ذلك : كتاب « جمهرة أنساب العرب »^(٢) و « نقط العروس »^(٣) .

ولابن حزم أيضاً رسالته المشهورة في « بيان فضل الأندلس وذكر علمائه »^(٤) وهي رسالة كتبها رداً على ما ورد في خطاب بعث به ابن الربيع التميمي القيرواني ، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم^(٥) . وكان هذا العالم القيرواني قد ذكر « تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم » ، فابن حزم

(١) انظر : Palencia Literatura, P. 159.

وانظر : تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢١٧ .

(٢) نشره المستشرق الفرنسي برفنسال في القاهرة سنة ١٩٤٨ .

(٣) نشره الدكتور شوق ضيف في القاهرة سنة ١٩٥١ م .

(٤) وردت هذه الرسالة في نفع الطيب للمقرئ ج ٢ ص ١٢٥ .

(٥) هو ابن عم أبي محمد بن حزم (اقرأ ترجمته في الفخيرة لابن بسام في ١ م ١ ص ١١١

وما بعدها) .

محمد بن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم . فالرسالة تعتبر ثباتاً لما ألف الأندلسيون في مختلف العلوم ، ولئن نبغ منهم في شتى الفنون حتى أيام ابن حزم .

ولأبي محمد كذلك في التاريخ « الإمامة والخلافة » و « فهرست » ما كان له من شيوخ . ويبدو أنهما من كتبه الضائعة .

هذا ، ولم يكن ابن حزم عالماً مبرزاً فقط ، وإنما كان أديباً شاعراً وناثراً أيضاً . وقد مضت مؤلفات ابن حزم في الميدان العلمي . أما مؤلفاته الأدبية فأهمها جميعاً ، كتابه « طوق الحمامة » ، وسوف نفرده له كلمة حين نتحدث عن الأدب في هذه الفترة التي نسوق عنها الحديث .

ابن حيان :

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان^(١) . يتصل نسبه بجده كان مولد لعبد الرحمن بن معاوية مؤسس الدولة الأموية في الأندلس . وكان أبوه من كتاب المنصور ابن أبي عامر ، ومن المعروفين بالعلم والأدب في فترة الحجابة .

وقد ولد حيان بقرطبة سنة ٣٧٧ هـ ، ونشأ في بيت علم وأدب ، ودرس على أبيه خلف بن حسين ، وعلى غيره من علماء العصر ، فأخذ النحو عن أبي عمر بن

(١) انظر ترجمته وبعض أخباره وآثاره في : الصلة لابن بشكوال رقم ٣٤٥ . وفي : جنوة المتيسر للصبي رقم ٣٩٧ . وفي : بغية المتيسر للصبي رقم ٦٨٩ . وفي : الذخيرة لابن يسلم في ١ م ٢ ص ٨٤ وما بعدها . وفي : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١١٧ . وفي : الواقي بالوفيات الصفي ج ٤ م ١ ص ١٦١ .

والنظر : Palencia : Literatura, P. 151 ff.

وقاربع الفكر الأندلسي ص ٢٠٨ وما بعدها .

أبي الحباب^(١)، وتلقى الأدب عن أبي العلاء صاعد البغدادي^(٢) وسمع الحديث من أبي جعفر عمر بن نابل^(٣). وما زال يتلقى العلم على هؤلاء وغيرهم، حتى نضجت ثقافته. ويبدو أنه كان يؤثر الأدب والتاريخ على غيرهما من فروع الثقافة.

وقد تقلد ابن حيان بعض المناصب الإدارية والفنية، فكان صاحب الشرطة، أو صاحب المدينة في قرطبة حيناً، كما عمل في ديوان الإنشاء لبعض رؤسائها حيناً آخر. ولكن نشاطه الأكبر كان منصرفاً إلى كتابة التاريخ.

وقد ألف ابن حيان عدداً من الكتب التاريخية، ضاع أكثرها وبقي أقلها. ومن الكتب التي صحت نسبتها إليه كتاب: «المآثر العامرية» وكتاب «تاريخ فقهاء قرطبة»، وكتاب «المقتبس» وكتاب «المتين». ولم يبق من هذه الكتب جميعاً إلا أجزاء من «المقتبس»، و فقرات من «المتين».

و «المقتبس» قد كان يقع في عشرة أجزاء، ويتناول تاريخ الأندلس من أيام فتحها إلى زمن المؤلف. وكل الذي بقي بين أيدي الباحثين من هذا الكتاب ثلاثة أجزاء: جزء عن فترة الأمير عبد الرحمن الأوسط^(٤)، وجزء ثان عن فترة الأمير عبد الله بن محمد^(٥)، ثم جزء ثالث عن فترة الحكم المستنصر^(٦).

أما «المتين» فقد كان يقع في ستين مجلداً، ولنا سمي «بالتاريخ الكبير»، وكل

(١) انظر ترجمته في الصلة لابن بشكوال رقم ٣٥.

(٢) انظر ترجمته وبعض أخباره في الفقرة الخاصة «بالثقافة في فترة الحجابة» من هذا الكتاب.

(٣) انظر ترجمته في: الصلة رقم ٨٤٩.

(٤) كان هذا الجزء عند المشرق الفرنسي الأستاذ ليقي بريفنسال، وكان يمهده للنشر قبل وفاته.

(٥) نشر هذا الجزء سنة ١٩٢٨ المشرق الإسباني القس (ملثفور أنطونيا) الذي تكل أيام

الحرب الأهلية في إسبانيا.

(٦) هذا الجزء عند المشرق الإسباني الأستاذ جارثيا جوث، وهو يمهده للنشر.

ما حفظ من هذا التاريخ الكبير فقرات رواها بعض المؤرخين الذين أتوا بعد ابن حيان وأفادوا من كتبه ، كابن بسام وابن الخطيب والمقرئ .

والذي يمكن استنباطه مما بقي من تراث ابن حيان ، أنه كان مؤرخاً واسع المعرفة دقيق الرواية نافذ البصيرة ، كما كان يميل إلى التحليل والتعليل والنقد فيما يعرض من أخبار ؛ فقد كان له رأيه غالباً في الأحداث والأشخاص ، وكان هذا الرأي على كثير من الانفعال والحدة ، بل على كثير من القسوة في كثير من الأحيان . وإذا ذكرنا الظروف القاسية التي عاش فيها ابن حيان أيام الفتنة عرفنا سبب انفعاله وحدته وقسوته .

ومن أهم ما يلاحظ على كتابة ابن حيان التاريخية ، أسلوبه الأدبي الممتاز الذي يعرض فيه التاريخ ، وهو أسلوب لا يصطنع المحسنات ولا يفتعل القعقعة الكاذبة ، كما لا يعتمد على السرد والقص دون رعاية للإطار ، وإنما يعرض التاريخ في قالب أدبي أخاذ . فيه قوة نسج وإشراق عبارة وشدة تأثير . وليس من شك في أن نشأة ابن حيان الأدبية قد سبته في هذا الاتجاه .

ولعل من أصدق ما قيل في طريقة ابن حيان وأسلوبه ، قول المؤرخ الهولندي « دوزي » Dazy : « إنه يسوق التاريخ مساق من يبدى رأيه وحكمه فيما يعرض من القضايا ، ويبحث عن أسباب الأشياء ويناقشها عن علم وفهم وذكاء ، كما سيفعل من بعده مؤرخون نقادون كابن سعيد وابن خلدون . ويمتاز ابن حيان إلى ذلك بأسلوب صاف ناصح . لا يهبط إلى الركاكة التي تثير السخط ، ولا يقع كذلك في التصنع والإسراف في قعاقع الألفاظ . وهو يرغم التزامه هذه السهولة ، لا يهمل جانب الجمال في أسلوبه ، ويبعث في كلامه دائماً حماساً وغنى وطابعاً غالباً من الجدد . . . ونخرج من هذا كله بأننا لا نجد بين مؤرخي العرب إلا القليلين الذين نستطيع أن نقارنهم به ،

ولن نجد بينهم من تقدمهم عليه» (١) .

هذا وقد أدرك ابن حيان جزءاً من عصر ملوك الطوائف ، وكانوا يعرفون قدره ويقدرون مكانته. ولأدل على ذلك مما رواه ابن سعيد في هذه القصة حيث قال عنه :
« وحلف عبد الملك بن جهور أن يسفك دمه ، فأحضره أبوه أبو الوليد ، وقال : والله
لئن طرأ على ابن حيان أمر لا آخذن أحداً فيه سواك ، أتريد أن يضرب بنا المثل في سائر
البلدان ، بأننا قتلنا شيخ الأدب والمؤرخين ببلدان تحت كنفنا ، مع أن ملوك البلاد
القاصية تداريه وتهاديه ؟! » (٢) .

ولم يكن تأليف التاريخ كل نشاط ابن حيان الفنى ؛ فقد أثرت عنه رسائل وفصول
تشهد بعلو كعبه في النثر الخالص (٣) . كذلك روى أن له شعراً ، ولكن هذا الشعر لا يشبه
نثره في القوة بل لا يدانيه في المنزلة (٤) . ومن هنا لم يعد ابن حيان من الشعراء ، وإنما
عد من كبار المؤرخين والنثرين . وقد ختمت حياته سنة ٤٦٩ هـ .

٤ - الأدب بين الهروب والمراجعة :

تأثر الأدب بأحداث الفتنة تأثراً واضحاً ، وكان التأثير شراً على بعض الأنواع الأدبية
وخيراً على بعضها الآخر . ومن مظاهر الشر انتشار أدب التلهي والتفاني والتفاهة ، أو أدب
الهروب بتعبير أشمل . ومن مظاهر الخير ظهور أدب التأمل والتذكر والتقد ، أو أدب

(١) انظر Palencia Literatura. P. 158 ff

وانظر تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة حسين مؤنس للمصدر السابق) ص ٢١١ .

(٢) انظر : المغرب لابن سعيد ج ١ ص ١١٧ .

(٣) اقرأ كثيراً من هذه الرسائل والفصول في : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ٢ ص ٧ وما بعدها .

(٤) انظر : المغرب ج ١ ص ١١٧ .

المراجعة بتعبير أعم . وقد كان الشعر مجال النوع الأول ، كما كان النثر مجال النوع الثاني . ومن هنا خطا النثر خطوات واسعة حتى سبق الشعر ، إذ ظهرت أنواع جادة جديدة ، أتاح لها انطواء بعض الأدباء وعكوفهم جواً ملائماً فيه تأمل وفيه مراجعة ، مما يساعد على التخيل والقص والتحليل والنقد ، وهي السمات التي حفلت بها أهم الأعمال النثرية في تلك الفترة .

وهذه كلمة عن كل من نوعي الأدب في فترة الفتنة ، توضح هذا الإجمال :

أولاً - الشعر :

لم يقف الشعر الأندلسي عند النقطة التي وصل إليها من قبل فحسب ، بل تخلف بعض التخلف ، فقل نتاجه ، وضائق أغراضه ، واختلطت اتجاهاته . ولولا قلة من الشعراء المهويين الذين تغلبت طبيعتهم الفنية على ظروف الفتنة القاسية ، لما وجدنا لهذه الفترة شعراً ذا قيمة كبيرة ؛ لأن أحداث الفتنة حصرت الشعر في دائرة ضيقة ، وصرفت الشعراء عن الفن الجاد . فهو حيناً حديث عن اللهو والشراب يدفع إليه الهروب وإغراق الهم ، كقول عبادة بن ماء السماء (١) :

فهل ترى أحسن من أكؤس يقبل الثغر عليها اليدا
يقول للساق اغتبق لي بها ونخذ بلحينا وأعد عسجدا
أغسرقَ فيها الهم لكن طفا حبابها من فوقها مزيدا
كأنما شيبها شارب أمسكها في كفه سرمداً (٢)

وهو حيناً آخر مدح كاذب وثناء متملق ، يحمل عليه طلب الأمن والاحتماء في

(١) انظر ترجمته وبعض شعره في : الذخيرة ق ٢ م ١ ص ١ وما بعدها .

(٢) وردت هذه الأبيات في الذخيرة ق ٢ م ١ ص ٥ .

ظل الحاكم ، ومن ذلك قول ابن الخطّاط الكفيف (١) في القاسم بن حمود :
 لك الخير «خيران» (٢) قضى لسبيله وأصبح ملك الله في ابن رسوله
 وفرق جمع الكفر واجتمع الوري على ابن حبيب الله بعد خليله
 وقام لواء الجمع فوق ممنّح من النصر جبريل أمام رعياله
 وأشرفت الدنيا بنور خليفة به لاح بدر الحق بعد أفوله (٣)

وقوله بعد ذلك في يحيى بن حمود ، ابن أخي الأول والثائر عليه :

أمتٌ أمير المؤمنين مواحلا فسق صداهها غيشه الشؤبوبُ
 المعتلى بالله والملك الذي تاج الفمخار برأسه معصوب
 إن كان عدوا حب آل محمد ذنباً فأني لست منه أتوب (٤)

وهو مرة بكاء تسببه المآسى الكثيرة والمحن العديدة ، كقول بعضهم في بكاء قرطبة :

ابك على قرطبة الزين فقد دهتها نظرة العين
 أنظرها الدهر بأسلافه (٥) ثم تقاضى جملة الدين
 كانت على الغاية من حسنها وعيشها المستعذب اللين (٦)
 فانعكس الأمر فما إن ترى بها سروراً بين اثنين
 فاغد وودعها وسر سالماً إن كنت أزمعت على البين (٧)

(١) اقرأ ما كتبه عنه ابن بسام في النخيرة ق ١ م ١ ص ٣٨٣ وما بعدها .

(٢) هو خيران العامري الذي كان أميراً على إقليم ألمرية ، وكان قد انقلب على الحمويين وناصر أقدامهم ولكنه لم يصب نجاحاً .

(٣) وردت هذه الأبيات في النخيرة ق ١ م ١ ص ٣٩٦ .

(٤) وردت هذه الأبيات في النخيرة ق ١ م ١ ص ٣٩٣ .

(٥) الأسلاف : جمع سلف ، وهو الفرض .

(٦) اللين يسكون الياء ، كاللين يكسرهما مع التشديد : الناعم .

(٧) وردت هذه الأبيات في : البيان المغرب لابن عذارى ج ٣ ص ١١٠ .

وهو مرة أخرى وصف لأشياء تافهة ، يدفع إليه التلهي والتعابث ، كقول أبي عامر ابن شهيد في برغوث :

ومنفسر للنوم مسكنه إذا	نام المملك بين أنشاء الثياب
يسرى إلى الأجساد يهتك عدوه	عن كل جسم صبيغ بالنعنى حجاب
ويعض أرداف الحسان وما له	كف ولكن فوه من أعدى الحراب
متحكّم في كل جسم ناعم	متدلل ما بين الحاظ الكعاب
فإذا هممت بزجره ولى ولا	يشنيه عما قد تعوده طلاب
وترى مواضع عضّة مخضوبة	بدم القلوب وما تعاوره خضاب
قرّم ^(١) من الليل البهيم مكور	بمشى البراز وما تواريه ثياب
عظمت رزيتته ولكن قدره	أخزى وأهون من ذباب في تراب ^(٢)

على أنه قد يكون غزلاً شاذاً بدافع المجون ، أو عندياً بعامل الانطواء ، أو فروسياً متهاكاً بسبب كثرة الفرسان والمحاربين في تلك الأحيان . ومن هذا الأخير قول الخليفة الأموي سليمان المستعين :

عجباً يهاب الليثُ حد سناني	وأهاب لحظ فواتير الأجفان
فأقارع الأهموال لا متهيّبا	منها سوى الإعراض والهجران
وتملكُ نفسى ثلاث كالدى	زُهر الوجوه نواعم الأبدان
ككواكب الظلماء لحن لناظرى	من فوق أغصان على كعبان
هذى الهلال . وتلك بنت المشتري	حسناً وهذى أخت غصن البان
حاكمتُ فيهن السلو إلى الصبا	فقضى بسلطان على سلطان

(١) القرم : البعير المكرم الذي لا يحمل عليه ولا يذل .

(٢) وردت هذه الأبيات في الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٨٥ ، ١٨٦ .

فأبجن من قلبي الحمى وتركني في عز ملكي كالأسير العاني
لا تعدلوا ملكاً تذلل في الهوى ذل^١ الهوى عز وملك ثان
ماضر أنى عبدهن صباية وبنو الزمان وهن من عبداني
إن لم أطع فيهن سلطان الهوى كلفنا بهن فلست من مروان^(١)

ومن أهم ما يلاحظ على الشعر في تلك الفترة بالإضافة إلى ما تقدم ، كثرة مزجه بالثر ؛ فكثير من شعر هذه الفترة لم يقل على شكل قصائد مستقلة ، وإنما قيل كأجزاء من رقع أو رسائل أو فصول نحرر في غرض ما ، ثم تشتمل على قطعة أو أكثر من الشعر ، تزين بها الرقعة ، وتجمل الرسالة ، وينوع الحديث في الفصل . وما ساعد على ذلك أن كثيراً من الأدباء كانوا يجمعون بين صفتي الناثر والشاعر ، فكانوا يجمعون كثيراً من نتائجهم جامعاً لصفتيهم ، ومشملاً على فنيهم^(٢) .

الشعراء :

وقد كان شعراء تلك الفترة أقل بطبيعة الحال من شعراء الفترات السابقات ؛ كذلك كان بعضهم ممن سبق به العمر في فترة الحجابة ، أو امتد به الأجل فأدرك عصر الطوائف . وألح شعراء تلك الفتنة هم : أبو عامر بن شهيد ، وأبو محمد ابن حزم ، وأبو مروان الطنبلي ، وأبو عبد الله بن الحناط . وسوف نكتفي بالحديث عن أشعر هؤلاء جميعاً وهو :

أبو عامر بن شهيد :

اسمه أحمد ، وأبو عامر كنيته^(٣) ، واسم أبيه عبد الملك بن شهيد ، وأبو مروان

(١) وردت هذه الأبيات في الذخيرة ق ١ م ٤ ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر نماذج كثيرة في هذا المصدر السابق .

(٣) انظر ترجمته وأخباره وأشعاره في : جنوة المقتبس للحميدري ترجمة رقم ٢٣٢ ، وفي : =

كنيته ، وهذا الأب هو ثاني اثنين من هذه الأسرة سموا بـ « عبد الملك » ؛ والأول هو
الجد الأعلى ، الذي كان وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط . وكذلك صاحبنا
أبو عامر ، قد حمل نفس الاسم الذي حمله الجد الأدنى ، وهو أحمد بن عبد الملك
ابن شهيد ، الذي كان وزيراً للخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر . ومن هنا حصل
لبس بين الصغير والكبير ، والحفيد والجد من يني شهيد ، عند بعض الباحثين^(١) .
وأبو عامر سليل أسرة عرفت بالوزارة والرياسة كما رأينا . وقد كان أبوه عاملاً للمنصور
ابن أبي عامر بشرق الأندلس في إقليم بلنسية ، وكان ذا مكانة كبيرة عند الحاجب ، تدل
عليها قصة عودته إلى قرطبة بثروة عظيمة ، وعرضه إياها على المنصور ، وإقرار المنصور
له على ثروته مع منحه بعض المنح زيادة في تكريمه^(٢) .

وقد ولد أحمد بن شهيد في بيت أبيه بقرطبة سنة ٣٨٢ هـ أيام المنصور بن أبي
عامر . ونشأ في أحضان النعمة ، وترى على مهاد الجاه ؛ فقد كان البيت الذي ينتمي
إليه بيت سراء وثراء ونفوذ وسلطان . وكانت صلة هذا البيت ببيت الحاجب - ولي الأمر
الفعلي - قوية الوشائج ، بحيث سمحت للصغير أحمد أن يلهو بين يدي المنصور ،
وأن يُحمل على أكتاف ابنه عبد الرحمن ، وأن يجلس على سرير زوجة الحاجب ،
وينال الكثير من التلليل والعطف والهدايا^(٣) . وهكذا لعب أبو عامر بالمال منذ صغره ،
فنشأ وكفاه لا تقدران على القبض ، وإنما تألفان البسط والعطاء والتبديد .

= بغية المتلس للصبى ترجمة رقم ٤٤٠ ، وفي : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٦١ وما بعدها ، وفي
مطبخ الأنفس للفتح بن خاقان ص ١٦ ، وفي : المطرب لابن دحية ص ١٥٨ وفي : المغرب لابن سويد ج ١
ص ٨٧ وما بعدها ، وفتح الطيب للمقرئ ج ١ ص ١٩١ - ١٩٢ ، وفي يتيمة الدهر للتعاليبي ج ٢ ص ٣٠
وما بعدها ، وفي : معجم الأدباء لياقوت ج ٣ ص ٢٢٠ . وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٩٥ .

(١) نسبه كاملاً هو : أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن مروان بن أحمد بن عبد الملك
ابن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد . أشجى النسب من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس
الفهري يوم مرج راهط (انظر المطرب ووفيات الأعيان) .

(٢) انظر هذه القصة في الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٣) انظر أخبار ذلك في : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وكان للتدليل الكثير والترف البالغ والنعمة الموفورة أثر كبير في نشأة أبي عامر ، فهو لم يؤخذ يجدد إلى التعليم ، ولم يحمل في صرامة على الدرس ، ومن هنا لم يقبل كثيراً على ما كان يقبل عليه معاصروه من حديث وتفسير وفقه ونحو ، وغير ذلك من العلوم الدينية واللغوية ، وإنما أقبل على ما يلائم ترفه وانطلاقه ، ويناسب طبعه ومواهبه ؛ أقبل على الأدب ، يتزود من قديمه وحديثه ، ومن شعره ونثره ، وبطيل النظر فيما خلف الجاهليون والإسلاميون والمشاركة والمغاربة من شعر ونثر ، وحفظ من ذلك كله الكثير ، واختزن من المعاني والأفكار والصور والأساليب ما حرك ملكته ، وأنتطق لسانه ، وأجرى قلمه منذ حداثة .

فبدأ يقول الشعر في مرحلة باكورة ، ويراسل به المتقلمين عليه سنأ وقتاً^(١) ، وذلك لمنزلة والده بمكانة أسرته . وسرعان ما اشتهر أمره كأديب ، لا يقتصر على قول الشعر وإنما يزاول كتابة النثر ويتعرض لبعض قضايا النقد أيضاً .

ولم تكن الحاجة تدفع ابن شهيد إلى عمل يكسب منه قوته ، فقل توليه المناصب^(٢) . وكثر تفرغه للبهو والمجون، وقرض الشعر وتدبيج النثر . ولم تستطع الفتنة الضاربة على الأندلس وعلى قرطبة بوج خاص ، أن تعقل لسانه أو تحطم قلمه ، وإن استطاعت أن توجهه وجهة تناسبها بتناسب استعداد ابن شهيد أيضاً ؛ فكان أدبه مقسماً بين خمريات وهو ومجون ، ومجاملة وترض للحاكمين ، وهجاء ونجريح للمعادين ، ثم بين مراجعة وتأمل ، وتحميل وقص ، تحليل ونقد^(٣) .

(١) انظر : راسلته الجزيري في : الذخيرة ق ١٠١ ص ١٨٤ .

(٢) ذكر في نفس رسالته أنه عقد له على الشرطة وهو صغير في أيام المظفر ، ولعلها كانت وظيفة

شرفية ، لأنه كان ابن ابن كذا ذكر (انظر : الذخيرة ق ١٠١ ص ١٦٤) .

(٣) تمثل الأفاضل الأرواء في شعره . وتبدو الأغراض الأخرى في نثره ، وخاصة « رسالة

التوايح والزوايح » .

وكان ابن شهيد يخلص الإخلاص كله للعامريين ، وقد تمثل هذا الإخلاص في مراسلاته الطويلة وأمداحه السخية للمؤمن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور ، الذي كان يقيم بشرق الأندلس (١) .

كما تمثل في صحبته وصدافته لأبي عامر بن المظفر بن المنصور ، الذي كان يقيم بقرطبة ، حتى اضطر إلى الخروج منها أيام هشام المعتد (٢) .

كذلك كان ابن شهيد على ولاء للأمويين ، غير أنه لم يكن ذا حظ موفور مع من تولوا الأمر منهم في فترة الفتنة . كذلك كان سيئ الحظ أيضاً مع الحموديين ، حتى لنراه يسجن مدة في أيامهم ويعانى كثيراً من الضيق . ولم تقم صلة قوية بين ابن شهيد وحكام هذه الفترة برغم محاولاته ذلك فيما يبدو ؛ ولا يستثنى من هذا كله إلا إثنان من الحكام هما : عبد الرحمن الخامس الملقب بالمستظهر ، ويحيى بن حمود الملقب بالمعتلى (٣) . فقد استوزره الأول ضمن من استوزر من الأدباء والمفكرين ، غير أن خلافته لم تدم إلا أسابيع ثم قوضت ، وقوضت معها آمال ابن شهيد . أما يحيى بن حمود فقد قرب الشاعر وشجعه على الاطمئنان إليه ، بل جذبه إلى الهجرة من قرطبة إلى مالقة (٤) ، مقر هذا الحمودى بعد نفض يده من قرطبة ومتاعبها . ولكن إقامة ابن شهيد في مالقة لم تطل ؛ لأن حبه لقرطبة كان فوق كل شيء ؛ فهي مكان لوه ، ووكر ملذاته ، ومركز مساجلاته ومناظراته . وأوضح دليل على قصر إقامة ابن شهيد بعيداً عن قرطبة ، أن كل ما أثر عنه من أدب صادر عنها ومحرر فيها .

(١) اقرأ بعض تلك الرسائل في : الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٦٣ وما بعدها .

(٢) اقرأ بعض أخبار ابن شهيد منه في : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) ذكر ابن سعيد في المغرب أن هشاماً الملقب بالمعتد قد اصطفى ابن شهيد ، وأن ابن شهيد

بكاه لما خلع ، وذكر بيتين لابن شهيد في هشام (ص ٨٥ = ١ مغرب) .

(٤) انظر : الذخيرة ق ١ ص ٢٧٥ .

ولم يكن ابن شهيد يعاني من كراهية أكثر الحكام فحسب ، وإنما كان يعاني من كراهية كثير من رجال العلم والأدب ، وخاصة من عرفوا منهم بالمحافظة . ولعل من أهم أسباب كراهية هؤلاء لابن شهيد ، تحرره البالغ ، وانطلاقه الزائد ، ومجونه المعربد ، ولسانه اللاذع ، وجرأته الجارحة .

على أن ابن شهيد إن فقد عطف طائفة فقد كسب حب أخرى ، فقد كان له نخبة من الخالصاء ربما يرجعون الأعداء علماً وأدباً ومنزلة هـ وفي مقدمة هؤلاء : أبو محمد ابن حزم وابن عمه أبو المغيرة بن حزم .

وقد ظل ابن شهيد في قرطبة بعد رحلته القصيرة إلى مالقة ، متفرغاً للحياة الفنية الخالصة ، بما يخاطبها من تحرر وانطلاق حتى مرض بالفالج ، وظل يعاني منه حيناً ، ثم ختمت حياته سنة ٤٢٦ هـ ففجع الناس بموته ، حتى قيل : « ولم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء والعيويل . وأشد على قبره من المرثي جملة موفورة لطوائف كثيرة^(١) » .

شعره :

أما شعر ابن شهيد فلم يؤثر عنه مجموعاً في ديوان يضم شتاته ، وإنما خلفه قصائد ومقطوعات وأبياتاً مفرقة ، في رسالة « التوايح والزوايح » ، وفيما نقل أصحاب كتب الأدب والتراجم ممن تناولوه بالحديث ، كابن بسام وابن خاقان والثعالبي .

والذي يدل عليه ما أثر عن ابن شهيد من شعر ، أن الرجل كان أصيل الملكة غزير النتائج مرن الشاعرية ؛ فهو قد قال الشعر في أكثر الأغراض وخاصة الطبيعة والخمر والغزل ، وهو لم يلزم اتجاهها معيناً ، وإنما سار في كل الاتجاهات حسب الأغراض

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٨٨ .

والملايسات والمواقف ، وإن كان أميل إلى الاتجاهين المحدث والمحافظة الجديد . وليس معنى ذلك أنه كان حائل اللون عديم السمات ؛ فقد كان شعرا بن شهيد ذا ملامح مميزة وقسمات دالة ، أهمها : القدرة الفائقة على التصوير وربط الطبيعة بالنفس الإنسانية ، وتناول القديم بطريقة جديدة ، تلامم العصر والبيئة ومظاهر الحضارة ؛ ثم الأخذ بأسلوب القص والحوار ، والإكثار من الدعابة والفكاهة ، وإجراء الشعر على السنة بعض الحيوانات . كل ذلك مع إثارة لسهولة اللفظ ووضوح المعنى وبساطة التركيب واتضح الموسيقى .

فمن شواهد قدرته الفائقة على التصوير ، قوله في سهولة لفظ وبساطة معنى وخفة

روح :

سَهِّيرَ الحِيا بِرِياضِها	فأسأها والنَّورِ نائمٌ
حَتَّى غَدَت زَهْرانِها	كالغَيْدِ باللَّججِ العوامِ
مِن ثِيباتِ لَم تَبَلِّ	كشَفَ الحُدودِ ولا المَعاصِمِ
وصَفارِ أبكارِ شَكَّتْ	خَجِلا فَعادَتِ بالكِمامِ
ورَدٌ كما خَجِلتِ خَدو	دِ العَيْنِ مِن لِحْظاتِ هائمِ
وشَقِيقِ نَعمانِ شَكَّتْ	صَفحانِها مِن لَطَمِ لاطِمِ
وِغصونِ أشجارِ حَكَّتْ	رَقصِ المِآتمِ للمِآتمِ ^(١)
بِكرِ الحِسانِ يردنِها	مِن كَلِ واضِحَةِ المِلاغمِ ^(٢)
وَضحَكُن عَجِبا فَالتَقَّتْ	فِها المِباسِمِ بالمِباسِمِ
ضَحَكٌ وأومضَ بارِقِ	فَظَلَّتِ للبرقِينِ شامِ
وتَشَرَّفَتْ فَتَطانَمَتْ	أَجِادِ أَطِيبِها الحوامِ

(١) المِآتمِ : جمع مِآتمِ ، وهو مجتمع النساء لفرح أو حزن .

(٢) المِلاغمِ : ما حول الغم .

ورتت فبادر فرجس يشكو عماه إلى حمام
 طاردتهن بفتية حُرْد (١) على حرب المسالم
 وكانني فيهم لقيط قاد من أحياء دارم (٢)
 وتكاوست (٣) فيها الأبا رقى وهي فاهقة الحلاقم
 وكانها أظب رغب من فترن دامية الخياشم
 وجرى بها فلك الصبا باللهو والقضب السوام
 وكاننا فيها العفا رت ، والكؤوس من الرواجم
 وعلا بنا سكر أبي إلا الإناة للمحارم
 نرى قلانسنا له ونجر من عذب العمام
 وترنمت فيها القيا ن لنا ورجعت البواغم
 قمنا نصفق بالأكف لها ونرقص بالجماجم (٤)

ومن شواهد براعته الفنية في الربط بين الطبيعة والنفس الإنسانية ، قوله من قطعة
 رائعة التصوير أيضاً ، حيث يبدأ بوصف الطبيعة فيقول :

تردد فيها البرق حتى حسبته يشير إلى نجم الربا بالأنامل
 ريباً نسجت أيدى الغمام للبسها غلائل صفراً فوق بيض غلائل
 سهرتُ بها أرمى النجوم وأنجماً طوالع للراعين غير أوافل
 وقد فغرت فاهما بها كل زهرة إلى كل ضرع للغمامة حافل

(١) حرد : سراع .

(٢) لقيط هو لقيط بن زراة القيسى ، بطل يوم شنب جيلة . ودارم : أبو حى من تميم .

(٣) تكاوست : تكاوتت .

(٤) هذه الأبيات من قصيدة طويلة تضمنتها رسالة لابن شهيد بعث بها إلى المؤمن العامري وهي واردة

في : النخبة ق ١ ص ١٦٧ وما بعدها .

ومرت جيوش المزن رهوا كأنها
 وحلقت الخضراء في غر شهبها
 تخال بها زهر الكواكب نرجساً
 وتلمح من جوزائها في غروبها
 وتحسب صقراً واقعاً دبرانها
 وبدر الدجى فيها غديراً وحوله
 عساكر زنج مذهبات المناصل
 كلجة بحر. كلت باليعالل^(١)
 على شط واد للمجرة سائل
 تساقط عرش واهن الدعم مائل
 بعش الثريا فوق حمر الحواصل
 نجوم كطلعات الحمام التواهل

ثم ينتقل إلى الحديث عن نفسه وهمومها ، رابطاً بين ذلك وبين بعض مشاهد الطبيعة

فيقول :

كان الدجى همى ودعى نجومه
 هوت أنجم العلياء إلا أفلها
 وأصبحت في خلق إذا ما لمحتهم
 وما طاب في هذى البرية آخر
 أرى حُمرّاً فوق الصواهل جمه
 ورُبّت كُتّاب إذا قيل : زوروا
 وحامل فقه لم ير الله قلبه
 وحامل رمح راح فوق مضائه
 حُبوا بالمنى دونى وغودرت دونهم
 تحدر إشفاقاً لدهر الأراذل
 وغبن بما يحظى به كل عاقل
 تبينت أن الجهل إحدى الفضائل
 إذا هو لم ينجد بطيب الأوائل
 فأبكى بعينى ذل تلك الصواهل
 بكت من تأنيهم صدور الرسائل
 يظن بأن الدين حفظ المسائل
 به كاعباً في الحى ذات مغازل
 أرود الأمانى في رياض الأباطل^(٢)

ومن أمثلة تناوله القديم بطريقة جديدة ، قوله من أبيات فيها قصص وحوار ، وفيها صورة منتزعة من الطبيعة الأندلسية ذات الشتاء القارس البرد ، الذى يكسو الهضاب

(١) اليعالل : جمع يعلول بفتح الياء ، وهو الحباب ونفخات الماء .

(٢) وردت هذه الأبيات ضمن رسالة التوايح والزوابع . وهي في الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

بالثلوج ، وفيها بعد ذلك صور مؤلفة من البيئة الأندلسية المتحضرة المترفة :

ولما رأيت الليل عسكر قُـرُوهُ
وعمم صلُـع الهُـضْب من قَطر ثلجه
رفعت لسارى الليل نارين فارتأى
فأقبل مقرر الحشا لم تكن له
فقلت : إلى ذات الدخان ؟ فقال لى :
فلت به أجزره نحو جمرة
إذا ما حسا ألقته كل فلذة
فما زال فى أكل وشرب مدارك
فألحفته فامتد فوق مهاده
وما انفك معشوق الثواء نمدة
تغنيه أطيار القيان إذا انتشى
ويسمو دخان المندل الرطب فوقه
إلى أن تشهى اليبين من ذات نفسه
فأتبعته ما سد خلة حاله

وهبَّت له رِيحانٍ تلتطمانِ
يدان من الصنْبَر تبتدانِ
شعاعين تحت النجم يلتقيانِ
بدفع صروف النائبات يدانِ
وهل عُرُفت نار بغير دخان ؟
لها بارق للضيف غير يمانِ
لفرخة طير أو لسخلة (١) ضانِ
إلى أن تشهى الترك شهوة وانِ
وخداه بالصهباء تتقدانِ
ببشر وتزحيب وبسط لسانِ
بصنِج وكيثار وعود كيران (٢)
كما احتملت ريح متون عشان (٣)
وحن إلى الأهلين حنة حانِ
وأتبعنى ذكراً بكل مكان (٤)

فهذه الأبيات تحكى قصة طارق بالليل هدته نار القري ، وهو موضوع عرف منذ العصر الجاهلى ، لكن ابن شهيد يتناوله بطريقة جديدة ، تنقله من شبه جزيرة العرب إلى شبه جزيرة الأندلس ، ومن مسرح البادية إلى جو الحضارة .

(١) السخلة : ولد الشاة .

(٢) الكران : العود أو الصنِج .

(٣) العشان : الدخان .

(٤) وردت هذه الأبيات فى : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٦٦ - ٢٦٨ .

ومن أمثلة إجرائه الشعر على ألسنة بعض الحيوانات ، قوله من رسالة « التوابع والزوابع في شعر فكاها على لسان بغل يتغزل :

على كل صب من هواه دليلُ سقام على حر الجوى ونحول
وما زال هذا الحب داء مبرحاً إذا ما اعترى بغلا فليس يزول
بنفسى التي أما ملاحظ طرفها فسحر وأما خدها فأسـيل
تعبتُ بما حُمِلت من ثقل حبها وإني لبغـل للثقال حمول
وما نلت منها نائلاً غير أني إذا هي بالـت بـلت حيث تبول^(١)
وقوله أيضاً على لسان حمام في نفس الموضوع الذي طرقه البغل :

دُهَيْتُ بهذا الحب منذ هويتُ^(٢) ورائت إرادتي فلست أريث^(٣)
كلفت بلأني منذ عشرين حجة يجول هواها في الحشا ويعيث
ومالي من برح الصباة مخلص ولا لي من فيض السقام مغيث
وغيرُ منها قلبها لي نيمة نماها أحـمُ الخصيتين خبيث
وما نلت منها نائلاً غير أني إذا هي راثت رثت حيث ثروث^(٤)

هذا ولم يكن الشعر كل نشاط ابن شهيد الأدبي ؛ فقد كان كما ذكرنا نائراً وناقداً أيضاً . وقد ذكر مترجموه أنه ألف كتباً منها « كشف الدرك وإيضاح الشك » و « حانوت عطار » و « التوابع والزوابع » ، وقد ضاع الأولان ، وبقيت فصول طيبة من « التوابع والزوابع » ، إلى فصول ورسائل عديدة حفظتها ذخيرة ابن بسام^(٥) .

وسوف نتحدث عن نثر ابن شهيد ونقده حين نتحدث عن نثر هذه الفترة .

(١) انظر هذه الأبيات في الذخيرة ق ١ م ١ ص ٣٥٣ .

(٢) ذكر ابن شهيد أن هويت : هي هويت بلغة الحسير . وهذا من فكاهاته .

(٣) راثت : ابطأت . وأريث : مضارع راث بهذا المعنى . والفعل يأت العين من باب باع .

(٤) راثت هنا : طرحت الروث . والفعل واوى وبابه قال .

(٥) القسم الأول المجلد الأول .

ثانياً - النشر :

كان حظ النشر في تلك الفترة أعظم من حظ الشعر ؛ فقد أفاد مما فرضته ظروف الفتنة على بعض الأدباء من عزلة وانطواء ومرارة ، حملتهم على التخيل والتأمل والمراجعة ، فكان الابتكار والقص والنقد . ومن هنا حظى النشر في تلك الفترة بنتائج جديدة خصب . أغنى نوعيه الخالص والتأليفي . وتلك كلمة عن كل من النوعين :

(أ) النشر الخالص :

لم يعد هذا النوع مقصوراً على تلك الفروع البسيطة الساذجة التي تتمثل في الرسالة والخطبة والوصية وما إلى ذلك ؛ وإنما اتسع فشمّل القصة . وكان وصوله إلى هذا الفرع الأدبي أشبه بالطفرة ؛ فقد وثب إلى القصة الأخرى ، التي لا تتناول أحداثاً وأبطالاً من عالمنا الذي نعيش فيه ؛ وإنما تتناول أحداثاً وأبطالاً من عالم آخر غير عالمنا هذا . والعمل الأدبي الذي كان ولا يزال مفخرة الأدب الأندلسي في هذا الفرع القصصي ، هو عمل أبي عامر ابن شهيد الذي سماه :

رسالة التوايع والزوايع ^(١) :

وهي قصة خيالية يحكى فيها ابن شهيد رحلة في عالم الجن ، قد اتصل خلالها بشياطين الشعراء ، وناقشهم وأنشدهم وأنشده ، وعرض أثناء ذلك بعض آرائه في الأدب واللغة ، وكثيراً من نماذج شعره ونثره ، كما نقد خصومه ، ودافع عن فنه ، وانترع من ملهمي

(١) لم يمتز على هذه الرسالة كاملة. في كتاب ، وإنما حفظت ذخيرة ابن بسام أكثرها في المجلد الأول من القسم الأول ، ص ٢١٠ وما بعدها . وقد نشر بطرس البستاني ما حفظته ذخيرة ابن بسام من « التوايع والزوايع » في كتاب مستقل مع دراسة عنها وعن ابن شهيد .

الشعراء والكتاب الأقدمين ، شهادات بتفوقه وعلو كعبه في الأدب . كل هذا مع كثير من بث الفكاهات ونثر الطرائف ، وإيراد الدعابات .

وقد اختار ابن شهيد لرسالته اسم « التوابع والزواج » ؛ لأنه جعل مسرحها عالم الجن ، واتخذ كل أبطالها - فيما عداه - من الشياطين . فالتوابع : جمع تابع أو تابعة ، وهو الجن أو الجنية ، يكونان مع الإنسان يتبعانه حيث ذهب . والزواج : جمع زوبعة ، وهو اسم شيطان أو رئيس للجن .

وقد وجه ابن شهيد رسالته إلى شخص كناه بأبي بكر ، وقدم في أول رسالته بما يشبه المدخل إلى القصة . فلذكر عن نفسه كيف تعلم ونبع ، وكيف تعجب صاحبه أبو بكر من عبقريته ، وأقسم أن تابعة تنجده ، وزابعة تؤيده ، لأن ما يأتي به من أدب ليس في قدرة الإنس . ثم أقر ابن شهيد أبا بكر على تفسيره ، فبين أنه كان يرى حبيبا له قدم مات ، فأرتج عليه أثناء النظم ، وعجز عن تكميل ما هو بسبيله من شعر ، وإذا بجنى اسمه زهير بن نمير يتصور له على هيئة فارس ، ويلقى إليه بتتمة الشعر ، حباً في اصطفائه ورغبة في مصاحبته كما صاحب التوابع الشعراء . ثم ذكر له هذا الجنى آبياتاً يستحضره بإنشادها متى أراد ، وأونب بعد ذلك فرسه جدار الحائط وغاب . ويذكر ابن شهيد لأبي بكر أنه كان كلما أرتج عليه ، أنشد الآبيات ، فيتمثل له صاحبه الجنى زهير بن نمير ، فيعين قريحته ، وينطق لسانه ، حتى تأكدت الصحبة بينهما .

بعد ذلك التمهيد ينتقل ابن شهيد إلى صلب القصة ، فيذكر أنه تذاكر يوماً مع تابعه هذا ، فتناولا أخبار الشعراء والخطباء وأصحابهم من التوابع والزواج ، وسأل ابن شهيد صاحبه قائلاً : هل من حيلة إلى لقاء من اتفق منهم ؟ فقال له زهير : حتى أستأذن شيخنا ، فطار ثم عاد وقد أذن له . فقال لابن شهيد حُلِّ على من الجواد ، قصار

ابن شهيد مع تابعه عليه . ثم سار بهما كالطائر ، يجتاب الجو فالجو ، ويقطع الدو فالدو ؛ حتى أتى أرض الجن . وهناك طاف به تابعه على صاحب امرئ القيس ، وصاحب طرفة ، وصاحب قيس بن الخطيم من الجاهليين ، ثم على صاحب أبي تمام ، وصاحب البحري ، وصاحب أبي نواس ، وصاحب أبي الطيب من الإسلاميين . وابن شهيد في كل لقاء يصور الجو الذي لى فيه تابعة الشاعر ، ويرسم التابعة نفسه بكثير من الملامح التي عرف بها الشاعر في الحياة . ثم يسمع من هذا التابعة وينشده ، وينال آخر الأمر إعجابه .

ثم يذكر ابن شهيد أنه طلب من تابعه زهير بن نمير أن يلقى به توابع الكتاب - وهو يسميهم الخطباء - ويحكى أن زهيراً سار به إلى هؤلاء التوابع ، وقد اجتمعوا للمذاكرة ببعض المروج ، وفيهم تابعة الجاحظ وتابعة عبد الحميد . وقدم زهير ابن شهيد إلى صاحب الجاحظ ، الذي شهد له ، ولكنه أخذ عليه كلفه بالسجع . وقد دافع ابن شهيد عن نفسه ، بما حمل صاحب عبد الحميد على التدخل في النقاش ، وكان يتم ابن شهيد أيضاً ، ولكن ابن شهيد ناظره وصمد له ، حتى رضى عنه الصاحبان ، وسألاه أن يقرأ لهما بعض رسائله ؛ فلما قرأ استحسنا كتابته وتبسطا معه . وهنا شكنا لهما حساده من الأندلسيين ؛ حتى وصل إلى أبي القاسم الإفريقي^(١) - وكان لغويّاً يكثر من نقد ابن شهيد - فناديا تابعته ، فتصدى لابن شهيد بالنقد والتجريح ، ولكن ابن شهيد أخرسه وأبطل كل أقواله . ثم تدخل صاحب بديع الزمان ، فعارضه ابن شهيد بقطعة له في وصف الماء ، فأفحمه وأحججه . وحينئذ أجازاه صاحباً الجاحظ وعبد الحميد وأقرأ بتفوقه .

(١) اقرأ ترجمته في : الذخيرة م ١ ق ١ ص ٢٤٠ وفي : جنوة المقتبس ترجمة رقم ١٦٢ ، وفي : الصلة لابن بشكوال ترجمة رقم ٢٦٠ وفي وفيات الإعيان ج ١ ص ١٢ . وفي المغرب لابن سعيد ج ١ ص ٧٢ - ٧٤ .

وبعد ذلك يحكى أبو عامر حضوره مجلس أدب من مجالس الجن يدور الحديث فيه حول الموازنة ، وتعبير شعراء مختلفين عن معنى واحد كل بطريقة ، ثم ينتقل الحديث في المجلس إلى السرقات الأدبية ، وكيف يمكن أن تحدث السرقة دون أن يفتضح صاحبها . وابن شهيد يقدم في كل موقف رأياً معجباً وشعراً مطرباً .

وأخيراً ينتقل ابن شهيد وتابعته إلى أرض بها حيوان الجن من بغال وحمير ؛ فيذكر أنه شاهدهم وقد اختلفوا في قطعتين شعريتين غزليتين ، إحداهما لبغل محب ، والأخرى لحمار عاشق ، وأنهم دعوا ابن شهيد لتقويم النصين والحكم بين الشاعرين الغزليين . فسمع ابن شهيد القطعتين ، ثم سأل بعض الأسئلة وقضى بما رأى من حكم .

ثم ينتقل إلى أوزة كانت في بركة ماء ، وهي تابعة لبعض شيوخ اللغة ، وقد تعرضت له الأوزة ، وأزادت مناظرته في النحو والغريب ؛ ولكن ابن شهيد زجرها وذكرها بسخفها وحماتها . . وهنا انتهى ما بقى لنا من رسالة التوايع والزوايع .

وقد ذكرنا أن ابن شهيد وجه رسالته تلك إلى من كناه بأبي بكر . وقد فسر ابن بسام أبا بكر هذا بأنه أبو بكر بن حزم^(١) وتبعه في ذلك ابن سعيد^(٢) وكثير ممن كتبوا عن ابن شهيد^(٣) . والمعروف أن أبا بكر بن حزم قد مات صغيراً ، وقبل أن يؤلف ابن شهيد رسالته بزمان طويل ؛ فقد مات في الطاعون الذي اجتاح قرطبة سنة ٤٠١ هجرية ، كما ذكر أخوه أبو محمد بن حزم في كتابه « طوق الحمامة »^(٤) . على أن صلة ابن شهيد ببني حزم ، كانت بينه وبين أبي محمد وأبي المغيرة ، ولم تعرف له صلة بأبي

(١) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢١٠ .

(٢) انظر : المغرب ج ١ ص ٧٩ .

(٣) مثل الدكتور أحمد ضيف في كتاب بلاغة العرب في الأندلس (ص ٤٨) ومثل الدكتور

زكي مبارك في النثر الفنى (ج ١ ص ٢٦١) .

(٤) طوق الحمامة ص ١١٦ .

بكر هذا . فأغلب الظن أن الأمر التبس على ابن بسام حين رأى الرسالة موجهة لأبي بكر ، وحين علم أن ابن شهيد كانت له صلة ببني حزم ، وحين علم أيضاً أن من بني حزم من كان اسمه أبا بكر . وغاب عن صاحب الذخيرة أن أبا بكر هذا قد مات قبل تأليف الرسالة بزمن طويل .

والذي يمكن ترجيحه أن أبا بكر الذي وجه إليه ابن شهيد رسالته ، هو أبو بكر الكاتب المعروف بأشكمياط . وذلك لأن هذا الكاتب بعينه قد فقد أبا عامر وعابه بأنه يستبيح كنوز غيره . وقد ذكره ابن شهيد في رسالة ورد عليه^(١)

بين التوابع والزوابع ورسالة الغفران :

وواضح أن رسالة « التوابع والزوابع » تشبه إلى حد كبير « رسالة الغفران » لأبي العلاء المعري ، فكل من الرسالتين عرض لمشكلات أدبية بطريقة قصصية ، وكل من القصتين اتخذ عالماً آخر غير دنيانا ليكون مسرحاً لأحداثه ، وكل من المؤلفين عرض بمعاصره وبقصد سابقه . وأوضح ما بين الرسالتين من خلاف في الخطوط العامة أمران : الأول أن أبا العلاء جعل مسرح قصته الدار الآخرة بفردوسها وجحيمها ، وأن ابن شهيد جعل مسرح قصته دار الجن بأرضها الغربية وأجواؤها العجيبة . والأمر الثاني هو أن أبا العلاء جعل اهتمامه الأكبر بالمشكلات الفلسفية والمعضلات الدينية ، على حين وجه ابن شهيد جل اهتمامه للقضايا الأدبية والبيانية . وهذا الخلاف راجع إلى طبيعة كل من الكتّابين واتجاهه .

وهذا التشابه بين الرسالتين قد دعا الباحثين إلى التفكير في مشكلة : من المؤثر ومن المتأثر في هذين العملين الرائعين ؟

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام في ١ م ١ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

وقد مال المرحوم الدكتور أحمد ضيف إلى القول بأن ابن شهيد هو المتأثر فقال :
 « ولعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء في ذلك لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبي العلاء
 كانت ذاتعة في المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق في كل
 شيء ^(١) . »

والحق أن المسألة عكس ما رجح المرحوم الدكتور ضيف ؛ فقد ألف ابن شهيد
 رسالته قبل أن يؤلف أبو العلاء رسالته ، والراجح أن أبا العلاء قد تأثر بابن شهيد ،
 وإن أدرك ابن شهيد عصر أبي العلاء . أما شهرة أبي العلاء في المشرق والمغرب ، فتقابلها
 شهرة ابن شهيد في المغرب والمشرق أيضاً . وأما قضية تقليد أهل الأندلس لأهل المشرق
 في كل شيء ، فهي قضية لا تثبت للتحقيق العلمي الدقيق . وفي بيان المبتكر والمقلد
 في مسألة الأدب الأخرى هذه ، دليل من أدلة كثيرة على فساد هذا الحكم الجائر
 المجانب للحق .

وتحقيق الأمر أن ابن شهيد قد ألف رسالته قبل تأليف أبي العلاء رسالته بما لا يقل
 عن تسع سنوات ، وأن رسالة ابن شهيد قد وصلت إلى المشرق في حياة ابن شهيد وفي
 حياة أبي العلاء . وبيان ذلك هو : أنه بالبحث في نص رسالته « التوابع والزوابع »
 وجدت نصوص مرتبطة بتاريخ بعينها ، وهذه التواريخ يمكن أن تشير إلى الزمن الذي
 كتبت فيه الرسالة . فمثلاً جاء في الرسالة ما يدل على أن بعض حساد ابن شهيد وشوا به
 عند سليمان المستعين ^(٢) ، ومعروف أن هذا الخليفة قد حكم ما بين سنة ٤٠٣ ، ٤٠٧ هـ .
 وقد دعا ذلك بعض الباحثين كاللكتور زكي مبارك إلى القول بأن تلك الرسالة ألقت
 في تلك الفترة ^(٣) . وعلى هذا تكون قد ظهرت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين عاماً ؛

(١) انظر : بلاغة العرب في الأندلس ص ٤٨ .

(٢) انظر الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٢٢ .

(٣) انظر : النثر الفني ص ١٥٩ .

لأن الأخيرة قد ألفت حوالي ٤٢٤ كما سنبين .

على أن ذلك الرأي ليس دقيقاً أيضاً ؛ فقد اشتملت « التوايح والزوايح » على نصوص أخرى يرجع تاريخها إلى ما بعد هذا التاريخ . من ذلك قصيدة ابن شهيد التي قالها وهو في سجن الحموديين ؛ فالمرجح أن يكون قد قال هذه القصيدة أيام القاسم بن حمود الذي يغلب أن يكون قد سجن ابن شهيد لصلته بمنافس القاسم والثائر عليه ، وهو يحيى بن حمود . وقد كانت خلافة القاسم سنة ٤١٣ هـ .

وفي الرسالة كذلك ما يؤخر زمن تأليفها عن هذا التاريخ ، فقد اشتملت على بعض رثاء ابن شهيد لأبي عبيدة حسان بن مالك^(١) . وكان هذا المرثي ضمن وزراء المستظهر سنة ٤١٤ هـ^(٢) .

وهكذا نرى أن تاريخ الانتهاء من رسالة التوايح والزوايح يجب أن يكون بعد هذا التاريخ ، على أننا لا نستطيع أن نجعله بعد ذلك إلا بزمن يسير لأننا لا نجد في الرسالة نصوصاً ترجع إلى تاريخ متأخر عن هذا التاريخ ؛ ولأن في « التوايح والزوايح » أبياتاً يمدح بها ابن شهيد صديقه أبا محمد بن حزم ويذكر شافعيته^(٣) ، ومعروف أن ابن حزم إنما كان شافعيّاً في تلك الفترة أو بعدها بقليل ، وأنه تحول بعد ذلك إلى الظاهرية ، وعلى هذا يمكن القول بأن ابن شهيد قد أتم رسالته سنة ٤١٥ هـ .

أما رسالة الغفران ، فعرفنا أنها كتبت ردّاً على رسالة ابن القارح ، وقد ذكر ابن القارح في رسالته ما يفيد أنه كتبها حين كان عمره نيفاً وسبعين^(٤) ، فإذا عرفنا أن مولد

(١) انظر : الذخيرة ق ١ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، مطبع الأنفس للفتح بن خاقان ص ٣١ .

(٢) انظر : مطبع الأنفس ص ٢٩ - ٣٠ .

(٣) انظر : ق ١ ص ٢٥٠ .

(٤) انظر : رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ص ٢٢ .

ابن القارح كان سنة ٢٥١ هـ^(١) ، وإذا أضفنا إلى ذلك سبعين فقط ؛ كانت النتيجة أن رسالة ابن القارح قد كتبت حوالي سنة ٤٢١ هـ ثم كانت نتيجة النتيجة أن رسالة الغفران التي هي رد على الرسالة السابقة قد كتبت بعد ذلك . فإذا وضعنا في حسابنا ما استفاد من كلام ابن القارح من أنه كان فوق السبعين ، وما اعتذر به أبو العلاء من أنه أصر الرد لأنه مستطوع بغيره^(٢) ، كان من المعقول أن تكون رسالة الغفران قد كتبت حوالي سنة ٤٢٤ هـ^(٣) وهذا ما يرجحه نص في رسالة الغفران ؛ إذ يقول أبو العلاء فيمن يتحدثون عن الغيب : « ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب حرسها الله في سنة أربع وعشرين وأربعمائة ، اسمه فلان بن فلان »^(٤) .

وعلى هذا يتحقق أن رسالة ابن شهيد سبقت رسالة أبي العلاء بنحو تسعة أعوام ، برغم أن ابن شهيد أدرك عصر أبي العلاء .

لنا تأثير أبي العلاء فراجع من التشابه الشديد بين الرسالتين ؛ وأغلب الظن أن رسالة « التبايع والوايع » قد نقلت إلى المشرق في حياة ابن شهيد وأبي العلاء ؛ فقد أشاد بعض مؤلفي كتبنا عاشوا في زمن الأديبين الكبيرين ؛ فالثعالبي^(٥) وقد معاصر ابن شهيد . العلاء - قد سجل في كتابه يتيمة الدهر ، بعض نصوص تلك الرسالة ؛ سردت ابن شهيد للعلاء والحلوة . بغير ذلك^(٦) .

وعلى هذا يترجح تأثير أبي العلاء بابن شهيد ، برغم شهرة أبي العلاء في المشرق والمغرب .

(١) انظر : معجم الأديباء ج ١٥ ص ٨٤

(٢) انظر : رسالة الغفران تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء ص ٥٥١ .

(٣) انظر : النثر الفني للدكتور زكي مبارك ج ١ ص ٢٦ ، والغفران للدكتور بنت الشاطيء ص ١٠ .

(٤) انظر : رسالة الغفران تحقيق الدكتورة بنت الشاطيء ص ٢٨٧ .

(٥) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٩١ .

(٦) انظر يتيمة الدهر . ج ٢ ص ٣٨ - ٤١ .

ومهما يكن من أمر ، فقد كان التفات ابن شهيد إلى هذا اللون القصصي الأخرى ، مفخرة
للأديب الأندلسي ، جعلته سابقاً لمن وُلجوا هذا الباب بعد ذلك من أدباء المشرق والمغرب ،
كأبي العلاء في « رسالة الغفران » و« دانتى » في « الكوميديا الإلهية » La Divina Comedia .

أصل هذا النوع من القصص هو قصة المعراج :

على أنه لا يمكن أن يغفل النبع الحقيقي لهذا النوع من القصص ، فهو مصدرها
الأصلي وجذورها الخفي ؛ ذلك المصدر هو قصة المعراج الإسلامية ، التي تحكى صعود
محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء ، إلى السموات على ظهر براق ، وفي صحبته
جبريل عليه السلام ، حيث رأى عالماً آخر غير عالمنا الذي نعيش فيه . فالمعقول أن تكون
قصة المعراج هي أول قصة في التراث العربي ، ينتقل فيها البطل إلى عالم آخر ، على ظهر
فرس يسابق الريح وفي صحبة رائد يرود الطريق ، وينتقل بالبطل من جو إلى جو
ومن مشهد إلى مشهد ، من أجواء ومشاهد لا تعرف في دنيانا نحن .

والمعقول أيضاً أن تكون قصة المعراج وما اشتملت عليه من أوصاف للجنة والنار ،
وطوائف المنعمين والمعذبين ، قد أمدت أبا العلاء بكثير من المشاهد التي ضمنها « رسالة
الغفران » . وعلى هذا يرجح أن يكون أبو العلاء قد أفاد من « التوابع والزوابع » ، وخاصة
من ناحية مناقشة الأدباء ، وعرض بعض مسائل الأدب ، وأفاد كذلك من « المعراج »
وتخاصة من ناحية وصف الفردوس والجحيم ، وعرض بعض مشاهد الآخرة .

أثر قصة المعراج في الكوميديا الإلهية :

وقد ذهب بعض الدارسين^(١) إلى تأثر « دانتى » في ملحمة الكوميديا الإلهية

(١) من أول من تنبهوا للعلاقة بين الغفران والكوميديا الإلهية : البستاني مترجم الإلياذة ، فقد ذكر
في مقدمة الترجمة التي ظهرت سنة ١٩٠٤ : أن أبا العلاء سبق بملحمته الثرية دانتى الإيطالي وبلان الإنجليزي ،
ثم جاء الأستاذ جروجي زيدان فذكر في كتابه تاريخ الآداب العربية أنه يمكن القول باقتباس الأديبين الغربيين
من أبي العلاء (ص ٢٤ ص ٢٦٢) .

La Divina Comedia برسالة الغفران لأبي العلاء ، حتى ظهرت نظرية المستشرق الإسباني الأستاذ «ميجل أسين بلايوس» Miguel Asin Palacios^(١) ، فحاول إثبات أن «دانتى» قد بنى كوميدياه على أصول إسلامية ، من بينها رسالة الغفران وقصة المعراج وما كتبه المفسرون عن الدار الآخرة والجنة والنار ، وما قاله بعض الفلاسفة والمتصوفة المسلمين حول الكون ومركزه ودوائره وأفلاكه ، وفي مقدمة هؤلاء ، المتصوف الأندلسي محيي الدين بن عربي^(٢) . وقد قامت نظرية الأستاذ «ميجل أسين» على دراسة مقارنة لكل من ملحمة «دانتى» وتلك الأصول الإسلامية وما اشتملت عليه هذه وتلك من مشاهد وتفصيل . ولم يكن ينقص تلك النظرية لكي تصبح حقيقة مؤكدة إلا اكتشاف نصوص مترجمة للكتابات الإسلامية التي يمكن أن تكون قد وصلت إلى إيطاليا قبل أن يؤلف «دانتى» كوميدياه ، حتى يستطيع التأكد من أن الأديب الإيطالي قد استوحى الأدب العربي . وأخيراً اكتُشف نص يؤكد نظرية المستشرق الإسباني من جانب ، ويحدد المؤثر الإسلامي في كوميديا «دانتى» من جانب آخر ؛ فقد عثر على مخطوطتين مترجمتين لقصة المعراج ، إحداهما ترجمة لاتينية وقد عثر عليها في باريس ، والأخرى ترجمة فرنسية وقد عثر عليها في أكسفورد . وقد نشر الترجمتين سنة ١٩٤٦ الباحث الإسباني «خوسيه مونثيث سدينو» Jose Monoz Sendino ، كما قدم لهما بدراسة أثبت فيها أن الترجمتين عملتا في القرن الثالث عشر^(٣) ، بأمر الملك الإسباني العالم الفونسو العاشر ، وأن ترجمة قصة المعراج كانت بثلاث لغات : الإسبانية والفرنسية واللاتينية . كذلك أثبت أن تلك الترجمة قد عرفت في أوروبا في فترة ميلاد «دانتى»^(٤) ،

(١) نشر الأستاذ أسين هذه النظرية سنة ١٩١٩ م في كتابه :

La Escatologia Musulmana en La Divina Comedia.

(٢) كتاب ابن عربي الذي وجد فيه الأستاذ أسين مواد يمكن أن يكون قد أفاد منها دانتى هو

كتاب : الفتوحات المكية .

(٣) كانت الترجمة في إشبيلية سنة ١٢٦٤ م .

(٤) ولد سنة ١٢٦٥ م .

ثم انتشرت في عدد من العواصم العربية قبل أن يكتب الأديب الإيطالي كوميدبايه بسنين^(١) وأكد الأستاذ «خوسى» بأدلة كثيرة أن ترجمة المعراج قد وصلت إلى يد «دانتى» ، وأنه بنى عليها عمله الأدبى الرائع^(٢).

وهكذا صدق هذا الاكتشاف الفكرة الأساسية التى كان قد قال بها الأستاذ «ميجل أسين» كنظرية تحتاج إلى اكتشاف نص ، كما حدد هذا الاكتشاف أيضاً المؤثر الإسلامى فى كوميدبا «دانتى» حيث ثبت ذلك المؤثر وهو قصة المعراج بالذات .

أسلوب الرسالة :

وبعد هذا الاستطراد الذى دفعنا إليه الحديث عن القصص الأخرى وسبق ابن شهيد به ، نعود إلى «التوايع والزوايع» فنقول : إن أسلوبها يمثل أسلوب النثر الخالص فى فترة الفتنة بالأندلس أصدق تمثيل ؛ فهو أسلوب فيه تأثيرات لطريقة الجاحظ ، ثم تأثيرات لطريقة ابن العميد ، وأخيراً تأثيرات لطريقة بديع الزمان ، التى تميل إلى توشية الأسلوب بالمحسنات المجتلبة وخاصة السجع ، والتى تهتم كثيراً بالوصف . وقد كانت آثار بديع الزمان وطريقته معروفة لدى الأدباء الأندلسيين فى تلك الفترة^(٣) ، بل إن بعض كبار الكتاب الأندلسيين كابن شهيد كان مولعاً بمعارضة بديع الزمان فى بعض رسائله المشهورة ، كرسالته فى وصف البرد والنار والحطب ، ورسالته فى الحلواء . فمثل هذه الرسائل جاءت معارضة لمقامات البديع^(٤).

(١) ظهرت أول صورة للمحمة دانتى سنة ١٣٠٧ .

(٢) انظر الدراسة التى كتبها الأستاذ «خوسى» والنصين اللذين نشرهما فى كتابه :

La Escala de Mahoma.

(٣) وقد ورد ذكر بديع الزمان ومقابلة ابن شهيد له فى رسالة التوايع والزوايع . كما ذكر ابن بسام أن أبا المغيرة بن حزم قد عارض بديع الزمان فى بعض رسائله (الذخيرة ق ١ م ١ ص ١١٧) .

(٤) وردت هذه الرسائل فى «التوايع والزوايع» .

وبعد ، فتلک فقرة من « التواضع والزواضع » في وصف لقاء ابن شهيد لتابعة أبي نواس في دنيا الجن . والفقرة تبين اتجاه ابن شهيد في رسالته ، وتوضح أسلوبه في كتابته ؛ كما تمثل أسلوب النثر الخالص في عصره إلى حد كبير .

يقول ابن شهيد : « فضرب زهير الأدهم بالسوط ، فسار بنا في قنته ^(١) ، وسرنا حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة ^(٢) ؛ فشق سمعي قرع النواقيس ، فصحت : من من منازل أبي نواس ورب الكعبة العليا ! ! . وسرنا نجتأ أدياراً وكنائس وحانات ، حتى انتهينا إلى دير عظيم تعبق روائحه ، وتصوك ^(٣) فوائحه ، فوقف زهير ببابه وصاح : سلام على أهل دير حنة . فقلت لزهير : أو قد صرنا بذات الأكرح ^(٤) ؟ فقال : نعم . وأقبلت نحونا الرهايين ، مشددة بالزنانير ، قد قبضت على العكاكيز ، بيض الحواجب واللحي ، إذا نظروا إلى المرء استحي ، مكثرين للتسبيح ، عليهم هدى المسيح . فقالوا : أهلا بك يا زهير من زائر ، وبصاحبك أبي عامر ، ما بغيتك ؟ قال : حسين بن الدنان ، قالوا : إنه لني شرب الحمرة ، منذ أيام عشرة ، وما نرا كما منتفعين به . فقال : وعلى ذلك . ونزلنا ، وجاءوا بنا إلى بيت قد اصطفت دنانه ، وعكف غزلانه ، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة ^(٥) ، وقد افترش أضغاث زهر ، واتكأ على زق خمر ، ويده طرجهارة ^(٦) وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة ^(٧) . فصاح زهير : حياك الله أبا الإحسان . فجواب

(١) قن الطريق : سنته ونهجه .

(٢) دير حنة : مكان ورد ذكره في شعر أبي نواس .

(٣) تصوك : تعبق .

(٤) الأكرح : تصغير أكرح . وأكرح : جمع كرح بالكسر ، وهي لفظه سريانية الأصل

معناها . الكوخ الصغير يكون قرب الدير . واللفظة وردت في شعر أبي نواس .

(٥) السبلة : ما على الشارب من شعر .

(٦) الطرجهارة : إناء للشرب .

(٧) تعطو : ترفع رأسها . والعرار : نبات ناعم أصفر طيب الريح .

بجواب لا يعقل لغلبة الخمر عليه . فقال لى زهير : اقرع أذن نشوته بإحدى خمرياتك ، فإنه ربما تنبه لبعض ذلك ، فصحت أنشد من كلمة طويلة :

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
في فنية جعلوا الزقاق تكاءهم متصاعرين تخشعاً لكبيره
والى على بطرفه وبكفه فأمال من رأسى لعب كبيره
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره
يهدى إلينا الراح كل معصر كالخشف خفّره التماح خفيره^(١)

فصاح من حباتل نشوته : أشجعى ؟ قلت : أنا ذاك . فاستدعى ماء قراحا ، فشرّب منه وغسل وجهه ، فأفاق واعتذر إلى من حاله . فأدركنى مهابته ، وأخذت في إجلاله من العلم والشعر . فقال لى : أنشد ، أو حتى أنشدك ؟ فقلت : إن ذلك لأشد لتأنيسى ، على أنه ما بعدك لحسن إحسان . فأنشد :

يا دير حسنة من ذات الأكيّس راح من يصح عنك فإني لست بالصاحي
يعتاده كل محفوف مفارقه من الدهان عليه سحق أمساح^(٢)
لا يدلّفون إلى ماء بآنية إلا اغترافا من الغسدران بالراح

فكدت والله أخرج من جلدى طرباً . ثم أنشد :

طرّحتم من الترحال أمراً فتغنمنا

وأنشد أيضاً :

لمن دمن تزداد طيب نسيم على طول ما أقوت^(٣) وحسن رسوم

(١) معصر : مصبوغ الثوب بالمعصر . والخشف : ولد الظبي . وخفّره : جمّله خفراً عجولاً . والخفير : الحارس .
(٢) السحق : الثوب البالى . والأمساح : جمع مسح بالكسر ، وهو : ثوب من شعر يلبسه الزهريان .
(٣) أقوت : أقفرت .

تجافى البلى عنهن حتى كأنما لبسن من الإقواء ثوب نعيم
 واستمر فيه حتى أكلها . ثم قال لى : أنشد ، فقلت : وهل أبقيت للإنشاد موضعاً ؟
 قال : لا بد لك ، وأوعث بي ولا تنجد . فأنشدته :

أصبح شيمَ أم برق بدا أم سنا المحبوب أورى أزنُدا
 هباً من مرقده منكسراً مسبلاً للكُم مرخ للردا
 يمسح النسفة من عيني رشا صائدا في كل يوم أسدا
 قلت : هب لى يا حبيبي قبلة تشف من عمك تبريح الصدا
 فأننى يهتز من منكبته قائلا : لا ، ثم أعطاني اليدا
 كلما كلمنى قبلته فهو إما قال قولاً رردا
 فلما انتهيت قال : لله أنت ، وإن كان طبعك مخترعاً منك ! (١) .

(ب) النثر التأليفي :

ظهرت في تلك الفترة كتابات نثرية تأليفية ذات قيمة كبيرة من حيث ما عالجت
 من موضوعات . وأهم تلك كتابات ابن شهيد المتصلة بالنقد الأدبي ، وكتابات ابن حزم
 في فلسفة الحب .

آراء نقدية لابن شهيد :

أما كتابات ابن شهيد ، فقد جاءت ككفقرات من رسائل ، ولم تأت على شكل
 كتاب مستقل محبوب ؛ وهي مع ذلك لمحات نقدية ذكية عظيمة الشأن . فقد تكلم مثلاً
 عن الملكة الأدبية ، التي سماها الطبع ، وبين أنها الأساس الذي يصدر عنه الأديب ،

(١) ورد هذا النص في الذخيرة ق ١ م ١ ص ١٢٢ - ٢٢٤ . وقد وردت القطعة الأخيرة
 كذلك في مطبع الأندلس لفتح بن خاقان ص ٢٠ ، ٢١ وبين المصدرين خلاف في بعض الكلمات ،
 وقد اخترنا الأنسب والأوفق لسياق .

وأنه بدونها لا يمكن أن يقدم أدباً ذا قيمة ، مهما استوفى مسائل النحو وحفظ الغريب ..
 وبين كذلك أن الملكة يجب أن تقوى بالثقافة اللغوية والأدبية . . . كذلك تحدث ابن
 شهيد عن طبيعة هذه الملكة وحظ الناس منها ، فبين أن الإنسان مركب من جسم ونفس ،
 وأن قدر الملكة الفنية يكون على قدر علاقة النفس بالجسم ، فمن غلبت نفسه على جسمه كان
 مطبوعاً ذا ملكة فنية ، ومن غلب جسمه على نفسه كان مصنوعاً فقيراً من الملكة . . . ووضح
 ابن شهيد كذلك أثر الملكة في العمل الأدبي ، فبين أنها تهبه قوة التأثير والإيحاء ، وتمنحه
 روحاً لا يدري سرها ولا يعرف مصدرها ، ولكنه معها يتعلق بالنفس ، بما له من قوة
 تأثير لا بما له من ديباجة ، ويستولى على القلب بما فيه من إيحاء لا بما فيه من غريب .

وفي ذلك كله يقول ابن شهيد: « وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب
 واستيفاء مسائل النحو ، بل بالطبع ، مع وزنه من هذين . ومقدار طبع الإنسان إنما يكون
 على مقدار تركيب نفسه مع جسمه ، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على
 جسمه كان مطبوعاً روحانياً ، يطلع صور الكلام والمعاني في أجل هيئاتها وأرق لباساتها ،
 ومن كان جسمه مستولياً على نفسه — من أصل تركيبه — والغالب على حسه ، كان ما
 يطلع من تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في الكمال والتمام ، وحسن الرونق والنظام .
 فمن كانت نفسه مستولية على جسمه ، فقد تأتى منه في حسن النظام صور رائعة من
 الكلام ، تملأ القلوب وتشغف النفوس ، فإذا فتشت لحسنها أصلاً لم تجده ، ولجمال
 تركيبها أسألم تعرفه ، وهذا هو الغريب ، أن يتركب الحسن من غير حيين ، كقول امرئ
 القيس : ألا عم صباحاً أيها الطلل البالي . وقوله :

تنورتها من أذرعات وأهلها بيثرب أدنى دارها نظر على

فإن هذه الديباجة إذا تطلبت لها أصلاً من غريب معنى لم تجده . وكقول أبي نواس :

طرحم من الترحال ذكراً فغمنا فلو قد شخصتم صبغ الموت بعضنا

سأشكروا لى الفضل بن يحيى بن خالد هوائك لعل الفضل يجمع بيننا
فهذا من الكلام الغث واللفظ الرث ، الذى لو رآه حمار الكساح لأدركه ، ولكن
له من التعلق بالنفس والاستيلاء على القلب ما ترى (١) .

وتكلم ابن شهيد كذلك عن أثر البيئة والظروف السياسية والاجتماعية فى الأذواق
والملكات . وبالتالي فى النتاج الأدبى . وبين أن فساد الأزمنة ونبو الأمكنة وانتشار
الفن ، تجعل الفهم سلعة باثرة ، والفن صفقة خاسرة ، وفى ذلك يقول « . . . لا تقوم
عندنا ، حظهم من الفهم الحفظ ، ومن العلم الذكر . وهذا حظ القصاص وأعلى مراتب
النساج . فترى المنخوق منهم إذا قرىء عليه الشعر يزوى أنفه ، ويكسر طرفه ، وإذا
عرضت عليه الخطبة يميل شفه ، ويلوى شدقه ؛ فإن تناوطها لم يبق ملحة (٢) إلا حشدها ،
ولا أبى عصفة (٣) فجة إلا جليها . وأصل قلة هذا الشأن ، وعدم البيان ، فساد الأزمنة ونبو
الأمكنة ، وإن الفتنة نسخ للأشياء ، من العلوم والأهواء ، ترى الفهم فيها باثر السلعة ،
خاسر الصفقة يلمح بأعين الشأن ، ويستقل بكل مكان . . . » (٤) .

وتكلم ابن شهيد أيضاً عن تطور الأساليب بتطور الأزمنة واختلافها باختلاف
الأمكنة ، فنه بذلك إلى حقيقة لا يزال يكابر فيها بعض المحدثين ، الذين كان الأديب
الأندلسى منذ نحو عشرة قرون ، أكثر مرونة منهم وأدق إدراكاً لطبيعة الفن . يقول ابن
شهيد : « وكما أن لكل مقام مقالا ، فكذلك لكل عصر بيان ، ولكل دهر كلام ، ولكل
طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة ، وضرب من البلاغة ، لا يوافقها غيره ، ولا
تهش لسواه » (٥) .

(١) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) الملحة : الملاحه .

(٣) المصفة : واحدة المصف ، وهو نبات يتخذ دواء قابضاً .

(٤) انظر : الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ١٧٩ .

(٥) انظر الذخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٢٠٢ .

كذلك تكلم ابن شهيد في قضية المعنى واللفظ ، أو المضمون والشكل كما يجب المعاصرون أن يقولوا ، فبين أنه لا بد من شرف المعاني ، وفنية التعابير ، وذكر أن الأديب البارع هو الذي يلبس المعاني الشريفة ثوبها الملائم ، لا الثوب الزائف ولا الخداع . وذكر في فنية الشكل وجوب اختيار مליح اللفظ ورشيق الكلام . وبين أن بين الحروف علاقات يجب أن تراعى ، وبين الكلمات صلوات يجب أن تلاحظ ، ليتحقق الانسجام والانسياب الطبيعيان ، ولتأتى الموسيقى الكلامية موقعة منسقة محببة . كذلك ذكر أنه يحسن استعمال مليح النحو ، أى الحسن من قواعده ، واختيار الفصيح من الغريب ، أى السائغ الحسن الوقع منه . وفي هذا كله يقول ابن شهيد : « ومن الواجب على الناقد أن يبحث عن الكلام ، ويفتش عن شرف المعاني ، وينظر مواقع البيان ، ويختص من حلاوة خداع اللفظ ، ويدع تزويق التركيب ، ويراطل بن أمحاء البديع ، ويمثل أشخاص الصناعة ؛ فقد ترى الشعر فضى البشرة ، وهو رصاصى المكسر ، ذا ثوب معضد^(١) أو مهلهل ، وهو مشتمل على بهق أو برص^(٢) . ويقول : « إن للحروف أنساباً وقرابات تبدو في الكلمات ، فإذا جاور النسب النسب ، ومازج القريب القريب ، طابت الألفة ، وحسنت الصحبة ، وإذا ركبت صور الكلام من تلك ، حسنت المناظر ، وطابت المخاير . وكما تختار مليح اللفظ ورشيق الكلام ؛ فكذلك يجب أن تختار مليح النحو وفصيح الغريب ، وتهرب من قبيحه^(٣) .

كذلك لمح ابن شهيد بحديث موجز عن الوحدة الفنية ، فذكر أنه على من يتعرض لمعالجة موضوع أن يستوفى جوانبه أولاً ، وألا يخرج عما هو بسبيله ثانياً . وفي ذلك يقول ابن شهيد : « وما يلزم المدعى لصناعة الكلام إذا اعتمد وصف حالة ، أن يستوفى جميعها

(١) الثوب المعضد : هو ما له علم في مكان المعضد ، والمراد المزين .

(٢) انظر : الذخيرة ق ١ م ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٣) انظر : المصدر السابق : ص ١٩٩ .

ويكون ما يطلبه من الإبداع والاختراع فيها غير خارج عنها وما هو بسبيلها»^(١).
ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد من كتابات نقدية ، حديثه عن وظائف بعض الأعضاء في القدرة الأدبية . وصلات الهيئة الإنسانية بالملكة الفنية ، ووجود علامات عضوية تدل على عدم هذه الملكة أو نقصانها . وفي ذلك يقول ابن شهيد في بعض أدعياء الفن من معلمى قرطبة : « فهذه حال العصابة من المعلمين . يدركون بالطبيعة ، ويقصرون بالآلة ؛ وتقصيرهم بالآلة هو عن طريق العلل الداخلة ؛ من فساد الآلة القابلة للروحانية ، والخادمة لآلات الفهم ، الباعثة لرقيق الدم في الشريانات إلى القلب ؛ وزيادة غلظ أعصاب الدماغ ، ونقصانها عن القدر الطبيعي . وبما يعين على ذلك بالحدس وطريق الفراسة ، فساد الآلة الظاهرة ، كفرطحة الرأس وتسفيطه ، وتواء القمحدة^(٢) ، والتواء الشدق ، ونحزر^(٣) العين ، وغلظ الأنف ، وانزواء الأرنبة^(٤) » .

ومن أحسن ما أثر عن ابن شهيد كذلك مما يتصل بالنقد — وإن كان متعلقاً بشخصية الأديب لا بعمله الأدبي — حديثه عما يجب أن تكون عليه هيئة الأديب المتصل بحكم عمله بالآخرين ، وجوب كونه سليماً حسن الهيئة نظيفاً ، لأن عدم ذلك قد ينفر منه ويسئ إلى أدبه تبعاً لذلك . وابن شهيد وإن خص بهذا الكتاب المشتغلين مع الحكام ، فهو ينفع المشبهين لهم من المتصلين بالناس ، كالصحفيين في عصرنا مثلاً . يقول ابن شهيد في ذلك : « . . . ولذلك استحسنا من الكاتب أن يكون طيب الرائحة ، سليم آلات الحواس ، نقي الثوب ، ولا يكون وسخ الضريس ، منقلب الشفة ، مكحل الأظفور ، وضر الطوق^(٥) » .

(١) انظر : النخيرة لابن بسام ق ١ م ١ ص ٢٧٣ .

(٢) القمحدة : مؤخر عظم الرأس المشرف على القفا .

(٣) انحزر : ضيق العينين أو تحريكهما فتحاً وفضاً ، أو حول إحداهما .

(٤) انظر : النخيرة ق ١ م ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٥) انظر المصدر السابق ص ٢٠٨ .

طوق الحمامة :

أما كتابات ابن حزم في فلسفة الحب فقد أودعها كتابه الرائع المسمى « طوق الحمامة »^(١). وهو كتاب يتناول هذه العاطفة الإنسانية بالبحث الذي يعتمد - إلى حد كبير - على التجربة والملاحظة والتحليل النفسي واستخلاص النتائج . وهو من أقدم الأبحاث العربية التي تناولت عاطفة الحب هذا التناول المنهجي المستقل المفصل^(٢). والجميل فيه أن مؤلفه فقيه ، وكان المفروض أن يحجم عن الخوض في مثل هذا الحديث الذي لم يتعود الفقهاء الخوض فيه . ولكن طبيعة ابن حزم ونشأته من جانب ، وظروف عصره من جانب آخر ، قد جعلته يسطر هذا الكتاب الذي يفخر به الأدب الأندلسي . أما طبيعة ابن حزم ، فهي طبيعة صريحة جريئة . تقول ما تعتقد وتعبّر عما تحس ، ولا تعرف نفاقاً أو خوفاً من الناقدين . وقد حمل وحده عبء الدعوة للمذهب الظاهري الذي آمن به ، ولم تشنه مخالفة آلاف الفقهاء ومعارضة جمهرة الأندلسيين .

وأما نشأته ، فقد كانت تشاة تتيح لمثله أن يفرق في الحب إلى أذنيه ، وأن يحسه في قلبه وفي قلوب المحيطين. به كأشد ما يكون الأحساس ، ذلك أنه نشأ في وسط الحريم كما سبق أن بينا ، وخالطهن أشد مخالطة في سنى حياته الأولى^(٣) ، وقد أتاح له ذلك إدراك كثير من التجارب العاطفية ، كان هو بطلها حيناً ، وكان غيره محورها

(١) اسم الكتاب بالكامل : طوق الحمامة في الألفة والألاف . وقد طبع عدة طبعات منها طبعة في لندن سنة ١٩١٤ م ، وقد قام بها د . د . بروف ، وطبعة في القاهرة سنة ١٩٥٠ م ، وطبعة في دمشق سنة ١٣٤٩ هـ . كذلك ترم الكتاب إلى الإنجليزية ، وعمل تلك الترجمة المشرق التشيكي (نيكل) ونشرت في باريس سنة ١٩٣١ . وترجم إلى الروسية بقلم (ساليه) ، ونشر في لندجراد سنة ١٩٣٣ . وأخيراً ترم إلى الإسبانية بقلم المشرق الإسباني (جارتيا جومث) ، ونشر في مدريد سنة ١٩٥٣ .

(٢) قد سبقه كتاب « الزهرة » لابي داود الأصبهاني ، الذي عارضه كتاب « الهدائق » لابن مرج الأندلسي .

(٣) انظر ما كتب عن ابن حزم في ص ٣٧٥ وما بعدها من هذا الكتاب .

حيناً آخر . ومن هنا جرب تلك العاطفة في نفسه وكانت له معها تجارب ، وتتبعها في غيره وكانت له منها دراسات . ثم كانت تلك الظروف القاسية التي حملته على أن يهجر بلده وأن يعيش مهاجراً غريباً في شاطبة ، ومن شأن هذه الظروف أن تجعل مثل ابن حزم ينطوى على نفسه ، ويتذكر أيام مسراته ، ويستحضر ماضى قلبه ، ويستعرض ذكرياته ، عن نفسه وعن الآخرين . وهنا يكون الحديث في الحب أمراً طبيعياً ، فهو حديث رجل صريح لا يعرف الخوف حين يذكر ما يعتقد ، وهو حديث خبير غنى بالتجارب والمشاهدات والأقاصيص ، ثم هو حديث أديب مهاجر غريب ، يجب أن ينفس عن نفسه بذكر ماضى قلبه وما يعرف عن قلوب الآخرين .

وكتاب ابن حزم صُنف في هيئة رسالة ، رد بها على سائل بعث إليه من مدينة ألمرية ، يسأله أن يصنف له رسالة في صفة الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، وما يقع فيه وله على سبيل الحقيقة^(١) . وقد يكون الكتاب قد كتب فعلاً بناء على طلب هذا السائل ، وقد يكون ابن حزم قد قدم بذكر هذا الطالب كتسوية لتسطيره هذا الكتاب ، وهو ما أرجحه ؛ فابن حزم كان معروفاً بين الأندلسيين كفقيه لا كباحث في الحب ، فغريب أن يسأله سائل أن يجدد حديثاً مفصلاً عن الحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه ، لا عن الفقه الظاهري والأصول والتوحيد وما إلى ذلك مما من شأنه أن يسأل عنه .

هذا وقد جعل ابن حزم كتابه في ثلاثين باباً ، تتبع فيها الحب في نشأته وتطوره وأعراضه ودرجاته وأنواعه ومسعداته ومنغصاته . وهو في كل باب يتحدث عن الموضوع الذي يعرض له معروفاً ومجملًا ومعللاً ، ثم يتبع ذلك ببعض الحكايات الواقعية التي شاهدها أو سمع بها ، وكلها تدور حول أندلسيين . وهو يضمن كلامه قطعاً من شعره قد قالها في مثل التجربة أو الظاهرة التي يسوق عنها الحديث .

(١) انظر : طوق الحمامة لابن حزم ص ٢٠١

وقد صدر كتابه ببيان خطته فقال : « وقسمت رسالتي هذه على ثلاثين باباً ، منها في أصول الحب عشرة ، فأولها هذا الباب (مائة الحب) ثم باب في علامات الحب ، ثم باب في ذكر من أحب في النوم ، ثم باب في ذكر من أحب بالوصف ، ثم باب في ذكر من أحب من نظرة واحدة ، ثم باب في ذكر من لا تصح محبته إلا مع المطاولة ، ثم باب التعريض بالقول ، ثم باب الإشارة بالعين ، ثم باب المراسلة ، ثم باب السفير » .

« ومنها في أعراض الحب وصفاته المحمّدة والمذمومة اثنا عشر باباً وهي باب الصديق المساعد ، ثم باب الوصل ، ثم باب طي السر ، ثم باب الكشف والإذاعة ، ثم باب الطاعة ، ثم باب المخالفة ، ثم باب من أحب صفة لم يحب بعدها غيرها مما يخالفها ، ثم باب القنوع ، ثم باب الوفاء ، ثم باب الغدر ، ثم باب الضنى ، ثم باب الموت » .
« ومنها في الآفات الداخلة على الحب ستة أبواب ، وهي : باب العاذل ، ثم باب الرقيب ، ثم باب الواشى . ثم باب الهجر ، ثم باب البين ، ثم باب السلو » .

« ومنها بابان ختمنا بهما الرسالة ، وهما باب الكلام في قبج المعصية ، وباب في فضل التعفف ؛ ليكون خاتمة إيرادنا وآخر كلامنا الحظ على طاعة الله عز وجل ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » (١) .

وليست قيمة طوق الحمامة فيما اشتمل عليه من أفكار عن الحب فحسب ، وإنما قيمته أيضاً في تلك الحكايات الكثيرة التي يرويها ابن حزم ، والتي تكشف الكثير من جوانب الحياة الأندلسية ، وتوقفنا على أسرار حكام ورؤساء ، وترفع الستائر عن بيوت وقصور ، وتنبيه إلى ما كان لصنوف من النساء من نشاط في دنيا المحبين ، كالطبيبة ، والحجامة ، والدلالة ، والمناشطة ، والمغنية ، والمعلمة ، وما إلى ذلك . وهناك قيمتان أخريان للكتاب ، الأولى : اشتماله على كثير من الأخبار التي تلي ضوءاً على حياة ابن حزم نفسه .

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٣ ، ٤ .

والثانية ، تضمنه الكثير من شعره بالإضافة إلى نثره ، فهو عمل ابن حزم الأدبي الأول الذي يداخل به مع النثرين والشعراء المحيدين من أوسع الأبواب .

وبعد ، فهذا نموذج من طوق الحمامة ، وهو من « باب من أحب بالوصف » وفيه يقول ابن حزم :

« ومن غريب أصول العشق أن تقع المحبة بالوصف دون المعاينة وهذا أمر يترقى منه إلى جميع الحب ، فتكون المراسلة والمكاتبة والهلم والوجد والسهر على غير الإبصار ؛ فإن للحكايات ونعت المحاسن ووصف الأخبار تأثيراً في النفس ظاهراً ، وأن تسمع نغمتها من وراء جدار ، فيكون سبباً للحب واشتغال البال . وهذا كله قد وقع لغير ما واحد ، ولكنه عندي بنيان هار على غير أس ، وذلك أن الذي أفرغ ذهنه في هوى من لم ير ، لا يد له إذ يخلو بفكره أن يمثل لنفسه صورة يتوهمها ، وعينا يقيما نصب ضميره لا يتمثل في هاجسه غيرها ، قد مال بوهمه نحوها ؛ فإن وقعت المعاينة يوماً ما ، فحينئذ يتأكد الأمر أو يبطل بالكلية » .

« وكلا الوجهين قد عرض وعُرف ، وأكثر ما يقع هذا في ربات القصور المحجوبات من أهل البيوتات ، مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء في هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن وتمكنه منهن . . . » (١)

وهذا نموذج آخر من الكتاب ، وهو من باب (طى السر) يقول فيه ابن حزم : « من بعض صفات الحب الكتمان باللسان ، ووجود الحب إن سئل ، والتصنع بإظهار الصبر ، وأن يرى أذنه هزاة (٢) خنى . ويأبى السر الدقيق ونار الكلف المتأججة في الضلوع إلا ظهوراً في الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار في الفحم ، والماء في يابس المدر (٣) . وقد

(١) انظر : طوق الحمامة ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) يقال : هو هزاة عن النساء ، إذا لم يردن ورغب عنهن .

(٣) المدر : قطع الطين اليابس .

يمكن التوجه في أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال . وربما يكون السبب في الكتمان تصاون المحب عن أن يسم نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنه يزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفر منه ويتفادى عنه . وما هذا وجه التصحيح ؛ فبحسب المرء المسلم أن يعف عن محارم الله عز وجل ، التي يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة ، وأما استحسان الحسن ، وتمكن المحب ، فطبع لا يؤمر به ولا ينهى عنه ، إذ القلوب بيد مقايها ، ولا يلزمها غير المعرفة والنظر في فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين ؛ وأما المحبة فخلقه ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة . وفي ذلك أقول .

يلوم رجال فيك لم يعرفوا الهوى	وسيان عندى منك لاح وساكت
يقولون : جانب التصون جملة	وأنت عليم بالشريعة قانت
فقلت لهم : هذا الرياء بعينه	صُراحاً وزيّ للمرائين ماقت
متى جاء تحريم الهوى عن محمد	وهل مسنعه في محكم الذكرايات ؟
إذا لم أواقع محرماً أتى به	مجنياً يوم البعث والوجه باهت
فلست أبالي في الهوى قول لأم	سواء لعمرى جاهر أو غفقت
وهل يلزم الإنسان إلا اختياره	وهل بخبايا اللفظ يؤخذ صامت ؟ ؟

« وإني لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا ، فكنّ الوجد بين جوارحه ، مرام جعده ، إلى أن غلظ الأمر ، وعرف ذلك في شأئله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرض ، وكان من عرض له بشيء نجبه^(١) وقبحه ، إلى أن كان من أراد الخطوة لديه من إخوانه يومه تصديقه في إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك . فسر بهذا . ولعهدي به يوماً قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما في ضميره وهو ينتهي غاية الانتفاء ، إذ اجتاز

(١) فبهة : رده أفتح رد .

بهما الشخص الذي كان يتهم بعلاقته . فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه ، حتى اضطرب وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معاني كلامه بعد حسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه ، فقد استدعى ما كان فيه من ذكره ، فقيل له : فما علما عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عذّر من عذر ، وعذّل من عذل . . . (١)

ويلاحظ على ابن حزم كناثر - من خلال الطوق - أنه كان لا يكلف بالصنعة كلف غيره من معاصريه ، فهو يؤثر البساطة على التكلف ، والدقة على الحلية . كذلك يلاحظ أن الثقافة العقلية والدينية كانت تنعكس أحياناً على أسلوبه ، فيورد بعض مصطلحات الفلسفة والمنطق ، ويهتم بالعلل والمقدمات والنتائج ، كما يورد بعض المصطلحات الفقهية أو الدينية على وجه العموم .

ويلاحظ على ابن حزم أخيراً ، أنه من الذين لم يقعوا تحت تأثير طريقة بديع الزمان . أما شعر ابن حزم - من خلال الطوق أيضاً - فيلاحظ عليه أن أغلبه قطع وأبيات ، وهي من الناحية الفنية تتراوح بين الجودة والتوسط . ولغة ابن حزم الشعرية تنعكس عليها أحياناً ثقافته العقلية والدينية ، تماماً كما يحدث في لغته النثرية .

(١) انظر : طوق الحمامة صفحة ١٨ - ١٩ .

مراجع الكتاب

أولاً : المراجع العربية

(أ) المخطوطات

- ١ - الإحاطة في أخبار غرناطة : للسان الدين بن الخطيب (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٥٧٣) .
- ٢ - إعتاب الكتاب : لابن الأبار (مخطوطة بالإسكوريال رقم ١٧٣١) .
- ٣ - ديوان ابن سهل : لإبراهيم بن سهل الإشبيلي (مخطوطة بالإسكوريال رقم ٣٧٩) .
- ٤ - المقتبس : لأبي مروان بن حيان (الجزء الخاص بعبد الرحمن الأوسط . وهو عند الأستاذ ليفي بروفنسال) .

(ب) المطبوعات :

- ١ - ابن حزم « صورة أندلسية » : للدكتور طه الحاجري (مطبعة الاعتماد بالقاهرة) .
- ٢ - ابن عبد ربه وعقده : لجبرائيل جبور (بيروت سنة ١٩٣٣) .
- ٣ - أبو تمام الطائي : للدكتور نجيب البيهسي (القاهرة ١٩٤٥) .
- ٤ - الإحاطة : لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٣١٩ هـ) .
- ٥ - أخبار مجموعة . مؤلف مجهول ، تحقيق لافونقي ألكانترا (مدريد سنة ١٨٦٧) .
- ٦ - أدب الأندلس وتاريخها : للفي بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة (المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٩٥١) .

- ٧ - الإسلام في المغرب والأندلس : لليثى بروفنسال ترجمة الدكتور محمد عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي (نهضة مصر سنة ١٩٥٧) .
- ٨ - أعمال الأعلام : لابن الخطيب ، تحقيق ليثى بروفنسال (بيروت ١٩٥٦) .
- ٩ - بغية الملتمس : لأحمد بن يحيى الضبي نشر المستشرق الإسباني كوديرا (مدريد سنة ١٨٨٤) .
- ١٠ - بغية الوعاة : للسيوطي (القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ) .
- ١١ - بلاغة العرب في الأندلس : للدكتور أحمد ضيف (مطبعة مصر سنة ١٨٢٤) .
- ١٢ - البيان المغرب : لابن عذارى المراكشي ، جزء أول وثان (مطبعة المناهل بيروت سنة ١٩٥٠) .
- وجزء ثالث نشر ليثى بروفنسال (باريس سنة ١٩٣٠) .
- ١٣ - تاريخ افتتاح الأندلس : لابن القوطية ، تحقيق جايانجوس ، نشر ريبيرا (مدريد سنة ١٩٢٦) .
- ١٤ - تاريخ آداب العرب : لمصطفى صادق الرافعي (القاهرة سنة ١٩٤٠) .
- ١٥ - تاريخ الشعر العربي : للدكتور نجيب البهيتي (القاهرة ١٩٥٠) .
- ١٦ - تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس : للحافظ أبي الوليد بن القرضي ، نشر السيد عزت العطار (القاهرة سنة ١٣٧٣ هـ) .
- ١٧ - تاريخ الفكر الأندلسي : لأنخل جونثالث بالنشيا ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس (النهضة المصرية سنة ١٩٥٥) .
- ١٨ - تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني : لزاهد علي (القاهرة سنة ١٩٣٤) .
- ١٩ - التكملة : لابن الأبار ، الجزء الذي نشره كوديرا ضمن المكتبة الأندلسية (مدريد سنة ١٨٨٧ - سنة ١٨٩٠) .

- ٢٠ - جلوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس : لأبي عبد الله بن محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدى ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى (السعادة . مصر سنة ١٩٥٣) .
- ٢١ - جمهرة أنساب العرب : لابن حزم ، تحقيق ليلى بروفنسال (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٤٩) .
- ٢٢ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية : لشكيب أرسلان (المطبعة الرحمانية . القاهرة سنة ١٣٥٥ هـ) .
- ٢٣ - الحلة السيرة : لابن الأبار ، نشر دوزى (طبعة لندن سنة ١٨٥١) .
- ٢٤ - دار الطراز : لابن سناء الملك ، تحقيق الدكتور جودت الركابى (دمشق . سنة ١٩٤٩) .
- ٢٥ - دولة الإسلام في الأندلس : لمحمد عبد الله عنان . العصر الأول (لجنة التأليف : القاهرة سنة ١٣٦٢ هـ)
- ٢٦ - ديوان ابن دراج القسطلى ، تحقيق الدكتور محمود مكى (دمشق ١٩٦١) .
- ٢٧ - ديوان ابن الروى ، تحقيق كامل كيلانى (القاهرة ١٩٤٢) .
- ٢٨ - ديوان ابن المعتز (القاهرة ١٨٩١) .
- ٢٩ - ديوان ابن هانى (بيروت سنة ١٨٨٦) .
- ٣٠ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة : لأبى الحسن على بن بسام ، تحقيق لجنة من كلية آداب جامعة القاهرة . القسم الأول ، المجلد الأول سنة ١٩٣٩ ، المجلد الثانى ١٩٤٢ ، القسم الرابع ، المجلد الأول سنة ١٩٤٥ (لجنة التأليف القاهرة) .
- ٣١ - رسالة التوايع والزوايع . لأبى عامر بن شهيد ، تحقيق وتقديم بطرس البستاني (بيروت سنة ١٩٥١) .
- ٣٢ - رسالة الغفران : لأبى الملاء ، تحقيق الدكتورة بنت الشاطىء (القاهرة سنة ١٩٥٠)

٣٣- الروض المعمار في خبر الأقطار : لعبد المنعم الحميرى . تحقيق لى بروفنسال
(القاهرة سنة ١٩٣٧) .

٣٤- الروضيات : للصنوبرى ، جمع محمد الطباخ (حلب سنة ٣٤١ هـ) .

٣٥- الزجل في الأندلس : للدكتور عبد العزيز الأهوانى (الرسالة . القاهرة سنة ١٩٥٧) .

٣٦- الشرق الإسلامى والحضارة العربية الأندلسية : لى بروفنسال ، ترجمة الفريد
البيستانى (تطوان سنة ١٩٥١) .

٣٧- الشعر الأندلسى : لبحارثيا جومث ، ترجمة حسين مؤنس (لجنة التأليف . القاهرة
القاهرة سنة ١٩٥٢) .

٣٨- الصقالبة فى إسبانيا : للدكتور أحمد مختار العبادى (مدريد ١٩٥٣) .

٣٩- الصلة : لابن بشكوال ، تحقيق السيد عزت العطار (السعادة . سنة ١٩١٥) .

٤٠- طبقات الأطباء : لابن جليل ، تحقيق فؤاد السيد (القاهرة ١٩٥٩) .

٤١- طبقات الأمم : لصاعد التطيلى ، نشر لويس شيخو (بيروت ١٩١٢) .

٤٢- طبقات النحويين : للزبيدى ، تحقيق أبى الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٥٤) .

٤٣- طوق الحمامة فى الألفة والألاف : لأبى محمد على بن حرم ، مكتبة عرفة (دمشق ،
سنة ١٣٤٩ هـ) .

٤٤- ظهر الإسلام : للدكتور أحمد أمين . الجزء الثالث (لجنة التأليف القاهرة سنة
١٩٥٣) .

٤٥- العرب فى إسبانيا : لاستانلى لين بول ، ترجمة على الجارم (دار المعارف . القاهرة
سنة ١٩٤٧) .

٤٦- العقد الفريد : لابن عبد ربه (الشرفية . القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ) .

- ٤٧ - الغفران : لآورة بنت الشاطيء (القاهرة سنة ١٩٥٤) .
- ٤٨ - الفن وما . في الشعر العربي : للدكتور شوقى ضيف (القاهرة ١٩٤٣) .
- ٤٩ - قضاة لبة : لأبى عبد الله الخشنى ، نشر السيد عزت العطار (القاهرة سنة ٣٧٢ هـ) .
- ٥٠ - عيون الأنباء في طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعة (القاهرة سنة ١٨٨٢) .
- ٥١ - ألفاظ مغربية من كتاب ابن هشام اللخمي في لحن العامة . للدكتور عبد العزيز الأهواني (القاهرة ١٩٥٧) .
- ٥١ - اللهجات العربية : للدكتور إبراهيم أنيس (القاهرة . الطبعة الأولى سنة ١٩٤٦) .
- ٥٢ - المطرب من أشعار أهل المغرب : لابن دحية ، تحقيق إبراهيم الإبيارى ، والدكتور حامد عبد المجيد ، والدكتور أحمد بدوى (الأميرية سنة ١٩٥٤) .
- ٥٤ - مطمح الأنفس . للفتح بن خاقان (القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ) .
- ٥٥ - المعجب في تلخيص أخبار المغرب : لعبد الواحد المراكشى (السعادة القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ) .
- ٥٦ - معجم الأدباء : لياقوت (القاهرة سنة ١٩٣٨) .
- ٥٦ - المغرب في حلل المغرب : لعل بن سعيد المغربي ، تحقيق الدكتور شوقى ضيف . الجزء الأول والثانى (دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٥٣ - ١٩٥٥) .
- ٥٨ - المفضليات : للضبي (القاهرة سنة ١٩٦١ هـ) .
- ٥٩ - المقتبس لابن حيان ، تحقيق ملتشور أنطونيا (باريس سنة ١٩٣٧) .
- ٦٠ - المقدمة : لابن خلدون (دار مصطفى محمد - القاهرة) .
- ٦١ - من حديث الشعر والنثر : للدكتور طه حسين (القاهرة ١٩٣٦) .

- ٦٢- النثر الفني في القرن الرابع : للدكتور زكى مبارك (مطبعة دار الكتب المصرية
سنة ١٣٥٢ هـ) .
- ٦٣- النجوم الزاهرة . لابن تغرى بردى (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٣٣) .
- ٦٤- زهرة المشتاق : للإدريسى (طبعة رومة سنة ١٨٨٣) .
- ٦٥- نفع الطيب . ن غصن الأندلس الرطيب : لأحمد المقرئ المغربي (المطبعة
الأزهرية . سنة ١٣٠٢ هـ) .
- ٦٦- وفيات الأعيان : لابن خلكان (القاهرة . سنة ١٣١٠ هـ) .
- ٦٧- يتيمة الدهر : للثعالبي . تحقيق محيى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٣٧٥ - ١٣٨٧ هـ)

ثانياً : المراجع الأوربية

1. Américo Castro : Espana en su Historia. (Buenos Aires 1947).
2. Angel Gonzalez Palencia : Historia de la Espana Musulmana. (Barcelona 1945).
3. Angel Gonzalez Palencia : Historia de la Literatura Arabigo-Espanola. (Barcelona 1945).
4. Claudio Sanchez Al Bornoz : La Espana Musulmana. (Buenos Aires 1946).
5. D. Antonio Ballesteros Beretta : Historia de Espana. (Barcelona 1945).
6. Emilio Garcia Gomez : Poemas Arabigo Andaluces. (Madrid 1943).
7. Emilio Garcia Gomez : Poesia Arabigo Andaluza. (Madrid 1943).
8. E. Levi-Provençal : Espana Musulmana Hasta la Caida del Califato de Cordóba. (Traduccion Espanola por : Emilio Garcia Gomez). (Madrid 1950).
9. Felix M. Pareja : Islamologia. (Madrid 1952-1954).
10. Francisco Pons Biogues : Historiadores y Geografos. Arabigo-Espanoles. (Madrid 1898)
11. Jose M. Millas Vallicrosa : La Poesia Sagrada Hebraico-Espanola. (Espana 1948).
12. Jose Munoz Sendino : La Escala de Mahoma. (Madrid 1949),
13. Julian Ribera y Tarrago : Disertaciones y Opusculos. (Madrid 1928).

14. M. Casiri : Biblioteca Arabico-Hespana Escorialensis.(Madrid 1770).
15. Miguel Asin Palacios: La Escatologia Muslumana en la Divina Comedia. (Madrid 1919).
16. Miguel Asin Palacios : Abenhazam de Cordoba y Su Historia de Las ideas Religiosas. (Madrid 1935).
17. Miguel Asin Palacios: Obras Escogidas. (Madrid 1940).
18. Pedro Aguado Bleye: Historia de Espana. (Madrid 1947).
19. Ramon Menendez Pidal; Poesia Arabe y Poesia Europea. (Buenos Aires 1946).
20. Reinhart P. Dozy. Historia de Los Musulmanes de Espana. (Traduccion Espanola. Buenos Aires).
21. Reinhart P. Dozy. Supplément aux dictionnaires arabes. (Leyde Paris 1927).